

تورغنیف

ثلاث قصص عن الحب



ايفان سرغييفيتش تورغينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) من كبار
الكتاب المشهورين في الادب العالمي خلال السنوات المئة الاخيرة .
احبه انطون تشيخوف الروسي ، ورومان رولان الفرنسي ،
وارنست هيمنغواي الاميركي ، واجتمع على حبه وتقديره كتاب
آخرون من مختلف انحاء العالم ، فما فات احد ان يشير في مؤلفاته
وذكرياته ورسائله الى اعجابه بالفن الباهر الذي امتاز به صاحب هذا
الاسلوب الساحر ! ولا تزال كتبه مقرأوة في العالم كله بمختلف اللغات،
لم يؤثر في نضارتها مرور الزمن . وبين مؤلفات تورغينيف التي نالت
اكثر مقدار من الشهرة ، رواياته المعروفة : «رودين» (١٨٥٥) ،
«عش النبلاء» (١٨٥٨) ، «في العشية» (١٨٥٩) ، «الآباء والبنون»
(١٨٦١) ، «رسائل صياد» (١٨٥٢) وهي مجموعة قصص قصيرة
كانت فاتحة مجده الادبي ، وله ايضا قصص شتى ومنها هذه القصص
الثلاث التي نقدمها الى القراء ، وهي : «آسية» و «الحب الاول»
و «فيوض الربيع» .



تورغينيف ثلاث قصص عن الحب

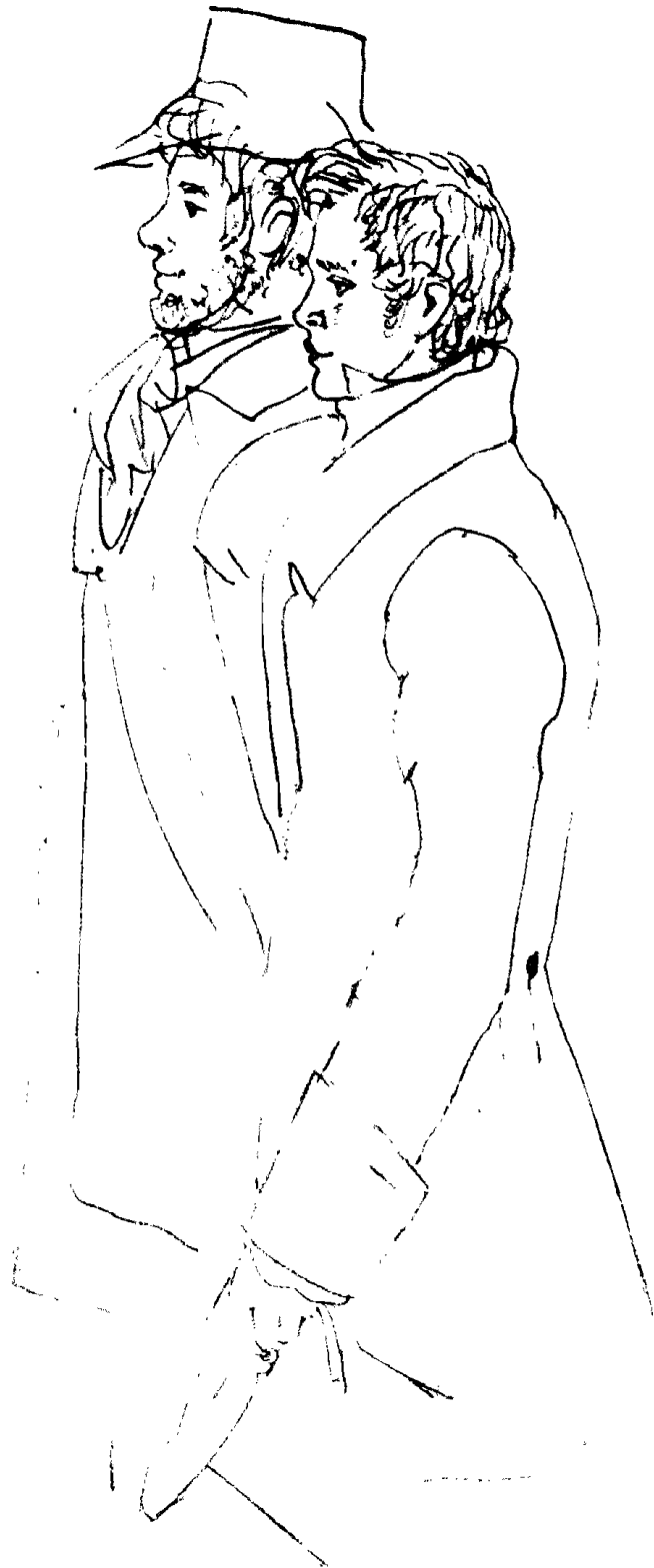


دار التقدم
موسكو

ترجمة مواهب الكيالي
رسوم تاتيانا تولستايا

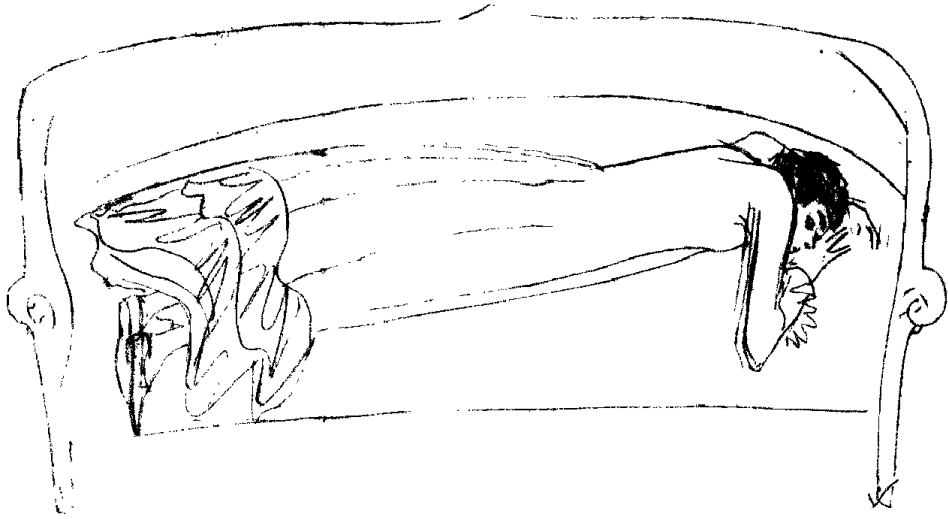
И. ТУРГЕНЕВ
ТРИ ПОВЕСТИ О ЛЮБВИ
На арабском языке

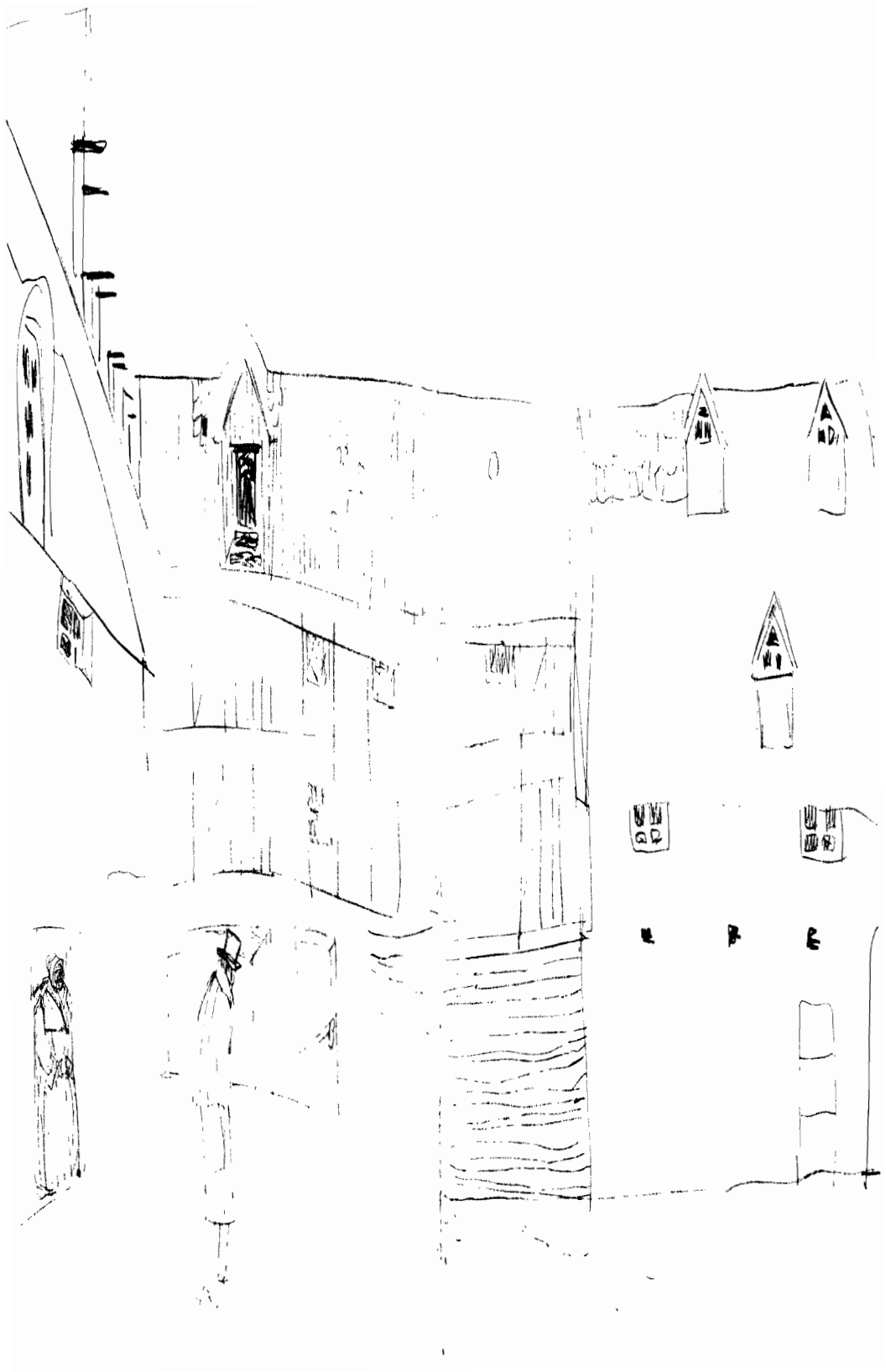
آسیت













بدأ ن . ن . ن . حديثه فقال : كنت وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمري ، فأنت ترى أن ما كان قد عفى عليه الزمان . كنت قد تحررت من قيود الوصاية واعتزمت السفر الى الخارج ، لا من أجل انهاء التحصيل كما كان يقال في ذلك الحين ، وانما بدافع الرغبة في الفرجة على أرض الله الواسعة ، كنت موفور الصحة والشباب ، كثير المال ، خليّ البال ، أعيش ليومي ، وأحقق ما أشتهي ، مجمل القول : كنت أتفتح ولم يخطر لي آنئذ أن الانسان ليس نباتاً وأن ازدهاره لن يدوم طويلاً ، فإن الشباب يأكل الكعك المذهب ويرى أن هذا خبز حياته اليومية ، ثم يأتي وقت ، فإذا بك تتمنى ولو كسرة من الخبز . ولكن ليس هنا بيت القصيد .

كان ترحلي غير مقيد بهدف او خطة ، فكنت أتريث في المكان الذي يطيب لي ، وأغادره الى مكان آخر حينما أستشعر الرغبة في رؤية وجوه جديدة ، فمما كان ليجتذبني الا لوجوه بالذات ، فإن اهتمامي كله قد انصرف الى الناس . كانت نفسي تنبو عن الاماكن التاريخية التي تشير الفضول ،

وتجفو الاوابد الباهرة ، حتى ان سحنة الدليل كانت تشير في نفسي شعوراً بالضيق والنفور ، وقد فز عصبي وأنا في «الغريونه - غيفولبه» * بمدينة درسدن . كانت الطبيعة تترك في نفسي أعمق أثر ، ولكني لم أعلق ما يسمى بمحاسن الطبيعة ، كالجبال الشاهقة والصخور الهائلة والشلالات الفريدة ، فقد كرهت أن تفرض الطبيعة نفسها عليّ وتتحكم في أمري ، أما الوجوه الحية ، الوجوه البشرية ، أحاديث الناس وحركاتهم وضحكاتهم ، فإن هذا ما كان يستعصي عليّ أن استغني عنه . كنت اشعر وأنا في غمار الناس بأني مستخفّ بالنشوة ، مغتبط في أن أسير حيث يسرون وأصرخ حين يصرخون ، كان يشوقني في الوقت نفسه أن أرى اليهم وهم يصرخون ، وأعظم ما يمتعني أن أراقب الناس . . . لم أكن أراقبهم ، بل كنت أفتحصم بشيء من الفضول المنهوم الممراح . ولكن ها أنذا أجنح عن الموضوع من جديد .

واذن فقد كنت أعيش قبل عشرين سنة في مدينة «ز» ، وهي مدينة المانية صغيرة تقوم على الضفة اليسرى من نهر الراين . كنت التمس العزلة بعد اصابة في القلب أحدثتها أرملة شابة التقيتها عند الينايب ، كانت رائعة الجمال ذكية مغناجاً تغازل كل من هب ودب ، ذهبت تشجعني - أنا المارق - أول الامر ، فلما علقتها طعنت قلبي بمسوة ، فهجرتني وذهبت وراء ضابط بافاري أحمر الخدين ، وأعترف بأن الجرح لم يكن عميقاً في قلبي ، ولكن رأيتني مضطراً الى الاستسلام للأسى والعزلة بعض الوقت - وهل من شيء لايتسلى به الشباب ؟ - فنزات على مدينة «ز» .

* معناها بالالمانية «القبه الخضراء» وهو اسم مجموعة من الحلى والمجوهرات الثمينة تضمها القلعة الملكية في مدينة درسدن (المترجم) .

أعجبتني هذه المدينة بموقعها القائم على السفح بين
هضبتين مرتفعتين ، وبأسوارها وقبابها المتداعية ،
وزيزفونها العتيق ، وجسرها المتقنطر على النهر الوضاء الذي
برفد نهر الراين . أسغت على الخصوص نبيذها الطيب .
عند غروب الشمس في الأمسيات (كنا وقتئذ في شهر
حزيران) كانت الالمانيات الشقراوات الجميلات ، يتنزهن في
شوارع المدينة الضيقة ، ويحيين الأجانب بصوت رقيق
ودود قائلات : * «Guten Abend!» كان البعض منهن يمضي
في النزهة الى ما بعد طلوع القمر وارتفاعه من وراء السطوح
الحادة التي تظل البيوت العتيقة ، وانعكاس ضوءه في مايرز
من دقائق الحجر المنتثر على أرض الشارع . عندئذ كان يطيب
لي أن أطوف على أنحاء المدينة ، والقمر يبدو كأنه يتأملها
من سمائه الصافية ، والمدينة تشعر بهذه النظرة فتتصدى
أها في هدوء ، وتغرق في ضوءه الذي يأخذها من كل جانب ،
ذلك الضوء الرقيق الذي تهدأ له النفس وتضطرب في آن .
والديك الذهبي فوق الابراج القوطية القديمة المستدقة في
أعلى يتألق بلونه المذهب الشاحب ، ومثل هذا اللون المذهب
ينتشر على صفحة النهر السوداء ، والشموع النحيلة (فان
الالمان معروفون بالحرص) تتوقد بتواضع في النوافذ
الضيقة تحت السقوف القرميدية ، وتبرز من وراء الاسوار
الحجرية بطريقة مستخفية فروع الكرمة بذوائبها الملتوية ،
وطيف غامض يمرق في الظل قرب البئر القديمة القائمة في
الساحة المثثة الاطراف ، وتقطع السكون على حين غرة
صفرة ناعسة من حارس ليل ، ونبحة خافتة من كلب مسالم ،
والهواء يجمش الوجوه ، وأشجار الزيزفون يضوع منها
أريج عذب يغري الصدور بأن تعب منه حتى الامتلاء ،
وكلمة « غريتهين » تتردد على الشفاه في الأخذ والرد بين
البادئين بالتحية وبين من يردونها .

* بالالمانية : مساء الخير ! (المتزجم) .

تقع مدينة «ز» على مسافة فرسخين من نهر الراين ، كنت في أكثر الاحيان أمشي للتمتع بمرأى هذا النهر الجليل وانا متوفز الخاطر أفكر في الارملة الغادرة ، فأقضي الساعات الطويلة جالسا على مسطبة حجرية في ظل سديانة ضخمة منعزلة ، من خلال أغصانها كان تمثال صغير للعدراء له وجه طفلي ترنو في أسى وعلى صدرها قلب في لون الدم غرزت فيه سيوف . على الضفة المقابلة تقع مدينة «ل» ، وهي اكبر قليلا من المدينة التي نزلت فيها . كنت أجلس في احدى الامسيات على مسطبتي الاثيرة أسرح بصري في ابعاد النهر ومراقي السماء او في حقول الكرمة ، وأمامي كان صبيان شقر يتسلقون جوانب زورق مسحوب على الشاطئ مقلوب على جوفه المطلي بالزفت . والمراكب الصغيرة تنساب في هدوء وقد نشرت أشرعة مسترخية ، والامواج الخضر تتدافع وتتواثب قليلا وهي تضوضى في خفوت ؛ وفجأة بلغت سمعي أنغام موسيقية . اصغيت ، فتبينت أنها موسيقى فالس تعزف في مدينة «ل» ، كان البوق الجهير يزفر في ايقاع متقطع ، والكمان يثن بنغمات غامضة ، والناي يصفر في مرج ، فسألت شيخاً كان مقبلا علي ، في صدار من المخمل ، وجوربين طويلين أزرقين ، وخفين مزينين بقفل :

— ماذا هناك ؟

فأجاب وهو ينقل غليونه من زاوية فمه الى اخرى :

— انهم الطلبة أقبلوا من مدينة «ب» ليقيموا احتفال

«الكوميرش» .

فقلت في نفسي : «أريد ان أرى هذه الحفلة ، ثم اني لم أزر مدينة «ل» من قبل» . وذهبت أبحث حتى صادفت صاحب زورق حملني الى الضفة المقابلة .

قد يكون هناك من لا يعرف شيئاً عن هذا الاحتفال . انه نوع خاص من الاعياد المهيبه ، يجتمع فيها طلبة مقاطعة

واحدة او رابطة واحدة ، ويرتدي اكثر المشتركين في الاحتفال زي الطلبة الالمان التقليدي ، وهو سترة على الطراز المجري ، وحذاء عال ، وقبعة صغيرة مزينة بشريط له لون خاص . ويجتمعون كالعادة على مائدة غداء يرعاها اكبرهم سناً ويسمونه «السينيور» ، ويمضون حتى الصباح في أكل وشرب وتدخين وفي انشاد أغاني الطلبة وإلقاء الخطب الهجائية التي يسخرون فيها من المتزمتين ، وقد يستأجرون فرقة موسيقية لهذه المناسبة .

كان احتفال «الكوميرش» يجري على هذه الصورة نفسها في مدينة «ل» . فقد أقيم في حديقة تطل على الشارع أمام فندق صغير يسمى «فندق الشمس» . فارتفعت الاعلام فوق الفندق وفي الحديقة ، وتحلّق الطلبة حول موائد صفت تحت زبفونات مشدبة الاغصان ، وألقى كلب ضخّم تحت احدى هذه الموائد ، وأخذ افراد الفرقة الموسيقية مكانهم تحت دريشة لبلاب قائمة في طرف الحديقة ، وراحوا يعزفون بالآلات الموسيقية في اجتهاد ويجددون القوة بين الحين والآخر بجرعات من البيرة . واحتشد في الشارع قرب سياج الحديقة الواطى جمع غفير من الناس . فقد شاء سكان مدينة «ل» الاطياب ألا تفوتهم هذه الفرصة السانحة فجاءوا يمتعون النظر بمرأى ضيفان بلدتهم . فانضمت ايضاً الى جمهور المتفرجين . وكان الطرب يستخفني وانا أرى الى وجوه هؤلاء الطلبة ، فان ما يتبادلونه من العناق ، وما يطلقونه من الصيحات ، وما يتظاهرون به من الزهو البريء الذي ينتفخ به عود الشباب ، وما أراه من نظراتهم المتوقدة وضحكهم الذي يرسلونه دون سبب — وهو أمتع ضحك في الحياة — وهذا الغليان الممرح في حياة الشباب الطري ، وهذا الاندفاع ابدأ الى امام — في أي سبيل على ان يتجه الى الامام فقط — وهذه الآفاق المفعمة بالطيبة ، كل ذلك أثر في نفسي وألهبني حتى لقد ساءلت نفسي : «ألا من سبيل الى مشاركتهم بما هم فيه ؟» .

وفجأة سمعت صوت رجل يقول من ورائي
بالروسية :

– أما اكتفيت من المشاهدة يا آسية ؟

فأجاب صوت فتاة باللغة نفسها :

– لتتريث قليلا .

فاستدرت برأسي في سرعة . . . فوق بصري على
شاب حسن الوجه ، في سترة عريضة ، على رأسه
كاسكيت ، يتأبط ذراع فتاة ربعة القامة يختفي
الجزء الأعلى من وجهها بقبعتها المصنوعة من
القش .

– أنتم روس ؟

انزلق هذا السؤال من لساني على الرغم مني ، فابتسم

الشاب وقال :

– أجل ، نحن روس .

فقلت لآخذ باطراف الحديث :

– ما كنت لأتوقع . . . في هذا المكان النائي .

فقاطعني قائلا :

– ونحن أيضاً لم نتوقع . لا بأس ، فانها فرصة طيبة .

اسمح لي بأن أقدم اليك نفسي : اسمي غاغبين ، وهذه . . .

وتوقف لحظة ثم قال : – انها اختي ، فما اسمك اذا

سمحت ؟

ذكرت له اسمي ، ثم ولجنا باب الحديث . فعرفت أن

غاغبين مثلي يلتمس المتعة في الترحال ، وأنه حل بمدينة

«ل» منذ اسبوع فعلقها . ولم اكن – والحق يقال – لأستشعر

رغبة في التعرف الى مواطنيّ الروس في المغترب . كنت أستطيع

ان أميزهم حتى من بعيد ، بمشيتهم وهندامهم وبتعبير وجوههم

على الخصوص ، وهو ينطق بالاعتداد والكبرياء ، وبالسلطان

في الاغلب . ولكن هذا يتحول فجأة فيفصح التعبير عن الحذر

والتهيب . . . فاذا المرء منهم نهب للقلق ، تتلفت عيناه

بحركات المستريب . . . فكأن نظرتة السريعة تقول : « آه

يا رب ! لعلي استغفلت ، هل كانوا يضحكون مني ؟» . . .
ولا تمر لحظة حتى تكون الملامح قد عادت الى وقارها ، غير
دهشة جوفاء تشوبها بين حين وآخر . أجل ، كنت أتجنب
صحبة الروس ، ولكن غاغبين أعجبني في الحال ، فهناك وجوه
محظوظة يحب كل امرئ ان يطيل النظر فيها ، فكانها
تدفئك وتلاطفك ، وكان وجه غاغبين منها ، فهو مليح ودود ،
بعينين واسعتين وديعتين ، وشعر ناعم متموج . فاذا تكلم
شعرت من نبرات صوته ، دون ان ترى وجهه ، بانه
يبتسم .

أما الفتاة التي قال إنها أخته ، فقد بدت لي منذ النظرة
الاولى رائعة الجمال ، كان في قسامتها تفرّد فذ ، وبخاصة
في وجهها المستدير المشرب بسمرة خفيفة ، وفي أنفها الصغير
الدقيق ، وخديها الشبيهين بخدود الاطفال ، وعينيها
السوداوين المتألفتين ، وقوامها الفارع المتناسق ، ولكنها
الى هذا لم تكن تبدو مكتملة النضج ، ولم تكن لتشبه اخاها
في شيء .

وقال غاغبين يخاطبني :

— هل ترغب في أن تزورنا ؟ يخيل الي أننا تمتعنا حتى
شبعنا من النظر الى الالمان . انهم اكثر تواضعاً مما ينبغي ،
ولو كانت جماعتنا في مكانهم لكسروا الزجاج وحطموا
الكراسي . ما رأيك يا آسية ، أما آن لنا أن نمشي الى
البيت ؟

فوافقت الفتاة بايماءة من رأسها ، فأضاف غاغبين :

— اننا نقيم في بيت منعزل وراء المدينة ينهض فوق
مرتفع تحيط به أشجار الكرمة ، كل ما حولنا خلاب ، وقد
عدت ربة البيت بان تهيب لنا بعض اللبن الرائب ، ثم ان
الظلام سيخيم بعد قليل ، فالأحسن لك ان تنتظر حتى يطلع
القمر لتعبر النهر في ضوءه .

وأخذنا طريقنا حتى خرجنا الى الحقول عبر بوابات
المدينة الواطئة (كانت المدينة محاطة من كل جهاتها بسور

قديم من الصخر ولا تزال تحتفظ ببعض الكوى الحربية)
بعد أن سرنا مئة خطوة على طول السور الحجري ، توقفنا
أمام باب ضيق ، ففتحه غاغين ومشى بنا في درب مصعدة
حادة تقود الى الجبل . كانت أشجار الكرمة قائمة على
الجانبين ، والشمس قد غربت في تلك اللحظة ، وتركت
وراءها خيطاً قانئاً رقيقاً من نور الشمس انسكب على عناقيد
العنب وتيجان الازهار العالية وعلى الارض الجافة التي
انتثرت عايتها حجارة من الكلس متفاوتة في الحجم وعلى الجدار
الأبيض من بيت صغير ذي دعائم سوداء مائلة وأربع نوافذ
مصاعة كان يقوم في أعلى الجبل الذي نصعد فيه .

وصاح غاغين حينما اقتربنا من البيت الصغير :

— هذا هو منزلنا ! وتلك ربة البيت تحمل اللبن .
*Guten Abend, Madame! سنتناول الطعام الآن ، ولكن
هتبع البصر فيما حولك اولاً — اضاف غاغين — فهل رأيت أمتع
وأروع ؟

كان المنظر رائعاً في الواقع ، فأن نهر الراين يمتد تحت
أبصارنا شريطاً من الفضة بين شاطئين أخضرين ، ويتوهج
في ناحية منه بحمرة قانئة ؛ كشفت المدينة التي ركنت الى
احضان الشاطىء عن بيوتها وشوارعها جميعاً ، وامتدت
التلال والحقول على مدى بعيد . كان المنظر من تحتنا بديعاً ،
ولكنه في أعلى ابداع ، وأشد ما استأسر اعجابى صفاء السماء
وعمقها ، وهذا الشفاف المضيء في الجو . كان الهواء النقي
اللطيف يرتعش في وداعة وينساب في موجات هادئة فكأنه
وجد منطلقه الرحيب في هذا المرتفع .

وهمست قائلاً :

— لقد أحسنت اختيار موقع سكنك .

فأجاب غاغين :

— انها آسية التي اختارته .

* مساء الخير ياسيدتي (بالالمانية).

وأضاف :

— هلمّي يا آسية أصدري أمرك بأن يحمل الطعام الى هنا فنتناول العشاء في الهواء الطلق ونسمع الموسيقى من مكاننا على نحو اوضح . . .

واستطرد يوجه الحديث اليّ :

— هل لاحظت أن الفالس يبدو لك تافهاً مبتذل النغمات وأنت تسمعه من قريب ، ولكنه يغدو رائعاً وهو يترامى من بعيد ، ويهز في أعماقك أوتار العاطفة .

توجهت آسية الى البيت (اسمها الحقيقي أنا ولكن غاغبين كان يناديها آسية ، وأستأذنتكم في أن أدعوها بهذا الاسم) وما لبثت أن عادت ومعها ربة الدار ، وبينهما طبق كبير تعاونتا على حمله ، فوقه وعاء لبن وخبز وفاكهة وسكر وصحون وملاعق . جلسنا الى العشاء ، وخلعت آسية قبعتها ، كان شعرها الاسود مشذبا ممشطاً كشعر صبي ، فاذا به يتهدل في جدائل كثيفة على عنقها وأذنيها . كانت تتهيبني أول الامر ، ولكن غاغبين قال لها :

— كفاك انطواء يا آسية فانه لا يعرض .

فابتسمت الفتاة ، وما لبثت بعد وقت قصير حتى بدأتني هي بالحديث . لا اذكر انني رأيت مخلوقاً يشبهها في كثرة الحركة ، فما كانت تستقر في مجلس ولو لحظة واحدة ، فهي قائمة قاعدة مسرعة الى البيت او عائدة منه . وقد تغني بصوت خفيض او تضحك على نحو غريب ، فكأنها تضحك لما يخطر لها من الافكار لا لما تسمعه من الحديث . كانت عيناها الواسعتان ترسلان نظرات مستقيمة فيها صراحة وجرأة ، ولكن جفونها كانت تنضم بين الحين والآخر فتصبح نظراتها عميقة وديعة .

استمر الحديث بيننا ساعتين . كان ضوء النهار قد انطفأ منذ وقت بعيد ، وذاب المساء في حنايا الليل ، زحف في أوله متوهجاً كاللهب ، ثم صار الى حمرة قانئة صافية ، وما لبث حتى شحب واعتكر . ومضى حديثنا سمحاً هادئاً

كالجو المحيط بنا . طلب لنا غاغين زجاجة من نبيذ « الراين »
ترشّفنا خمرتها في تمهل ، ولم ينقطع صوت الموسيقى خلال
ذلك ، ولكنه على ما خيل اليّنا أصبح أرق وأعذب ، وتلألأت
الانوار في المدينة وفوق النهر . أطرقت آسية فجأة برأسها
فسقطت خصلات من شعرها على عينيها ، وأمسكت عن الحديث
وتنهدت ، ثم قالت انها راغبة في النوم ، وقامت تسعى نحو
البيت ، ولكني رأيتها تقف وراء نافذتها المغلقة دون أن توقد
الشموع ، وبقيت في وقفها وقتاً طويلاً . ثم طلع القمر ، وأخذ
ضوؤه يداعب وجه الراين ، فضاءت أشياء وتعتمت أشياء ،
وطرأ عليها التبدل ، حتى ان ثمالة كؤوسنا كانت تتألق بوميض
خفي . وسكنت حركة الانسام ، فكأنها الطير قد طوت اجنحتها
وتجمدت ، وانبعث من الارض دفء مسائي عاطر . فهتفت
قائلاً :

— حان وقت العودة الى البيت ، وقد لا اجد نوتياً
ينقلني .

فردد غاغين :

— حان الوقت .

وسلكنا درباً ضيقاً في هبوطنا . وفجأة تدرجت الحجاره
من ورائنا . كانت آسية تجري في إثرنا .
سألها أخوها :

— أما كنت نائمة ؟

ولكنها جاوزتنا دون أن تجيب بكلمة . كانت بقايا شاحبة
من النار التي أوقدها الطلبة في حديقة الفندق تضيء أوراق
الاشجار من أسفل وتضفي عليها رونقاً وسحراً . وجدنا
آسية على الشاطئ ، كانت تتحدث الى نوتي ، فقفزت الى
الزورق وأنا أودع صديقيّ الجديدين ، ووعدي غاغين بان
يزورني في الغد ، فشددت على يده ، ثم مددت يدي الى
آسية ، فرفضت بايماءة من رأسها وهي تنظر اليّ . واندفع
القارب في مجرى النهر السريع ، وضرب النوتي — وهو شيخ
نشيط الحركة — مجذافيه في الماء الداكن بقوة .

وصرخت آسيية :

— أتك صدمت عمود القمر ، فجعلته حطاماً .
تحول بصري الى اللجة . كانت الامواج تتدافع حول
القارب مربرة سوداء .

وعاد صوت آسيية يدوي :
— وداعاً .

فصاح غاغبين في أثرها :
— الى الغد .

توقف القارب فقفزت منه الى الارض وانا انظر الى
الوراء ، كان الشاطئ المقابل خالياً ، وعاد عمود القمر يمد
جسراً من الذهب عبر النهر كله . وبلغت سمعي نغمات فالس
قديم من وضع لاثير* فكأنها تودعني . كان غاغبين على حق
فأن اوتار قلبي جميعاً قد ارتعشت تجاوباً مع تلك النغمات
المبتهلة المسترحمة .

أتخذت سبيلي الى البيت عبر الحقول المظلمة وانا أترشف
الهواء المشبع بعبير الازهار ، ثم بلغت غرفتي وملء نفسي
احساس شفاف بهذا الارهاق العذب التي عانيته من الحاح
أمنيات لا نهاية لها ولا هدف . شعرت بانني سعيد ... ولكن
مهم هذه السعادة ؟ لم أكن راغباً في شيء ولا مفكراً في
شيء ... كنت سعيداً .

استلقيت على السرير وأنا أكاد أستغرق في الضحك طرباً
لهذا الفيض من الاحاسيس اللذيذة الممرح الذي يملأ نفسي ،
وتذكرت حين أخذ النعاس يشغل اجفاني أن ذكرى الارملة
الحسنة القاسية لم تخطر على بالي ولو مرة واحدة طوال
هذا المساء ... فسألت نفسي : « ما معنى هذا يا ترى ؟
هل فرغت من حبها ؟ » . ويبدو أنني غرقت في النوم بعد هذا
السؤال ، فرقدت كأنني طفل في مهد .

* مؤلف موسيقي نمساوي (١٨٠١ - ١٨٤٣) . (المترجم) .

في الصباح (كنت قد استيقظت ولكني لم أبرح من فراشي) سمعت دقات عصا قرب نافذتي ، وصوتاً عرفت في الحال أنه صوت غاغن ، وكان ينشد هذه الاغنية :

انت نائم ؟

اذن ساوذك بقيثارتي ...

أسرعت أفتح له الباب . فحياني غاغن وهو يدخل وقال :
— ازعجتك في هذا الوقت الباكر ، ولكن انظر فما أجمل هذا الصباح . فهو طراوة ونداوة وتغريد طير ...
كان غاغن يبدو طرياً كالصباح بشعره المتموج اللامع وعنقه العاري وخديه الورديين .

ارتديت ملابسني وخرجنا الى الحديقة حيث جلسنا في مقعد هناك ، طلبت قهوة ، وأخذنا في الحديث ، فأخبرني عما أعده من الخطط للمستقبل : انه يملك من الثراء ما يكفيه ، ولا يلزمه أحد بشيء فاعتزم وهو في هذا الوضع المؤاتي ان يرصد حياته لفن الرسم ، انه لا يأسف الا على الوقت الطويل الذي أضاعه هباء قبل أن يستقر على هذا العزم . أفضيت اليه بما كنت اترسم لحياتي ، وكشفت له بالمناسبة سر غرامي البائر ، فكان ينصت الي في اشفاق ، ولكني لحظت بقدر ما أستطيع ان ألحظ ، أن لواعجى لم تثر فيه عطفاً فعلياً ، فبعد أن تأوه في إثري مرتين من باب المجاملة ، اقترح ان أذهب معه الى بيته لأشاهد رسومه التمهيدية ، فقبلت دعوته في الحال .

لم تكن آسية في البيت ، أنباتنا ربة الدار بانها ذهبت الى « الاطلال » ، وهي بقايا قصر من عصر الاقطاع تبعد فرسخين عن مدينة « ل » . عرض غاغن علي كل لوحاته ، وكان في رسومه التمهيدية كثير من الحياة والحقيقة ، لم تكن تخلو من الانطلاق وسعة الافق ، ولكنه لم يستتم أي لوحة منها ، وتبينت ان صنعته الفنية خالية من الاعتناء

والاصول ، وقد اعلنته رأبي في صراحة ، فأجاب وهو يتنهد :
— نعم نعم ، انك على حق ، فكل هذا خربشة غير
ناضجة ، ولكن ما العمل ، فأني لم أتلق دراسة جدية ، ثم
ان هذه الفوضى اللعينة التي تطبع «السلاف» قد أخذتني
بأخذها ، فانك تحلق كالصقر حينما تتصور ما ستقوم به
من عمل ، وتشعر بانك قادر على ان تزحزح الارض من
مدارها ، ولكنك تتحول عند التنفيذ الى امرى موهون
العزيمة بارد الهمة .

هممت بأن أحدثه بما يبعث الشجاعة والثقة في نفسه
ولكنه صدني بإشارة من يده ، وجمع لوحاته بين يديه والقي
بها على السرير ، وهمهم من خلال اسنانه :

— لئن كفاني ما عندي من الصبر والمثابرة فسأصل الى شيء
يذكر في حياتي ، واذا كان دون الكفاية فسأبقى عرقاً جاهلاً
بين النبلاء . هلم بنا نذهب ، فخير لنا ان نبحث عن آسية .
وغادرنا المنزل .

٤

يمتد الطريق المؤدي الى «الاطلال» على منحدر واد
ضيق ظليل ، في قاعه نهر صغير يجري متوثباً صاخباً بين
الصخور ، فكأنه يتعجل موعد امتزاجه بالنهر الكبير الذي
يتلألأ في هدوء وراء حاجز قاتم من صخور جبلية حادة
الانحدار . كان غاغبين يلفت نظري الى بعض الاماكن التي
ضاعت بالنور على نحو باهر . لم يكن في صوته حديث رسام
بل روح فنان أصيل . ثم ظهرت لنا «الاطلال» وهي برج
أسود ، مربع الاطراف ، يقوم على رأس صخرة هائلة
جرداء ، مصدوع بشق في الطول ، كأنما قُطع قطعاً
عمودياً ، ولكنه بقي ثابت الاركان . كانت الجدران المتصلة
بالبرج يغطيها الطحلب ويتسلقها اللبلاب في بعض نواحيها ،
والاشجار تميل بجذوعها وتطل الى أسفل من خلال الكوى

القديمة الشيباء والقنب المتهافتة . وهناك درب ضيق
مرصوف بالحجر يقود الى بوابة البرج ، وقد بقى لهذه
البوابة مظهرها فلم يؤثر فيه مرور الزمن . كنا قد اقتربنا
منها حين مرق أمامنا قوام امرأة ، جعلت تنتقل بين حطام
الحجارة في سرعة ، ثم توقفت على طرف ناتئ في السور عند
موضع يشرف على الهاوية ، فهتف غاغين :
— انها آسية ، يالها مجنونة !

اجتازنا البوابة وصرنا الى ساحة غير واسعة تغطي جزءاً
منها اشجار التفاح البرى والقراص . كانت آسية هناك فعلا
نجلس على الطنف ، التفتت الينا بوجهها وضحكت دون ان
تتحرك من مكانها ، فلوح لها غاغين باصبعه مؤنبا على حين
صرخت بها أرميها بالطيش ، فهمس الي غاغين قائلاً :
— احذر أن تغيظها فانت لا تعرف طبيعتها . انها قد لا
تتردد في ان تتسلق البرج ايضاً ، خير لك أن تراقب دهاء
الناس هنا وتطريه .

فأدرت بصري فيما حولي . فاذا عجوز تجلس في ركن
كشك صغير تحوك الجوارب وتخالسنا النظر من زاوية
نظارتها ، كانت تبيع من السائحين البيرة والكعك المحلى والماء
المعدنى . جلسنا في مقعد وأخذنا نشرب البيرة ، وكانت باردة
قليلاً ، في أكواب ثقيلة من القصدير . أما آسية فقد بقيت في
مكانها جالسة القرفصاء دون حركة وعلى رأسها عصابة
رقيقة ؛ كان هيكلها الرشيق يرتسم واضحاً جميلاً في السماء
الصافية ؛ ولكني كنت أرامقها بين الحين والآخر بعين النفور .
فقد لحظت من قبل ان فيها شيئاً من التوتر والجموح ، ولم
يكن طبيعياً هذا الشيء ، وقلت لنفسى : « انها تريد ان تثير
فينا الدهشة ، فعلام ذلك ؟ وفيم هذا العبث الطفولي ؟ » .
وكانما حزرت ما كنت أفكر فيه فأرسلت نحوي نظرة سريعة
نفاذة ، وعادت تضحك ثم قفزت من السور قفزتين ،
واقتربت من العجوز تطلب منها كأساً من الماء ، وقالت
تخاطب أخاها :

— أظن اني راغبة في الشرب ؟ لا ، فهناك أزهار على الجدران ، ولا بد ان أرويها بالماء .

لم يجب غاغبين بكلمة ، وعادت ترتقي الاطلاع وفي يدها كأس الماء ، فكانت تتوقف هنا وهناك ، وتنحني باهتمام طريف لتسكب بضع قطرات من الماء تتألق في ضوء الشمس . كانت حركاتها لطيفة جذابة ، ولكن حنقي عليها لم يتبدد ، غير اني لم استطع ان أصرف بصري عن النظر باعجاب الى رشاقتها ومهارتها . في منزلق خطر أطلقت صيحة اصطنعت فيها الخوف ، ثم استغرقت في الضحك . . . فزاد حنقي منها . تمتعت العجوز من أنفها وهي ترفع نظرها عن الجورب الذي تحوكه :

— انها تتسلق كالعنزة .

وعادت الينا اخيراً بعد ان أفرغت كأسها وهي تتمايل في دلع ، وابتسامة غريبة ساخرة تترقص في حاجبيها وأنفها وشفتيها ؛ وقفت تخزنا بعينيها الغامقتين في شيء من انتحدي والمرح ، وكأن قسمات وجهها تقول لي : « انك تعدّ سلوكي فجأ بعيداً عن التهذيب ، ولكني اعرف انك تطيل النظر اليّ في اعجاب » .

وخاطبها أخوها بصوت خفيض :

— مرحى لك يا آسية ، مرحى .

ويبدو أنها شعرت بالخجل ، فقد استرخت اهدابها الطويلة ، وجلست الينا في استكانة المذنب . فاستطعت هنا اول مرة ان امعن النظر في وجهها الذي لم أر له شبيهاً في سرعة التقلب . ففي لحظات قصار كان الشحوب يغطيه جميعاً ، ثم يكتسى بتعبير من التفكير يميل الى الأسى ؛ وتبدو قسماتها ذاتها أكبر وأبسط وأحزم . ولم تلبث ان ركنت الى الهدوء والرزانة . قمنا نطوف بالاطلال (وفي إثرنا تسير آسية) وتمتعنا بما حولنا من منظر . كان موعد الغداء يقترب ، فطلب غاغبين كوباً آخر من البيرة وهو يدفع الحساب للمرأة العجوز ، والتفت يقول لي بلهجة احتفالية ماكرة :

— في صحة سيدة قلبك وسالبة لبك !

ففاجأتنا آسية بسؤالها :

— ولكن هل عنده ؟ .. هل عندك سيدة من هذا الطرز ؟

فقاطعها غاغين :

— منذا الذي يخلو أمره من مثل هذا ؟

أطرقت آسية لحظة ، وقد تغيرت اساريرها ، وعادت ترتسم في وجهها ابتسامة جريئة تنطق بالتحدي والسخرية . زادت آسية في صخبها ودلعتها ونحن في طريق العودة ، قطعت من احدى الاشجار غصناً طويلاً وضعتته على كتفها كما توضع البندقية وشدت العصا التي تعصب بها رأسها . وأذكر أننا التقينا وقتئذ أسرة كثيرة العدد من الانكليز الشقر المحافظين ، فكانوا يشيعونها كل بدوره — كأنهم ينفذون أمراً صدر اليهم — بدهشة باردة ترتسم في عيونهم الزجاجية ، فما كان منها الا أن رفعت عقيرتها بالغناء نكايه لهم عن هذا التزمت . حينما وصلنا الى البيت احتجبت آسية في غرفتها ولم تظهر الا وقت الغداء ، فأقبلت في أجمل ثوب وأحسن زينة ، ممشطة الشعر ، مشدودة الخصر ، في كفيها قفازان . أخذت اثناء الأكل بأداب المائدة ، فتناولت الطعام بما لا يزيد عن اللمس ، ومست الماء في طرف الكأس . كان واضحاً أنها أرادت أن تلعب امامي دوراً جديداً وهو دور الست المؤدبة المهدبة . لم يزرها غاغين . فما خفي عني انه اعتاد ان يفض النظر عن نزواتها جميعاً ، كان يكتفي كلما التقت نظرانا بأن يرفع احدى كتفيه كأنه يريد أن يقول : « خذها بحلمك فأنها لا تزال طفلة » . عقب الانتهاء من الغداء ، نهضت آسية ، وحيث بالانحناء ، واستأذنت غاغين وهي تتناول قبعتها في زيارة السيدة لويزة .

فأجاب غاغين :

— ومتى كنت تستأذنين في مثل هذا ؟

اضاف وقد شاع في ابتسامته الدائمة شيء من الارتباك :

— أتشعرين بالسأم في مجلسنا ؟

— لا ، ولكني وعدت السيدة لويزة بزيارة . واحسب ان من الافضل لكما أن تكونا اثنتين لا ثالث بينكما ، وقد يستطيع السيد «ن» عندئذ (واشارت اليّ) ان يحدثك بشيء .

وذهبت في سبيلها .

بدأ غاغين حديثه وهو يتحاشى نظراتي فقال :

— السيدة لويزة أرملة رئيس بلدية سابق في هذه المنطقة ، وهي عجوز طيبة ولكنها فارغة ، أحببت آسية حباً جماً ، وآسية تميل الى التعارف بأناس أدنى منها منزلة ؛ ويتأتى هذا عن الزهو على ما لحظت ، ولعلك رأيت انها مدللة كثيراً .

وأضاف بعد لحظة من الصمت :

— لا حيلة لي في هذا ، فأني لا أعرف كيف أوأخذ الناس ولا سيما آسية ، وأراني ملزماً بان أتسامح معها .

لزمت الصمت ، ووجه غاغين الحديث في مجرى آخر ، كنت أزداد اعتلاقاً به كلما تعمقت امره . وما أسرع ما فهمت طبعه . فقد كان له ذلك الطبع الروسي الاصيل المجدول على الصدق والنبيل والبساطة ، ولكنه للأسف على شيء من فتور الهممة ، مع افتقار الى العزيمة والحماسة ، لم تكن روح الشباب تنبثق منه كالينبوع بل كان يشع بضوء هادىء . كان غاغين موفور الذكاء والدماثة ، ولكني لا أستطيع ان أتصور ما سيكون من أمره حين تنضج به السن . أما أن يصبح رساماً فإن تحقيق هذه الامنية يحتاج الى عمل مرّ ودأب متصل .

ومن دون هذا لن يصبح رساماً واما عن العمل ، فكرت وانا أتأمل في قسماته الرقيقة وأستمع الى حديثه الرتيب : فلا ، انك لن تبادر الى عمل ، لن تقدر على الارتباط به والانضباط فيه ، ومع هذا لم أملك الاّ أن أحب غاغين : فقد مال قلبي اليه ، فقضينا اربع ساعات مع بعضنا البعض جالسين على الاريقة او سائرين امام الدار في بطاء ، وامتزج

الود بيننا في خلال هذه الساعات .
غربت الشمس وحان وقت عودتي الى البيت ، ولم تكن
آسية قد عادت بعد ، فقال غاغب :
- يا لها من سائبة عنيدة ! أترى ان أمضي معك ،
وسنعدل في طريقنا الى بيت السيدة لوزة فلعل آسية لا تزال
هناك ، ان بيتها ليس بعيداً .

انحدرنا نحو المدينة ، وبعد ان مررنا بزقاق ضيق
متعرج ، وقفنا أمام بناية يبلغ عرضها نافذتين وارتفاعها
أربعة طوابق ، وقد برز طابقها الثاني الى الشارع بما يزيد
عن الاول ، وتجاوزه الطابقان الثالث والرابع ؛ فكانت البناية
على العموم بتخاريمها الخشبية البالية ، وبالعمودين الضخمين
الذين يسندانها من أسفل ، وسقفها القرميدي الحاد ،
ومرفاع بئرها النائي من تحت السقف كالمنقار - تشبهه
طائراً ضخماً أحذب .

صاح غاغب ينادي :

- آسية ! أنت هنا ؟

سمعنا صرير نافذة مضيئة في الطابق الثالث ، وانفتحت
النافذة فرأينا رأس آسية يطل علينا بشعره القاتم ويمتد من
ورائه رأس الالمانية العجوز بفمها الأهمم وعينيها
العشواوين .

قالت آسية وهي تسند يدها بغنجان على حافة النافذة :
- هانذا ، واني لمغتبطة هنا .

وأضافت وهي ترمي الى غاغب بغصن من أزهار
الغيرانيوم :

- هاك ، خذ ، وتوهم أنني سيدة قلبك .

فضحكت السيدة لوزة ، وقال غاغب يقاطع آسية :

- ان السيد « ن » في طريقه الى بيته ويريد ان يودعك .

— أهو كذلك ؟ إذن أعطه غصن الزهر ، وسأهبط اليكما في الحال .

أغلقت النافذة ، ولا بد أنها قبلت السيدة لوييزة ، ناوولي غاغين عود الغرائيوم صامتاً ، فوضعتة في جيبي وأنا صامت ايضاً ، وتوجهت الى معبر النهر حيث ركبت قارباً نقلني الى الشاطئ الآخر .

أذكر أنني سرت الى البيت غير مفكر في شيء ، ولكن قلبي كان يرزح تحت ثقل غريب ، وأفأت لنفسي حينما تنسمت رائحة نفاذة مألوفة ولكنها نادرة في ألمانيا ، توقفت أستقصي أمرها فرأيت على كتف الطريق حوضاً صغيراً فيه أعواد من نبات القنب ، فذكرتني رائحته ببراري الوطن ، وأثارت في نفسي حيناً طاغياً اليه . وهفا القلب الى استنشاق هواء روسيا ، والانطلاق في أرضها . وهتفت : « أكان لي ما أعمله هنا ؟ علام أتسكع في جهة غريبة بين غرباء ؟ » . وفجأة تحول ما كان يبهظ قلبي من ثقل ماحق الى اضطراب مرير حارق . بلغت المنزل وأنا على حال تختلف عن الحال التي كنت عليها أمس . شعرت بأنني مغيظ ، وأخفقت في رد السكينة الى نفسي ، واشتملني غضب لم أعرف له سبباً ؛ ثم جلست أفكر في الارملة الغادرة (كان من الطقوس اليومية أن أختتم اليوم بالتفكير في هذه السيدة) ، سحبت إحدى رسائلها ، ولكنني عزفت حتى عن فتحها ، فقد سلكت خواطري فجأة سبيلا آخر ، أخذت افكر في . . . آسية ، ومما تذكرته ان غاغين أشار في بعض ما ألقى عليّ من حديث الى عقبة تحول دون عودته الى روسيا . . . ورأيتني أقول بصوت عال : « أتكون أخته كما زعم ؟ »

خلعت ملابسني وانضجعت ، حاولت ان أغفو ولكنني أستويت جالساً في السرير بعد مرور ساعة ، اتكأت بكوعي على الوسادة وأنا افكر في هذه « الصبية المدلعة ذات الضحكة المصطنعة . . . » انها مصبوبة في قالب « غالاتيه » الصغيرة

كما رسمها رافائيل في لوحة فارنيزينا * ، وهمست لنفسي :
« أجل ، وانها ليست أخته ... »
أما رسالة الارملة فقد رقدت في سكون على الارضية
وهي تلمع في ضوء القمر .

٥

عدت في الصباح الى «ل» وأنا أزعج نفسي أنني أسعى
الى لقاء غاغبين ، ولكني في السر كنت مدفوعاً الى رؤية ما
سيكون عليه مسلك آسية معي ، أتراها ستعود الى مثل
تلعبها أمس ؟ رأيت الاثنين يجلسان في غرفة الاستقبال ،
كان من العجيب - ولعل سبب هذا أنني اطلت التفكير في
روسيا أثناء الليل وفي الصباح - أن آسية بدت نموذجاً
للفتاة الروسية ، بل مجرد فتاة بسيطة ، ولعلها أشبهت قليلاً
وصيفة فندق . كانت في فستان عتيق ، شعرها مسح الى
ما وراء اذنيها ، وقد جلست ساكنة قرب النافذة تطرز
بأبرتها نسيجة مشدودة الى طارة ، كانت في هدوئها وتواضعها
كأنها لم تزاول في حياتها الا هذا العمل ، بقيت صامتة لا تنطق
الا بما قل ، لا ترفع بصرها عن شغلها ، وقد شاع في ملامحها
تعبير عادي ساذج ذكرت به دون قصد فتياتنا البسيطات
من كاتيا الى ماشا ، وكأنها أرادت لهذا الشبه أن يبلغ
التمام ، فأخذت تغني بصوت خفيض أغنية « ماتوشكا
غالوبوشكا » * . تأملت في وجهها الصغير الشاحب الهامد ،
فتذكرت أحلام أمس ، وامتألت نفسي بالحسرة على شيء .
كان الجو رائعاً ، وأعلننا غاغبين بأنه سيخرج لرسم منظر

* لوحة رسمها رافائيل (١٤٨٣-١٥٢٠) اسمها انتصار
غالاتييه وقد رآها المؤلف في دارة فارنيزينا في روما . (المترجم) .
* * اغنية شعبية روسية ، ومعناها : «امي يا حبوتي» .
(المترجم) .

حي ، فسألته أن يسمح لي بأن أرافقه اذا لم يكن في هذا ما
يضايقه ، فقاطعني بقوله :

— بل على العكس فأنت قادر على أن تنفعني بنصحك .
لبس صدره ، ووضع على رأسه قبعة مستديرة à la
« Van Dyck » وخرج متأبطاً ادوات الرسم ، فسرت في
إثره ، بقيت آسية في البيت ، أوصاها قبل ان يخرج بأن
تكون الشوربة ثقيلة المرق ، فوعده بأن تمر بالمطبخ
وتشرف على الطبخ . حينما وصل غاين الى الوادي الذي
عرفته من قبل ، جلس فوق صخرة وبدأ يرسم شجرة بلوط
عتيقة حفر الدهر في جذوعها ومدّ في فروعها . انضجعت أنا
على العشب ، وأخرجت كتاباً ولكني لم أقرأ منه الا اقل من
صفحتين ، كان هو يوسخ الورق ليس غير ، أمضينا أكثر
الوقت في محادثة ، وناقشنا بتبصر ودقة على ما أعتقد :
الطريقة الصحيحة في العمل . ما ينبغي ان يطرح جانباً ، وما
يحسن ان يتبع ، أهمية الفنان في هذا العصر . ارتأى غاين
أخيراً أنه في مزاج لا يسيغ العمل اليوم ، وتمدد الى جانبي ،
عندئذ أخذنا في حديث متدفق متطلق من أحاديث الشباب ،
كان يحتدم بالحرارة حيناً وبالتأمل حيناً آخر ، او يصخب
بالحماسة ، ولكن احاديثنا كان اغلبها مشوباً بالغموض
وهي الطريقة التي يحبها الروسي بكل قلبه . ثم عدنا الى
البيت بعد ان شبعنا من النظر والحديث ، كنا نستشعر
الرضى كأننا قمنا بعمل وأصبنا نجاحا في هذا العمل . رأيت
آسية على ما تركتها ، ترصدت حركاتها فلم تنبئ ولو
بظل خفيف من الغنج ولا بعلامة على أنها تتعمد تمثيل
أي دور من الادوار ، وسقطت في هذه المرة ذرائع اتهامها
بالتصنع .

قال غاين :

* بالفرنسية ، والمقصود انه من طرز فان ديك .

(المترجم) .

— واه لها ، لقد فرضت على نفسها الصيام والندم .
في المساء تشاءبت عدة مرات تشاؤماً حقيقياً ، وذهبت
الى النوم في وقت مبكر . لم أتلبث طويلاً فقممت أودع غاغين ،
وسرت الى منزلي غير سابح في الاحلام : فقد كان اليوم يوم
الاحاسيس الحية ، ولكني اذكر اني لما تمددت للنوم سمعتني
أقول بصوت مسموع :

— اي حرباء هذه الفتاة !

وأضفت بعد لحظة من تفكير :

— ومع ذلك فانها ليس أخته .

٦

مضى اسبوعان كنت فيهما أزور آل غاغين كل يوم ، وأظن
أن آسية كانت تتهرب من الالتقاء بي ، ولكنها تركت ذلك
التلعّب الذي أثار دهشتي في اليومين الاولين من أيام
تعارفنا . كانت تبدو محزونة او خجلى في السر ، وندر
ضحكها ، كنت أراقبها بعين مستطلع .

كانت تتكلم باللغتين الفرنسية والالمانية في طلاقة ،
ولكن الواضح من أمرها انها لم تستأنس منذ طفولتها
بتربية انثوية تأخذ بيدها ، حصلت على تعليم غريب
شاذ يختلف عما حصل عليه غاغين نفسه . فانه على الرغم
من قبعته الـ «à la Van Dyck» وسترته القصيرة ، كانت
قسماته ولفحاته تفوح بطراوة النعمة التي يتسم بها النبلاء
الروس . لم تكن هي تشبه السيدة النبيلة ؛ بل كان في حركاتها
جميعاً مسحة من قلق : فهي غرسة لم تطعم في أوانها وخمرة
لم تختمر في دنانها . كان في طبيعتها حياء وتهيب ، فاذا
ضاقت بخجلها أجهدت نفسها في التظاهر بأنها طليقة العنان
جريئة القلب فلا يحالفها التوفيق في هذا الا قليلا . وما اكثر
ما استدرجتها الى الحديث عن حياتها في روسيا ، عن ماضى

أيامها ، فكانت تجيب في غير اقبال على اسئلتني ، ولكني علمت أنها عاشت وقتاً طويلاً في الريف قبل ان تسافر الى الخارج .
التقيتها ذات يوم وهي تجلس وحيدة في يدها كتاب ، كانت تلتهم السطور بعينها وقد أسندت رأسها بيديها وغرزت أصابعها في شعرها . فقلت لها وأنا أقرب منها :

— مرحى فكم أنت مثابرة !

فرفعت رأسها وأرسلت نحوي نظرات جادة حادة :

— أنت تظن أنني لا احسن شيئاً غير الضحك .

قالت ذلك وهمت بالذهاب ...

نظرت في عنوان الكتاب فوجدت أنه قصة فرنسية ،
فقلت :

— ولكني لا أستطيع ان أهنيك على حسن اختيارك .

فصاحت :

— ماذا عليّ ان أقرأ اذن ؟!

وأضافت وهي تلقي بالكتاب على المائدة :

— لعل الأولى ان أذهب لأمزح وأمرح .

وانطلقت ركضاً الى الحديقة .

جلست في ذلك المساء أقرأ على غاغن قصة «هيرمان ودوروتيه» ، كانت آسية تمرّ بنا اول الامر مروراً ، ثم توقفت فجأة وألقت الينا بسمعها ، وجلست الى جانبي هادئة مصغية حتى أتيت على آخر القصة . في اليوم التالي رأيتهما فاستغلق عليّ أمرها من جديد ، ثم اهتديت الى انها استقرت على فكرة وهي ان تشبه «دوروتيه» في اهتمامها بشؤون البيت وشدة رزانتها . مجمل القول أنها كانت تبدو لي اشبه باللغز . كانت هذه المتيمة بحب ذاتها تستهويني حتى وانا حانق عليها . والامر الذي كنت ازداد به اقتناعاً هو ان آسية وغاغن ليسا بأخوين . كان يعاملها بغير المعاملة بين الاخ والاخت ، فيسرف في الحنو عليها والتسامح معها ولكن في شيء من التكلف .

ثم وقع حادث غريب جاء مؤكداً لما تداخلني من الشك .

تقول في انفعال و تبكي :

ففي احدى الامسيات جئت غاغب زائراً فوجدت باب الكرمة
مقفلاً ، لم أقض وقتاً طويلاً في التفكير بل نفذت الى الكرمة
قفزاً فوق جزء متهدم في سياجها كنت لاحظته من قبل ،
اقتربت من عريش يظله الطلح بعيد عن الممر ، وأوشكت ان
أجتاز . . . به لولا أن جمدت فجأة على صوت آسية و هي
— لا ، فانا لا أريد ان أحب احداً غيرك . أنت وحدك
والى الأبد .

فقال غاغب :

— كفى يا آسية ، اهدئي ، فانت تعرفين اني واثق بصدق
ما تقولين .

كان صوتهما ينبعث من العريش ، رأيتهما من فرجة غير
كثيفة بين الاغصان المعرشة من دون ان يشعرا بوجودي .
وعادت آسية تقول :
— انت ، انت وحدك .

وارتمت عليه تعانقه وتقبله وتلوذ بصدرة وهي تشهق
وترتجف ، اما هو فكان يمسح شعرها بيده مسحاً رقيقاً
ويؤكد قوله :
— كفاية ، كفاية .

وقفت بضع لحظات جامداً في مكاني . . . ثم اندفعت فجأة
وقد مضت في رأسي هذه الفكرة : « هل أدخل عليهما ؟ . .
لا ! » . فعدت مسرعاً الى السياج ، ونفذت من فوقه الى
الطريق ، كدت أعدو في طريقي الى البيت . وكنت أفرك كفاً
بكفٍ وانا ابتسم واستغرب هذا الحادث الذي أثبت
حدسي من حيث لا اتوقع (لم يخالطني ولو مشقال ذرة من
الشك في صدق هذا الحدس) كان قلبي يمض مضياً من
شعور مرّ ؛ وقلت في نفسي : انهما لقادران على التظاهر !
ولكن فيم هذا ؟ علام تلك الرغبة في التمويه عليّ ؟ . . ما
كنت أتوقع منه ذلك . . . ثم ما معنى هذه المناجاة القلبية
المؤثرة ؟

قضيت الليلة في نوم مضطرب وأبكرت صباحاً في النهوض ، فوضعت كيس السفر على ظهري ، وأعلنت صاحبة الدار بأن لا تنتظر أوبتي في الليل ، وذهبت على قدمي الى الجبل ، حيث المجرى الاعلى للنهر الذي ترقد على شاطئه بلدة «ز» . وهو من فقار سلسلة جبال تسمى ظهر الكلب (Hundsrück) ما زالت تجتذب اهتمام الجيولوجيين ، وتستأثرهم على الخصوص بجودة طبقاتها البازلتية ونقاؤها من الشوائب ، ولكن الابحاث الجيولوجية لم تكن مما أحفل به ؛ لم أكن قد استجليت رصيد ما يجري في داخلي ، غير شعور واحد كان واضحاً في نفسي ، وهو : عدم الرغبة في رؤية آل غاين . كنت أوحى لنفسي بأن المبرر الوحيد لنفوري منهما كان الأسف لما انكشف من خداعهما ، فمن أرغمهما على التظاهر بانهما شقيقان حميمان ؟ وبذلت ما وسعني من الجهد في ابعادهما عن بالي ، فذهبت أطوف بالجبل والوادي متمهلاً ، ومكثت وقتاً طويلاً في المطاعم الريفية فكنت أجادب أصحابها ونزلاءها أطراف الحديث ، ثم افترشت صخرة مستوية دافئة أراقب منها السحاب وهي تجري سابحة في رحاب الفضاء ، ومن حسن الحظ ان الطقس كان رائعاً . وعلى هذا النحو قضيت ثلاثة ايام لم تخل من اسباب المتعة ، ولكن الضيق كان يعتصر قلبي في بعض الاحيان ، وتمازجت خواطري بما خيم على تلك الناحية من الهدوء .

استسلمت كل الاستسلام لعبث الاقدار الهادى ، وللمشاعر العابرة تتعاقب في أناة وتسري في نفسي ثم تنصب أخيراً في احساس شامل واحد اجتمع فيه كل ما رأيته وما سمعته وما شعرت به في هذه الايام الثلاثة ، وجملته : هذا الاريح الخفيف الذي يضوع من صمغ الصنوبر في الغابات ، والصيحات الصاخبة التي تطلقها طيور النقار ، وثرثرة

السواقي الشفافة التي لا تصمت ، والاسماك الملونة قرب قاعها الرملي ، وخطوط الجبال الغامضة والصخور القاتمة ، والقرى النظيفة بكنائسها القديمة الوقور واشجارها ، وطيور اللقلق البري في المروج ، والطواحين الهوائية البديعة بمراوحها التي تدور بانتظام ودأب ، ووجوه السكان المضيفة وهم في صداراتهم الزرقاء وجواربهم الرمادية وعرباتهم التي تعمر وهي تجري في بطء تجرها خيولهم الشحيمة او تجرها الابقار في بعض الاحيان ، والرحالون الشباب ذوو الشعور الطويلة يعبرون الطرق النظيفة المزروعة في جوانبها بأشجار التفاح والكمثرى . . .

ولا زلت حتى اليوم أجد الرضى في استعادة هذه الانطباعات ، فسلام عليك أيتها البقعة المتواضعة من أرض المانيا ، أيتها البقعة الراضية بنعمتها البسيطة ، المطرزة في كل جزء منها باثر الايدي الصانع وبأثر العمل الصابر المتأني . . .

لك التحية وعليك السلام !

عدت الى البيت في نهاية اليوم الثالث . وفاتني ان أقول إن غضبي على آل غاغين حداني على محاولة ابتعاث طيف الارملة الغادرة ، ولكن جهودي كانت هباء . وأذكر أنني حينما أخذت أحلم بها ، رأيت أمامي طفلة فلاحه في الخامسة من عمرها ، يرتسم الفضول في وجهها الصغير المستدير ، والسذاجة في عينيها المتشوّفتين ، وهي تنظر اليّ ببراءتها الطفولية . . . فاعتزاني الخجل من طهر نظراتها ، وعزفت عن الكذب بحضورها ، ومنذئذ أمسكت عن بعث موضوع حبي الماضي ولم أعد اليه ابداً .

عثرت في البيت على كلمة من غاغين يقول فيها : انه في دهشة من بادرتي المفاجئة ، عاتب على أنني لم أستصعبه معي ، راغب في ان أذهب اليه من فوري حين أعود . قرأت هذه الرسالة متأففاً ، ولكنني في اليوم التالي كنت في بلدة «ل» .

استقبلني غاغبين بالترحيب ، وأمطرني بسيل من عتابه الرقيق ، ولكن ما إن رأيتني آسية حتى انطلقت تقهقه عامدة من دون سبب ، وغادرتنا من فورها على عاداتها ، فارتبك غاغبين ، وتمتم في اثرها قائلاً بانها مجنونة ، ورجاني ان أصفح عنها . وأعترف بانني شعرت بالسأم الشديد من آسية ؛ فمن دون هذا كنت معتكر النفس ، فاذا هنا ايضاً هذا الضحك المصطنع وهذه الالاعيب الغريبة . ولكني تظاهرت بأني لم ألحظ شيئاً على الاطلاق ، وأقبلت على غاغبين أحدثه عن تفاصيل رحلتي القصيرة ، وروى عليّ كيف قضى وقته في أثناء غيابي ؛ ولكن حديثنا لم يكن مؤاتياً . كانت آسية تدخل علينا الغرفة ، دون ان تتلبث بل تدخل وتخرج ، وأعلنت اخيراً أن لديّ عملاً عاجلاً ، وقد آن لي ان أعود الى البيت . حاول غاغبين اول الامر ان يستبقيني ، ثم تأملني بامعان ، وقال بانه سيرافقني . في المدخل رأيت آسية تقبل عليّ فجأة وتعطيني يدها ، فلمست أصابعها لمسة خفيفة وانحنيت لها . ذهبت مع غاغبين ، فعبرنا ، الراين ، وعندما مررنا في طريقنا بسنديانتي الحبيبة حيث يقوم تمثال العذراء ، جلسنا على دكة هناك ، نتأمل في المنظر الخلاب الذي نطل عليه ، وهنا جرى بيننا حديث رائع .

تبادلنا كلمات متفرقة قليلة في البداية ثم خيم الصمت بيننا ، وانصرفنا الى مشاهدة النهر المضيء ، وفجأة قال غاغبين وهو يبتسم ابتسامته المألوفة :

— قل لي ، ما رأيك في آسية ، ألا ترى انها كشفت عن كثير من الغرائب ؟

فاجبت بشيء من الحيرة لما بدھني من حديثه عنها :

— نعم .

فأضاف :

– يجب أن تعرفها على حقيقتها قبل ان تقضي في أمرها . ان لها قلباً موفور الطيبة ، ولكن رأسها حار ، ومعشرها صعب ، ومهما يكن فلا يجوز ان تدان بحكم ، حين تعرف حكايتها ...

فقاطعته قائلاً :

– حكايتها ؟ أظن أنك قلت انها ...

فقال غاغبين وهو يحدق في وجهي :

– هل ظننت أنها ليست اختي ؟ ..

وأضاف من دون ان يعباً بحيرتي :

– الواقع انها أختي بنت أبي ، فأصغ اليّ ، اني أشعر لك

بالثقة وسأحدثك بكل شيء .

كان ابي في جملته رجلاً طيباً ذكياً مثقفاً ، ولكنه سييء الحظ ، لم تكن قسمته اسوأ من كثيرين غيره ، ولكنه فقد القدرة على الصمود أمام اول ضربة رماه بها القدر . فقد تزوج عن حب ، وكان في غرارة الصبا ، لم تعش زوجته ، وهي أمي ، الا قليلا ، فعاجلها الموت وانا في شهري السادس ، فحملني ابي معه الى القرية ، ولم تغادرها طوال اثنتي عشرة سنة . أشرف هو بالذات على تربيّتي ، وما كان لينفصل عني لو لم يأت عمي أخو ابي الى زيارتنا في تلك القرية . كان عمي يسكن مقيماً في بطرسبورغ وله فيها منصب رفيع ، وقد ألحّ على ابي في امر نقلي الى رعايته ما دام ابي لا يريد ان يهجر القرية ابداً ؛ كان رأيه : ان صبياً بلغ ما بلغت من العمر يجب ان يصاب من العزلة والانفراد ، وأنني سأتحلف عن اترابي اذا عشت ونشأت في هذا الجو الموحش الصامت الذي يعيش فيه ابي ، ولا يبعد ان تسوء طباعي انا ايضاً . وقد عارض ابي طويلاً فيما اقترحه أخوه ، ولكنه وافق في النهاية ، فبكيت عندما افترقت عن ابي ؛ فقد كنت احبه على الرغم من اني لم أر ابتهماماً على وجهه ... لم ألبث بعد ان وصلت الى بطرسبورغ حتى نسيت وكرنا المظلم الكئيب . دخلت مدرسة عسكرية ، والتحققت بعدها بأحدى

كتائب الحرس . كنت أقضي في القرية بضعة اسابيع من كل سنة ، في كل سنة كان أبي يزداد حزناً وانطواءً على نفسه واستغراقاً في التفكير وامعاناً في التهيّب . كان يذهب الى الكنيسة في كل يوم ، وتعيّاه ان ينطق ولا يتكلم الا قليلا . وفي احدى زياراتي (كنت قد تجاوزت العشرين من عمري) وقع بصري اول مرة في منزلنا على فتاة نحيلة الجسم سوداء العينين في العاشرة من عمرها ، وكانت آسية . قال ابي انها يتيمة الابويين وانه آواها اليه ليطعمها من جوع - هذه كلماته بالحرف - لم ألق اليها أي انتباه ، وكانت هي شديدة النفار ، سريعة الحركة ، مغرقة في الصمت كالوحيدة ، فاذا رأني أدخل غرفة ابي المفضلة ، وهي غرفة كبيرة مظلمة لفظت فيها امي انفاسها الاخيرة ، حيث كانت تتوقد شمعات حتى في النهار ، اسرعت الى الاختباء وراء مقعده الفولتيري او وراء خزانة الكتب . وحدث بعد تلك الزيارة ان شغلني اعباء الخدمة فعاقتني عن المجيء الى القرية طوال ثلاث او اربع سنين ؛ كنت خلالها اتلقى من ابي رسالة قصيرة في كل شهر ، يندر فيها الحديث عن آسية ، او يأتي الحديث عرضاً . كان قد تجاوز الخمسين من عمره ، الا انه بقي شاب المظهر ، ولك ان تتصور مقدار فزعي حينما فوجئت على غير توقع برسالة من وكيلنا ينبئني فيها بأن ابي يعاني مرضاً خطراً مميتاً ، ويتوسل اليّ ان اسرع في المجيء بكل ما املك من القوة اذا اردت ان اودع ابي الوداع الاخير . فسافرت من فوري بأسرع ما استطيع ، ووجدت ابي لا يزال حياً ولكنه في انفاسه الاخيرة . تلقائي راضياً مغتبطاً قرير العين ، واحتواني بذراعيه الناحلتين ، وهو يطيل النظر في عيني كأنه يتفحصني بنظرته ويستشف دخيلتي او يتوسل اليّ ؛ فلما قطعت له وعداً بان أنفذ رجاءه الاخير ، أمر وصيفه العجوز بأن يأتي بآسية ، فجاء بها العجوز وهي تكاد لا تستقيم على قدميها ، فقد كانت ترتعد بكل بدنها . قال ابي وهو يبذل غاية جهده :

— اوصيك بابنتي ، فهي اختك ، وستعرف كل شيء من
ياكوف .

قال ذلك وهو يومئذ الى الوصيف .
فانفجرت آسية بالبكاء ، وارتمت بوجهها على السرير . . .
بعد نصف ساعة كان ابي قد فارق الحياة .
كان ما علمته ان آسية بنت ابي من تاتيانا وصيفة ابي
في الماضي . ولا ازال اذكر تاتيانا هذه ، وأتذكر قوامها
الممشوق الاهيف ، وقسماتها اللطيفة ، ووجهها الذكي ،
وعينيها الغامقتين الواسعتين . كان المسموع عنها انها فتاة
حاصنة عزيزة النفس . كل ما استطعت ان افهمه من الحديث
المهذب المتحفظ الذي أدلى به ياكوف ، ان ابي عاشرها
بضع سنين بعد وفاة ابي ، ولم تكن تاتيانا تعيش اثناء ذلك
في منزل سيدها ، بل كانت تقيم في بيت ريفي عند اخت لها
متزوجة ترعى الماشية . كان ابي شديد التعلق بها ، اراد
بعد رحيلي عن القرية ان يتزوج بها ولكنها لم توافق على الرغم
من الحاحه .

وحدثني ياكوف وهو واقف الى قرب الباب بيدين
مضمومتين الى وراء :

— كانت المرحومة تاتيانا فلاسييفا امرأة عاقلة شاءت
الآ تسيء الى ابيك ، فكانت تقول : « اي عقيلة لك انا ؟
واي ست بيت سيكون مني ؟ » . سمعتها تقول ذلك في
وجودي . — كذلك رفضت تاتيانا ان تنتقل الى منزلنا ، وآثرت
ان تعيش مع آسية عند اختها . في طفولتي كنت أرى تاتيانا
في الاعياد فقط ، اثناء الصلاة في الكنيسة ؛ كانت تعصب
رأسها بعصابة غامقة ، على كتفيها شال أصفر ، وهي واقفة
في الحشد الى قرب النافذة — وجانب وجهها المتناسق الدقيق
يرتسم واضحا على شفيف الزجاج — كانت تصلي بتواضع
ووقار ، وتنحني في صلاتها الى أدنى على العادة القديمة ؛ لما
أخذني عمي اليه ، كانت آسية في الثانية من عمرها ، فلما
بلغت التاسعة كانت محرومة من الام .

بعد وفاة تاتيانا مباشرة بادر أبي الى نقل آسية الى بيته ، كان يتمناها الى جانبه من قبل ، ولكن تاتيانا تأبت عليه في هذا ايضاً . وتصوروا ما طراً على شعور آسية حينما جيء بها الى السيد . انها لم تنس حتى الآن تلك الدقيقة التي لبست فيها أول مرة الفستان الحريري وانحنى الرؤوس تلثم يدها ؛ لقد أخذتها أمها بالشددة وهي في قيد الحياة ، فلما انتقلت الى ابيها أصبحت حرة طليقة من كل إسار . كان أبوها معلمها فلم يتع بصرها على غيره ، لم يدللها ويدلّعها ، ولكنه أحبها بكل قلبه ولم يمنعها عن كل ما تريد : ولعله كان يشعر في أعماق نفسه بانه مذنب تجاهها . ولسرعان ما أدركت آسية انها الوجه الرئيسي في البيت ، وان سيد البيت أبوها ، ولكنها أدركت بسرعة ايضاً زيف وضعها ، فاشتد في نفسها حب الذات ، وانعدمت ثقتها بالناس ، واستجذرت فيها الخصال السيئة ، وفارقتها البساطة . لقد ارادت (وهذا ما اعترفت به الي ذات مرة) ان تحمل **العالم كله** على نسيان منشئها ، كانت تخجل من ناحية امها ، وتخجل من خجلها فتباهي بتلك الام . الحاصل أنها عرفت ، وهي تعرف ، ما لا ينبغي لمن في سنها ان يعرفه . . . ولكن هل كانت هي المذنبه ؟ ان جذوة الشباب كانت تتوقد فيها ، ودمها يغلي ، وليس الى جنبها يد واحدة تأخذ بيدها وترشدها الى سواء السبيل . كان لها استقلالها الكامل في كل امر ! فهل من السهل ان تنهض بهذا العبء ؟ لقد اعترمت ألاّ تتخلف عن غيرها من بنات النبلاء ، فانكبّت على المطالعة في الكتب ، ولكن اين وجه الفائدة من هذا ؟ ان حياتها تكونت على نحو غير صحيح لأن بدايتها لم تكن صحيحة ؛ بيد ان قلبها لم يتصدع وذكاءها لم يتزعزع .

وهكذا وجدتي وأنا في العشرين من عمري مسؤولاً عن رعاية فتاة في ربيعها الثالث عشر . في الايام الاولي بعد وفاة ابي كانت نبرة صوتي المجردة تبعث فيها الرعدة ، وملاطفتي تشيع فيها التبرم ، ثم أخذت تالفني قليلا قليلا في الخفاء ،

والحقيقة انها اقبلت عليّ بكل قلبها حينما أيقنت انني اعتبرها
اختاً وأحبها حب الاخ للاخت ، وهي في كل عواطفها لا تعرف
الحال الوسط .

نقلتها معي الى بطرسبورغ . ولئن كان الافتراق عنها
شديداً عليّ ، فأني لم أقدر على السكنى معها ، فأدخلتها مدرسة
من احسن المدارس الداخلية . وقد أدركت آسية ضرورة
افتراقنا ولكنها مرضت في بداية الأمر حتى أشرفت على
الموت ، وما لبث ان أخذت نفسها بالصبر فقضت في المدرسة
أربع سنين ، فاذا هي علي غير ما توقعت ، تخرج منها كما
دخلتها من قبل ، وكثيراً ما كانت رئيسة المدرسة تشكوها
اليّ قائلة : « يمتنع علينا ان نزرها بالمعاقبة ، ولا تعباً
اذا عاملناها باللين » . كانت آسية لامعة الذكاء ، سارت في
دراستها على نحو ممتاز تفوقت به على زميلاتها جميعاً . غير
انها رفضت ان تكون مثل الآخرين ، وبقيت عنيدة متمردة
ترمق من حولها بالنظر الشزر . . . وقد صعب عليّ أن أقسو
في الحكم عليها ، ففي وضعها كانت أمام طريقتين ، فاما ان
تذعن ، واما ان تتمرد . ولم تجد بين زميلاتها من تستريح
الي صحبته الافتاة منبوذة رقيقة الحال عاطلة من الجمال ،
اما باقي رفيقاتها في الدراسة وأكثرهن بنات أسر كريمة ،
فقد كن ينفرن من صحبتها ، ويسعين الي ايلامها بقوارص
السخرية كلما وجدن الي ذلك سيلا ، ولكن آسية لم تكن
تسكت لهن في واحدة . وفي ذات يوم كان مدرس اللاهوت
يتحدث عن السيئات ، فصاحت آسية بصوت ثاقب : « النفاق
والجين أسوأ السيئات جميعها » . مجمل القول انها مضت
في سبيلها لا تحيد عنه ، لم يتحسن الا سلوكها فقط ، ولعل
هذا التحسن كان طفيفا ايضا .

وما لبثت ان جاوزت السابعة عشرة من عمرها ، وتعذر
عليها ان تبقى في المدرسة بعد هذه السن ، كنت في حرج من
الامر ، ثم خطرت ببالي فكرة طيبة مفاجئة ، وهي : الاستقالة
والسفر الي الخارج مع آسية لمدة سنة او سنتين . وقد

انجزت ما فكرت فيه ، وها نحن اولاء على ضفاف الراين ،
أحاول أنا أن انصرف الى الرسم ، على حين تمضي هي في عبثها
والأعبيها كما كانت من قبل ؛ وآمل ألا تكون شديدا في
حكمتك عليها ، فانها تهتم بكل رأي ، ولا سيما رأيك ، على
الرغم مما تتظاهر به من عدم الاكتراث .

وعاد غاغين يبتسم ابتسامته الوديعه ، فأخذت يده
وشددت عليها ، بينما استطرده يقول :

— هذا ما كان ، ولكن مصيبتني معها ، انها كتلة من
البارود ؛ انها لم تعجب باحد حتى الآن ، وسيكون البلاء الاعظم
حينما تحب ! فلا ادري وقتئذ كيف ينبغي ان اتصرف معها .
واليك ما اقدمت عليه منذ ايام : لقد فاجأتني بالقول اني
اصبحت لا اعني بها الا قليلا ، وجعلت تؤكد لي انها تحبني
من دون الناس كلهم أجمعين ، وستبقى على هذا الحب
أبدأ ولشد ما بكت وقتذاك

— واذن كان الامر كذلك — تمتمت وانا أهم
بالكلام ، ولكنني كبحت لساني فقلت بعد ان سلك الحديث
بيننا طريق الصراحة : — أيعقل حقيقة أنها لم تعجب بأحد
حتى الآن ؟ فاي فتیان بطرسبورغ اذن ؟

— لا ، فليس يعجبها هؤلاء بالذات . ان آسية تطمح
الى بطل ، الى انسان غير عادي ، او الى راع جميل يضرب
في وديان الجبال . ولكن ما لي أستأخرك بمثل هذا الكلام
الطويل ، — قال ذلك وهو يهم بالقيام — فقلت :

— اسمع ، ساعد معك ، فاني لا أرغب في الذهاب الى
بيتي .

— وعملك العاجل ؟

لم أجب بكلمة ، فضحك غاغين في سماحة ، وعدنا معا
الى «ل» ، حينما رأيت الكرمه المألوفة والبيت الابيض الذي
يطل من قمة الجبل ، شعرت بالنشوة تسري في قلبي ، فكان
الشهد المصفى ينسكب فيه قطرات ، وغمرتني راحة شاملة
بعد هذا الحديث الذي ألقاه غاغين في سمعي .

استقبلتنا آسية على عتبة الباب ، كنت انتظر ان تأخذ بالضحك على عاداتها ، ولكنها طلعت علينا شاحبة الوجه مطبقة الفم خفيضة العينين . وقال غاين :
 — ها هو ذا ، انتبهي الى انه شاء ان يعود من تلقاء نفسه .

نظرت آسية الى نظرة تساؤل ، فأخذت بيدها الممدودة ، وشدت بقوة في هذه المرة على أصابعها الباردة . كنت أشعر بالاشفاق عليها منذ ان ازددت ادراكاً لما يجري في نفسها ، ووضع لي ما كان يحيرني من امر : قلقها المقيم وعجزها عن ضبط النفس وجنوحها الى التصنع . لقد تعمقت دخائل هذه النفس ، فقد كان يسحقها ظلم خفي لا يريم ، وتمزق ترتطم فيه الكبرياء الساذجة بالقلق ، بيد ان وجودها كله كان يسعى الى الحقيقة . لقد ادركت لماذا ملكت علي نفسي هذه الفتاة الغريبة الاطوار : فلم تكن ملاحظتها الآبدة التي انسكبت في جسدها النحيل كله هي التي تجتذني اليها فقط ، بل كانت روحها تجتذني ايضاً .

بدأ غاين في تقليب رسومه فعرضت على آسية ان نقوم بنزهة في الكرمة فوافقني من فورها بغبطة تشبه الاذعان . هبطنا المنحدر حتى بلغنا منتصفه حيث جلسنا هناك على صخرة مستوية عريضة . وبدأت آسية الحديث فقالت :

— ألم تشعر بالضجر وانت بعيد عنا ؟
 فسألتها :

— وأنت ألم تشعرى بالضجر من دوني ؟
 فرمقتني آسية بطرف عينيها وقالت :
 — أجل .

وأضافت من فورها :

— هل قضيت وقتاً طيباً في الجبال ؟ هل هي عالية ؟

أعلى من الغيوم ؟ حدثني عما شاهدته هناك . كنت تحدث أخى ، أما أنا فلم أسمع شيئاً .

— هل كان من الضروري ان تنسحبي من مجلسنا ؟
— لقد انسحبت لأن ... لن انسحب بعد الآن ، —
وأضافت بصوت حنون وديع : — كنت غاضباً اليوم .
— أنا ؟

— نعم ، انت .
— عفواً ، ومم ؟
— لا ادري ، ولكنك كنت غاضباً ، وغادرتنا غاضباً ،
فكان أسفي شديداً لأنك ذهبت على تلك الحال ، وانا مغتبطة
بعودتك .

فأجبت قائلاً :
— وانا ايضاً مغتبط بعودتي .
فقوست آسية كتفيها كما يفعل الأطفال حينما يكونون
راضين ، وتابعت قائلة :

— أوه ، اني لقادرة على التنبؤ بما تخفى الصدور ! كنت
أعرف من سعال ابي في الغرفة المجاورة أغاضب هو مني أم
راض .

لم تكن آسية قد تحدثت اليّ عن أبيها حتى ذلك اليوم ،
فأدهشني ذلك منها .

— هل كنت تحبين بابا ؟
قلت ذلك وقد حز في نفسي هذا الاحمرار الذي شاع
فجأة في وجهي . لم تجب آسية بل تخرج وجهها ايضاً
بالاحمرار ، وخيم الصمت بيننا ونحن نرى الى سفينة كانت
تمخر الراين من بعيد وتنفث الدخان .

وهمست آسية :
— ما لك لا تتحدث ؟
فسألتها :

— لماذا استغرقت في الضحك أول ما وقع بصرك عليّ
اليوم ؟

— انني بالذات لا اعرف لماذا ، فقد اشعر احيانا برغبة في البكاء فأضحك . ينبغي ألاّ تحكم عليّ . . . بما تراه من فعالي . وبالمناسبة ، ما القصد الذي رمت اليه تلك الاسطورة التي تتحدث عن لوريلا ؟ هل هذه التي تتراءى للعين صخرتها ؟ قيل انها كانت تغرق كل انسان ، فلما أحببت أغرقت نفسها . تعجبني هذه الاسطورة . ان فراو لوييزة تروي عليّ اساطير شتى وفي بيت فراو لوييزة قط اسود ذو عيينين صفراوين .

رفعت آسية رأسها وهزت خصلاتها ، وقالت :

— آه ، كم اشعر بالغبطة .

في تلك اللحظة بلغت سمعنا اصوات متقطعة رتيبة النغمة ، مئات من الاصوات كانت ترتل الصلوات في آن واحد ، وتقطع النشيد بالصمت بين الحين والآخر ، وظهر على امتداد الطريق في نهاية المنحدر جماعة من الحجاج يحملون الصلبان وصور القديسين . . . قالت آسية وهي ترهف السمع لانفجارات الاصوات وهي تبتعد قليلا قليلا :

— ليتنا نذهب معهم .

— هل وصل بك التدين الى هذا الحد ؟

— أتمنى أن أذهب الى مكان بعيد ، لأصلي او لأقوم بمأثرة في عمل . — وأضافت : — ان الايام تمضي ، والحياة ستزول ، فما العمل الذي قمنا به حتى اليوم ؟

فقلت معلقا :

— انك طماحة ، تأبين أن تعيشي سدى ، وتطمحين الى

ترك اثر في الحياة . . .

— أهذا مستحيل يا ترى ؟

كادت لفظة «مستحيل» تفلت مني ، ولكنني حدقت في

عيניה اللامعتين وقلت :

— عليك أن تحاولي .

قالت آسية بعد صمت قصير سرت في اثنائه بعض الظلال

على وجهها الذي اعتراه الشحوب :

— خبرني ، أكانت تعجبك تلك السيدة . . . ألا تذكر ،
لقد شرب أخي على صحتها ونحن في الاطلال ، في اليوم الثاني
من تعارفنا ؟

فضحكت :

— كان أخوك يمزح ، فاني لم اعجب باي سيدة ، على أي
حال ليس من سيدة أعجب بها الآن .

فسألت وهي تتلع رأسها بفضول بريء :
— وماذا يعجبك في النساء ؟

فهتفت قائلاً :

— يا له من سؤال غريب !

فاضطربت آسية قليلاً :

— لم يكن يليق ان اطرح هذا السؤال . أليس كذلك ؟
لا تؤاخذني ، فقد تعودت أن أنطق بما يخطر في بالي ، ولهذا
أنهيب من الكلام .

— قولي ما شئت ، بالله عليك ، لا تخشي شيئاً ، فقد
أسعدني أنك خرجت اخيراً من انطوائك .

غضت آسية طرفها ، وأرسلت ضحكة هادئة رقيقة لم
اكن اعرف ان لها نظيرها ؛ ثم اضافت وهي تسوي اطراف
فستانها وترتبها على ساقها كأنها تستعد لجلسة طويلة :
— هيا حدثني بشيء او اقرأ عليّ شيئاً . أتذكر ، انك
قرأت لنا من « اونيغين » * . . .

واستغرقت فجأة في التفكير ثم أخذت تقرأ في همس :

حيث الصليب وظلال الاغصان

على جدث امي المسكينة الآن !

فلاحظت قائلاً :

* « ايفغيني اونيغين » قصيدة للشاعر الروسي الشهير بوشكين .

(المترجم) .

— لم يأت البيت عند بوشكين على هذه الصورة .
فتابعت وهي لا تزال مستغرقة في التفكير :
— وددت لو انني كنت تاتيانا * .
واضافت بانفعال :

— هيا حدثني بشيء .
ولكني لم أجد رغبة في الحديث . كنت انظر اليها . كانت
هادئة مطمئنة تغمرها أشعة الشمس المتألقة ، وكل ما حولنا
وتحتنا وفوقنا يشرق بالمرح ، وخيل الى ان السماء والارض
والماء ، بل الهواء ذاته قد فاضت جميعاً بالاشراق . فقلت
بصوت خفيض من دون وعي :
— انظري ، فما اجمل هذا كله !

فاجابت بهدوء من دون ان ترفع بصرها اليّ :
— نعم ، انه لجميل ! لو اننا من الطير لارتفعنا وحلقنا
في الاعالي وغرقنا في هذا المدى الازرق . . . ولكننا لسنا من
الطير .

فقلت معترضاً :

— ولكن قد تنبت لنا اجنحة .

— وكيف ذلك ؟

— من يعيش ير ، فهناك مشاعر تسمو بنا الى ما فوق
الارض ، وستنبت لك أجنحة فلا تقلقي .
— هل كنت بأجنحة ؟

— ماذا أقول . . . يخيل الى اني لم احلق بعد .
وعادت آسية الى تفكيرها ، فانحنيت عليها قليلا . وسألني
فجأة :

— أتحسن رقصة «الفالس» ؟

فقلت وقد شعرت بشيء من الارتباك :

— نعم .

— هيا بنا نعود إذن ، هيا . . . وسأطلب من أخي ان

* البطلة في قصيدة بوشكين «ايفغيني اونيغين» . (المترجم) .

يعزف لنا مقطوعة فالس لكيما نتصور اننا نحلق باجنحتنا في اجواز الفضاء .

قامت تركض الى البيت فركضت في اثرها ، وبعد لحظات كنا ندور في الغرفة الضيقة على انغام لانير العذبة . رقصت آسية الفالس ببراعة وحماسة ، وقد شاعت فجأة في مظهر الفتاة الصارم رقة انشوية . لقد احتفظت يدي وقتاً طويلاً بلمس خصرها الرقيق ، وبقيت وقتاً طويلاً اسمع انفاسها السريعة القريبة ، وارى عينيها الغامقتين الساكنتين وهما في شبه اغماض على ووجها الشاحب على الرغم من انتعاشه ، وقد تهدلت عليه خصلات من شعرها الغزير .

١٠

انقضى ذلك اليوم على أحسن حال . سرحنا ومرحنا كالاطفال؛ كانت آسية في غاية العذوبة والبساطة ، وغازين سعيد بما يراه من غببتها . ثم غادرتهما في وقت متأخر ، فلما صرت في وسط الراين طلبت من النوتي ان يترك القارب على رسلته ، فرفع الشيخ المجذافين ، وانطلقنا نتهادى على غوارب هذا النهر العظيم . كنت أنظر فيما حولي مرهفاً سمعي مستعيداً ذكرياتي حينما شعرت فجأة بقلق خفي يمس شغاف قلبي... رفعت بصري الى السماء فما وجدت هدوءاً حتى في السماء : كانت موشومة بالنجوم وكلها يتململ ويتحرك ويرتعش . انحنيت على النهر ، فاذا النجوم هنا ايضاً في هذه الاعماق المظلمة الباردة ، ترتجف وتتموج . خيل اليّ أن في هذا الانتعاش قلقاً ماثلاً في كل مكان ، فسرى القلق الى نفسي ايضاً . ارتيمت على حافة القارب... فكان يزعجني اصطفاق الماء على جوانبه وعزيف الريح في أذني ، ولم يروح عني ما كانت ترسله الأمواج من نفحات طرية ؛ وصدح بلبل على الشاطئ فملأني بما سكب في صداحه من السم العذب . فاضت عيناى بالدموع ، لم تكن دموع انفعال لا سبب له ، فإن ما شعرت به لم يكن ذلك الاحساس الغامض الذي اخترته

مؤخراً ، وهو الاحساس بالرغبة الشاملة التي تتفتح فيها النفس وتغنى ويخيل اليها أنها تحيط بكل شيء وتحب كل شيء . . . لا ! فقد توقد في نفسي ظمأ الى السعادة ، ولئن خذلتني القدرة عن النطق بهذه الكلمة ، فان السعادة ، والسعادة حتى الارتواء والامتلاء ، هي ما كنت أريده وأهفو اليه . . . وخلال ذلك كان القارب ينطلق والنوتي الشيخ يجلس منحنيًا على المجذافين وهو يغالب العاس .

١١

لم اسأل نفسي وأنا أتوجه في اليوم التالي الى بيت غاين : هل تراني أحب آسية ؛ ولكني لم أنقطع عن التفكير فيها والانشغال بمصيرها ، كنت مغتبطاً بتقاربنا الذي حدث على غير توقع ، شاعراً بأنني لم أعرفها الا أمس ، فهي قبل ذلك كانت تدير اليّ ظهرها ؛ أما وانها قد كشفت أخيراً عن سريرتها ، فأني نور أسر أشرق في وجودها ، وأي جدّة رأيت في هذا كله ، وأي جاذبية خفية كانت ترف في استحياء وخفر على هذا الوجود . . .

سرت في الطريق المؤلف بخطوات نشيطة ، وبصري معلق بالدار الصغيرة البيضاء التي تبدو من بعيد . كنت في غاية الغبطة ، لا يشغلني التفكير في المستقبل ، ولا في الغد القريب نفسه .

شاع الاحمرار في وجه آسية حينما دخلت عليها الغرفة ، ولاحظت أنها عادت من جديد الى التألق في لباسها ، ولكن ملامح وجهها لم تكن منسجمة مع هندامها ، فقد كانت كئيبة . على حين أقبلت أنا مشرق الأسارير ! وخيل اليّ أنها جمعت أمرها على الفرار مني بحكم العادة ، ولكنها أكرهت نفسها على البقاء . وكان غاين في تلك الحالة من

الحماسة والاستغراق التي تنتاب هواة الفن فجأة فيتوهمون أنهم افلحوا على حد قولهم في «القبض على الطبيعة من ذيلها» . كان يقف أشعث الشعر ملطخاً بالاصباغ أمام قطعة مشدودة من القماش ، يطوف بريشته عليها في حركات واسعة ، فلما رأني أوماً اليّ بحركة من رأسه فيها شيء من الجفوة ، وتحرك الى جانب وهو يوصوص عينيه ، ثم هجم مكرّاً على اللوحة كما ابتعد عنها . حاذرت أن أزعجه فجلست الى جانب آسية ، فتحولت اليّ بعينيها الغامقتين في بطاء . قلت لها بعد ان أخفق جهدي في حملها على الابتسام :

— انك اليوم على غير ما كنت عليه أمس .

فاجابت بصوت بطيء هامد الذبرة :

— هذا صحيح ولكنه غير مهم . لقد نمت نوماً قلقاً وقضيت الليل مؤرقة أفكر ...

— فيم ؟

— أوه ، في كثير من الاشياء ، فتلك عادتي منذ عهد الطفولة ، منذ ان كنت أعيش مع أمي ...

نطقت آسية هذه الكلمة في جهد ، ولكنها عادت تكررهما :

— منذ ان كنت أعيش مع أمي ... كم تساءلت : لماذا لا يعرف أحد ما يخبئه له الغد ؟ ولماذا يرى المرء هجوم الكارثة في بعض الاحيان ثم يقف عاجزاً عن التماس النجاة منها ؟ ولماذا يتعذر الافضاء بالحقيقة الكاملة في كل الاحوال ؟ .. وعندئذ وقر في نفسي أنني أجهل كل شيء ، وعليّ ان أتعلم ، وأعيد تربيّتي من أولها . ان ثقافتي سيئة جداً ، فأنا لا أعرف العزف على البيانو ، ولا الرسم ، ولا أجيد حتى صناعة الخياطة ، وليس لي أي موهبة ، وقد تكون مجالستي مما يبعث على الضجر .

فاعترضت قائلاً :

— انك تظلمين نفسك بما تقولين ، فانت واسعة الاطلاع ، مثقفة العقل ، بذكانك هذا ...

فسألت باهتمام ساذج أضحكني على الرغم مني ولكنها لم
تستجب لضحكي حتى بابتسامة :
- أتراني ذكية ؟
والتفتت تسأل غاغين :
- هل أنا ذكية يا أخي ؟
لم يجب غاغين بل استمر في عمله وهو لا يتوقف عن
استبدال ريشة بأخرى ورفع يده الى أعلى .
تابعت آسية قولها وهي مستغرقة في أفكارها :
- لا أدري أحياناً ما يدور في بالي ، أخاف أحياناً
نفسي ، قسماً بالله ؛ آه كم أردت . . . ألا ترى أن كثرة
المطالعة لا تلائم النساء ؟ . . .
- كثيرها غير ضروري ، ولكن . . .
- بماذا تنصح لي ان أقرأ ؟
ثم أضافت بثقة ساذجة :
- أشر عليّ بما ينبغي ان أعمل ولن أخالفك في شيء .
لم أجد جواباً أقوله من فوري فقالت :
- هل تراك ستشعر معي بالضجر ؟
- عفوا . . . بدأت الكلام ، فقاطعتني قائلة :
- لك الشكر إذن ! لقد توهمت أنك ستشعر بالضجر .
وشدت بيدها الصغيرة الدافئة على يدي . وهتف غاغين
في اللحظة نفسها :
- «ن» ! ألا تبدو أرضية الصورة مظلمة ؟
قمت مقترباً منه ، وقامت آسية تغادرنا .

١٢

عادت بعد ساعة فدعتني بإشارة من يدها وهي لا تزال
واقفة عند وصيد الباب ، وقالت :
- خبرني ، لئن دهمني الموت فهل تحزن عليّ ؟
فصحت قائلاً :

— ما هذه الخواطر التي تدور في رأسك اليوم ؟
— يخيل اليّ اني ساموت عما قريب ، ويتراءى لي في بعض الأحيان أن كل ما حولي يودعني ، فان الموت خير من الحياة على هذا النحو . . . اني لا ألقى الكـلام على عواهنه ، فلا ترمقني بهذه النظرة والا عاودني الخوف منك .

— وهل كنت تخافيني ؟

فقاطعتني قائلة :

— لئن كنت على ما رأيت من غرابة الاطوار ، فليس هذا ذنبي في الحقيقة . ألا ترى اني لم أعد قادرة حتى على الضحك . . .

وبقيت مهمومة حزينة طوال النهار ، فكان شيئاً تعذر عليّ ادراكه يجري في داخل نفسها . كانت ترسل اليّ نظرات طويلة فينقبض قلبي تحت هذه النظرات الغامضة ، وأنظر اليها فأشعر على الرغم من مظهرها المطمئن برغبة في أن أقول لها دعي عنك هذا القلق . كم وجدت وأنا أتفحصها من الروعة المؤثرة في قسماتها الشاحبة وحركاتها المترددة البطيئة ، ولكنها تصورت من دون أن أدري أنني على غير حالتني ؛ وقبيل انصرافي قالت لي :

— اسمع ، اني لم أعد أطيق ان تحسبني طائشة . . . أرجو ان تصدق كل ما ساقوله لك في المستقبل ، ولتكن انت ايضاً صريحاً معي ؛ لن أحدثك الا بالصدق ، أقسم لك . . .

وحملتني هذه الـ«اقسم لك» على الضحك من جديد ، فقالت في حماسة :

آه ، لا تضحك والا سألتك مثلما سألتني امس :
« لماذا تضحكين ؟ » .

وأضافت بعد قليل من الصمت :

— هل تذكر ما قلته لي امس عن الاجنحة ؟ .. لقد نبت لي جناحان ، ولكن لا مجال للتخليق .

فقلت :

— ولكن اسمحي لي ، ان امامك السبل مفتوحة كلها . . .
فحدقت آسية في عيني مباشرة ، ثم قطبت حاجبيها

وقالت :

— انك تطوي فكرة سيئة عني اليوم .

— أنا ؟ أطوي فكرة سيئة ؟ عنك ! . .

وقاطعني غاغين قائلاً :

— ما لكما اليوم مثل الماء المعتكر ؟ أترغبان في ان

أعزف لكما مقطوعة فالس كالامس ؟

فاعترضت آسية وهي تشد يديها :

— لا ، لا ، ليس اليوم ولا بحال !

— هدئي روعك فأنا لا أفرض الامر عليك فرضاً . . .

فعدت تكرر قولها وقد شاع الشحوب في وجهها :

— ولا بحال .

.

«أتراها تحبني ؟» — فكرت بهذا وأنا اقترب من الراين ،

وكانت امواجه القاتمة تتدفق مسرعة .

١٣

حينما استيقظت في صباح اليوم التالي كان السؤال

الذي خطر ببالي : «أتراها تحبني ؟» . لم أشعر بالنزوع

الى سبر أغوار نفسي . كانت طلعتها ، طلعة «الفتاة ذات

الضحك المصطنع» قد ملأت روحي ، ولم يبد أنني قادر على

التخلص منها في وقت قريب . ثم مضيت الى بلدة «ل»

فبقيت فيها طوال اليوم ، ولكني لم أر آسية الا خلال

لحظات ، فقد كانت متوعكة الصحة تشكو من الصداع .

اقبلت علينا ولم تترث . كانت معصوبة الجبين ، شاحبة ،

هزيلة ، مسترخية الجفون ، ابتسمت ابتسامة وانية

وقالت :

– طارىءٌ سيزول ، وكل شيء الى زوال ، أليس كذلك ؟
وذهبت .

شعرت بالضيق ، وبشيء من الأسى والفراغ ، ولكني شعرت بالرغبة في أن استأخر ذهابي ، فعدت في وقت متأخر من دون ان أراها مرة ثانية .

مرَّ الصباح التالي وأنا في يقظة تشبه الحلم ، أردت أن اشغل نفسي بعمل فما استطعت . كنت لا أرغب في العمل ولا في التفكير ولكني عجزت . فقامت أطوف في أرجاء البلدة ، ثم اعود الى البيت لأغادره من جديد .
وسمعت من ورائي صوتاً طفولياً يقول :

– هل أنت السيد «ن» ؟

التفت فرأيت صبيّاً . أضاف وهو يناولني رسالة :

– هذه لك من فراولين Annette .

فتحتها – فعرفت خط آسية المتعرج السريع ، وقد كتبت فيها تقول : «لا بد أن أراك . تعال اليوم في الساعة الرابعة الى المعبد الحجري القائم على الدرب الى جانب الاطلال . كنت شديدة التهور اليوم . . . سألتك الله أن تاتي وستعرف كل شيء . . . قلْ لحامل الرسالة : نعم» .
وسأل الصبي :

– هل من جواب ؟

فأجبت :

– قل لها ، إن الجواب نعم .

فانطلق الصبي راكضاً .

١٤

عدت الى غرفتي ، فجلست وغرقت في التفكير . كان قلبي يخفق خفقاً عنيفاً . . . أعدت قراءة رسالة آسية مرات ، ثم نظرت في الساعة : لم تكن بلغت الثانية عشرة .
فتح الباب ودخل غاغبين .

كان وجهه عابساً . أطبق على يدي وشدّ عليها بقوة ،
وكان يبدو في غاية الاضطراب .
سألته :

— ماذا حدث لك ؟

أخذ غاغين كرسيّاً وجلس قدّامي ، ثم بدأ حديثه
متلعثماً يرسم ابتسامة متكلفة :

— لقد أذهلتك بما رويته عليك منذ أربعة ايام ،
ولسوف أزيدك ذهولا اليوم . لو كان أمامي شخص آخر
سواك لما جرؤت . . . بهذه الصراحة ، ولكنك انسان
نبيل ، ثم انك صديقي ، أليس كذلك ؟ اسمع ، ان
أختي آسية تحبك .

انتفضت بكل جسيمي ، ونهضت قليلا . . .

— أتقول أختك ؟ . .

فقاطعني غاغين :

— نعم ، نعم ، أقول لك انها مخبولة ، وستدفع بي
الى الجنون . من حسن الحظ انها لا تستطيع ان تكذب ،
وهي تشق بي . آه ، يا لروح هذه الفتاة ، انها ستورد
نفسها موارد الهلاك لا محالة .

فقلت :

— لا بدّ أنك على خطأ .

— أبدا ، فما أنا على خطأ . لقد لزمت فراشها أمس ،
أكثر النهار ، وأنت تعلم ذلك ، فلم تذق طعاماً ، ولا نبرت
عنها شكاة . . . فهي لا تشكو أبداً . لم يداخلي القلق على
الرغم من الحمى الخفيفة التي ظهرت عليها في المساء . في
الساعة الثانية من هذه الليلة ، أيقظتني صاحبة البيت وقالت :
اذهب الى أختك فان حالتها تبدو سيئة . أسرع الى آسية
فاذا هي لا تزال في ملابسها ، كانت محمومة ، دامعة
العينين ، يتلهب رأسها ، وتصطك أسنانها . سألتها : « ماذا
بك ؟ هل أنت مريضة ؟ » ، فارتمت على عنقي وهي تتوسل

الى ان أرحل بها من هنا باقصى ما يستطيع من السرعة اذا كنت راغباً في الحفاظ على حياتها . . . لم أفهم شيئاً مما بها ، حاولت أن اهدى من روعها . . . فزاد نشيجها . . . وفجأة سمعت من خلال زفراتها . . . مختصر الكلام ، سمعت أنها تحبك . أوكد لك اننا على ما نحن عليه من راحة العقل ، قاصرون ولو بالتصور عن أن ندرك ما عندها من عمق في الشعور وبأي قوة يبرز لديها هذا الشعور ، فهو يفاجئها بشكل عاصف كأنه الصاعقة . - وتابع غاغبين الكلام فقال - : انك انسان في غاية الظرف ، ولكن لماذا أحببتك هكذا ؟ اعترف باني لا أدري لماذا . قالت انها اعتلقت بك من أول نظرة ، وهذا ما أهاجها على البكاء قبل ايام حينما كانت تؤكد لي انها لا تريد ان تحب احداً آخر غيري . تصورت انك تزدريها ، ورجحت أنك على علم بحقيقة أمرها ، وكان من الطبيعي ان اجيب : لا ، حينما سألتني : هل اطلعتك على حكايتها ، ولكن حدسها مخيف . انها لا تتمنى الا امرأ واحداً وهو الرحيل ، ان ترحل من فورها . بقيت ساهراً معها حتى انبلج الصباح ، لم تغف عيناها الا بعد ان وعدتها بأن نرحل في الغد ، ثم اني مضيت افكر وافكر حتى انتهيت الى قرار بان أحدثك بالامر . في اعتقادي ان آسية على حق ، فمن الخير لنا نحن الاثنيين ان نرحل من هنا ؛ كنت بسبيلي الى الرحيل معها اليوم لولا ان استوقفتني فكرة خطرت ببالي ، فقلت : من يدري ؟ قد تكون اختي اعجبتك ، فاذا كانت الحال كذلك فهل يحق لي ان أرحلها . على ذلك صممت على نبذ الخجل . . . ثم اني لاحظت امرأة . . . فاعتزمت . . . ان أعرف منك . . . واضطرب غاغبين المسكين وهو يضيف : - أرجوك ان تعذرني فأني لم أعود مثل هذه المواقف الحرجة .

فأمسكته من يده وقلت بصوت حازم :

- أتريد ان تعرف هل تعجبني أختك ؟ نعم انها

تعجبني . . .

المصيبة ينبغي ان اذهب الى لقاء آسية ، وان أصرحها بشرف ؛ على أن يبقى غاغبين في البيت من دون ان يبدي ما يدل على انه يعرف بأمر رسالتها ، ثم نلتقي مرة ثانية في المساء . وقال غاغبين وهو يشد على يدي :

— ان أملي بك وطيد . كن رحيما بي وبها ، فأننا راحلون غداً على كل حال .

ثم أضاف وهو ينهض واقفاً :

— ذلك لأنك على ما يبدو لن تتزوج بآسية .

فاعترضت قائلاً :

— أعطني مهلة حتى المساء .

— طيب ، ولكنك لن تتزوجها .

ما إن ذهب غاغبين حتى ارتميت على الاريقة وأغمضت عيني . كان رأسي يدور ، فأنا الاحاسيس التي اقتحمته دفعة واحدة كانت كثيرة . لقد ضاقت نفسي بصراحة غاغبين ، ومن آسية ، فأنا حبها أسعدني وأقلقني في آن واحد . ولم أستطع ان اهتدي الى السبب الذي دعاها الى البوح لآخيها بكل شيء ، كان يمزقني أن لا مناص من اتخاذ قرار سريع يشبه ان يكون وليد اللحظة . . .

قلت وأنا أهب واقفاً : «الزواج بفتاة في السابعة عشرة من عمرها لها مثل ذلك المزاج ، فهل هذا معقول ؟!» .

١٥

عبرت الراين في الموعد المحدد ، كان أول وجه صادفته على الشاطئ الآخر ذلك الصبي الذي جاءني في الصباح ، وكان ينتظرني فيما يبدو ، فقد همس اليّ وهو يضع في يدي رسالة أخرى :

— هذه من فراولين Annette .

أنبأتني آسية انها غيرت زمان اللقاء ومكانه ، فأنا عليّ ان أجيء بعد ساعة ونصف الساعة من الموعد الاول ، لا

الى المعبد بل الى بيت فراو لويزة ، وأن أقرع باب البناية
ثم أصعد الى الطابق الثالث .

وسألني الصبي :

— هل الجواب : نعم أيضاً ؟

— نعم .

وذهبت أتمشى على ضفاف الراين . لم يكن الوقت يسمح
لي بأن أعود الى البيت ، ولا كنت راغباً في ان أطوف
بالشوارع . كان وراء سور المدينة حديقة صغيرة مسقوفة
فيها مكان لهواة «الكرة الخشبية» وموائد لعشاق البيرة ،
فدخلتها ؛ ثمة نفر من الالمان الكهول يلعبون بهذه اللعبة ،
والكرات الخشبية تندحرج في ضوضاء لا تتظللها صيحات
الاستحسان الا في القليل النادر . حملت الي نادلة مليحة
الوجه باكية العينين كوباً من البيرة ، فلما نظرت في وجهها
استدارت بتعجل وتولت عني .

— اي نعم — قال رجل سمين أحمر الخدين من أبناء
البلد كان يجلس هناك — ان غانهينا في اضطراب شديد اليوم
فقد ذهب خطيبها الى الخدمة العسكرية .

نظرت اليها حيث انتبذت ركناً قصياً وجلست
مسندة رأسها الى يدها والدموع تنفر قطرات من خلال
أصابعها . طلب أحد الجالسين شيئاً من البيرة فحملت اليه
الكوب وعادت الى ركنها . لقد تأثرت بمصيبتها فأخذت
أفكر في الموعد الذي ينتظرنى ، كانت خواطرى كئيبه خالية
من المرح ، فأني ذاهب بقلب غير هادى الى لقاء لا ينتظرنى
فيه الاستسلام الى افراح حب متبادل ، بل الوفاء بعهد
قطعته لغاغبين وتنفيذ هذا الواجب العسير . كانت كلمات
غاغبين : « لا يجوز الهزل معها » تنفذ في روعي كالسهام .
ولكن ألم أتحرق ظمأ الى السعادة قبل أربعة ايام فقط وأنا
في هذا القارب المحمول على الأمواج ؟ لقد أصبحت السعادة
قريبة المنال ، وها أنا ذا أقف دونها متردداً ، أهم
بدفعها ، بل انى مضطر الى دفعها بعيداً عني . . . ان مفاجأتها

لي قد أشاعت الحيرة والارتباك في نفسي . واما آسية نفسها ، فانها على الرغم من رأسها الحامى وماضيها وتربيتها ، فان هذه المخلوقة الجذابة بل الغريبة بعض الشيء ، أقول ، لقد أخافتني . بقيت المشاعر تصطرع في داخلي وقتاً طويلاً . ثم اقترب الموعد المضروب ، فقررت في آخر الامر : «أنني لا أستطيع أن أتزوجها ، ولن تعرف أيضاً انني احببتها» .

نهضت فوضعت في يد غانهين المسكينة تاليرة (لم تنطق ولو بكلمة شكر) ثم توجهت الى بيت فراو لويزة . كانت ظلال المساء قد بدأت تسيل في رحاب الفضاء ، وفوق الشارع المعتم كانت فرجة ضيقة من السماء تبدو لامعة ببقايا الشفق القاني التي تركها الغروب . طرقت الباب طرقة خفيفاً فانفتح في الحال ، فلما تجاوزت وصيده وجدتني في ظلام دامس . وسمعت صوت عجوز تقول :

— هنا ، انها تنتظرك .

بعد خطوة او خطوتين متلمستين ، شعرت بيد هزيلة تطبق على يدي ، فسألت :

— هل أنت فراو لويزة ؟

فأجابني ذلك الصوت نفسه :

— هي أنا يا زينة الشباب .

قادتني العجوز الى أعلى في سلم شديد الانحدار حتى بلغنا باحة الطابق الثالث ، عندئذ رأيت على خيط ضعيف من النور يسقط من كوة صغيرة ، وجه أرملة العمدة المتغضن وابتسامتها المداهنة التي وسعت فمها الأهتم وضيق عينيها الحائلتي اللون . وأشارت نحو باب صغير ، ففتحته بيد مترددة ثم أغلقته ورائي .

١٦

كانت الغرفة الصغيرة التي دخلتها شبه مظلمة حتى اني لم اتبين آسية في الحال ، ثم رأيتها جالسة الى قرب

النافذة ، يلفها شال طويل ، وقد أدارت رأسها ، وأخفت وجهها او كادت ، فكأنها الفرخ المروّع . كانت أنفاسها تتلاحق ، وأوصالها ترتعد ، فاعتصري اشفاق عليها يفوق الوصف ، وأقبلت عليها فأشاحت عني برأسها ... فقلت :
- أنا نيقولايفنا .

فاعتدلت بكل جسمها فجأة ، ولكنها لم تقو على النظر اليّ ، فأمسكت بيدها ، كانت كفها باردة تسترخي كالمتية في يدي .

- كنت أتمنى - بدأت آسية الكلام وهي تحاول ان تبتسم فلم تطاوعها شفتاها الشاحبتان : - كنت أريد . . . لا ، فاني لا أستطيع - قالت ذلك وصمتت ، فصوتها في الواقع كان ينقطع عن النطق عند كل كلمة .
جلست الى قربها .

- أنا نيقولايفنا . - أعدت ندائي ولكني شعرت أيضاً بالعجز فلم أضف شيئاً .

وخيم الصمت . كنت لا أزال أمسك بيدها وأرنو اليها . أما هي فبقيت على حالها ، منكمشة على نفسها ، تتنفس بصعوبة ، وتعض على شفتها السفلى في هدوء لتستدفع الانتحاب وتحتبس مسال الدموع ... نظرت اليها : كان في سكونها المتهيب شيء من العجز يثير الرحمة ، فكأنها في جلستها قد سقطت على هذا النحو بعد ان أرهقها الجهد في الوصول الى مقعد ، وشعرت بقلبي يدوب بين جوانحي .
- آسية ، - قلت بصوت يكاد لا يسمع ...

فرفعت اليّ عينيها في بطاء ... ويالمنظرة المرأة العاشقة ، أين من يقدر على وصفها ؟ كانت هاتان العينان تفيضان بالثقة ، بالتساؤل ، بالاستسلام . . . غلبي سحر هاتين العينين ، واستشعرت في جسدي ناراً رفيعة تنفذ فيه كالابر المحمّاة ، فملت عليها ، وضممت كفها الى شفتي ...

التقطت اذني همساً مرتجفاً يشبه الزفرة المتقطعة ،

واحسست على شعري بلمس رقيق من يدها المرتعشة
كورقة الشجر . رفعت رأسي فرأيت وجهها ، ولشد ما
تغير هذا الوجه فجأة ! لقد تبددت منه صورة الخوف ،
وانطلقت نظرتها في الابعاد القصية وهي تشدني اليها
وتتجاذبي ، وانفرجت شفتها قليلا ، وشحب جبينها
شحب المرمم ، وانسابت خصلات شعرها الى وراء كأنها
تواجه الريح . لقد نسيت كل شيء . جذبتها الي فاستسلمت
يدها واستجاب جسدها كله ليدها ، انزلق الشال عن
كتفيتها ، واستراح رأسها في هدوء على صدري ، ثم رقد
تحت شفتي الملتهبتين ...

— إني لك ... — همست بصوت خافت .

انزلقت يداي حول خصرها ... ولكن ذكرى غاغب
لمعت في خاطري فجأة كالبرق ، فصحت وأنا اترجع الى
وراء : — ماذا نحن فاعلون ؟ .. إن أخاك ... إنه يعرف
كل شيء ... ويعرف أنني معك على لقاء .

انهارت آسية على الكرسي . تابعت كلامي وأنا أنهض
وأبتعد الى زاوية في أقصى الغرفة :

— نعم ، إن أخاك يعرف كل شيء ... لقد وجب
علي أن أفضي اليه بكل شيء .

— وجب ؟ — تمتم آسية بصوت ضائع ، كان واضحاً
انها لم تستعد زمام نفسها ، ولم تفهم من قولي الا قليلا .

— نعم ، نعم ، — قلت مكرراً في شيء من الحدة : — في
هذا أنت وحدك المذنب ، أنت وحدك . فعلام أفشيت سرک ؟
ماذا حداك على الافضاء الى اخيك بكل شيء ؟ كان أخوك
بالذات عندي اليوم ، وهو الذي نقل الي ما تحدثت به
اليه . — بذلت جهدي كي أتحاشى النظر الى آسية ، كنت
اذرع الغرفة بخطوات واسعة . — لقد ضاع كل شيء الآن ،
كل شيء ، كل شيء .

همت آسية أن تنهض عن الكرسي ، فصحت بها :
— تمهلي ، أرجوك . انك تتعاملين مع انسان شريف ،

– نعم ، مع انسان شريف . ولكن خبريني اكراماً لله ماذا
حداك الى القلق ؟ هل لاحظت علي شيئاً من التغيير ؟ اما
انا فما كنت قادراً على التكتّم حينما جاءني أخوك اليوم .
وفكرت : « ما هذا الذي أقوله ؟ » . كانت تجلجل في
رأسي هذه الفكرة ، وهي أنني كاذب عديم الاخلاق ، وان
غاغين يعرف أمر موعدنا ، وأن كل شيء أصبح شائهاً
مفتضحاً .

وسمعت آسية تقول في همس خائف :

– اني لم أدع اخي بل جاء من تلقاء نفسه .
فتابعت قولي :

– لقد فعلت ما فعلت ، فانظري ، وها انت بعد هذا
تريدين الرحيل ...

فهمست بصوت خفيض هادئ :

– نعم ، ينبغي ان أرحل ، وما رجوتك ان تأتي الى
هنا الا لأودعك .

فقاطعتها :

– هل تظنين ان فراقك سيكون سهلاً علي ؟

فكرت آسية في حيرة :

– واذن لماذا أخبرت أخي ؟

– افهميني ، لم يكن لي من سبيل آخر . ويا ليتك انت
لم تبوحني بسر قلبك ...

فاعترضت ببساطة :

– لقد حبست نفسي في غرفتي ولم أعرف ان صاحبة
المنزل عندها مفتاح آخر ...

كاد هذا الاعتراف البريء الذي نطقت به في تلك الدقيقة

ان يثير غضبي وقتذاك ... اما الآن فلا استطيع ان اذكره
من دون حسرة على الطفلة المسكينة الطاهرة الصادقة !

– وها هو كل شيء ينتهي الآن ! – بدأت الكلام من

جديد . – كل شيء ، وينبغي علينا ان نفرق . – ونظرت

خفية الى آسية ... فاذا وجهها يحمر فجأة ، وشعرت

بانها تعاني احساساً غامراً بالخجل والخوف ، كنت انما
ايضاً اذرع الغرفة وأهذي كالمحموم . - انك لم تتركي مجالاً
تنمو فيه العاطفة التي اخذت في النضج ، قطعت ما بيننا
من الاواصر ، لم تثقي بي ، شككت في أمري .

في أثناء مضيي بهذا الكلام كانت آسية تنحني شيئاً
فشيئاً الى الامام ، وفجأة سقطت على ركبتها ، ورمت
رأسها بين كفيها وهي تشهق من البكاء . أسرع اليها
وحاولت ان اعينها على النهوض فكانت تتعصى عليّ
وتستدفعني . لم يكن لي طاقة على احتمال دموع النساء ،
فاني لا أكاد أراها حتى أفقد صوابي في الحال :

- أنما نيقولا ييفنا ، آسية ، - قلت في الحاح :
- أرجوك ، أتوسل اليك ، كفاية اكراماً لله . . . - وأخذت
بيدها من جديد . . . لكنها وبالدهشتي ، هبت فجأة ،
واندفعت كومضة البرق نحو الباب ، واختفت .

حينما دخلت فراو لويزة عليّ الغرفة بعد بضع دقائق ،
كنت لا ازال واقفاً في وسطها كالمصعوق : لم افهم كيف
انتهى هذا اللقاء على مثل ما انتهى اليه من السرعة والحماسة .
انتهى قبل أن أقول ولو جزءاً صغيراً مما أردت ان اقول ،
ومما يجب عليّ ان اقوله ، بل قبل ان اعرف ما هو الحل
الذي ينبغي ان يختتم به هذا اللقاء . . .

سألني فراو لويزة وهي ترفع حاجبيها الاصفرين الى
أعلى جيئها :

- هل ذهبت الفراولين ؟

فنظرت اليها كالمثلاث وخرجت .

١٧

تركت المدينة ، وانطلقت في الحقول ، يمزقني الغيظ ،
وكان غيظاً مسعوراً . . . جعلت انحي على نفسي باللوائم :
كيف فاتني ان أدرك السبب الذي حمل آسية على تغيير مكان

اللقاء ، واي ثمن استأداها اللجوء الى هذه الحيزبون ، ولماذا لم امسكها عن الذهاب ! ففي تلك الغرفة الصماء الغبشاء التي انفردت فيها بأسية ، وجدت القوة والجرأة على صدها عني ، بل حتى على تانيبها . . . اما الآن فان صورتها تلاحقني ، وأنا اسألها الغفران ، وتحرقني منها الذكريات ، عن وجهها الشائب ، عن عينيها المبللتين الحائرتين ، عن شعرها المسترسل على عنقها المائل ، عن رأسها وهو يلتمس الاطمئنان على صدري . كنت أسمع همستها : « أنا لك » . . . فأؤكد لنفسي : « انني استجبت لنداء الضمير » . . . ولم يكن ذلك حقيقة ! فهل أردت مثل هذا الفراق بالذات ؟ هل كنت قادراً على الافتراق عنها ؟ هل أصير على الحرمان من قربها ؟ « مجنون ، مجنون ! » - كنت أردد ذلك بغضب . . .
وبين هذا وذاك أقبل الليل ، فتوجهت بخطوات واسعة الى البيت الذي تقيم فيه آسية .

١٨

خرج غاغبين للقائي ، وصاح قبل ان يصل اليّ :
- هل رأيت اختي ؟
فسألته :
- أليست في البيت ؟
- لا .
- أما عادت بعد ؟
- لا . - واضاف غاغبين قائلاً : - انا المسؤول في هذا ، فقد غلبني فراغ الصبر ، فذهبت الى المعبد على خلاف ما اتفقنا ، لم تكن هناك ، فهل اخلفت الميعاد ؟
- أنها لم تكن عند المعبد .
- ألم تقابلها ؟
فاضطرت الى الاعتراف بأني قابلتها .

- أين ؟
- في بيت فراو لويزة ، ثم افترقنا منذ ساعة .
وأضفت :
- كنت في يقين من أنها عادت الى البيت .
فقال غاين :
- سننتظر .
- دخلنا البيت ، وجلسنا بجانب بعضها البعض صامتين .
كنا في غاية الضيق ، لا ننقطع عن التلفت نحو الباب ،
واصاخة السمع ، ثم تهض غاين وهو يصيح :
- هذا شيء ما له شبيهه أبدأ ! أصبح قلبي على شعرة ،
وستقص عمرى أقسم بالله . . . هيا نخرج للبحث عنها .
خرجنا . وكان الظلام مطبقاً في الخارج .
سألني غاين وهو يشد قبعته على عينيه :
- وفيم جرى حديثك معها ؟
فأجبت :
- لم يستغرق لقائي بها سوى خمس دقائق ليس غير ،
حدثتها بما جرى عليه الاتفاق .
فقاطعني قائلاً :
- أتعرف ؟ من الخير لنا أن نفرق ، فهذا أجدى علينا
في البحث عنها ؛ ولتعد الى هنا بعد ساعة على كل حال .

١٩

انحدرت مسرعاً من الكرمة ، وانطلقت في المدينة أمسح
شوارعها جميعها بنظرة عجلى . نظرت في كل ناحية حتى في
نوافذ فراو لويزة ، ثم عدت الى الراين فقطعت شاطئه
ركضاً . . . صادفت قليلاً من الاجسام النسائية ، ولكني
افتقدت آسية في كل مكان . لم يعد يتأكلني الغيظ بل انه
الربع الخفي الذي يمزق الاوصال . . . ولكن لا ، فقد كنت
أشعر بالندم ، بحرقة الأسف ، بالحب ، بأرق ما يكون
الحب ! كنت أعتصر كفي وأنادي آسية في ظلمة الليل الزاحفة ،

ناديتها بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوتي شيئاً فشيئاً مكرراً
مئة مرة اني أحبها . أقسمت ألاّ افارقها أبداً ، كنت قميناً
بأن أهب كل ما في الوجود تلقاء تجدد عهدي بلمس يدها
الباردة ، والاستماع لنبرتها الخافتة ، ورؤيتها أمامي . . .
لشد ما كانت قريبة مني ، وقد جاءت اليّ بملء عزمها ،
بملء قلبها البريء واحساسها النقي ، وحملت اليّ شبابها
الذي لم يمسه بشر . . . فلم أضمها الى صدري ، حرمت
نفسى هناءة النظر الى وجهها الحبيب وهو يشرق بالغبطة
والابتهاج الهادى . . . كانت هذه الخاطرة تدفع بي الى
الجنون .

صرخت من قرارة يآسي العاجز : - « اين أمكنها أن
تذهب ، وماذا تراها صنعت بنفسها ؟ » تراءى لي في تلك
اللحظة طيف أبيض على الضفة ذاتها من الراين ، في موضع
كنت أعرفه من قبل ، فهناك يقوم صليب من الحجر غاص
نصفه في الارض ، حيث يثوي رجل مات غرقاً قبل سبعين
سنة او اكثر ، وعلى الصليب نقوش قديمة . فجمد قلبي في
صدري . . . ثم انطلقت أجري نحو الضريح ، وكان الطيف
قد اختفى ، صرخت منادياً : « آسية ! » ، فأرعبني صوتي
الرهيب ، ولم يرد عليّ احد .
اعتزمت ان أعود لأتبين هل وجدها غاغبين .

٢٠

كنت أصعد في الدرب خلال الكرمة حينما رأيت النور
يضيء في غرفة آسية . . . فهدأ روعي قليلاً .
واقتربت من الدار ، كان الباب الامامي مغلقاً . طرقته
ففتحت كوة غير مضيئة في الطابق الاسفل بيد محاذرة ،
وظهر رأس غاغبين . فسألته :
- هل وجدتها ؟
أجاب في همس :

— بل عادت ، وهي في غرفتها تستبدل ثوبها ، وكل شيء في مجراه .

فهمت مندفعاً بفرح يفوق الوصف :

— الحمد لله ! الحمد لله ! كل شيء في مجراه الآن ، ولكن لا بد أن نستأنف المحادثة .

— في وقت آخر— اعترض غاغبين وهو يجذب اليه اطار الكوة :— في وقت آخر ، اما الآن فوداعاً .
فقلت :

— الى الغد ؛ كل أمر سيكون مقضياً في الغد .

فكرر غاغبين قوله : «وداعاً» ، وانغلقت النافذة .

أوشكت أطرق على النافذة ، فقد أردت أن أقول لغاغبين آنئذ انني أطلب يد اخته . ولكن ما هذه الخطبة في مثل هذا الوقت ... فقلت في نفسي :— «الى الغد ، فاني سأكون سعيداً في الغد ...»

غداً اكون سعيداً ! ان السعادة ليس لها غد ، وليس لها امس ، فهي لا تتذكر الماضي ولا تفكر في المستقبل ، فانا بنت الحاضر ، وليس هذا الحاضر يوماً ، وانما هو لحظة .
لست أذكر كيف وصلت الى (ز) ، فلم تحملي قدمان ، ولا نقلني قارب ، وانما ارتفعت على اجنحة عريضة قوية .
وقد مررت قرب شجيرة فيها بلبل يغرد ، فوقفت أصنبي ، وخيل اليّ أنه يغرد بحبي وسعادتي .

٢١

حينما كنت اقترّب من البيت المألوف في صباح اليوم التالي ، أذهلني ان أرى النوافذ جميعاً مفتوحة على مصاريعها ، وكذلك الباب ؛ وعلى وصيده ينتثر بعض الاوراق ، واليه خادمة في يدها مكنسة .

اقتربت منها ... وقبل ان أسألها : «هل غاغبين في البيت ؟» ، بدتني قائلة :

– رحلوا !
– رحلوا ؟ .. – كررت قولها ... – كيف رحلوا ؟
الى اين ؟
– رحلوا اليوم صباحاً في الساعة السادسة ولم يقولوا
الى اين . ولكن لحظة ، ألا يبدو انك السيد « ن » ؟
.. نعم ، أنا السيد « ن » .
– لك رسالة مودعة عند صاحبة البيت .
وصعدت الخادمة الى فوق ثم عادت بالرسالة :
– هذه هي ، تفضل .
قلت :

– ولكن هذا غير ممكن ... كيف حدث ذلك ؟ ..
فحدقت الخادمة الي في غباء وأخذت في الكنس .
فتحت الرسالة التي كتبها غاين اليّ ، لم يكن فيها سطر
واحد من آسية ، وقد استهلها بالرجاء ألاّ أغضب من رحيله
المفاجئ ، وبالثقة من انني سأستحسن قراره بعد امعان
النظر في الامر ، فإنه لم يجد من هذا الضيق مخرجاً آخر بعد
ان تعقد الموقف وأنذر بالخطر . وكتب غاين يقول :
« لقد اقتنعت بأن الفراق ضربة لازم أثناء صمتنا ونحن
نجلس معاً منتظرين آسية ، فهناك تقاليد بالية أشعر لها
بالاحترام ؛ فلا يفوتني ان افهم لماذا يتعذر عليك ان تتزوج
آسية . لقد حدثني بكل شيء ، واضطرتني توفير الاستقرار
لها الى الاذعان لما طلبته هي في الحاح وشدة » . ثم أعرب
في خاتمة الخطاب عن أسفه على السرعة التي اقتضبت هذا
التعارف بيننا ، وتمنى لي السعادة ، وشدّ على يدي في ود ،
وتوسل اليّ ألاّ أجدّ في البحث عنهما .

صرخت وكأنّه يسمعي :

– أين موضع التقاليد هنا ؟ ما هذا العلك ؟ ومن أين
لك الحق في خطفها مني ؟ ..
وامسكت رأسي بيدي ...

انفلتت الخادمة تنادي صاحبة المنزل بصوت ثاقب ،
فأعادني فزعها الى رشدي ، وتأججت في باطني فكرة واحدة ،
وهي أن أجدهما ، ان أجدهما مهما كلف الامر . كان تقبل
الصدمة والاستسلام لمثل هذه القطيعة مما يفوق الطاقة .
علمت من صاحبة البيت انهما ركبا في الساعة السادسة
صباحاً سفينة أقلعت بهما متوجهة مع انحدار الراين . قصدت
ادارة الميناء فأنبئت هناك بانهما أخذتا بطاقتي سفر الى
كولونيا . مضيت الى البيت لأعفش متاعي وأركب النهر في
اثرهما . كان لا معدى لي عن المرور بقرب بيت فراو
لويزة ... وهناك طرقت سمعي صوت يناديني . رفعت رأسي
فرايت أرملة العمدة تطل من نافذة الغرفة التي قابلت فيها
آسية أمس ، كانت تدعوني بابتسامتها المكروهة ، فأدبرت
عنها وتابعت طريقتي ، ولكنها صاحت ورائي تقول ان
عندها شيئاً لي . استوقفتني هذه الكلمات فدخلت بيتها .
وكيف يحيط الوصف بالمشاعر التي انتابتني وانا ارى هذه
الغرفة مرة ثانية ...

قالت العجوز وهي تعرض علي رسالة صغيرة :
— كان المفروض ان أسلمك هذه الرسالة اذا مررت بي
من تلقاء نفسك ، ولكنك شاب رائع فأليك بها .
أخذت الرسالة .

كانت رقعة صغيرة من الورق تحمل هذه الكلمات مسطورة
في تعجّل بالقلم الرصاص :

«الوداع ، لن يرى احدنا الآخر بعد اليوم . اني لم أرحل
بدافع من الكبرياء— لا ، فما كان لي من سبيل آخر . لقد
بكيت أمامك أمس ، ولو أنك قلت لي كلمة واحدة ، كلمة
ليس غير— لآثرت ان أبقى ، ولكنك لم تقلها ، ويبدو ان هذا
هو الاحسن ... فوداعاً الى الأبد !»

كلمة واحدة ... آه ، اني لمجنون ! فقد قلت هذه
الكلمة من قبل ... رددتها بين الدموع ... أطلقتها مع
الريح ... أكدتها في رحاب الحقول ... ولكنني لم أقلها لمن

ينبغي أن تقال له ، لم أقل لها انني أحبها . . . نعم ، لم أستطع وقتذاك ان أنطق بهذه الكلمة . فعندما قابلتها في تلك الغرفة النحاس ، لم اكن قد تبينت عاطفتي بجلاء ، لم يتفتح هذا الادراك حتى وانا جالس مع اخيها يخيم علينا ذلك الصمت الثقيل الاجوف . . . ولكنه اندلع بقوة طاغية بعد لحظات فقط ، حينما كنت أبحث عنها وأناديها بقلب مفزوع من ان يكون في الامر كارثة . . . ولكن ذلك جاء بعد فوات الاوان . قد يقال : « ان هذا مستحيل ! » ، ولا ادري أتكون الحال كذلك ام لا - ولكن ما أعرفه ان هذا حقيقة : ان آسية ما كانت لترحل لو انها على مسحة من التنجع ، او كان وضعها خالياً من الزيف . انها لم تكن تطيق ما يمكن ان تطيقه اي فتاة غيرها ، وهذا ما فاتني ان ادركه ؛ لقد احتبست ألمعيتي المشؤومة اعترافاً كان على فمي أثناء لقائي الاخير بغاغبين امام النافذة المظلمة ، وبذلك أفلت من يدي الخيط الاخير الذي بقي مما أتعلق به .

عدت الى مدينة «ل» في ذلك اليوم نفسه ومعى حقيبة عيابي ثم ركبت قاصداً كولونيا . وأذكر ان السفينة أقلعت وانا على ظهرها أودع بالفكر هذه الشوارع بكل ما فيها من الاماكن التي قدر عليّ ان لا انسها ما حييت . وهنا رأيت غانهبين . كانت تجلس على مصطبة تشرف على النهر ، شاحبة الوجه ولكن في غير حزن ، والى جنبها فتى جميل الطلعة يحدثها ويضحك . وعلى الضفة الاخرى من الراين ، كانت عذرائي الصغيرة لا تزال ترنو بنظرها الأسوانة ، وقد تراءى لي تمثالها من خلال الخضرة القاتمة التي تنشرها شجرة السنديان العتيقة .

٢٢

في كولونيا وقعت على أثر لآل غاغبين . عرفت أن الاخوين سافرا الى لندن ، فتبعتهما ، ولكن البحث عنهما في لندن انتهى الى اخفاق . بقيت وقتاً طويلاً أدافع عوامل الاستسلام

واقاوم ، ثم اضطررت في نهاية المطاف الى التسليم بانني
فقدت كل أمل في العثور عليهما .

لم أرهما فيما بعد - لم أر آسية . بلغتني شائعات مظلمة
عنه ، اما هي فقد اختفت ، واختفى عنها كل اثر وخبر ،
بل اني لا اعرف أهي باقية على قيد الحياة ام لا . وفي ذات
يوم ، بعد مرور بضع سنين ، وكنت خارج حدود البلاد ،
لمحت امرأة في عربة القطار ، فذكرني وجهها في وضوح بتلك
القسمات التي لا تنسى . . . ولكن المرجح انني خدعت بهذا
الشبه الذي جاء بالمصادفة ؛ وبقيت آسية في خاطري هذه
الفتاة التي عرفتها في أزهى مراحل العمر ، ورأيتها آخر مرة
وهي تميل على مسند كرسي خفيض من خشب .

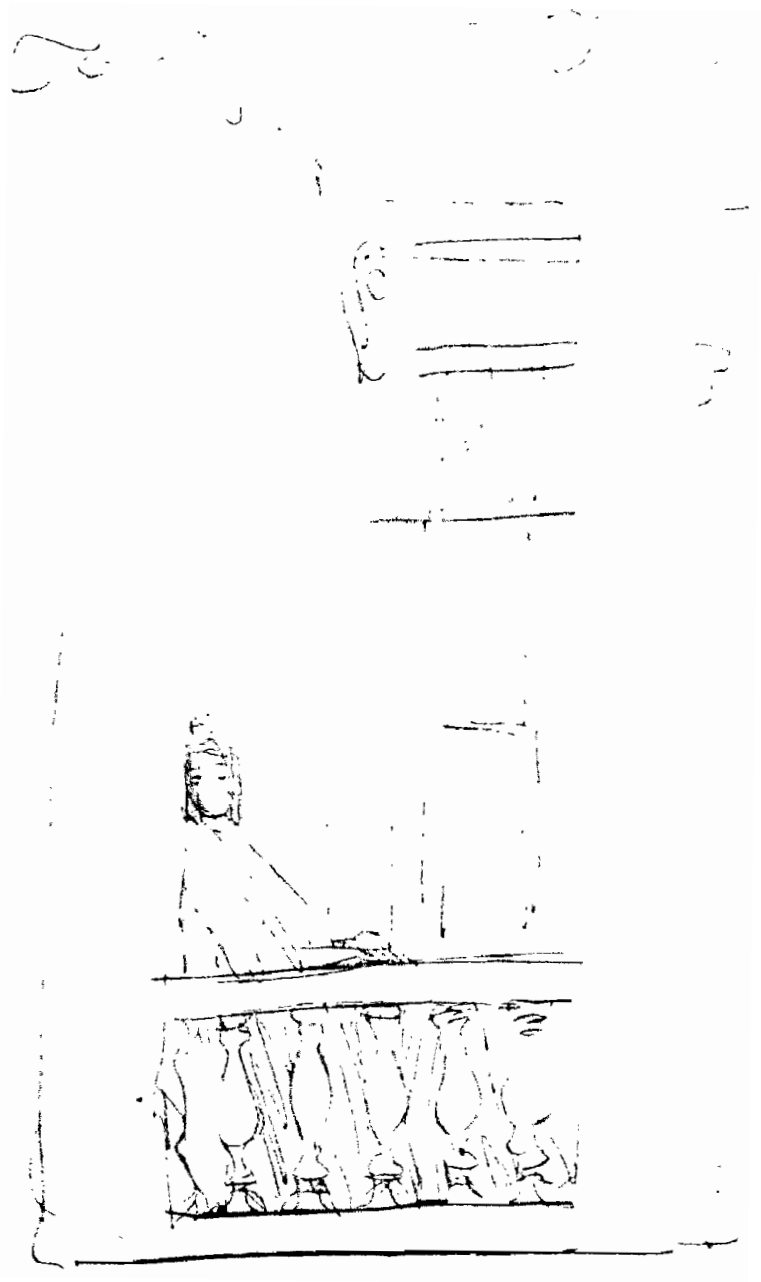
ولكن لا بد من الاعتراف بأن حزني عليها لم يستمر وقتاً
طويلاً ، وزدت على هذا فوجدت أن القدر أحسن صنعاً حين
ابى أن يجمع بيني وبين آسية ؛ وعزيت نفسي بالاعتقاد
ان زوجة على هذه الشاكلة لن تهيب لي أسباب السعادة .
كنت شاباً وقتذاك ، وكان المستقبل ، هذا المستقبل القصير
السريع ، يبدو لي رحيباً بغير نهاية ، وفكرت : ألا يمكن ان يتكرر
ما كان ، على وجه أبداع وأروع ؟ . . ثم عرفت من عرفت من
النساء ، ولكن العاطفة التي أثارها آسية في نفسي ، بما
في هذه العاطفة من التوقد والرقّة والعمق ، لم تتكرر فيما
بعد . كلاً ! فما كان بين العيون بديل يعوضني من هاتين
العينين اللتين رأيتهما ذات حين ترتوان اليّ في حب ، ولم
يستجب قلبي بمثل هذا الخشوع وهذا الفرح العذب لأي
قلب آخر خفق على صدري ! وفي هذه الوحدة التي يحكم بها
عليّ ، على أعزب محروم من الاسرة ، فأني أعيش سنواتي
الاخيرة الموحشة ، ولكني أحتفظ بمثل ما يكون الحفاظ على
المقدسات برسالتين الصغيرتين ، وبزهرة الغيرانيوم التي
رمتني بها من نافذتها . انها جافة الآن ، ضعيفة العبير ، اما
اليد التي أعطتني اياها ، هذه اليد التي لم أرفعها الى شفتي
الا مرة واحدة ، فقد تكون ثاوية في قبرها منذ زمن بعيد . . .

وانا نفسي ، الى أي مصير صرت ، ما الذي بقي مني ، ومن تلك الايام السعيدة المضطربة بالانفعالات ، ومن تلك الاحلام والمطامح المجنحة ؟ .. واذن ، فأن نفحة خفيفة من عشب تافهة ، أقدر على البقاء من أفراح الانسان وأحزانه كلها ، بل هي أقدر على البقاء من الانسان نفسه .

سنة ١٨٥٧

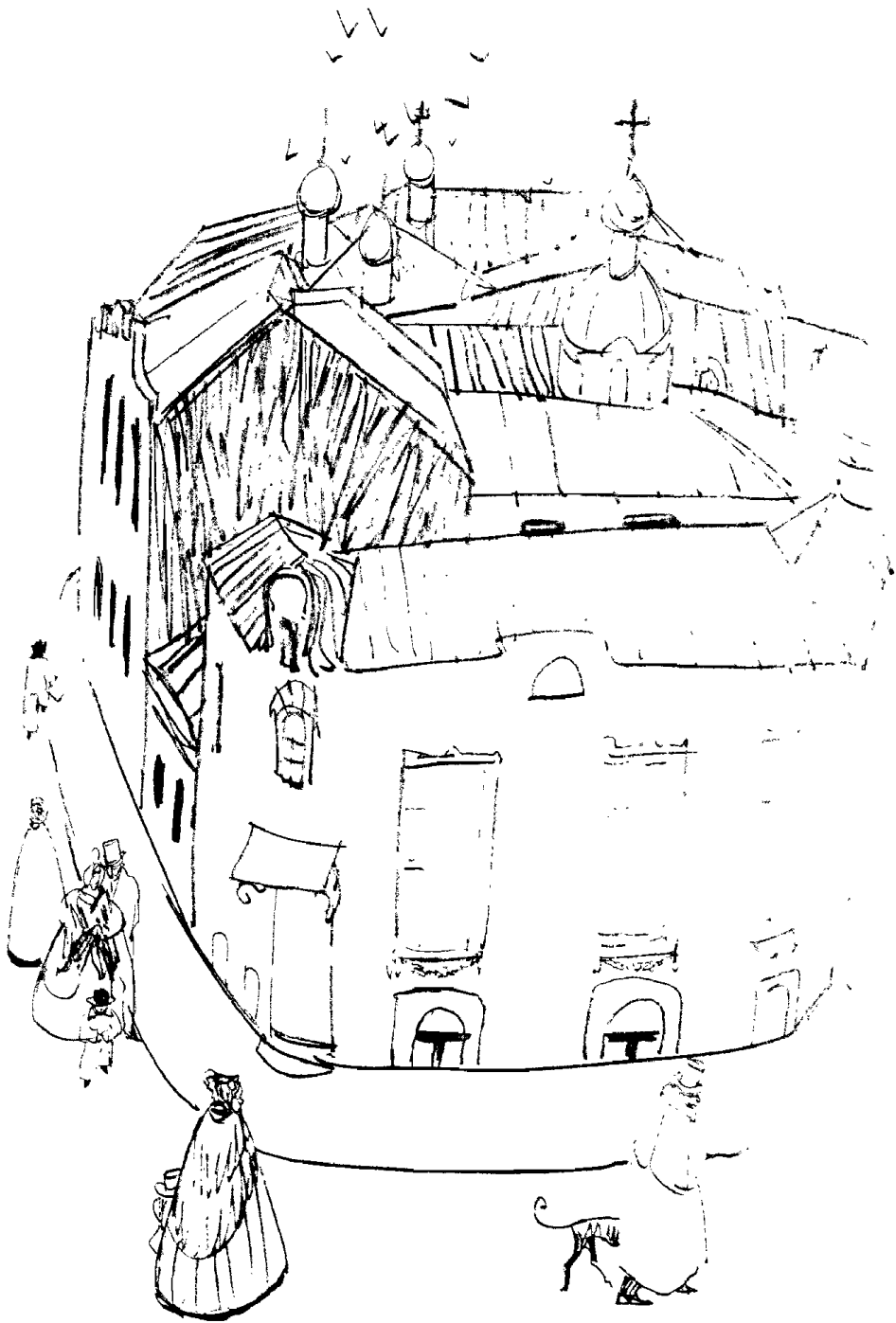


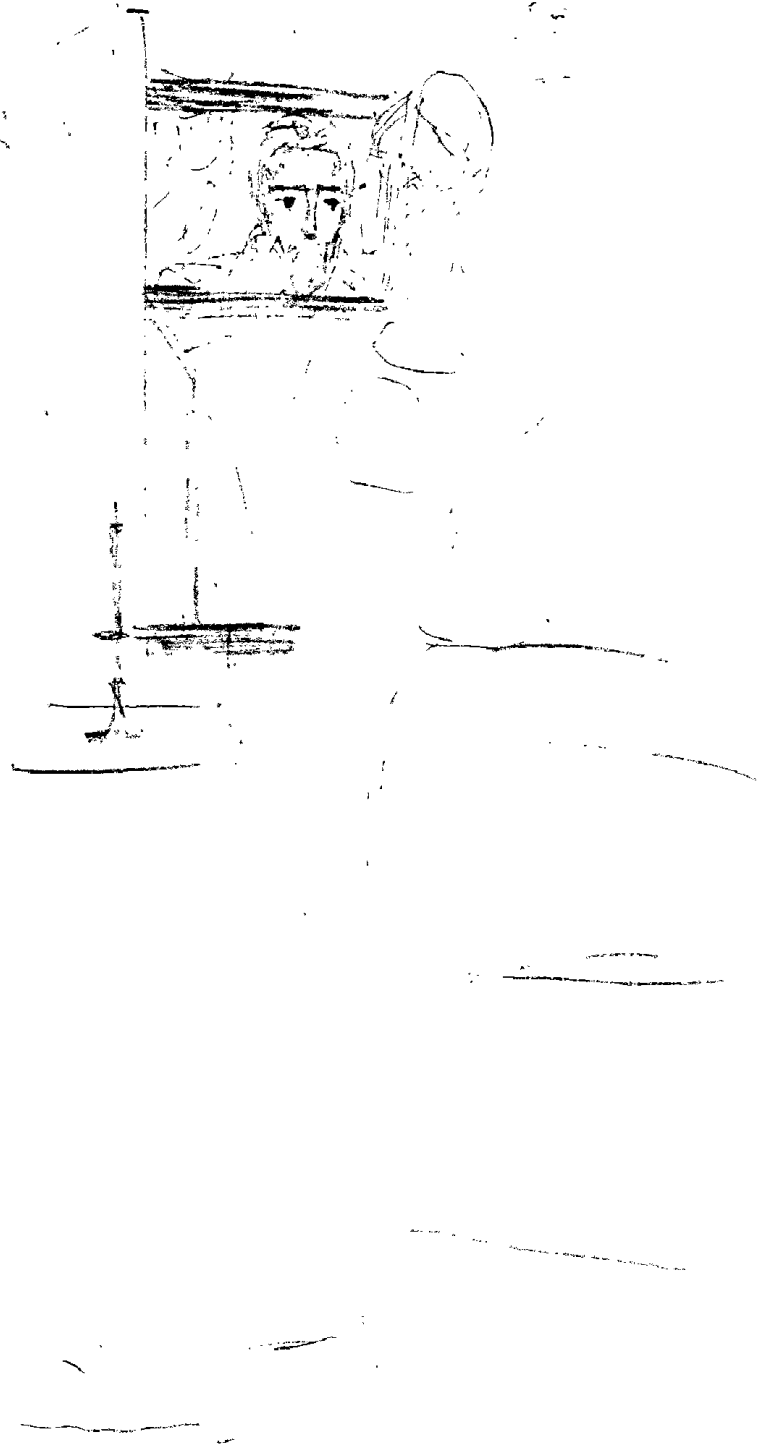














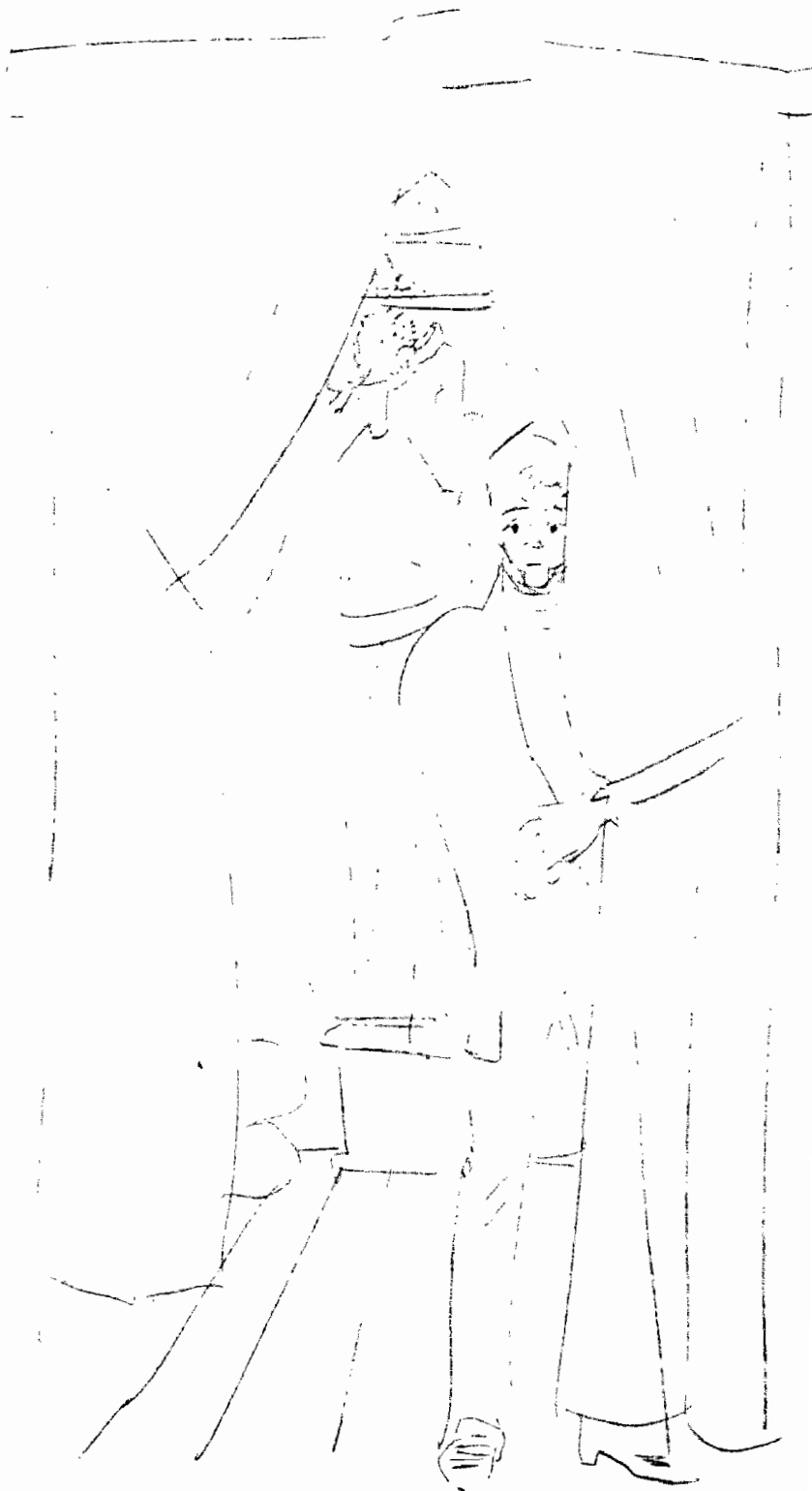
الحبّ اللّوئ

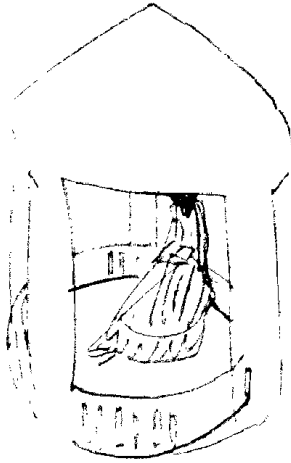


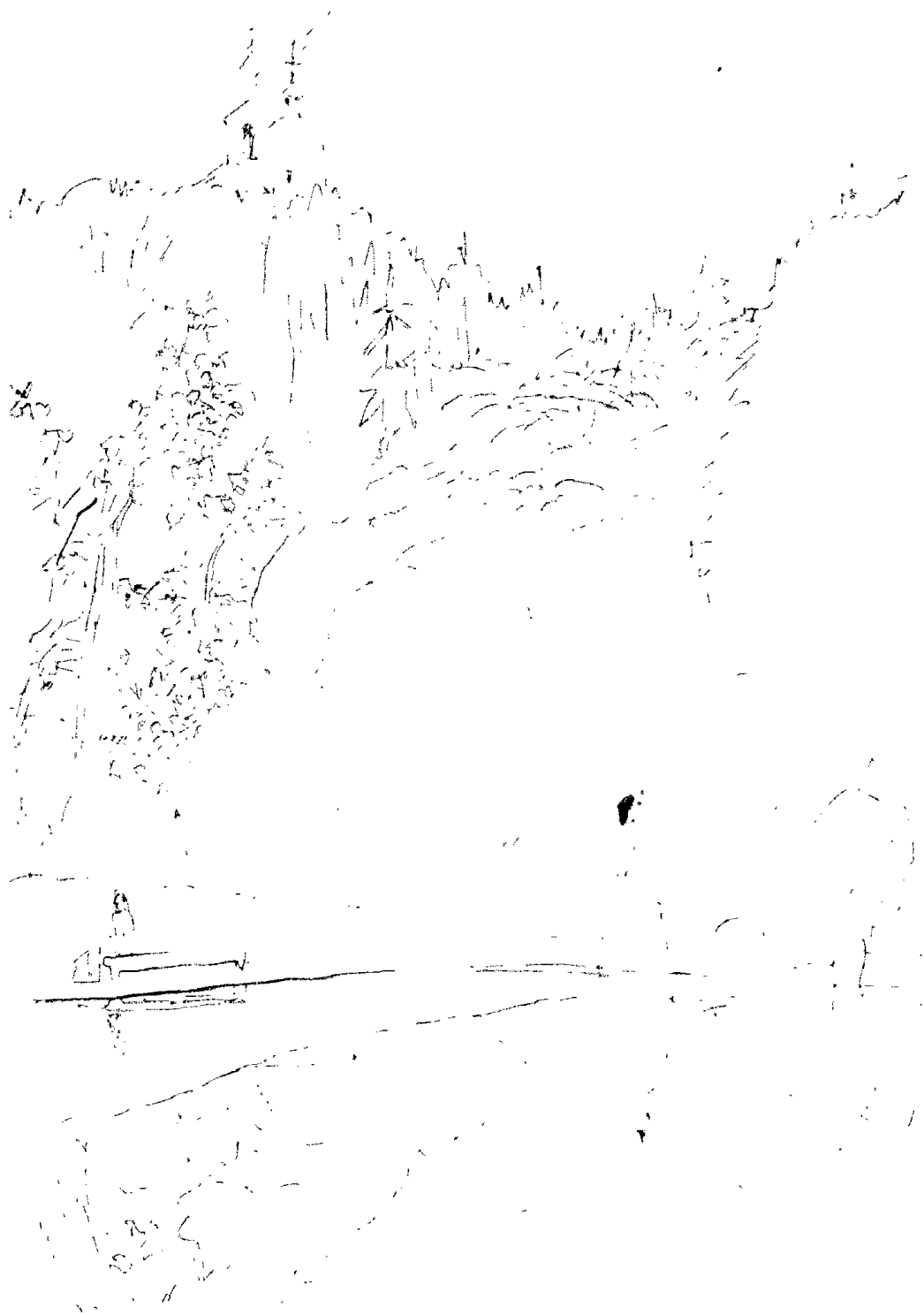












. . . كان الضيوف قد انصرفوا منذ وقت طويل
ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الواحدة ، ولم يبق في
الغرفة الا صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش وفلاديمير
بتروفيتش .

قرع صاحب الدار جرسا يدعو الخادم الى لملمة آثار
العشاء عن المائدة ، ثم قال وهو يسترخي في مقعده وييده
سيجار :

— واذن فقد اتفقنا على أن يقص كل منا قصة حبه
الأول ، وهذا دورك يا سيرغي نيقولايتش .

فالتفت سيرغي نيقولايتش ، وهو رجل جسيم لحيم
منتفخ الوجه ، أبيض البشرة ، أشقر الشعر ، ونظر الى
صاحب الدار ، ثم رفع بصره الى أعلى ، وقال بعد لأي :

— لم يكن لي حب أول ، وانما بدأت بحبي الثاني .
— وكيف كان ذلك ؟

— لا أبسط . كنت في الثامنة عشرة من عمري حينما
تصبّيت ، أول مرة ، فتاة جميلة ، ولكنني تصرفت كأنما

ليس في الأمر جديد ، وكما تصيبت غيرها فيما بعد .
والواقع ، أن غرامي الأول والأخير ، كان بمرييتي ، وأنا في
السادسة من عمري ، ولكن هذا أصبح ذكرى بعيدة ، دارسة
المعالم . ولو أني وفقت الى ابتعاثها فمنذا الذي يلقي اليها
ببال ؟»

فقال صاحب الدار :

— ما العمل اذن ؟ لم يكن في غرامي الأول مستطرف
يغري بالاستماع ، فما صبوت الى امرأة حتى التقيت زوجتي ،
ولا تزال ، أنا ايفانوفنا . وقد سار كل شيء في لين ويسر ،
فدبر والدانا أمورنا ، وما أسرع ما تبادلنا الحب ، فابتدرنا
الزواج . لا تزيد قصتي على كلمتين . لست أكتمكم أيها
السادة ، أني كنت موصول الأمل بكما حينما أثرت موضوع
الحب الأول ، فأنكما وان لم تطعنا في السن ، فما أنتما من
العازبين الشباب ، فهل لك يا فلاديمير بتروفيتش أن تمتعنا
بما يحضرك ؟

فقال فلاديمير بتروفيتش في تردد ، وهو رجل في الاربعين
من عمره ، وخط المشيب شعره الاسود :

— ان حبي الاول ، يتجاوز في الواقع حدود
المألوف .

— آ ! — صاح صاحب الدار وسيرغي تيقولايتش في
آن . — ذلك خير فارو علينا حديثك .

— لا مانع ، ولكن أستسمحكما بالأف فعل فما أنا ممن
يجيدون الرواية ، فقد تأتي جافة بايجازها ، او زائفة
باطنابها ، ولو أذنتما في أن أكتب ما تسعفني به الذاكرة ،
وأتلوه عليكم فيما بعد .

رفض رفيقاه هذا العرض أول الامر ، ولكنهما انتهيا الى
ما ارتآه فلاديمير بتروفيتش ، وقد وفي بما وعد حين اجتمعوا
بعد أسبوعين . وها هو ذا ما جاء في أوراقه :

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد حدث ما سأرويهِ
في صيف العام ١٨٣٣ .

كنت أعيش في موسكو مع أبويّ ، وكانا قد استأجرا
دارة* قرب بوابة كالوجسكايا ، تجاه حديقة « نيسكوتشني
ساد » . وكنت أستعد لدخول الجامعة ، فأدارس ولكن في
ريث وتمهّل .

كانت حريتي مدى مفتوحاً ، لي فيه أن أفعل ما أشاء ،
وبخاصة بعد أن حلّ عني معلمي الأخير ، وهو رجل فرنسي
لم يكن لينسى أنه سقط على روسيا كالقنبلة (comme une
bombe) ، فكان يتمدد في سريره طوال النهار ، وعلى وجهه
سمة الغضب .

كان أبي يأخذني باللطف من دون اكتراث ، وأما أمي ،
فأثها تكاد لا تشعر بأمرى ، على الرغم من أني وحيدها ،
لأنها في شغل شاغل بهموم قلبها . كان أبي شاباً جميلاً ،
وقد تزوجها لثرائها ، وهي تكبره بعشر سنين . فكانت حياتها
تتصرم أسوانة حزينة ، فما تقيم الا على قلق ، وغيره ،
وغضب ، ولكنها تتكتم ذلك كله في حضرته ، إذ كانت تتهيّبه
وتخشاه ، وكان هو في سلوكه ، بارداً صارماً عديم
الاكتراث . . . لم يقع بصري على من يضارع أبي في رزانتة
واعتداده بنفسه وقوة تأثيره .

لن أنسى الأسابيع الأولى التي قضيتها في تلك الدارة ،
كان الجو رائعاً حينما غادرنا المدينة في التاسع من شهر توار
(مايو) ، وهو يوم القديس نيقولاى ، وكنت تارة أتجول في
حديقة دارتنا ، او في حديقة « نيسكوتشني ساد » ، او أتخطى
حدود البلدة . وكنت أتأبط ما يقرأ ، مثل كتاب كايدانوف
المدرسي ، او مما على هذه الشاكلة ، ولكني أكاد لا أفتحه

* ما يقابل معنى الفيلا ، او الداتشا عند الروس . (المترجم) .

الا في النادر ، بل كنت اقضي اكثر الوقت في انشاد الشعر الذي اُجيد حفظ الكثير منه وانشده بصوت عال . كان دمي يفور ، وقلبي يخالطه ألم لذيذ غريب ، كنت في حال من الترقب لأمر ، والخوف من هذا الامر ، أراني مدهوشاً من كل شيء ، مترقباً كل شيء ، كان خيالي يلعب ، ويحوم مسرعاً حول عدد من الآراء ، يبدى فيها ويعيد ، كما يحوم طير الخطاف حول برج الناقوس عند انشقاق الفجر . كنت استغرق في التفكير او أغرق في الأسى ، وقد يستبد بي البكاء ، ولكن خلل الدمع والشجي ، يبتعثهما شعر عذب او مساء جميل ، كان ينبثق هذا الشعور من المراح الذي تصطبغ به حياة الشباب ، كما يبرض العشب من الثرى في الربيع .

كان لي جواد ، فكنت أسرجه بيدي ، وأنطلق به وحيداً ، بعيداً ، وأنا أتصور أنني فارس في حلبة (ويا للغبطة حينما كانت الريح تصفر في أذني) ، او أرفع وجهي الى السماء ، لأنهل بملء روعي من اشراقها وزرقتها .

أذكر أنني حتى ذلك الحين ، لم أكن قد تمثلت صورة المرأة ، ولا الأثارة من حب المرأة ، على نحو واضح ، ولكن كل ما افكر فيه ، وكل ما أشعر به ، كان ينطوي على شبه احساس مسبق خفي حبي بشيء لذيذ انثوي .

كانت هذه الخواطر ، وهذا الترقب ، تخالط كياني جميعاً ، فأتنفس بها ، وأستشعرها نبضاً في عروقي ، وفي كل قطرة من دمي . . . وما أسرع ما تهياً لها أن تتحقق . كانت دارتنا تتألف من بيت كبير مزين بأعمدة ، ومن جناحين منخفضي السقف ، كان في أحدهما الواقع في الجانب الأيسر ، مشغلة صغيرة لصنع ورق الجدران الرخيص . فكنت أتردد عليها كثيراً لأرى الى نفر من صبيان نحاف عجاف ، شعث غبر ، في أسمال قدرة ، ووجوه شاحبة ، وهم يتوثبون على أمخال من الخشب ، حملت على اطار المطبعة المستطيل ، ضاغطين بثقل اجسادهم الضامرة ، لطبع الزخارف الملونة على

الورق . وكان الجناح الأيمن خالياً معروضاً للاستئجار .
في ذات يوم ، بعد مضي ثلاثة أسابيع على التاسع من
شهر نوار (مايو) ، انفتحت النوافذ في هذا الجناح ، وظهرت
فيها وجوه نسائية ، ذلك أن إحدى الأسر قد انتقلت إليه .
أذكر أن أمي سألت الوصيف في أثناء الغداء : من يكونون
جيراننا الجدد ؟ فلما سمعت اسم الأميرة زاسيكيينا ، قالت
في شيء من التهيب : « آه ... أميرة » ، ثم أضافت قائلة :
« لعلها أن تكون في عسر » .

وقال الوصيف وهو يضع في احترام طبقاً على المائدة :
— لقد أقبلوا في ثلاث عربات ، ولكنهم لا يملكون عربة
خاصة ، وكان المتاع رخيصاً .
فقلت أمي :

— نعم ، ولكني مسرورة على كل حال .
وعندئذ رماها أبي بنظرة باردة فسكتت .
وما كان للأميرة زاسيكيينا ، أن تكون في الواقع ، امرأة
من أهل الثراء ، ذلك أن الجناح الذي استأجرته ، كان على
حال من التهافت والضيق والوطاء ، تتأبى فيها أي أسرة أن
تسكنه ، إذا كانت على شيء من أسباب اليسر . ولكني ما
كنت لأبالي بهذا الحديث وقتذاك ، ولم يؤثر في لقب الأمارة ،
لأن عهدي بمطالعة مسرحية « اللصوص » لشيللر لم يكن
بعيداً .

٢

درجت على عادة التطواف كل مساء في حديقة الدارة ،
ومعي بندقيّة ، هناك كنت أتربص للغربان ، مدفوعاً بشعور
قديم من الكراهية لهذا الطائر المستريب الماكر المفترس .
وتوجهت إلى الحديقة في ذلك اليوم الذي أتحدث عنه ، وبعد
أن سلكت مسارها جميعاً على غير طائل (كانت الغربان قد
عرفتني فاخذت تنعب من بعيد بصرخات قصيرة) رأيتني

فجأة قرب السياج الخفيض الذي يفصل بين أرضنا ، وبين حديقة ضيقة ، واقعة وراء الجناح من الناحية اليمنى وتابعة له . فذهبت أسير مطرقاً برأسي ، فإذا أصوات تطرق سمعي ، فنظرت عبر السياج ، فجمدت حتى لكأنني أصبحت حجراً ، ذلك أنني أبصرت مشهداً ولا أعرب .

فهناك على بعدة خطوات من موقفي ، عند منفسح بين شجيرات توت خضر ، كانت تقف فتاة سامقة القدر رشيقة اللفتة ، في فستان وردي مخطط ، ومنديل أبيض على رأسها ، وحولها أربعة شبان ، وهي تجبههم بتلك الأزهار الرمادية الصغيرة التي لا أعرف اسمها ، على حين يعرفها الأطفال جميعاً ، وتكون تَواويرها حقايقاً صغيرة ، تنفجر وتطق إذا اصطدمت بجامد . كان الشبان يعرضون جباههم مغتبطين . وكانت لفتات الفتاة وإيماءاتها - وكنت أرى إليها من جانب - تنطوي على قدر من الجلال والحنو والجازبية وعلى شيء من السلطان والسخرية ، أكاد فيه أن أصرخ من الإعجاب والرضى ؛ كنت على استعداد لأن أعطيها العالم ، تلقاء لمسة تجبهني بها هذه الأصابع الرقيقة . أنزلق سلاحي على العشب ، وأنا ذاهل عن كل شيء ، سوى النظر إلى هذا القوام الأهيف ، وهذا الخصر الهضيم ، وهذا العنق المستقيم ، وهاتين الذراعين الجميلتين ، وهذا الشعر الأشقر تطل ذوائبه من ثنيات منديلها الأبيض ، وهاتين العينين الذكيتين الناعستين تظلكهما رموشها الوطف ، وهذا الخد الأسيل تحت تلك الرموش الوطفاء . . .

- أيها الشاب ، - ارتفع صوت على قربي - أمن المباح أن تحملق على هذا النحو في فتيات لم تتعرف اليهن ؟
فانتفضت بالمفاجأة ، ولم أحر جواباً . كان ثمة رجل ذو شعر أسود قصير يقف قريباً مني وراء السياج ، ويرمقني بنظرة ساخرة ، وتلفتت الفتاة في اللحظة ذاتها نحوى . . .
فرايت العينين الرماديتين الكبيرتين في وجهها الطلق الممراح ، وترتعش قسمات هذا الوجه فجأة بالضحك ، فتتلاها أسنانها

البيضاء ، ويشيل حاجباها . . . فاحمررت وأخذت سلاحي
من الارض ، وانطلقت الى غرفتي ، تصخب ورائي ضحكات
مرنان ، ولكنها بريئة من سوء . ارتميت على السرير مخفيا
وجهي بكفي ، وقلبي يتوثب في صدري ، وشعور بالخجل
والمرح في آن يملأ نفسي ، وانفعالات ما عهدت مثلها من قبل
تضطرب في أعماقي .

وبعد أن استرحت قليلا ، قمت أمشط شعري ، وأصلح
من أمري ، ثم نزلت لتناول الشاي ، كانت صورة الفتاة
الشابة تتلامح أمامي ، وحرار قلبي الى السكينة بعد توثبه ،
ولزبته خفقة لذيذة .

سألني أبي فجأة :

— ما بك ؟ هل قتلت غراباً ؟

فوددت أن أروي عليه ما حدث ، ولكني أمسكت ، وانا
أبتسم في داخلي ، ولا أدري لمْ درت على كعب واحد ثلاث
مرات قبل أن استلقى في الفراش ، ثم تطيبت ، ونمت طوال
الليل كالقتيل ، ولم أستيقظ الا لحظات عند الفجر ، حيث
رفعت رأسي ، ونظرت فيما حولي في غبطة ، وعدت أستغرق
في النوم .

٣

كان أول ما خطر لي حينما استيقظت في الصباح : « كيف
السبيل الى التعرف بهم ؟ » ، وقبل أن أتناول الشاي ،
ذهبت أسعى الى الحديقة ، دون أن أمضي قريباً من السياج ،
ولم أر أحداً هناك ، ثم خرجت بعد الفطور أقطع الشارع
الممتد امام الدارة ، ذهابا وجيئة ، وأنا أرامق النوافذ من
بعيد . . . وخيل اليّ أنني لمحت وجهها من شقوق الستائر ،
فابتعدت في خوف ولهُوَجَة ، ولكني فكرت : « بل ، يجب أن
أتعرف إليها » ، كنت أتبطأ في السير حول بقعة الارض
الرملية امام حديقة « نسكوتشني ساد » : « ولكن كيف ؟ »

هذا هو السؤال» . وتذكرت أدق التفاصيل من صورة لقاء
الأمس ، فكانت ضحكتها مني أبرز ما بقي في الذاكرة . وعلى
حين كنت أجهد نفسي في تدبّر الخطط ، كان القدر يشد
أزري .

ففي أثناء غيابي عن المنزل ، تلقت أمي من جارتها
الجديدة رسالة ، في ورق رمادي ، كان مختوما عليها
بالشمع الذي يختم به على مغلفات البريد وزجاجات الخمر
الرخيص . وجاء في هذه الرسالة التي كتبت بخط رديء
وملئت بالغلط ، ما يفيد بأن الأميرة تطلب من أمي أن تظلمها
بحمايتها ، لأن أمي ، على حدّ ما ورد في الرسالة ، وثيقة
انضلة بجماعة من أهل الحل والربط ، في يدهم مصيرها ومصير
أبنائها ، بخصوص عدد من القضايا الخطيرة . وقد كتبت :
« اني استصدقكم كامرأة نبيلة الى امرأة نبيلة ، وانا مسرورة
بتسنّح * هذه الفرصة» . وختمت رسالتها بأن التمتست
من أمي أن تسمح باستقبالها . ورأيت أمي في حرج من
أمرها ، فما كان أبي في البيت ، ولم يكن هناك من تشاوره في
الموضوع ، ولا يُعقّلُ أن يُمسك الجواب عن «امرأة
نبيلة» ، بله أميرة . ولكن ما سبيلها الى الاجابة ؟ فما كانت
لتستطيع أن تجيب باللغة الفرنسية ، وهذا ما يناسب المقام ،
وكان علمها بقواعد اللغة الروسية دون المستوى الملائم
للكتابة ، وانها لتعرف ذلك ، وتابى عليها الكرامة أن تكشف
هذا الضعف ، ولهذا فرحت بعودتي ، وأمرتني بأن أذهب
فوراً الى الأميرة ، وأنبئها مشافهة بان أمي على استعداد
دائماً لأن تبذل ما تستطيع من اجل سمّوها ، وانها حاضرة
لاستقبالها في الساعة الواحدة تقريبا . انّ تحقق أمنيّتي
الخافية على هذا النحو المبالغت قد ملأني بالفرح والخوف

* واضح أن الغلط الوارد هنا يصور الغلط الوارد في رسالة
الأميرة . كقولها استصدقكم بدلا من اصدقكم ، وتسنّح بدلا من
سنوح . (المترجم) .

في آن . ولكني طويت ما كنت استشعره من الاضطراب ،
ومضيت الى غرفتي كي أضع رباط عنق جديداً ، وارتيدي
سترة ، وكان عليّ ان اكون في البيت بالصدار والياقة المفتوحة
وهذا مما يضايقني .

٤

بشعور من الخوف العفوي عبرت مدخل الجناح ، وكان ضيقاً
مهملاً ، قابلي خادماً عجوزاً ، أشيب الشعر ، ذو وجه نحاسي
قاتم ، وعينين كئيبتين كعيون الخنازير ، وتجاعيد في جبهته
وصدغيه لم يقع بصري على مثلها من قبل ؛ كان يحمل صحناً
فيه بقايا من سمكة رنكة ، دفع برجله باب الحجره يغلغه ،
وسألني بجفوة :

— ماذا تريد ؟

فسألت :

— هل الاميرة زاسيكيينا في البيت ؟

فصاح صوت نسائي أجش من وراء الباب : « فونيغاتي ! »
فاستدبرني الخادم صامتاً . كان البلى قد لحس ظهر سترته
ولم يترك فيه سوى زر يتيماً عليه شعار رسمي . وابتعد بعد
أن وضع الصحن على الارض .

وعاد الصوت النسائي نفسه الى السؤال : « هل ذهبت
الى مركز الشرطة ؟ » فتمتم الخادم شيئاً لم أتبينه ، وسمعت
الصوت مرة ثانية يسأل : « هل جاء أحد ؟ نجّل السيد من
الدارة المجاورة ؟ ليتفضل » . عاد الخادم يقول وهو يرفع
الصحن من الارض :

— تفضل في غرفة الاستقبال .

فاصلحت من شأني ، ودخلت غرفة الاستقبال .
رأيتني في غرفة صغيرة ، قليلة الترتيب ، فقيرة الاثاث ،
نثرت فيها الاشياء على عجل ، وهناك امرأة تجلس قرب
النافذة في مقعد كسير الذراع تناهز الخمسين من عمرها
عاطلة من الجمال ، كانت عارية الرأس ، في ثوب اخضر

عتيق ، وشال من الصوف ذي ألوان ، حول عنقها . كانت تحددق
في بعينين سوداوين صغيرتين .

اقتربت منها وحييت بالانحناء :

— أكون لي شرف الحديث الى الاميرة زاسيكيينا ؟
— اني الاميرة زاسيكيينا ، أفانت نجل السيد ف . ؟
— اجل يا سيدتي ، واني قادم بتكليف من أمي .
— ألا تفضلت بالجلوس ؟ فوتيفاتي ، أين مفاتيحي ،
أم ترها ؟

أبلغت السيدة زاسيكيينا جواب أمي على رسالتها ،
فكانت تصغي اليّ وهي تنقر بأصابعها الغليظة الحمراء على
طرف النافذة ، وعادت تحددق فيّ بعد ختام حديثي . وأخيراً
قالت :

— حسن جداً ، أكيد سآتي . آه ، أنك شاب ، اسمح
لي ان اسألك ، كم لك من العمر ؟
فلعثمت قائلاً :

— ست عشرة سنة .

فأخرجت الاميرة من جيبها أوراقاً قدرة مخربشة ،
وقربتها من أنفها ، لتستعرض ما فيها ، ثم قالت فجأة
« سن طيبة » ، وأخذت تلوب وتتململ في مقعدها ، وأضافت :
— ارفع الكلفة من فضلك ، فنحن في غاية البساطة .
فقلت في نفسي : « بساطة زائدة » ، وأنا ألقى ، دون
ارادة مني ، نظرة اشمزاز على قلبها القبيح .

في اللحظة نفسها ، انفتح بسرعة باب آخر لغرفة
الاستقبال ، وظهرت عند وصيده تلك الفتاة التي رأيتها في
الحديقة أمس ، وقد رفعت يدها ، وتألقت في وجهها ابتسامة .
قالت الاميرة وهي تشير اليها بمرفقها :

— انها ابنتي . يا زينايدا ، هذا ابن جارنا السيد
ف . ما اسمك ؟ اسمح بأن نتعارف .
فوقفت أجيبيها وأنا أرتجف من الانفعال ، وقلت :
— فلاديمير .

— ولقبك ؟

— بتروفيتش .

— نعم . عرفت رئيس شرطة بهذا الاسم ، فلاديمير بتروفيتش . يا فونيفاتي ، لا تبحث عن المفاتيح فهي في جيبي .

كانت الفتاة لا تزال تنتثر النظر اليّ بعينيها المضمومتين قليلا وابتسامتها الساخرة نفسها ، وقد مالت برأسها قليلا الى جانب ، ثم قالت :

— لقد رأيت السيد فولديمار من قبل (فسرى جرس صوتها الفضي في نفسي كالعرشة اللذيذة) لو سمحت بأن أناديك من دون لقب !

قلت :

— ليكن .

وسألت الاميرة :

— أين كان ذلك ؟

ولكن الاميرة الشابة لم تجب أمها ، بل قالت دون أن تحسر نظرتها عني :

— أنت مشغول ؟

فقلت :

— لا !

— أتريد اذن أن تساعدني في لف شلة صوف ؟ تعال معي . واومات اليّ برأسها ، وغادرت غرفة الاستقبال ، فتبعتها .

دخلنا غرفة أحسن أثاثا ، وأجمل ترتيبا ، ولكني لم اكن في الواقع على حال تسمح لي بأن ألحظ شيئا ، فقد كنت أتحرك وكأني في حلم ، وشعور عارم بالغبطة يشيع في أطرافي .

جلست الاميرة الشابة ، وتناولت شلة صوف أحمر ، وأومات الى كرسي تجاهها . أخذت تحل الصوف ، وتلفه حول يدي ، وكانت تفعل ذلك كله في صمت ، وبطاء لطيف ،

وعلى وجهها ابتسامة معايشة مشرقة ، وشفتها منفرجتان .
ثم بدأت تلف الصوف حول ورقة متشينة ، وفجأة ألقى
اليّ بنظرة مختطفة صريحة ، فأطرقت الى الارض من دون
ارادة . حينما كانت تفتح عينيها على آخرهما ، وهما
مضمومتان ، كان وجهها يتبدل جملة ، فكان قسماتها تتلألأ
بالضوء . وسألت :

— ترى ، أيّ فكرة خطرت لك عني أمس أيها السيد
فولديمار ؟ — وازافت بعد ريث : — يخيل اليّ أنك استنكرت
أمري ؟

فأجبت في ارتباك :

— أنا ... يا أميرة ... لم يخطر لي شيء ... كيف
أستطيع ...
فقالت :

— انك لا تعرفني بعد ، فأنا غريبة الطبع ، أريد أن
يصدقني الجميع القول . لقد سمعتك تقول انك في السادسة
عشرة ، أما أنا ففي الحادية والعشرين ، رأيت اذن أني
أكبر منك سنأ بكثير ، ولهذا ينبغي عليك أن تصدّقني القول ،
وأن تكون لي سميعاً مطيعاً . — ثم أضافت قائلة : — انظر اليّ .
علام لا تنظر اليّ ؟

فزاد ما كنت فيه من الحرج ، ولكنني رفعت بصري اليها ،
فابتسمت ، وكانت ابتسامتها مختلفة عن ذي قبل ، فهي
ابتسامة يشيع فيها الاستحسان ثم قالت بصوت خفيض
حنون :

— انظر اليّ ، ان هذا يسرني ، ان وجهك يعجبني ،
وأشعر باتنا سنكون صديقين ، فهل اعجبك ؟
— أيتها الأميرة ... استهللت كلامي . فقالت :

— أوّلاً ، عليك أن تدعوني زينايدا ألكسندروفنا . ثم ،
ما هذه العادة عند الاطفال (واستدركت قائلة) عند الشباب ،
فأنهم لا يُفَضون مباشرة بما يشعرون به . هذا حسن
لل كبار . ألسنت معجبا بي ؟

فاستغضبتني صراحتها على الرغم من غبطني بأنها تحدثت اليّ على هذا النحو ، ووددت أن أعالنها أنها ليست مع غلام غريب ، فاصطنعت على قدر ما أستطيع ، مظهراً متحرراً من الكلفة ، وقلت :

— لا شك أني معجب بك أشد الإعجاب يا زينايدا الكسندروفنا ، ولست راغباً في إخفاء ذلك .

فأخذت تهز رأسها في بطء يمناً ويسرة ، وسألتنى فجأة :

— ألك مربّ خاص ؟

— ليس لي مربّ منذ وقت بعيد .
كنت كاذباً في هذا ، فلم يكن قد مضى شهر على رحيل المربّي الفرنسي .
— آه ، أرى أنك أيّفت .

ونقرت أصابعي في لمسة خفيفة ، وقالت :— اجعل ذراعيك مستقيمتين !— وبدأت تلف شلّة الصوف في اجتهاد .

افترصت فرصة كانت اثناءها مشغولة بما في يدها من عمل ، وأخذت أنظر اليها ، مخالساً في البداية ، ثم في جراءة أكثر . فظهر أن وجهها أجمل مما كان أمس ، كان كل ما في قسماتها دقيقاً ذكياً لطيفاً . كانت تجلس وظهرها الى النافذة ، حيث كانت ستارة بيضاء ، ينفذ منها شعاع من نور الشمس ، فينسكب في دعة على شعرها الذهبي الوثير ، وجيدها البريء ، وكتفها المنحدرة ، ونهدها الغض الوديع . كنت أنظر اليها ، فما أعزّ ما أصبحت عندي ، ما أشد قربها مني . شعرت بأني أعرفها منذ زمان بعيد ، وأني لم أعرف قبلها شيئاً ، ولم أعش شيئاً . . . كانت تلبس ثوباً غامقاً عتيقاً عليه صدار ، فتاقت نفسي الى ملامسة كل ثنية من اثناء هذا الثوب وهذا الصدار ، وكان طرف حذائها يبرز من تحت ثوبها ، فكنت على استعداد لأن أسجد هيأماً بهذين الحذائين . . . كنت أفكر : «ها أتذا أجلس اليها . . ونحن متعارفان ، فما أعظم هذه السعادة يا رب !» وأوشكت

أنطَ عن مقعدي فرحاً ، ولكني أمسكت ، وأخذت في تحريك ساقي كالطفل يستمرى مضاعاً لذيذة .

كنت في أحسن حال ، كالمسكة في الماء ، وما رغبت في أن أبارح هذه الغرفة وهذا المقعد ولو مكثت أبد الدهر . ارتفع جفناها في هدوء ، ورنت اليّ بعينين يتألق فيهما الحنو ، ثم عادت تبتسم ابتسامتها المعابشة . وقالت في تمهّل وهي تحذّرني بأصبعها :
- لشدّ ما تحدّق اليّ النظر .

فتضرج وجهي بالاحمرار ، وقلت في نفسي : « لا تفوتها شاردة ولا واردة ، وهل كان في مقدورها ألاّ ترى وتدرك ؟ » .

وفجأة ندّ صوت في الغرفة المجاورة - صليل سيف . وتدهت الاميرة من غرفة الاستقبال :

- يا زينايدا ، انه بيلوفزوروف يحمل اليك قطة .
- قطة ! - صاحت زينايدا وهبت من مقعدها فكدفت بشلة الصوف اليّ حِجْري ، وانطلقت خارجة .

قمت أنا كذلك ، فوضعت شلة الصوف على طرف النافذة ، وخرجت أقصد غرفة الاستقبال ، هناك توقفت حائراً مرتبكاً . كان في وسط الغرفة قطة مخططة تضجع باسطة مخالبها ، وزينايدا تجشو اليّ قربها وهي ترفع وجهها في ترفّق ، وكان شاب من الفرسان ذو شعر متموج أشقر ، ووجه قرمزي ، وعينين جاحظتين ، يقف اليّ قرب الاميرة ، ويوشك أن يغطي بالواحه العريضة جزء الجدار القائم بين النافذتين . وسمعت زينايدا تقول :

- انها تشير الضحك ، وما عيناها رماديتان بل خضراوان ، وأذناها طويلتان . ما أطيبك يا فيكتور ايغوريتش !
فالشكر لك !

فابتسم الفارس ، وتبينت انه أحد الشبان الذين رأيتهم أمس ، ودق مهمازيه ، فجلجلت حمائل سيفه .
- وددت أمس أن يكون لك قطة مخططة كبيرة الاذنين ،

فها هي ذي . ان كلمتك قانون . - قال ذلك وعاد الى الانحاء .

أخذت القطة تموء في وداعة وهي تتشمم الارض . فصاحت زينايدا :

- فوثيفاتي ، سونيا ، انها جائعة ، هاتوا الحليب . دخلت الخادمة وهي تحمل صحناً مملوءاً بالحليب ، وكانت ترتدي ثوباً أصفر رثاً ، وحول عنقها منديل حائل اللون ، وقد انتفضت القطة حينما وُضع الصحن امامها ، وحشفت عينيها ، ثم أقبلت تلعق الحليب .
- ما أشد حمرة لسانها ! - صاحت زينايدا . وكانت جائية يكاد رأسها يمس الارض ، وهي تحاول أن ترى الى القطة من أدنى .

شبعت القطة ، فأخذت تهرّ ، وتبسط يديها راضية مستأنسة ، فقامت زينايدا ، وأشارت الى الخادمة بعدم اكتراث أن تأخذ القطة .
- يدك تلقاء القطة ، - قال الفارس وهو يتسّم وينشني بجماع جسمه الضخم الذي يزكّب ثوبه العسكري الجديد .

- بل اليك بيديّك كليهما ، - اجابت زينايدا ، وبينما كان يقبل يديها ، أرسلت بصرها اليّ عبر كتفه .

لم أكن أدري وأنا واقف في مكاني لا أبرحه ، أكان علي أن أضحك ، او أن أقول شيئاً ، أو ألتزم الصمت ، وفجأة لمحت من فرجة الباب خادماً فيودور ، وكان يوميّ اليّ ، فذهبت إليه بصورة آلية اسأله :

- ما شأنك ؟

فهمس قائلاً :

- أرسلتني والدتك في طلبك ، وانها غاضبة لأنك لم تعد إليها بجواب .

- هل قضيت هنا وقتاً طويلاً ؟

- اكثر من ساعة .

— أكثر من ساعة ! — رددت قوله ذاهلاً ، وعدت الى
غرفة الاستقبال فاستأذنت مودعاً بتحية احتفالية * .
فسألني الاميرة الشابة وهي تنظر اليّ عبر كتف
الفارس :

— الى أين ؟

— ينبغي أن أعود الى البيت !

أضفت وأنا ألتفت نحو العجوز :

— سأنبيّ أمي بأنك ستفضلين بزيارتنا في نحو الساعة
الثانية .

— أجل يا عزيزي ، قل لها هكذا .

تناولت علبة سعوطها على عجل ، وتنشقت
بصوت مرتفع أشاع الرجفة في أوصالي ، وكررت قولها
وهي تطرف بعينيها الدامعتين ، وتمخّط : « قل لها
هكذا » .

فانحيت مرة ثالثة ، واستدرت خارجاً ، وأنا أشعر
بهذا الحرج الذي يستشعره كل شاب يعرف انه هدف للانتظار
من خلفه .

وصاحت زينايدا وهي تطلق ضحكة :

— لا تنس أن تعود الى زيارتنا أيها السيد

فولديمار .

فتساءلت في سرّي وأنا أرافق فيدور عائداً الى البيت :
« علام تكثر من الضحك على هذا النحو ؟ » ، وبقي فيدور يتحرك
صامتاً ، ولكن من الواضح أنه لم يكن راضياً عني .

واجهتني أمي بعباتها متسائلة عما كنت أفعل عند تلك
الاميرة في هذه المدة الطويلة ، فلم أنبس بكلمة ، بل مضيت
الى غرفتي ، وأنا أشعر بحزن مفاجئ ، وبذلت جهدي لكي
لا أبكي ... فقد امتلأتُ بالغيّرة من الفارس !

* التلويح باليد اليمنى ، والانحناء ، مع وضع اليد اليسرى على
الصدر ، ودفع القدم الى الامام ، طريقة في التحية معروفة في الزمن
القديم . (المترجم) .

جاءت الاميرة لزيارة أمي كما وعدت ، فلم تستلقت اهتمامها . لم أحضر لقاءهما ، ولكني سمعت أمي تقول لأبي أثناء الغداء : ان الاميرة زاسيكيينا* «une femme très vulgaire» لجوج ، ما فتئت تبهظها بمطالب الشفاعة لها عند الامير سيرغي ، فهي مثقلة** «des vilaines affaires d'argent» ، ولا بدّ أنها مطبوعة على الدس . ولكن أمي أضافت قائلة بأنها دعته وابنتها الى الغداء في غد (حينما سمعت كلمة «ابنتها» طمرت وجهي في الصحن) لأنها جارة على كل حال ، وامرأة من ذوي المحتد العريق . وقال أبي : انه يذكر الآن من تكون هذه السيدة ، فقد عرف في شبابه الامير الراحل زاسيكين ، وكان على جانب كبير من التهذيب ، ولكنه فارغ طائش ، عرف في المجتمع بلقب*** «le Parisien» جرّاء اقامته الطويلة في باريز . كان واسع الثراء ، ولكنه بدّد ثروته كلها في المقامرة ، وتزوج بنت موظف صغير ، بدافع غير بين ، لعله أن يكون المال ، — هنا أضاف أبي وهو يبتسم في برود — على حين كان يستطيع أن يختار أفضل منها ؛ وانغمس بعد زواجه في المضاربات المالية حتى انتهى الى الخراب .

فقلت أمي : «أرجو ألاّ تحاول اقتراض النقود» .
فقال أبي : «ذلك غير مستبعد» ، ثم سأل : «أنتكلم الفرنسية ؟»

— «في أسوء صورة» .

— «مهما يكن فالامر سواء . أظنك قلت إنك دعوت ابنتها أيضاً . لقد بلغني أنها فتاة فائقة العذوبة والثقافة .

* امرأة وضيعة النفس .

** بالمشاكل والمسائل المالية الخسيسة .

*** الباريزي .

— آ ، لئن كانت كذلك فما أشبهت أمها في شيء .
— ولا أباه ، فقد كان هو أيضاً ذا ثقافة . ولكنه
غمي ، — استدرك أبي .

فتنهدت أمي ، واستغرقت في افكارها ، وركن أبي الى الصمت ، وكنت في اشد حالات الضيق طوال هذه المحادثة . مضيت بعد الغداء الى الحديقة ، ولكن من دون سلاح ، وقد عاهدت نفسي ألاّ اقترب من «حديقة آل زاسيكن» ، ولكن قوة لا تقاوم دفعتي الى هناك ، ولم يكن ذلك عبثاً . فما ان اقتربت من السياج حتى رأيت زينايدا ، كانت وحيدة هذه المرة ، في يدها كتاب ، وهي تسير في تمهّل ، ولم تلحظني .

فأوشكت أتركها لحال سبيلها ، ولكني داركت الامر فجأة ، فسعلت ، فاستدارت ، ولكنها لم تتوقف عن السير ، بل أزاحت بيدها شريطاً أزرق عريضاً يحلّي قبعتها المستديرة المصنوعة من القش ، ورمقتني بابتسامة هادئة ، وعادت تنظر في الكتاب . فرفعت قبعتي ، وتلكأت قليلاً ، ثم غادرت مكاني مقل القلب ، وأنا اقول في سري بالفرنسية (ربك أعلم لم بالفرنسية) : «?que suis — je pour elle» .
وسمعت وقع خطوات مالوفة قادمة من وراء ، فلما تلفت رأيت أبي يقبل نحوي بمشيته السريعة الرشيقة ، وسألني قائلاً :

— أهذه بنت الاميرة ؟

— نعم ، انها بنت الاميرة .

— أفأنت تعرفها اذن ؟

— لقد رأيتها هذا الصباح لدى الأميرة .

فتوقف أبي ، ثم استدار على كعبيه في حدة ، ومضى عائداً ، حتى اذا اقترب من زينايدا ، انحنى لها محيياً ، فردت عليه بانحناءة ، وفي محياها شيء من الدهشة ،

* من اكون عندها ؟

وقد خفضت كتابها ؛ ورأيت كيف تأثرته بعينيها . كان
أبي أنيق المظهر دائماً ، يلبس في ذوق وبساطة ، ولكنه
لم يبد لي على مثل ما بدا من رشاقة الجسم ، ولا استقامت
قبعته الرمادية بمثل هذه الرشاقة على شعره الجعد الذي
بدأت تمتد إليه يد الزمن .

أقبلت أتصدى لزيينايدا ، ولكنها لم تنصرف اليّ
ولو بالنظر ، بل عادت تبسط كتابها ، وهي تمضي في سبيلها
مبتعدة .

٦

قضيت ذلك المساء ثم صباح اليوم التالي كئيباً موزع
النفس ، وأذكر أنني حاولت أن أعمل ، فتناولت كتاب
كايدانوف ، ولكن السطور والصفحات من هذا الكتاب المدرسي
الشهير كانت تتلامح امامي على غير جدوى . عشر مرات بدأت
فيها وأعدت : « واشتهر يوليوس قيصر بشجاعته في معارك
القتال » ، ولكن دون أن أعي شيئاً ، فتركت الكتاب . وقيل
الغداء ، رجّلت شعري ، وتطيّبت مرّات ، ولبست حلتي*
وعقدت رباط عنقي .

سألتي أمي :

— علام ذلك ؟ أتكّ لماً تصبح طالباً ، وأمر امتحانك
لا يعلمه الا الله وحده . ثم هل أصبحت سترتك قديمة العهد
فنرميها ؟

فقلت بصوت خفيض وقد غلبنى اليأس :

— ولكن سيكون عندنا ضيوف .

— علك ! أيّ ضيوف هؤلاء ؟

كان لا بدّ من الازعان ، فأبدلت الحلّة بالسترّة ،
واحتفظت بربطة العنق وقدمت الاميرة وابنتها قبل نصف
ساعة من موعد الغداء ، كانت العجوز ترتدي الثوب الاخضر

* القصد هنا الحلّة الرسمية كالفرّك وما اليه . (المترجم) .

اياه وعليه الشال الاصفر ، وفوق رأسها قبعة عتيقة الطراز ذات شرائط صارخة الالوان . وأخذت لساعتها تتحدث عن صكوك دينهسا ، وتتأوه وتتشكى من فقرها و « تتوحوح » * ولم تتحرج من أمر : فكانت تتنشق التبغ بالصوت الصفيق نفسه ، وتنوس في الكرسي وتتململ دون تحشم ، كأن دماغها لم يهضم أنها اميرة . أما زينايدا ، فقد كانت مالكة لزام نفسها ، بل انها تكاد تكون في توقر الاميرة الحقيقية . واكتسى وجهها بالبرود والعنجهية ، حتى لقد أنكرتها ، وأنكرت نظرتها وابتسامتها ، ولكنها ظهرت لي جميلة حتى في هذا المظهر الجديد ؛ كانت ترتدي ثوباً خفيفاً من الصوف تنداح فيه زخارف زرقاء ، وشعرها يسترسل في خصل متموجة على امتداد الخدين — على الزي الانكليزي — وكان هذا يلائم التعبير الصارم الذي ارتسم في وجهها . جلس أبي الى جانبها في أثناء الغداء ، فكان يؤنس جارته بما طبع عليه من أريحية وتهذيب ، وينظر اليها احياناً فتنظر اليه ، وكان في نظراتها معنى مبهم يوشك أن يكون اختصاصاً . كأننا يتبادلان الحديث باللغة الفرنسية ، فأعجبت بما في نطق زينايدا من الصفاء والطلاقة . أما الاميرة الأم ، فقد احتفظت بمسلكتها الصفيق نفسه طوال وقت المائدة ، فكانت تطعم في نهم ، وتمتدح الطعام ، وكان واضحاً أن أمي تستثقل ظلها ، فقد كانت ترد عليها في جفوة وازدراء ، فيقطب أبي من حين لآخر حاجبيه قليلاً . ولم تستلطف أمي زينايدا ايضاً ، ذلك أنها قالت في اليوم التالي :

— من تحسب نفسها هذه القنزعة ؛ ليتني عرفت فيم تشمخ بأنفها وهي ***avec sa mine de grisette* !

فأجابها أبي ملاحظاً :

* تتباكي لتستدر الحنان . من الكلام الدارج الصحيح .

(الهترجم) .

** لها مظهر المتكسبات .

— من الواضح أنك لم تشاهدي هؤلاء
المتكسبات .

— ايّ والحمد لله .

— له الحمد ولا ريب ، فكيف سوتت الحكم عليهن ؟
لم يبد من زينايدا أيّ انتباه لشأني ، وعقب الغداء ،
قامت الاميرة من فورها للانصراف ، وقالت تخاطب أمي
وأبي كليهما بصوت مائع منغم :

— ماريا نيقولايفنا ، بيوتر فاسيليفيتش ، سيكون
ألمي معلقاً برعايتكما . ما باليد حيلة ، كان لي زمان
وراح .— وازافت في ضحكة نايبة :— وها أنا كما ترون
« صاحبة سموّ » اي نعم ، ولكن ما نفع هذا الشرف وليس
في البيت ما يؤكل !

انحنى لها أبي في توقيير ، ورافقها حتى الباب الخارجي ،
على حين وقفت في مكاني ، بسترتي القصيرة ، وأنا مطرق
برأسي كالمحكوم بالاعدام . لقد أصمتني زينايدا بما فرط
منها تحوي ، وأجهزت عليّ . فما أشد ما تولاني من الدهشة
حينما أسرت اليّ على عجل ، وهي تمر بي ، وفي عينيها
ما كان لي به عهد من نظرتيها الرقيقة : « تعال الينا في
الساعة الثامنة . اسمع ، من كل بد . . . » ، فأسقط في
يدي ، ولكنها كانت قد ابتعدت وهي تعصب رأسها بعصابة
بيضاء .

٧

في تمام الساعة الثامنة ، كنت أدخل مدخل الجناح الذي
تقيم فيه الاميرة بعد أن ارتديت حلتي ومشطت شعري الى
أعلى . ورمقني الخادم العجوز بنظرة عابسة وهو ينهض بتشاقل
عن الدكة التي يجلس فيها . كانت تتراعى من غرفة الاستقبال
اصوات ممراح ، ففتحت الباب ، ولكن الدهشة ردتني الى
وراء ، فقد كانت الاميرة الشابة تتسنم كرسياً يقوم في وسط

الغرفة ، وببيدها قبعة رجالية ، وحولها خمسة رجال يتزاحمون على ادخال أيديهم في القبعة ، والفتاة تتخطفها الى أعلى وتهزها بشدة . حينما رأني صاحت قائلة :
— على مهلكم ، انتظروا ! هذا ضيف جديد ، ويجب أن تكون له بطاقة أيضا . — ونطّت عن الكرسي برشاقة ، وأقبلت تأخذني من أكمامي وهي تقول : هيا بنا ، علام تقف هناك ؟ اسمحوا لي أيها السادة أن أكون لسان تعارف بينكم : انه السيد فولديمار ابن جارنا . — وتوجهت اليّ وهي تشير الى الضيوف واحداً بعد آخر : — الغراف* ماليفسكي ، الدكتور لوشن ، الشاعر مايدانوف ، القبطان المتقاعد نيرماتسكي ، وهذا بيلوفزوروف من الحرس الفرسان ، وقد رأيته من قبل . أرجو ان تقوم بينكم وشائج الاحترام والتعاطف .

لقد تملكني الارتباك حتى اني سهوت عن الانحناء لأحد منهم ، وعرفت في الدكتور لوشن ذلك السيد الاسمر الذي ساطني بسخريته القاسية في الحديقة ، وكانت وجوه الآخرين جديدة عليّ .

واضافت زينايدا قائلة :

— أيها الغراف ، اكتب للسيد فولديمار بطاقة .

فاعترض الغراف قائلاً بلكنة بولوتية خفيفة :

— ليس هذا عدلاً ، فإنه لم يشترك معنا في لعبة «الجزاء» .

كان الغراف قسيماً وسيماً اسود الشعر ، بعينين بنيّتين

ذكيّتين ، وأنف ابيض صغير دقيق ، وشارب رفيع فوق فمه

الصغير وثوب جميل أنيق :

— ليس هذا عدلاً .

ردد هذا أيضاً بيلوفزوروف ومعه ذلك السيد الذي

يسمونه القبطان المتقاعد ، وهو رجل في نحو الاربعين من

عمره ، ذو وجه مجدور يبدو دميماً ، وشعر مخوتم كشعر

* كونت او بارون .

الزوج ، وظهر أحذب قليلاً ، وساقين مقوستين ، وكان في
سترة عسكرية محلولة الازرار عاطلة من الشارات .
وأعدت الاميرة قائلة :

— قلت لكم ان تكتبوا البطاقة ، فما هذا ؟ أعصيان ؟
تلك أول مرة يلعب فيها السيد فولديمار معنا فلا جرم أن
نتجاوز الأعراف من أجله ، فاصدع بما قلت لك ، ولا تجادل ،
فأنا أريد ذلك .

فهز الغراف كتفيه ، ولكنه طأطأ خاضعاً ، وأخذ القلم
بأصابعه البيضاء الحالية بالخواتم ، وقطع قصاصة من ورق
ومضى يكتب .

استلم الكلام لوشن فقال بصوت ساخر :

— اسمحي لي على الاقل أن أشرح للسيد فولديمار طرف
الخييط فإنه غارق في حيرته . والامر أيها الشاب أننا نلعب
نعبة «الجزاء» ، وقد وقعت ضريبتيه على الاميرة ، فمن
يسحب البطاقة المحظوظة يصبح من حقه أن يقبل يدها .
أفهمت ما قلته لك ؟

فلم أفعل الا أن نظرت اليه وأنا لا أزال واقفاً كالماخوذ ،
أما الاميرة فقد وثبت الى الكرسي من جديد ، وعادت تهز
القبعة وفيها البطاقات ، وأقبلوا عليها وأنا وراءهم .

قالت الاميرة توجه خطابها الى شاب طويل ، ذي وجه
نحيل وعينين صغيرتين كليتين وشعر أسود مسترسل :
يا ميدانوف ، انك شاعر ، فينبغي أن تكون أريحياً بأن تنزل
عن بطاقتك للسيد فولديمار لكي تتوفر له فرصتان بدلا من
واحدة .

ولكن ميدانوف هز رأسه بالرفض وهو يرد شعره الى
وراء . في أعقاب آخرهم أدخلت يدي في القبعة ، وسحبت
بطاقتي وفتحتها . فيا لله مما اعتراني حينما قرأت فيها كلمة :
قبلة !

— قبلة ! — هتفت دون وعي .

فردت الاميرة على الصوت :- مرحى ، لقد فاز واني لفي
أشد الغبطة . - وهبطت من الكرسي وهي تنظر في عيني نظرة
لا أصرح ولا أحلى حتى لقد اشتد خفق قلبي ، وسألتي :- هل
أنت سعيد ؟
- أنا ؟

وفجأة همس بيلوفزوروف في اذني :
- بعني بطاقتك تلقاء مئة روبل .

فرجمته مجيباً بنظرة لاهبة بحيث صفقت لها زينايدا ،
وهتف لوشن :- يا للفتى ! - واطاف قائلاً :- ولكن باعتباري
مشرفاً على المراسم ، يجب أن أشرف على تطبيقها بدقة ،
ويقضى العرف أيها السيد فولديمار بأن تركع على ركبتك .
وقفت زينايدا امامي ورأسها يميل الى جانب كأنها
تتزيد من النظر اليّ ، ومدت يدها في جلال ، فراغت عيناها ،
كنت راغباً في أن أجثو على احدى الركبتين ، فوقعت على
الثنتين ، ولمست أناملها بشفتي على نحو أهوج جعلني أجدش
أنفي بظفرها .

- طيب ! - قال لوشن وهو يساعديني في النهوض .
وأجلستني زينايدا الى قربها بينما استمرت لعبة
«الجزاء» ، وما اكثر ما ابتكرته زينايدا من ضروب الغرم .
فقد اقتضى منها أن تقف كتمثال ، فاخترت الدميم
نيرماتسكي قاعدة لها ، وأمرته بأن ينبطح على الارض ورأسه
في صدره . لم يكن الضحك لينقطع لحظة واحدة . أما واني
ترعرعت في بيت محترم ، وتلقيت تربية خاصة منفردة ،
فقد أدارت رأسي العريضة الضاحكة وعدم الكلفة في العلاقة
مع هؤلاء الاغراب ، فسكرت من دون خمر ، وطاولت الآخرين
بالضحك والثثرة ، حتى لقد تركت الاميرة العجوز مجلسها
من الغرفة المجاورة ، وكانت مع موظف من دائرة الاسكان
دعته للاستشارة ، وخرجت تنظر في . كنت أستشعر السعادة
الى حدّ أطلقت فيه الأسار وخلعت العذار كما يقول المثل ،
فلم اعبأ بغمزة سخر ، ولا بنظرة شزر . واستمرت زينايدا

فيما اختصتني به من الامتياز ، ولم تسمح لي بأن أبتعد عنها .
كان الغرم الذي وقع عليّ يقضي بأن أجلس ملتصقاً بها يغطي
رأسينا منديل ، وأن أكشفها بما أضمره من سر . واني لأذكر
ما أطبق علينا في ذلك الظلام من أريج فاغم شفاف ، حيث
كانت عيناها القريبتان تتألقان ، وانفاسها دافئة ، وأسنانها
تلمع خلل شفثيها المنفرجتين ، وخصل شعرها تتأفعي
كالسنة النار . كنت صامتاً فابتسمت هي في استخفاء ومكر ،
ثم همست أخيراً : « وماذا بعد ؟ » فما كان مني الا أن شاعت
الحمرة في وجهي ، وضحكت وأنا أدير رأسي جانباً ، وقد
ضاق صدري الى حد الغصّة .

دخلنا السأم من لعبة «الجزاء» هذه فتركناها الى لعبة
«الجل» . ويا لغبطتي حينما سهوت فعاجلتني بضربة قوية
على أصابعي ، وقد أخذت اصطنع الابطاء في سحب يدي
فهمت قصدي وتجنبت أن تلمسها !

وما اكثر الألعاب التي قمنا بها في تلك الليلة ، فقد عزفنا
على البيانو وغنينا ورقصنا ، واصطنعنا مخيماً للغجر ، حيث
ألبسنا نيرماتسكي هيئة دب وسقيناها ماء مالحاً ، وعرض
علينا الغراف مالفيسكي شعوذات شتى من ألعاب الورق ،
ووزع الورق على نحو يجمع في يده كل الاوراق الرابحة ،
«فتشرف لوشين بتهنئته على هذا» . وقرأ علينا مايدانوف
مقاطع من قصيدته «السفاح» (كانت الحركة الرومانتيكية
وقتئذ في فجرها) وكان يرغب في نشر هذه القصيدة بحروف
كبيرة مطبوعة بلون الدم على غلاف أسود ؛ وسرقنا قبعة
موظف دائرة الاسكان ، وفرضنا عليه تلقاء اعادتها أن يؤدي
رقصة ، ووضعنا على رأس العجوز فونيفاتي قبعة نسائية ،
بينما اعتمرت زينايبدا بقبعة رجالية . . . ومن العسير أن
نحصى كل ما حدث . أما بيلوفزوروف فإنه الوحيد الذي
انطوى على نفسه وحيداً في ركن من الغرفة وهو غاضب مقطب
الحاجبين ، كانت تلتهب عيناه حيناً ويحمر وجهه حيناً آخر ،
ويبدو اثناء ذلك كأنه بسبيله الى الانقراض علينا ليعثرنا

في كل ناحية كأننا الهباء المنثور ، وعندئذ كانت الاميرة
تشزره بنظرتها وتهز اصبعها محذرة ، فيعود الى الانطواء
في الركن الذي هو فيه .

شاع فينا الوهن أخيراً ، وشعرت الاميرة الام بالتعب
فرغبت في بعض الراحة - وهي التي كانت على حد قولها تدعى
القدرة على تحمل التعب والضجة . ثم قدم الينا العشاء قبيل
الساعة الثانية عشرة ، وكان قطعة من الجبن الناشف القديم ،
وبعض الفطائر الباردة المحشوة بلحم الخنزير ، وقد أسغتها
من أي طعام آخر . والى هذا كانت على المائدة زجاجة واحدة
من الخمر لم تخل ايضاً من شذوذ المظهر ، فهي ذات لون
مظلم وعنق أغد ، وفي نبيذها رائحة تشببه ما يفوح من
صبغة حمراء ، وقد بقيت في أرضها ولم يشرب أحد منها .
كنت منهوكاً من السعادة حينما غادرت البيت ، فودعتني
زيناويدا وهي تشد على يدي ، وقد عادت الى ثغرها من جديد
تلك الابتسامة المستخفية .

لفحت وجهي الملهب أنفاس الليل المثقلة بالرطوبة ،
وكان يبدو أن الجو بسبيله الى التجهم ، فقد أخذت الغيوم
المكفهرة تتكثف وتمدد في السماء وترحف وهي كما يبدو
لا تثبت على شكل . واضطربت الأنسام في قمم الاشجار
القائمة ، وفي الآفاق البعيدة كان الرعد يرسل زمجرة غاضبة
مكتومة كأنه يهتمهم لنفسه .

قصدت الى غرفتي من الباب الخلفي ، كان الوصيف ينام
على الارض ، فاضطرت أن اخطو فوقه ، فاستيقظ ورآني ،
وأبلغني أن امي عادت الى استيائها مني ، وكانت راغبة في أن
ترسله ورائي ولكن ابي استوقفها عن ذلك . (لم أكن قبل
لأذهب للنوم الا بعد أن تستودعني الله وأتمنى لها ليلة
سعيدة) ولكن هذا ما حدث .

قلت للوصيف باني سأخلع ملابسي دون عونه ، ثم أطفأت
الشمعة . . . ولكني بقيت في ثيابي ولم أرقد في سريري .
فقد جلست في كرسي وأنا مستغرق في جلستي

كالمسحور . . . يغمرنى شعور جديد عذب ، كنت أدير بصري دون أن تنهد عني حركة ، و اتنفس في هدوء ، وقد تندّ بين اللحظة واللحظة ضحكة تنطلق مني في خفوت حين أستعرض ما حدث ، او تسري في البرودة حين ترتادني فكرة أنني عاشق وأن هذا هو الحب . كان وجه زينايدا يسبح أمامي في الظلام ، يكاد لا يغيّب ، وشفاتها تبتسمان في استخفاء ، وعيناها ترنوان اليّ بالطرف ، وفيهما سؤال وتفكير وحنان مثل حالهما لحظة ودعتني . ثم تركت مجلسي أخيراً ، وذهبت الى السرير محاذراً ، في خطوات مسترقة ، وأرحت رأسي على الوسادة وانا لا ازال في ثيابي ، وكأني خائف أن تند أي حركة شديدة قد تقطع عليّ كل ما كنت ممتلئاً به . . .

استلقيت دون أن يغمض لي جفن ، ولسرعان ما لحظت أن بعض الاضواء الشاحبة ما تفتأ تتسلل الى غرفتي . . . فنهضت قليلا في مرقدي وألقيت نظرة الى جهة النافذة ، كانت عوارضها السوداء ظاهرة على بياض الزجاج ، ففكرت بانها العاصفة ، ولم أكن على خطأ ، ولكن العاصفة كانت تمضي في الابعاد القاصية ، حتى ان الرعد لم يبلغ سمعي ، وليس هناك الا البرق يومض في السماء من غير انقطاع في فروع طويلة شاحبة : والاحرى أنه لم يكن يومض بل كان يرف ويرتعش كجناح طائر يعالج سكرات الموت . قمت الى النافذة حيث بقيت حتى طلع الفجر . . . لم يتوقف ومض البرق لحظة ، فقد كانت الليلة من ليالي عصفور الدوري على حدّ القول الشائع بين الشعب ؛ ووقفت مرسلا بصري الى حقول الرمال الصامتة ، والى الظلال الغامقة التي تتكاثف في حديقة « نيسكوشني ساد » ، والى واجهات المباني الصفر البعيدة ، حيث بدت وكأنها ترتعش ايضاً بومض البرق . . . كنت أرى ولا استطيع ان انتزع بصري : فقد بدت تلك البروق الصامتة والاضواء الخافتة كأنها استجابة لذلك الانفعال الصامت الخفي الذي ينبعث في ذات نفسي . ثم آذن النهار بالاشراق ، وبرز الصباح في واحات من الشفق الوردى ، واصبح ومض

البرق يحول ويقصر كلما اقترب بزوغ الشمس ، وما زال يرتعش ويتضاءل حتى ذاب جملة في الشروق ، وغرقت تلك البروق في ضوء النهار الطالع .

انطفأت البروق في نفسي ايضاً ، وآدني تعب شديد ، وأطبق الصمت . . . ولكن طيف زينايبدا بقى يرفرف امامي باهراً قاهراً ، وما لبث أن فاء الى الدعة . ومثلما تطير البجعة من فرجات اعشاب المستنقع كان هذا الطيف يبتعد عما يشوبه من الاطيف ؛ كنت آخذاً في التهويم حينما ألممت به أودعه بأشواقي الوديعة .

أيه ايتها العواطف الوداعة والاصوات الرقيقة . أيهذا الحنين تفيض به نفس وامقة ، ايتها السعادة تشرق عذبة في فجر الحب الاول ، أين أنت ، أين أنت ؟

٨

حينما نزلت في الصباح لاحتساء الشاي تلتقني أمي بالتائب ولكن بأقل مما كنت أتوقع ، وأمرتني بأن أروي عليها كيف قضيت المساء أمس ، فحدثتها بكلمات مقتضبة دون خوض في التفصيلات ، واجتهدت في التعبير على نحو يوحى بالبراءة ، فلاحظت أمي قائلة :

— مهما يكن من الامر فإنهم ليسوا *comme il faut* وليس ما يدعوك الى التقرب منهم بدلا من الاستعداد للامتحان .

لم أحاول أن أدخل معها في أخذ وردّ لأنني كنت أعلم أن اهتمام أمي بدراستي انما يقف عند هذه الكلمات القليلة ؛ ولكن أبي جذبني من ذراعي بعد الفراغ من احتساء الشاي ، وسرنا نحو الحديقة ، ورغب اليّ هناك في أن أروي عليه كل ما رأيته في بيت آل زاسيكين .

* قوما على قَد المقام .

وكان لأبي تأثير غريب في نفسي ، وكانت الروابط بيننا غريبة ايضاً ، فإنه لم يعن الا قليلاً بتربيتي ، ولكنه صان لسانه عن أي كلمة تنطوي على تانيبي ، وكان يحترم حرיתי ، بل انه كان مهذباً معي - اذا جاز هذا القول - ولكنه لم يستدني من نفسه . كنت أحبه وأنا مبهور به ، وأرفعه الى المثل الأعلى بين الرجال ، ولولا المخافة أن يذودني عنه بيده لغمرته باشواقي . بيد انه يستطيع من فوره حينما يريد ، ان يبت في ثقة به لا حدود لها ، وذلك بغمزة من عينيه او بكلمة من شفثيه او بايماءة من يديه . فأفتح له مغاليق روحي ، وانطلق معه في الحديث وكأني مع صديق ذكي ومرشد متسامح . . . ولكن أبي كان ينسأى عني فجأة كما أقبل ، وينبذني ، بترفق ونعومة ، ولكنه ينبذني .

وقد يبدو مرحاً في بعض الاحيان ، فيلهو معي ويلعب كالطفل (كان مولعاً بالحركة العنيفة) وفي ذات مرة - وهي الوحيدة - أحاطني بقدر من حنانه الغامر أوشكت فيه أن أبكي . . . ولكن مرحة وحنانه كانا يغيضان فلا خبر عنهما ولا اثر ، فكان هذا الذي يحدث بيننا يغلق في وجهي كل أمل في المستقبل ، ويمضي كأنما رأيتة في حلم . وفي أحيان كنت أرسل بصري الى وجهه القسيم الوسيم الصافي . . . فيرتعش قلبي ويهفو كياني كله اليه . . . فكان هو ، وكأنه يتحسس بما يدور في نفسي ، يمرّ بي عابراً ويربت على خدي ، ثم يمضي او يتشاغل بأي أمر آخر ، او يتجمد كما لم يستطع أحد سواه أن يفعل ، وعندئذ أراي جامداً على حين غرة . لم تكن تلك الخفقات النادرة من حنانه لتنبعث استجابة لنداءاتي المبينة على الرغم من صمتها ، بل كانت تنبعث فجأة على غير توقع . وحينما أخذت فيما بعد أفكر في طبيعة أبي ، استنتجت أن السبب في عدم اكترائه بي وبحياته العائلية ، يعود الى أنه موصول القلب بأمر آخر ، وأنه مغتبط بهذا الامر كل الاغتباط . وقد قال لي ذات مرة : «خذ بنفسك كل ما تستطيع أن تحصل عليه ، ولا تسمح لأحد بأن

يمتلكك . فإن لباب ما نسميه حياة انما هو أن تكون سيد نفسك» . وفي مرة اخرى انطلقت في حضرته اتحدث عن الحرية باعتباري من الشباب الديموقراطي (كان يومها « في مزاجه الطيب» حيث يكون في وسعي أن أفضي بما أريد) فقال مردداً : الحرية ؟ أتعرف ما الذي يمكن ان يمنح الانسان نعمة الحرية ؟

ماهو ؟

— الارادة ، الارادة الذاتية ، وانها لتعطي السلطان أيضاً وهو أفضل من الحرية . ينبغي لك أن تعرف ما تريد فتصبح عندئذ حراً تملك أن تملي ارادتك على الآخرين . كانت غاية أبي التي لا غاية بعدها أن يعيش حياته . . . وقد غاشها ، ولعله كان يطوى شعوراً خفياً بأنه لن يستمتع طويلاً « بهذا الذي نسميه حياة» ، فقد مات وهو في الثانية والاربعين من عمره .

لقد رويت على أبي في تفصيل كل ما كان من أمر زيارتي لآل زاسيكن ، فكان يستمع اليّ ببعض الانتباه وبعض الشرود ، وهو جالس في المقعد يرسم على الرمل بطرف سوطه ، كان يستضحك احياناً ، ويرمقني بنظرة متألقة ، ويشجعني على المضيّ بأسئلته المقتضية واعتراضاته . أمسكت في البداية عن ذكر اسم زينايدا ، ولكني لم أملك نفسي ، فمضيت أمتدح خصالها . ومضى أبي يضحك ، ثم استغرقه التفكير ، وتمطى متثابراً وهباً واقفاً .

تذكرت أن أبي أمر قبل خروجه من البيت بأن يسرج له الجواد ، وكان فارساً لا يُشَقُّ له غبار ، يستطيع أن يروض أشد الخيول نفوراً بأسرع ما يستطيع السيد ريري . وسألته :

— هل لي أن ارافقك يا أبي ؟

— لا ، إذهب وحيداً اذا شئت ، وقل للسائس اني غير راغب في الركوب . — اجابني وقد عاد الى وجهه ما يكسوه في المعتاد من عدم اكتراث مشوب بالدماثة .

ثم ادار لي ظهره ، وابتعد بخطوات سريعة ، بينا ذهبت
أثاره ببصري حتى اختفى وراء البوابة ، ورأيت قبعتيه
تتحرك على طول السور ، ثم دخل منزل آل زاسيكين .
لم يمكث لديهم اكثر من ساعة ، توجه بعدها على الفور
الى المدينة ولم يرجع الى البيت الا مع المساء .

بعد الغداء ذهبت أزور آل زاسيكين ، وهناك رأيت
الاميرة العجوز وحيدة في غرفة الاستقبال ، وحينما رأيتني
هرشت في رأسها تحت عصابتها بصنارة الصوف ، وسألتني
فجأة : أستطيع أن أحرر لها عريضة استرحام .

فاجبتها وأنا أجلس على طرف الكرسي : « على الرحب » .
فقالته وهي تعطيني ورقة مدعوكة : « ولكن عليك أن تكتب
بحروف كبيرة ، فهل لك أن تنجزها اليوم يا شيخي » ؟
- سأنجزها اليوم .

انفرج باب الغرفة المجاورة قليلا ، وظهر في فتحته وجه
زيناييدا شاحباً ساهماً وشعرها قد عقص الى وراء . وارسلت
الي نظرة باردة من عينيها الكبيرتين ، ثم ردت الباب في
هدوء ، فهتفت أمها تنادياً :

- زيناييدا !

لم تجب زيناييدا ، فحملت معي عريضة العجوز ،
وانكبت عليها طوال المساء .

٩

وبدأ « ولهي » في ذلك اليوم . أذكر أنني شعرت وقتذاك
بما يشبه شعور امرىء عند خطوته الاولى في الوظيفة ، لم
أعد ذلك الصبي الغرير بل أصبحت عاشقاً . لقد قلت إن ولهي
بدأ في ذلك اليوم ، ولكن ينبغي أن أضيف أن عذابتي بدأ
أيضاً في ذلك اليوم . فقد أصبح يشجيني غياب زيناييدا .
أصبحت عاجزاً عن التفكير في أمر ، أفلت الزمام من يدي ،
وانحصر فيها تفكيري طوال يومي . . . كنت أتالم . . . ولم تكن
الحال وهي حاضرة بأحسن منها وهي غائبة ، فقد أصبحت

غيوراً وكنت أدرك ما في شأني من الهوان وما في غضبي من الغفلة ، كنت مستعبداً لها فما تفتأ تشدني اليها قوة قاهرة . وما من مرة جاوزت وصيد غرفتها الا استشعرت رعشة من السعادة . وما أسرع ما فطنت زينايدا الى انني مغرم بها ، ولم أفكر في اخفاء هذا الشعور ، فضحكت من غرامي ، وأخذت تعبت بي تارة وتعذبي تارة أخرى . ومما يلذ للمرء أن يدرك أنه مصدر وحيد وسبب مطلق لما يستشعره امرؤ آخر من سعادة غامرة وحزن عميق . كنت في يدي زينايدا أطوع من الشمع ، ولكني لم اكن الوحيد الذي يحبها ، بل كان الرجال الذين يطرقون بيتها جميعاً مجانين بها ، كانت تشدهم برباط الى قدميها ، وتحب أن تثير فيهم الأمل والشك ، وان تديرهم كالخاتم في اصبعها (كانت تسمى هذا ضرب الناس بعضهم ببعض) ولم يكن يفكر أحد منهم بالمقاومة ، بل كانوا يستسلمون اليها في غبطة . كان في طبيعتها الحية الجميلة مزيج لطيف جداً من المكر وعدم الاكتراث ، ومن التصنع والبساطة ، ومن الهدوء والصخب . وهي في كل ما كانت تقول وتفعل ، وفي كل حركة ترفرف روحاً خفيفة لطيفة ، وتظهر قوتها اللعوب . كان وجهها لعوباً ايضاً ، فهو في تغير دائم ، يعبر في آن عن السخرية والتفكير والشوق . وكانت العواطف والمشاعر المختلفة تجري خفيفة سريعة في عينيها وشفتيها كأنها ظلال السحب في نهار مشمس عاصف الريح .

كان كل فرد من المعجبين بها ضرورياً لها ، فإن بيلوفزوروف الذي كانت تناديه احياناً «يا وحشي» او تسميه احياناً شيتي* ، كان مستعداً لاقتحام النار في سبيلها ، وكان لا يفتأ يعرض عليها الزواج دون اعتماد على مواهبه وكفاءاته ، ويشير الى أن الآخرين لم يكونوا الا ثرثارين . وكان ميدانوف يستجيب للجانب الشاعري من

* شيتي في لهجة أهل الشام تقابل كلمة بتاعي في اللهجة المصرية ، والاولى من العامي الفصيح . (المترجم) .

نفسها ، وهو على شيء من برودة الطبع كاکثر الكتاب ، وكان يؤكد لها ، ولعله يؤكد لنفسه ايضاً ، أنه يحبها ، ويمتدح خصالها في قصائد طويلة يقرأها بحماسة يشوب اخلاصها بعض التصنع . وكانت تنال منه بشيء من سخريتها على الرغم من تعاطفها معه ، ولا تثق بما يقوله الا قليلا ، وبعد أن تصغي لما يهرف به كانت تأمره بان يقرأ شيئاً من شعر بوشكين لتنقية الهواء - على حد قولها . أما لوشن الطبيب ، فإنه رجل ساخر لاذع في كلماته ، وكان يفهم زينايدا اكثر مما يفهمها الآخرون جميعاً ، ويحبها اكثر مما يحبها الآخرون رغم تعريضه بها في وجهها وفي غيابها . كانت تحترمه ولكن من دون شعور بالعطف ، بل انها كانت تفتصر الفرص في شماتة مقصودة لتشعره بأنه في قبضة يدها ، وفي ذات مرة قالت له وأنا حاضر : « اني لعوب من دون قلب ، وممثلة بطبيعتي . طيب ! هات يدك ، وسأغرز فيها دبوساً ، فأنت ستخجل أمام هذا الشاب ، وستشعر بالألم ، ولن تضن علينا رغم ذلك بالضحك أيها السيد الصدوق » . فأشاح لوشن بوجهه المحمر وهو يعرض على شفته ، ولكنه مد اليها يده ، فوخزتها ، فأخذ يضحك بالفعل ... وضحكت هي أيضاً ، ومضت تفرز الدبوس على نحو أعمق وهي تحديق في عينيه على حين كان يحاول عبثاً أن يروغ بهما في كل ناحية ... استغلق عليّ أن أفهم مقومات تلك العلاقة بين زينايدا والغراف مالفيسكي . فقد كان جميلاً ذكياً أريباً ، ولكن شائبة مختاتلة من الزيف والريبة كانت تخالطه ، وكان يدهشني أن زينايدا لم تكن لتلاحظ ذلك ، على حين شعرت به أنا الصبي ، ابن السادسة عشرة ؛ او لعلها لحظت ولم تستنكر . فأن جنوح تربيتها ، وغريب معارفها وعاداتها ، والتصاق أمها بها ، وحالة الفقر والفوضى الشاملة في البيت ، وتلك الحرية التي ترتع فيها هذه الفتاة الشابة مع شعورها بالتفوق على الجماعة المحيطة بها - كل هذا غرس فيها ضرباً من الاهمال والازدراء والقناعة . فكان يحدث - على سبيل

المثال - أن يأتي فونيفاتي قائلا ان السكر مفقود من البيت ، او تنفضح نيميمة دنيئة ، او ينشرب شجار بين الضيوف ، فلا تزيد إلا أن تهز خصل شعرها وتقول : كلام فارغ . ثم لا تحفل بشيء .

أما عني ، فقد كان دمي يفور حينما يقترب منها مالفيسكي بمكر الشعلب ، ويحيط ظهر كرسيتها بذراعه ، ويأخذ بالهمس في أذنها وهو يبتسم متلطفاً مزهواً ، وهي تجلس متصلبة الذراعين ، تنظر اليه في اهتمام ، وتبتسم ، وتهز رأسها يمنة ويسرة . وقد سألتها ذات مرة :

- ما الذي يحدوك الى استقبال السيد مالفيسكي ؟
فأجابت :

- ان له شاربين رائعين . ولكن هذا لا يخصك . -
وقالت في مناسبة أخرى :

- لعلك تظن أنني أحبه ؟ لا ، فأني لا أستطيع أن أحب هؤلاء الذين أنظر اليهم من عل . فما يلائمني الا ذاك الذي يستطيع أن يكسر شوكتي . وأظني لن أعثر على مثل هذا الرجل ، فالحمد لله ! ولم أقع بين برائن أحد على الاطلاق .
- أياكون معنى هذا أنك لم تحبي أحداً ؟

فقلت وهي تضرب أنفي بطرف قفاها :
- وأنت ؟ أفلا أحبك ؟

نعم ، لقد كانت زينايدا تتسلى بي كثيراً ، وكنت أراها كل يوم طوال الثلاثة الاسباع الماضية ، فما اكثر ما رأيت منها .

كانت تزورنا قليلا ، ولم يؤسني ذلك ، فأنها في بيتنا تأخذ بمظهر الاميرة النبيلة ، فكنت أتهيبها ، وأخشى أن ينكشف أمري أمام أمي ، فهي لم تكن حفيّة بزينايدا ، ولا كانت تنظر إلينا بعين راضية . ولم أكن أخاف أبي الى هذا الحد فإنه كان يتجاهلني ، ويوجز معها الحديث ، ولكن كلماته ذكية بعيدة المرمى . لقد توقفت عن العمل والمطالعة ، وأمسكت حتى عن النزهة في الضواحي على صهوة الجواد ، بقيت أدور

حول بيت الحبيبة كالرصور المربوط بخيط من رجليه ،
كنت على استعداد للبقاء هناك الى الابد . . . ولكن ذلك
مستحيل لأن أمي كانت تبربر عليّ ، حتى زينايدا كانت
تطردني في بعض الاحيان ، فأنطوي عندئذ في غرفتي ، او
أعتزل في آخر الحديقة ، حيث أعتلى خرائب دفيئة قديمة
من الحجر ، واجلس على الجدار المطل على الطريق بساقين
متدليتين ، وأبقى هناك ساعات أنظر فيما حولي ولا ارى
شيئاً ، وبجانبي ترفرف بكسل فراشات بيض فوق العشب
المغيار ، ودورى نشيط يحطّ غير بعيد على حفّ كسرة
من القرميد الاحمر وهو يزقزق في نزوان ويلوب ناشراً ذيله ،
والغربان المحترسة تطلق نعيها بين حين وآخر وهي تحط في
أعلى شجرة بتولة عارية - تلاعب الشمس والريح أغصانها
الجرداء في خفوت ، ويتراعى اليّ أحياناً رنين هاديّ حزين من
أجراس دير دونسكوي ، فكنت أمكث في مجلسي أنظر
وأصغي ، وملء نفسي شعور غامض ولكنه ينطوي على كل
شيء ، فهو : الحزن والفرح ، والتشوف الى ما سيأتي به
الغد ، والرغبة في الحياة والرغبة منها . ولكني لم أكن افهم شيئاً من
هذا وقتذاك ، ولا أستطيع ان أسمى كل ما يختمر في نفسي ،
ولعلني لو فعلت لجمعت ذلك كله في اسم واحد وهو
زينايدا .

أما زينايدا فكانت ماضية في لعبها بي كما تلعب القطعة
بالفأرة . كانت تقبل عليّ بمغازلتها فيداخلي الاضطراب
والابتهاج ، او كانت تصدني فجأة فلا أجرؤ بعدئذ على
الاقتراب منها والنظر اليها .

وأذكر أنها مضت تعاملني ببرودة طوال بضعة ايام ،
فامتلات نفسي بالخوف ، وذهبت الى بيتها وانا متردد بين
الاقدام والاحجام ، وحاولت هناك ان أبقى الى جانب الاميرة
العجوز على الرغم من احتدام صراخها وشتائمها في ذلك الوقت
بالذات بسبب اضطراب في شؤونها المالية اضطر شرطي
الحي أن يزورها بخصوصه مرتين .

وفي ذات يوم كنت أمرّ قرب حاجز الحديقة المعهود
فرأيت زينايدا . كانت تجلس على العشب لا تندّ عنها حركة
معتمدة على يديها ، فأردت ان أنسحب في حذر ، ولكنها
استدارت برأسها فجأة وأومات اليّ بإشارة أمرّة ، فتوقفت
في مكاني غير مدرك أول الامر معنى اشارتها ، فلما أعادتها لم
أتمهل بل قفزت الحاجز وأسرعت اليها تستخفي سعادة
غامرة ، ولكنها استوقفتني بنظرها وأشارت الى ممر الحديقة
الذي يبعد خطوتين عن مجلسها ، فجشوت على ركبتي وأنا
حائر فيما ينبغي عليّ أن أفعل . كانت تبدو شاحبة ، تدل
قسمات وجهها على ما يبھظها من الحزن ، حتى لقد تمزق قلبي
حسرة لحالها ، فتمتمت على الرغم مني أسألها : ما لك ؟
فمدت زينايدا يدها ، واقتلعت عوداً من العشب ،
وأخذته بين أسنانها ، ثم قذفت به بعيداً .

وسألني بعد لأي :

— انك تحبني كثيراً ، أليس كذلك ؟

فلم أجب بكلمة ، وعلام ينبغي أن أجب ؟

فأعادت وهي لا تزال ترمقني بعينيها :

— بلى ان الامر كذلك . العيون نفسها ، — اضافت

وشردت افكارها فغطت وجهها بيديها وهمست : — لقد زهقت

من كل شيء . ليتني أذهب الى آخر الدنيا ، فما استطيع أن

أتحمل اكثر مما تحملت ، اني عاجزة . . وماذا ينتظرنني فيما

بعد ! .. آه مما يثقلني . . . يا ربي ما أشد ما يثقل قلبي !

فسألتها في وجل :

— فيم هذا ؟

لم تجب زينايدا بل هزت كتفيها . كنت لا أزال جائياً

على ركبتي أنظر اليها في حزن عميق . وكل كلمة همست بها

كانت تنفذ في قلبي ، وتراءى لي في تلك اللحظة أني على

استعداد للتضحية بحياتي فداء لها مما يؤودها . كنت انظر

اليها ولا استشف مصدر حزنها ، وقد تصورت حالها : استبد

بها الحزن ، فهرعت الى الحديقة ، وسقطت على الارض

للعشبة المقصولة . كان كل ما يحيط بنا صافياً أخضر ،
والريح تعبث بأوراق الشجر ، وتؤرجح بين الحين والحين
غصناً طويلاً من شجرة توت فوق رأسها ، والحمام يسجع
هناك ، ويطن النحل وهو يحوم دانياً من الأرض فوق العشب
المتناثر ، والسماء فوقنا زرقاء لطيفة ، ولكن ما أشد كآبتي
في تلك الساعة .

قالت زينايدا بصوت خافت وهي تتكى على ساعدها :
— ألا تنشدني شيئاً من الشعر ؟ لكم أحب أن استمع
اليك وأنت تقرأ الشعر . انك ترتله ترتيلاً ، ولكن لا بأس
فان للشباب فرحه أنشدني «على تلال جورجيا» . ولكن
عليك أن تجلس أولاً .

فجلست وأخذت أنشدتها «على تلال جورجيا» . قالت
زينايدا وهي تعيد البيت الأخير :

— «لا يستطيع القلب إلا أن يحب» . تلك هي حسنة
الشعر ، انه يحدثنا عما ليس له وجود ، على نحو أحسن من
الموجود ، بل أشد قرباً من الحقيقة ... نعم ان القلب لا
يستطيع إلا يحب ، ولعله يريد ولكنه لا يستطيع !
وعادت الى الصمت ، ثم تحركت فجأة وهبت واقفة وهي
تقول :

— هيا نذهب ، فان مايدانوف يجلس عند أمي ، وقد
جاءني باحدى قصائده فتركته وهو الآن محزون ايضاً ...
ولكن لا حيلة لي في الامر ، ستعرف هذا ذات حين ... فلا
تغضب مني .

ضغطت على يدي وانطلقت في اسراع تتقدمني وعدنا الى
البيت ، أخذ مايدانوف ينشد قصيدة له كان قد فرغ لساعته
من طبعها ، اسمها «السفاح» ، ولكني لم أصغ اليه ، ومضى
ينشد رباعياته بصوت مرنان رتيب ، وقوافيه تجلجل
كاجراس الزحافة ، ضخابة جوفاء . كنت لا أزال أنظر الى
زينايدا محاولاً أن استجلي معنى كلماتها الاخيرة حينما صاح
مايدانوف فجأة بصوت أخن :

او لعل غريماً مجهولاً بالمرّة
تصيّدك على حين غرّة

فالتقت عيناى بعيني زينايدا ، وما لبثت أن خفستهما وقد
شاعت في وجهها حمرة خفيفة . لقد رأيتها وهي تحمر ،
فجمدني الخوف ، كنت أغار عليها من قبل ، ولكن الخاطرة
التي خطرت في رأسي في تلك اللحظة هي أنها تحب : « يا
آلهي ! انها لعاشقة ! »

١٠

لقد بدأ عذابى الحقيقى منذ تلك اللحظة ، وكنت أفكر
حتى يتفجر رأسي من التفكير ، وأراقب زينايدا مخالساً
دون انقطاع كلما سنخت الفرصة . كان واضحاً أن طارئاً
المّ بها فبدّل من حالها . فقد كانت تخرج للنزهة وحيدة
وتغيب في نزهتها طويلاً او تمسك عن الظهور للضيوف ،
وتعتزل في غرفتها ساعات طويلاً ، ولم يكن ذلك مألوفاً من
عادتها . وفجأة هبطت عليّ الفطنة ، او لعل هذا ما تراءى
بي ، وذهبت أتساءل في قلق وانا استعرض في خاطري الرجال
المحيطين بها : « أيكون هذا أم ذاك ؟ » وظهر لي أن الغراف
ماليفسكي كان أخطرهم جميعاً (وقد خجلت من هذه الخاطرة
تجاه زينايدا) .

ولكن المراقبة لم تزديني بصراً بما يتجاوز أنفي . وقد
حاولت أن أتكتّم في الامر ، ولكن محاولتي لم تخدع أحداً ،
فأن الدكتور لوشن على الاقل أدركني وكشف سري بسرعة ،
ومهما يكن فقد تغير هو ايضاً في الايام الاخيرة . أصبح
مهزول الجسم ، لم تنفثى حدة ضحكه ، ولكنه أصبح يضحك
بصوت أجوف ، على نحو مستوفز متقطع ، وتحولت
سخريته الخفيفة وتظاهره بالاستهتار الى لدع خليع ينطلق
في حدة وعصبية .

كنا وحيدين حينما قال لي ذات مرة وتحن في غرفة الاستقبال بمنزل آل زاسيكين (كانت الاميرة الشابة لا تزال في نزهتها ، واما الاميرة العجوز فكان صوتها ينفذ الينا من الغرفة المجاورة وهي تؤنب خادمها) .

— فيم لا تمسك نفسك عن التردد دون انقطاع على هذا المنزل يا فتى ؟ ينبغي لك أن تدرس وتعمل ما دمت في سن الصبا ، فانظر ما أنت تفعل ؟

فأجبت بشي من التعالي يداخله الارتباك :

— ولكن ما يدريك أنني لا أعمل في البيت ؟

— عن أي عمل تتحدث وفي رأسك موال آخر ؟ . . لا أريد أن أجادلك فأنت وشأنك ، فإن هذا طبيعي وأنت في هذه السن ، ولكنك لم تحسن الاختيار . أفلا تدري ما طينة هذا البيت ؟
فقلت :

— اني لم أفهم الى مَ تقصد .

— ألم تفهم ؟ أن هذا أدعى الى الرثاء ؛ كان من واجبي أن أحذرك . اني ومن على شاكليتي من الكهول العزّاب لا علينا من التردد على هذا البيت ، فأني ضرر يصيبنا ؟ نحن قوم تصلب عودنا فما يهزنا شيء ، ولكنك لا تزال طريّ العود ، هذا الجو ضار بك — صدقني ؛ فقد تسري اليك العدوى .
— وكيف ذلك ؟

— هكذا . فهل أنت موفور الصحة الآن ؟ او انت في حالة طبيعية ؟ وهل اعتقدت أن كل ما تشعر به يلائمك ويصلح لك ؟

فسألت وأنا أدرك في أعماقي أن الدكتور على حق :

— وما هذا الذي استشعره ؟

واستمر الدكتور قائلا :

— آخ منك يا فتى ، أيهذا الفتى . (كان يشد على هاتين الكلمتين كأنما ليبت فيهما شيئا من العتاب) انك لا تعرف المكر ، فإن وجهك مرآة نفسك والحمد لله . ولكن ما الفائدة

من الشرح ؟ فما كنت أنا نفسي لأطرق هذا المكان لو لم . . .
(وصرّ الدكتور بأسنانه قبل أن يضيف :) لو لم أكن من
الطينة ذاتها . ولكن أشد ما يحيرني من أمرك أنك أنت الذكي
ثم لا تدري بما يدور حولك .

فسألته وأنا أرهف السمع :

— وما هذا الذي يدور ؟

فرمقني الدكتور بعطف ساخر وقال كأنما يحدث نفسه :
وما شأني ؟ أكان من الضروري أن أحدثه بكل ذلك ؟ —
ثم أضاف بصوت عال : — أعيد عليك القول بأن هذا الجو
لا يلائمك . قد يكون هذا الجو مما يعجبك . صحيح ، ولكن
هذا لا يكفي ، فإن الرائحة الزكية تعجبك في دفيئة الازهار ،
ولكنك لا تستطيع أن تعيش في دفيئة . إي ، أصغ اليّ ،
ولتعد الي كتابك المدرسي .

وجاءت الاميرة العجوز ، وجعلت تتشكى الي الدكتور
من ألم في أسنانها ، ثم أقبلت زينايدا ، فأضافت الأم :

— ها هي ذي أيها السيد الدكتور ، فلا تمسك عن
تأنيبها ، فأنها مضت تشرب الماء المثلج طوال النهار ، فهل
كان هذا ليلائم صدرها الضعيف ؟

فسألها لوشن :

— علام فعلت ذلك ؟

— وأي ضرر فيما فعلت ؟

— اي ضرر ؟ قد يصيبك البرد فتموتين .

— أيحدث هذا حقاً ؟ هذا ما أستحقه .

— هكذا اذن ؟ — تتمم الدكتور .

وغادرت الاميرة العجوز الغرفة ، فأعادت زينايدا :

— هكذا . هل في هذه الحياة مرح ؟ قلب الطرف فيما
حولك . . . فإين ترى الخير ؟ أم لعلك تظن أنني لا أفهم ولا
أشعر ؟ لقد طاب لي أن أشرب الماء المثلج ، وأنت تريدني
جاداً أن أصدق أن حياة علي هذه الشاكلة ائمن من أن اخاطر

بها وهي على حالها تلك من أجل لحظة هناءة ولا اقول لحظة سعادة .

فقال لوشن ملاحظاً :

— آ ، نعم ، فان النزوان والاستقلال كلمتان تنطويان على موجز حياتك ، كل طبيعتك في هاتين الكلمتين .

فضحكت زينايدا بعصية وقالت :

— اخبارك جاءت بعد فوات الاوان يا عزيزي الدكتور ، ان تشخيصك غلط ولا يمشي مع الزمن . ضع نظارتك على عينيك ، سترى أن النزوان ليس من شأني الآن . وليس هنا شيء من المرح في ان استغفلكم واستغفل نفسي ... أما عن الاستقلال ...— وأمسكت فجأة عن كلامها وهي تدق الارض بقدمها وقالت :— مسيو فولديمار ، لا تلبس هذه السحنة الكئيبة ، فاني لا أطيق أن اكون موضع اشفاق . وانصرفت مسرعة لا تلوي . فأعاد لوشن ما قاله لي : — انه لمؤذ لك هذا الجو أيها الشاب ، مؤذ .

١١

في مساء ذلك اليوم انتظم عقد الجماعة في منزل آل زاسيكين وكنت بينهم .

انطلق الحديث حول قصيدة مايدانوف فائنت زينايدا عليها في اخلاص ، قالت له : «ولكن أتدري لو أنني كنت شاعرة لطرقت موضوعات اخرى . قد يكون هذا لغواً فارغاً ، ولكن تراودني احياناً أفكار غريبة ، وبخاصة حينما أكون مسهدة قبيل الفجر ، وقت اصطباغ السماء باللون الوردى الرمادي . فمثلاً ... ألا تضحكون مني ؟

فهتفنا جميعاً بصوت واحد : « لا ! لا ! »

فقالت وهي تطوي ذراعيها على صدرها وتلقي ببصرها

الى جانب :

— لكنت وضعت جماعة من الفتيات ، وهن على مركب
عظيم يتهامى في الليل على مياه نهر هادى ، تحت ضوء القمر
المنير ، وقد ارتدين الابيض ، وعلى رؤوسهن أكاليل من الزهر
الابيض ، وانطلقن يغنين شيئاً يشبه النشيد .
فتنطع * ميدانوف قائلاً وهو يصطنع هيئة الفاهم والحالم
في آن :

— مفهوم ، مفهوم ... امضي في حديثك .
— وفجأة تنفجر الضوضاء والضحكات ، وتتألق
المشاعل ، وتدق الدفوف على الشاطى ، ويظهر حشد حاشد
من رعية آله المجون يقبل مسرعاً وهو يغني ويصخب . وهنا
ينبغي عليك ايها السيد الشاعر أن ترسم من هذا لوحة ...
ولكني أريد أن تكون المشاعل حمراء ينبعث منها دخان
كثيف وأن تلمع عيون الماجنات تحت ازهار الاكاليل ،
ويجب أن تكون الازهار قاتمة ، ولا تنس جلود النمرور ،
والكؤوس ، والذهب ، الوفرة من الذهب .

فسألها مايدأتوف وهو يرفع شعره الى وراء ويمد أنفه :
— وأين ينبغي أن يوضع هذا الذهب ؟

— أين ؟ على الأكتاف وفي الأيدي والأرجل ، في كل
موضع ، فقد كانت النساء ، على ما روى في قديم الزمان ،
يتزيّن بالخلاخيل الذهب . وتنادي الماجنات فتيات المركب .
فيمسك الفتيات عن الغناء ويتولاهن العجز عن المضي فيه ،
ولكنهن لا يتحركن : كأن النهر يدفع بهن الى الشاطى . فتقوم
احداهن فجأة في سكون ... وهذا يحتاج الى براعة في وصف
قومتها الساكنة تحت ضوء القمر الساطع ، ووصف الذعر
الذي شاع في صديقاتها ... وتخطو فوق طرف المركب ،
فتحيط بها الماجنات ويحملنها ويختفين بها في أعماق الليل ،
في الظلمة ... وتصوروا سحب الدخان تنعقد ويسود الهرج

* تنطع بالكلام : تفصح فيه وتشدق . (المترجم) .

فلا يسمع الا صيحات الماجنات وأكليلها متروك على الشاطىء .

قطعت زينايدا حديثها فقلت لنفسي : « أوه انها عاشقة ! »

وسألها مايدانوف قائلا :

— أهذا كل شيء ؟

فقلت :

— هذا كل شيء ..

فتنطع ملاحظاً :

— لا يصلح هذا موضوعاً لقصيدة طويلة ولكني سأعتمد هذه الفكرة في قصيدة عاطفية .

فسأله ماليفسكي :

— أبالأسلوب الرومانتيكي ؟

— طبعاً بالاسلوب الرومانتيكي وبالطريقة البايرونية .

فقال الغراف الشاب باستهتار :

— في رأيي أن هوغو أطرف من بايرون .

فقاطعه مايدانوف قائلا :

— ان فيكتور هوغو كاتب من الطراز الاول ، ويقول صديقي تونكوشيف في روايته الاسبانية « التروفادور » ان ...

فقاطعه زينايدا قائلة :

— آ ... أتقصد ذلك الكتاب المملوء بعلامات الاستفهام

المقلوبة ؟

— نعم ، فإن هذا من التقاليد الاسبانية . وكنت أريد

أن أقول — ان تونكوشيف ...

وعادت زينايدا تقطع حديثه :

— يه ! ستعودون الى جدلكم حول الكلاسيكية

والرومانتيكية . هيا نلعب لعبة فإن هذا أفضل ...

فتدخل لوشن وسألها :

— اللعبة الجزاء ؟

— لا ان لعبة «الجزء» تشيع الملل . سنلعب لعبة التشبيهاً . (كانت هذه اللعبة من بنات افكار زينايدا ، حيث تسمى الاشياء ويأخذ المتبارون في ابتكار التشبيهاً المناسبة ويفوز بالجائزة من يأتي بأحسن تشبيه) . وسارت زينايدا الى النافذة . كانت الشمس قد انحدرت لحظتها نحو الغروب ، وامتدت في أعلى السماء سحائب طويلة حمراء .

وسالت زينايدا :

— ماذا تشبه هذه السحب ؟

وأضافت دون ان تنتظر جواباً :

— في رأيي انها تشبه شراعاً قرمزيًا على ذلك المركب الذهبي الذي حمل كليوباتره الى لقاء انطونيو . أتذكر يامايدانوف أنك رويت عليّ هذا منذ وقت قريب . وقررنا نحن ، على طريقة بولوني في «هملت» ان هذه السحب تشبه ذاك الشراع ، ولا سبيل لأحد ان يأتي بأحسن من هذا التشبيه .

وسالت زينايدا :

— كم كان لانطونيو من العمر وقتذاك ؟

ولاحظ مالفيسكي :

— لعل الارجح أنه كان شاباً .

وأكد مايدانوف :

— نعم كان شاباً .

فصرخ لوشن :

— عفواً ، لقد كان فوق الاربعين .

فرددت زينايدا عبارته وهي تلقي عليه نظرة سريعة :

— فوق الاربعين .

عدت الى البيت في اسراع ، وتمتمت شفتاي على الرغم

مني : « انها تحب ، ولكن من المحبوب ؟ »

تعاقبت الايام ، ولا تزال زينايبدا تزداد غرابة
 وغموضاً . دخلت عليها ذات يوم ، فرأيتها تجلس في كرسي
 من القش ورأسها مسترخ على حد المائدة ، فلما استقامت كان
 وجهها مبلولا بالدموع . قالت وهي تبتمس ابتسامة قاسية :
 - أوه ، أهذا أنت ، تعال .

فاقتربت منها ، وكان أن وضعت يدها على رأسي ،
 وأمسكت فجأة بخصلة من شعري وجعلت تيرمها .
 فقلت لها بعد لأي :

- ان هذا يؤلمني .

- يؤلمك ؟ أفلا يؤلمني ، أفلا يؤلمني ؟

وصرخت فجأة حينما رأت أنها اقتلعت خصلة من
 شعري :

- ما هذا الذي فعلته ؟ مسكين يا سيد فولديمار .

وأخذت تلمس خصلة الشعر في هدوء وتلفها حول
 اصبعها حتى جعلت منها حلقة ، وقالت والدموع تلمع في
 عينيها :

- سأضع شعرك في مدالية لأحتفظ به تذكراً فلعل
 هذا أن يحمل اليك العزاء ... أما الآن فوداعاً .

عندما عدت الى البيت رأيت الجو مشوباً بالاضطراب ،
 والتشاحن قائماً بين أبي وأمي ، فهي تلحوه في أمر ، وهو
 على عادته صامت في برودة وتأدب ، ولم يتلبث طويلاً بل
 غادر المنزل . وفاتني أن أسمع ما كانت تقوله أمي فما
 هممتي ذلك فقد كنت عنه في شغل شاغل . كل ما أذكره أنها
 أرسلت من يدعوني الى مكتبها بعد انتهاء المشاجرة وأبانت
 عدم رضاها من زياراتي الكثيرة للاميرة ، لأنها على حد قولها
 une femme capable de tout فقبلت يدها (على عادتي

* امرأة لا تزغ نفسها عن أمر .

كلما رغبت في انهاء الحديث) وذهبت الى غرفتي . كانت دموع زينايدا باعث حيرة في نفسي : فما أدري على أي وجه ينبغي تأويلها وأوشكت أنا نفسي على البكاء ، كنت طفلاً على الرغم من سنواتي الست عشرة . لم أعد أفكر في الغراف مالفيسكي على الرغم من ان بيلوفزوروف كان يبدو اكثر قساوة بنظراته الماكرة التي كان يشزر بها الغراف كما يشزر الذئب الحمل ؛ فقد انقطعت عن التفكير في هذا وذاك . واستغرقتني الظنون ، وذهبت أنشد العزلة ، وأصبحت خرائب الدفيئة مكاني الأثير ، فكنت أتسلق جدارها العالي وأجلس وحيداً محزوناً حتى أصبحت أشفق على نفسي ، ولشد ما كان هذا الشجى ممتعاً ولشد ما اجتذبتني الى الاستغراق فيه .

كنت أجلس ذات يوم على الجدار ، مرسلاً بصري الى الآفاق البعيدة ، مصغياً الى رنين الاجراس الكنسية ... واذا شعور مباغت بأن شيئاً يزحف على جلدي ، فكان نسمة ولا نسيم ، ورعشة ولا ارتعاش ، بل لعله الاحساس بأن شخصاً يقترّب مني ... فنظرت الى أسفل نحو الطريق ، فرأيت زينايدا تغدّ في السير وهي في فستان رمادي خفيف وعلى كتفها مظلة حمراء . كانت قد رأيتني ايضاً فتوقفت ، ولوت طرف قبعتها المصنوعة من القش الى أعلى ورفعت نحوي عينيها المخمليتين ، وسألتنني وهي تبتسم ابتسامة غريبة :

— ماذا تفعل هناك على هذا المرتفع ؟ — وازافت : — انك ما تفتنأ تؤكد لي أنك تحبني ، فاقفز الى الطريق ان كنت صادقاً .

فما كادت زينايدا تأتي على نهاية هذه الكلمات حتى كنت أطير الى أسفل كأنما دُفعت من وراء . كان ارتفاع الجدار يزيد على قامتين فبلغت الارض واقفاً ، ولكن عنف الصدمة أعجزني عن التماسك في وقفتي فسقطت غائباً عن الوعي ، واستمر ذلك لحظة ، ولما أفقت لنفسي شعرت

وأنا مغمض العينين بأن زينايدا بجنبي ، وسمعتها تقول
وفي صوتها القلق والعطف وهي تنحني عليّ : « يا حبيبي
الصغير . فيم فعلت هذا ، وعلام أصغيت اليّ ؟ .. أني
أحبك ... هيا انهض ! »

كان صدرها يتنفس قريباً من صدري ، ويدها تمسحان
رأسي ، وفجأة - يا قلبي على ما جرى لي آنذاك ؟ - أخذت
شفاتها الناعمتان الغضتان تغطيان وجهي بالقبيل ...
وتلمسان شفتي ... وهنا أدركت زينايدا من التعبير
المرتسم في وجهي أنني ثبتتُ الى نفسي ولكني لا أفتح عيني ،
فهبت واقفة بحركة سريعة وقالت : « قم من أرضك يا
عفريت يا مجنون ، ما معنى رقدتك هذه على التراب ؟ »
فقممت من أرضي . وقالت زينايدا :

« جـئني بمظلتني من حيث أسقطتها ،
ولا ترمقني هكذا ... ما هذا السخف ؟ ..
أصابك أذى ، او لعل القراص قرصك ؟ .. قلت لك لا تنظر
اليّ ... - وأضافت كأنما تحدث نفسها : - اجل ، انه لا
يفهم ولا يجيب . لتذهب الي بيتك يا سيد فولديمار لتتنظف ،
واحذر ان تسير في إثري والا غضبت ، وعندئذ لن ... »
وأسرعت تمضي في سبيلها من دون أن تكمل خطابها ،
على حين ذهبت أجلس على كتف الطريق ... كنت واهن
الساقين ، ملتهب اليدين من القراص ، يؤلمني ظهري ويدور
رأسي ، ولكن الهناءة التي ملأت نفسي وقتئذ لن تتكرر
مهما عشت في هذه الحياة . كانت تخالجنني كأنها ألم عذب
يسري في أطرافي كافة ، ثم انفجرت اخيراً في قفزات
وصيحات تلتهب بالحماسة . كان الأکید : أني ما زلت طفلاً .

١٣

لشد ما كنت مرحاً فخوراً طوال ذلك اليوم ، وكم كان
حياً ذلك الاحساس بقبلات زينايدا على وجهي ، وبأي

نشوة كنت أستعيد ما قالت كلمة كلمة . لقد حنوت على
سعادتي المفاجئة بما يشبه الرعب ، وأصبحت لا أريد حتى
أن أراها ، وهي المسؤولة عن هذا الشعور الجديد . وخيل
اليّ أنني استنفدت تطلعاتي فلم يبق لي ما أجدّ في طلبه
من القدر ، وكانما آن لي « أن ألملم أنفاسي الأخيرة
وألفظها جملة وأموت » . ولكنني شعرت في اليوم التالي
بتهيب شديد وأنا أتوجه الى بيت الاميرة واخفقت محاولتي
في اخفاء هذا الشعور وراء مظهر وديع من عدم الكلفة ،
لاعتقادي انه المظهر الملائم لامرئى يرغب في اقامة
البرهان على انه كتوم للسّر . واستقبلتني زينايدا في بساطة
لا أثر فيها للتحرج ، ولم تفعل الا أنها هزت اصبعها
وسالت : أيكون فيّ أثر من بقع زرق ؟ فإذا مظهر الجسارة
المتواضعة والتكتم يفارقني في تلك اللحظة ، وزال معهما
ارتباكي . وطبيعي أنني لم أكن أتوقع أي امتياز خاص ،
ولكن هدوء زينايدا وقع عليّ مثل دلقة من ماء بارد .
لقد ادركت أنني ما زلت في نظرها مجرد طفل ، فثقل ذلك
عليّ ! كانت زينايدا تسير في الغرفة ذاهبة جائئة ،
وترميني بابتسامة عابرة كلما تلاقت نظراتنا ، رأيت في
وضوح أن افكارها كانت بعيدة عني . . . « وخطر ببالي ان
أبدأها الحديث عن حادث أمس ، وفكرت : هل أسألها الى
اين ذهبت مسرعة لأكون على علم بخاتمة المطاف . . . »
ولكنني لوحث بيدي وانتبذت مكاناً في زاوية الغرفة
جلست فيه .

أقبل بيلوفزوروف فاغتبطت لقدميه ، وقال بصوت
خطير :

— أخفقت في العثور على جواد هادىّ يناسبك . لقد
نصح لي السيد فريتاغ بواحد ، ولكنني لم أثق بقوله ،
وغلبنى الخوف .

فسألت زينايدا :

— وممّ تخاف ؟ اذا سمحت بالسؤال .

— ممّ ؟ انك لا تقدرين على ركوب الخيل . ربّ يا خفىّ
الألطف احفظنا . مما نخاف . ثم ما هذا الوهم الذى ملأ رأسك
فجأة ؟

— هذا شغلي يا مسيو وحشي وليس شغلك . وسألجأ
في هذه الحال الى بيوتر فاسيليفيتش . . . (كان هذا اسم
أبي ، وقد أدهشني أنها نطقت به في يسر وطلاقة كأنها على
يقين من حسن استعداده لخدمتها) .

فاعترض بيلوفزوروف قائلاً :

— اذن هذا هو من تريدان أن تخرجي معه على صهوة
الجواد ؟

— معه او مع غيره ، فإن هذا لا يخصك ، وليس معك
في كل حال .

فردد بيلوفزوروف قائلاً :

— ليس معي . كما تشائين . ماذا بيدي أن أفعل .
سأدبر لك حصاناً .

— واحرص على ألا يكون بقرة او مما في هذا الجنس ،
فأنا أنذرك بأنى سأنجرده به .

— تفضلي انجردي به ، ولكن مع من ؟ أهو ماليفسكي ؟

— ولمّ لا يكون ماليفسكي أيها المغوار ؟

وأضافت :

— ولكن هدى من روعك ، ولا تحملق بعينيك ، فانك

ايضاً من سأخذه معي ، وانت تعرف ما موضع ماليفسكي
عندي الآن — أف ! (ورفعت رأسها في استعلاء) .

فقال بيلوفزوروف متذمراً :

— انك تقولين ذلك من قبيل التعزية .

— هل يعزبك هذا ؟ أو . . . و . . . ه ايها المغوار . —

وقد نطقت باواخر هذه الكلمة ، كأنها لم تعثر على كلمة

اخرى . — وأضافت :

— وانت يا سيد فولديمار ألا تريد أن تأتي معنا ؟

فقلت من دون أن أرفع بصرى :

- انى لا أحب .. أن أكون فى جماعة كثيرة .
 - *Tête-à-tête*، هذا ما تفضله اذن ؟ .. لا عليك
 فالحرية للحر والجنة لمن نجى * * - وتنهدت - امض اذن
 يا بيلوفزوروف ، انى فى حاجة الى الحصان غداً .
 فتدخلت الاميرة العجوز بقولها :
 - طيب ، والنقود ؟ من اين ستحصلين عليها ؟
 فقطبت زينايدا حاجبها :
 - لم أطلبها منك فان بيلوفزوروف يثق بدمتي .
 فغمغمت الاميرة العجوز :
 - يثق ، يثق ...
 وصاحت فجأة بملء صوتها :
 - دونياشكا !
 فلاحظت الاميرة الصغيرة قائلة :
 - ماما ، لقد أهديتك جرساً لهذه الغاية .
 وعادت العجوز تصيح :
 - دونياشكا !
 انحنى بيلوفزوروف مودعاً ، فقامت أقصد الذهاب معه ...
 ولم تحاول زينايدا ان تستبقيني .

١٤

نهضت مبكراً فى صباح اليوم التالي ، فاقتضبت قضيباً من
 شجرة ومضيت أتجول فيما وراء باب المدينة ، وقد قيل :
 اذا ضقت بمطرح فاتركه واسرح . كان النهار رائعا مشرق
 الضياء معتدل الجو : والأنسام الممراح تتفسح على الارض ،
 وتضوضى فى حفيف خافت ، وتلعب فتتهز كل ما تلمسه من
 دون أن تؤذيه . وأطلت فى التجوال خلال الغابات والجبال ،

* رأس لرأس .

* * مثل روسي ، معناه لك ما تريد .

ولكني لم أشعر بسعادة ، لأني غادرت المنزل وبي نزوع الى الاستغراق في الاحزان . ثم ما لبث الشباب اليافع ، والطقس الرائع ، والهواء النقي ، وتلك الغبطة التي يبتعثها المشي السريع ، وراحة الاستلقاء على العشب الكثيف ، أن عملت عملها ، فتواردتني الذكريات : ذكريات الكلمات التي لا تنسى ، والقبلات . استشعرت الغبطة حينما فكرت في أن زينايدا لا تستطيع أن تنفي أنني امرؤ لا تنقصه العزيمة والشجاعة . . . « انها تفضل الآخرين عليّ . ليكن ! ولكن الآخرين لا يتجاوزون حدود الحديث عما سيفعلون ، أما أنا فقد فعلت . . . وأملك القدرة على أن أفعل في سبيلها فوق ما فعلت ! . . » وسرح بي الخيال ، فتصورتني أنقذها من قبضة أعداء ، ورأيتني غارقاً في الدم وانا أخلصها من سجن مظلم ثم أهوي ميتاً عند قدميها . وخطرت ببالي لوحة معلقة عندنا في غرفة الاستقبال وهي صورة الملك العادل يحمل ماتيلدة * . . . وهنا شغلت بنقار كبير ذي لون محبّر لامع يتسلق في اهتمام على شجرة بتولة دقيقة الساق وهو ينظر من خلفها ذات اليمين وذات اليسار في حذر كأنه عازف موسيقى وراء عنق كمان جهير . ثم أخذت أغني : « الثلوج ليست بيضاء » ، وانتقلت منها الى الاغنية العاطفية الشائعة في ذلك الحين : « أنا في انتظارك حينما يتلاعب النسيم » . وقطعتها لأقرأ بصوت مرتفع خطاب يرمك الى النجوم في مأساة خومياكوف ، بل لقد حاولت أن أنظم ما يحضر من شعر العاطفة ، وارتأيت ان تختتم القصيدة بهذا البيت : « أوه ، زينايدا ، زينايدا ! » . ولكن محاولتي أخفقت . وحل موعد الغداء في هذه الاثناء ، فقامت أهبط الوادي . كان فيه طريق رملي ضيق يتأفمى ذاهباً حتى المدينة . فذهبت في هذا الطريق وترامى اليّ من ورائي خلال السير ايقاع مكتوم لحوافر جياذ ، فالتفت الى وراء ، وتوقفت عن

* لوحة استوحى الرسام موضوعها من رواية عن الحروب الصليبية للكاتبه الفرنسية صوفي كوتون . (المترجم) .

غير قصد وانا أرفع قبعتي : رأيت أبي وزينايدا ، كانا متواكبين ، وأبي يحدثها وهو منحني عليها بجسمه جميعاً معتمد بيده على عنق الجواد ؛ كان يبتسم ، وزينايدا تصغي إليه صامتة وقد أرخت عينيها في جد ، وكزت شفيتها . لم أر غيرهما أول الامر ، وبعد لحظات برز بيلوفزوروف من منعطف في الطريق ، وهو في حلة الفرسان ، وتحت حسان أدهم كان يلعب بالعرق ويرمح برأسه وينخر ويتوثب . كان راكبه يكبجه بالعنان ويهمزه بالمهماساز في آن ، فانتحيت جانب الطريق ، وأخذ أبي عنان الجواد بيديه ، وابتعد عن زينايدا ، بينما أرسلت هي إليه نظرة وانية ، وانطلقا يخبان جواديهما متواكبين ... وتبعهما بيلوفزوروف وسيفه يقعق ... قلت في نفسي : « انه احمر كالسرطان البحري وأما هي ... ففيم شحوبها ؟ انها كانت تقضي الصباح كله في الركوب فلماذا هذا الشحوب ؟ »

حشت الخطي فبلغت الدار في موعد الغداء . كان أبي قد بدل ثيابه ، واغتسل فبدأ نضراً ، وجلس بجانب مقعد أمي وراح يقرأ عليها بصوته الرتيب المرنان مقالة ساخرة في «Journal des Débats» كانت أمي تصغي في غير اقبال ، ولما رأته سألته : أين كنت شاردأ طوال النهار . ثم اضافت قائلة : انها لا تحب من يتسكعون حيث لا يعلم الا الله ، او يرافقون من ليس يدري بامورهم الا الله . وهممت بأن اقول لها اني كنت أتنزه وحيداً ، ولكنني نظرت الى أبي ، ولا ادري لماذا التزمت الصمت .

لم ألتق زينايدا الا لماما طوال الايام الخمسة او الستة الاخيرة ، قالت انها مريضة ، ولكن ذلك لم يمنع الزائرين التقليديين من الذهاب الى بيتها لأداء الواجب - على حد

قولهم . كانوا يأتون الى بيتها جميعاً ما عدا مايدانوف ،
فقد كان يشتمله القنوط والوهن كلما نضب معين إلهامه .
وكان بيلوفزوروف ينتبذ ركناً قصياً من الغرفة ، فيجلس
بوجه عبوس شديد الاحمرار ، وسترة مزررة حتى العنق .
واستقرت في وجه الغراف مالفيسكي الدقيق ابتسامة شائلة ؛
فانه فقد في الواقع الحظوة عند زينايدا واصبح شديد
الحرص على استرضاء الاميرة العجوز ، بل انه رافقها ذات
مرة فى عربة الى دار الحاكم العام ، ولكن تلك الزيارة لم
تثمر شيئاً ، وكان من نكدها عليه : أن القوم ذكرّوه هناك
بسابقة من السوابق اشترك فيها مع بعض الضباط ، ولم
يكن لديه ما يدافع به عن نفسه الا القول بانه كان مغفلاً
عديم التجربة . أما لوشين فكان يأتى الى الجناح زائراً مرة
او مرتين في اليوم ، ولكنه لا يمكث الا قليلا ، وقد اصبحت
أخشاه بعض الخشية بعد حديثنا الاخير ، واشعر بالميل
نحوه فى الوقت نفسه . وقد ذهبنا ذات مرة في نزهة خلال
حدائق نيسكوتشني ساد ، فكان حديثه معي في غاية اللطف
والرقة ، جعل يذكر لي أسماء الاعشاب والازهار المختلفة ،
ويحدثني بخواصها ، ثم اذا هو يهتف فجأة ، ونحن على حد
القول الدارج لا هنا ولا هناك ويضرب بيده على جبينه قائلاً :
« ما انا الا احمق . لقد ظننت أنها مجرد فتاة لعوب ، فظهر
أن التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض » .

فسألته :

— ماذا تريد بهذا أن تقول ؟

فأجابني لوشن في حدة :

— لا شيء اريد أن أقوله لك أنت .

كانت زينايدا تتجنب مقابلي ، ولاحظت انها تضيق
ذرعاً برؤيتي ، وتشيح وجهها عني بصورة غريزية ...
بصورة غريزية ؛ وهذا بالذات ما كان يعذبني ويسحقني
وأنا لا أملك شيئاً حياله . وقد جهدت في توقي نظراتها ،
واكتفيت بمراقبتها من بعيد ، فلم أفلح في ذلك كل الفلاح .

كان يتداخلها شيء مبهم يتعصى على الفهم : أصبح الوجه غير وجهها، وتغيرت أحوالها جملة . وأدهشني على الخصوص ما ظهر منها في ذات مسا هادى دافى . كنت أجلس في دكة واطئة ، ورأسى تحت فرع عريض من شجيرة خزام ؛ وهو موضوع أثرته لأنه يكشف لي عن نافذة زينايدا . كنت أجلس وفوق رأسى طائر صغير يلوب بين الاوراق المظلمة ؛ وتمطت قطعة رمادية ثم انسلت الى الحديقة في هدوء ، واوائل الصراير تملأ الجو بأزيزها الثقيل ، والفضاء ما زال شفافاً ولكنه غير مضىء . كنت أنظر من مجلسي الى النافذة وأنتظر ان تفتح ؛ وما لبثت ان فتحت ، وظهرت فيها زينايدا . كان عليها فستان أبيض ، وهي نفسها ، بوجهها وكتفيها وذراعيها بدت شاحبة الى حد البياض . طال وقوفها من دون حركة ، وهي تنظر بحاجبين مقطبين نظرة ثابتة ولا تندّ منها حركة ، لم أكن أعرف أنها قادرة على مثل هذه النظرة ؛ ثم ضمت يديها بأقصى ما تكون الشدة ورفعتهما الى شفتيها فجبينها ؛ وفجأة بسطت أصابعها وجعلت شعرها وراء أذنيها ، وهزت رأسها ، ونفضت شعرها في عزم ، وصفقت مصراع النافذة .

التقينا بعد ثلاثة ايام في الحديقة ، أردت أن أمضي بجانباً ولكنها استوقفتني وقالت بلهجتها في الايام الخالية :
- هات أعطني يدك ، فاننا لم نثرثر مع بعضنا البعض منذ وقت بعيد .

نظرت اليها فإذا عيناها تضيئان بنور هادى ، وكأن وجهها يبتسم من خلال ضباب خفيف .
سألتها :

- أما زلت موعوكة ؟
فأجابت وهي تقطف وردة حمراء :
- لا ، فقد زال كل شيء الآن . اني متعبة قليلا ، ولكن هذا سيزول ايضاً .

- هل تعودين كما كنت من قبل ؟
فرفعت زينايدا الوردة الى وجهها ، وعندئذ تراءى لي

كان ضياء اوراق الوردة المتألق ينعكس في خديهما .
وسألتني :

— أتراني تغيرت ؟

فقلت بصوت خافت :

— أجل ، تغيرت .

فقال زينايدا :

— أعرف أنني كنت باردة معك ، ولكن ما كان ينبغي لك
أن تهتم بهذا الأمر . . . لم أكن أستطيع غير ذلك . . . ولكن
فيم الحديث عن هذا !

فصحت دون قصد بنبرة حزينة :

— لا تريدني لي أن أحبك . هذا هو الامر !

— لا جرم أن تحبني ولكن غير حبك من قبل .

— بل كيف ؟

.. أن نكون اصدقاء .

وأضافت وهي ترفع الوردة لأشمها :

... اسمع . اني أكبر منك سنأ ، وكان يمكن لي ان اكون
عمتك ، ليس عمتك بل اختك الكبرى ، وأما انت . . .
فقاطعتها قائلاً :

.. مجرد طفل في نظرك .

.. أجل ، ولكنك الطفل الظريف الطيب الذكي الذي أحبه

كثيراً . أصغ الي ، ستكون وصيفي الخاص منذ اليوم ، ولا

تنس أن الوصيف لا يستطيع أن يتعد عن سيده . وها هي

ذي شارة منصبك الجديد . — اضافت وهي تضع الوردة في

عروتي — شارة رعايتنا لك .

فتمتمت قائلاً :

— لقد تلقيت لونا آخر من رعايتك فيما مضى .

فصاحت زينايدا :

— آ ! . .

وأضافت وهي ترمقني بجانب عينيها :

— يا لقوة ذاكرته ! ولكن ما المانع ؟ فأنا مستعدة
الآن ايضاً ...

وانحنى عليّ تطبع على جبيني قبلة صافية هادئة .
لم أملك سوى أن نظرت اليها ، بينما استدارت تقول :
« هيا اتبعني يا وصيفي » ، وسارت نحو الجناح وأنا في أثرها .
كنت في حيرة من كل هذا ، ورأيتني أقول في نفسي : « أيعقل
أن تكون هذه الفتاة الوديدة الفطنة هي نفسها زينايدا التي
عرفتها من قبل ؟ » . لقد تغيرت حتى أن مشيتها تراءت لي
أهدأ مما كانت ، وزاد جسدها كله جلالاً
ورشاقة ...

يا آلهي ، بأية قوة جديدة أصبح حبي يتلهب !

١٦

اجتمع الضيوف في الجناح بعد الغداء ، وخرجت الاميرة
الشابة الى استقبالهم . التقى افراد الشلة جميعاً كما كانوا
في تلك السهرة الاولى التي لن أنساها : بل حتى نيرماتسكي
جاء ؛ وصل مايدانوف قبل الآخرين في هذه المرة ومعه
قصيدة جديدة وبدأت لعبة الجزاءات ايضاً ، ولكن من دون
تلك المزحات الشاذة وما اليها من الهرج والمرج ، فقد اختفى
من ضوئنا عنصرها النوري ، وأضفت زينايدا على المجلس
روحاً جديدة . جلست الى جانبها كما يقتضى من الوصيف .
كانت قد اقترحت في اثناء اللعب أن يروي من يسحب الورقة
الخاسرة ما رآه في المنام ؛ ولكن اقتراحها لم يحالفه النجاح ،
فالاحلام جاءت اما سخيفة (رأى بيلوفزوروف في المنام أنه
يعلف حصانه سمك الشبوط ، وأن للحصان رأساً من
خشب) ، او لا أصل لها ولا فصل ، فقد تكرّم علينا
مايدانوف بقصة طافحة بالتواييت ، وبالملائكة في ايديهم
المزاهر ، وبالازهار الناطقة ... والترايم القصية الرنين ...
ولكن زينايدا قطعت عليه حبل الاستمرار الى النهاية ،

وقالت : « ما دمنا في مجرى الاختلاق فليرو كل شيئاً من بنات الخيال » .

كان على بيلوفزورف أن يكون البادى في الحديث .
ولكن الفارس الشاب حرجه الموقف فصاح :
— اني لا استطيع أن أبتكر شيئاً .
فقالت زينايدا :

— ما هذا الكلام الفارغ ! افترض أنك ، على سبيل
المثال ، متزوج ، فحدثنا كيف تعامل زوجتك . هل تغلق
دونها الابواب ؟

— أجل ، كنت أحبسها .
— هل تجلس اليها أنت بالذات ؟
— أكيد كنت أجلس اليها .
— ظريف ، ولكن هب أنها انزهقت وخانتك ؟
— كنت أقتلها .
— واذا هربت ؟
— أذهب في طلبها ، ومهما يكن فأني أقتلها .
— ولكن هب أني زوجتك فماذا كنت تفعل ؟
فأمسك بيلوفزوروف عن الكلام لحظة ثم قال :
— كنت أقتل نفسي .
فضحكت زينايدا وقالت :

— أرى أن انفاسك في الغناء قصيرة * .

في السحب الثاني جاءت الورقة مع زينايدا ، فرفعت
عينها الى السقف واستغرقت في التفكير ، ثم قالت أخيراً :
— اسمعوا ماذا اخترعت . تصوروا قصرأ منيفاً ، وليلة
صيف ، وحفلة رقص رائعة . الحفلة أقامتها ملكة شابة . في
كل ناحية ذهب ومرمر وبلور وحرير وأضواء وألماس
وأزهار وبخور وكل ما يشتهي من الترف .
فقاطعها لوشين قائلاً :

* المقصود أنه ضيق الصدر قليل الصبر . (المترجم) .

– وهل أنت تحبين الترف ؟

فأجابت :

– الترف جميل ، وأنا أحب كل جميل .

فسأل :

– أكثر من الرائع ؟

– هذا تعقيد لا أفهمه فلا تشوش عليّ . . . واذن فإن
الحفلة غاية في الروعة . الضيوف كثرة ، وهم جميعا شبان
وسماء شجعان ؛ وكلهم متيم بحب الملكة .

فسأل مالفيسكي :

– هل بين الضيوف نساء ؟

– لا . . . بل طول بالك ، أجل ، هناك نساء .

– وهل هنّ جميعاً غير جميلات ؟

– بل فائنات الجمال ، ولكن الرجال كلهم واقعون في
حب الملكة ، فهي هيفاء لفاء . . . تزين شعرها الأسود
بأكليل صغير من الذهب .

نظرت الى زينايدا فبدت لي في تلك اللحظة أرفع شأناً
منا نحن جميعاً ، ورأيت الذكاء والاعتدال يتألقان في جبينها
الوضاء وحاجبيها الثابتين ، فقلت في نفسي : « انك
أنت تلك الملكة ! » .

واستطردت زينايدا :

– وأحاطوا كلهم بها يتملقونها بالمدائح .

فسأل لوشين :

– هل تحب الملق ؟

– يا لك رجلا لا يطاق ، ما تفتأ تقاطعني . . . فمن

لا يحب الملق ؟

فقال مالفيسكي :

– هناك ايضاً سؤال أخير . هل للملكة زوج ؟

– لم أفكر في هذا . ولكن ، لا ، فلماذا الزوج ؟

فقال مالفيسكي موافقاً :

– طبيعي فلماذا الزوج ؟

فصاح مايدانوف بالفرنسية وكانت لهجته فيها قبيحة :
- Silence!* .

فقال له زينايدا :

- Merci** . وعلى ذلك ، تستمع الملكة الى تلك
المدائح ، وتصغي الى الموسيقى ، من دون أن تنظر الى
أحد من الضيوف ؛ هناك ست نوافذ مفتوحة المصاريع من
السقف الى الارض ، وراءها السماء المظلمة والنجوم الكبيرة ،
ثم ان الحديقة مظلمة ، فيها أشجار ضخمة ، والملكة بصرها
في الحديقة ؛ بين الاشجار نافورة تسطح في الظلمة ، طويلة
طويلة كأنها الشبح . وتستمع الملكة من خلال الكلام
والموسيقى الى ترشش الماء الهادي ؛ وانها لتنظر وتفكر :
انتم جميعا ايها السادة ، معشر نبلاء أذكيا أغنياء . وها
انتم أولاء تحيطون بي ، وتعتزون بكل كلمة من كلماتي ،
كلكم مستعد للموت على قدمي ، وأنا المسيطرة عليكم ...
ولكن هناك على مقربة من النافورة ، حيث يترشش ذلك
الماء ، يقف ذاك الذي أحبه وينتظر ، ذاك الذي يسيطر
عليّ ، ليس عليه ثوب فاخر ولا حجر كريم ، وهو مجهول ،
ولكنه ينتظرنني ، وهو على يقين من أنني سأجيء ، ولسوف
أجيء ، فما من قوة تحبسنني عنه حينما أريد أن أذهب
اليه ، وألبث لديه ، ونضيع معاً في ظلمة الحديقة ، بين
حفيف الشجر وخرير النافورة ...
سكتت زينايدا .

فسألها ماليفسكي في خبث :

- هل هذا من نسج الخيال ؟

ولكن زينايدا لم تتنازل حتى الى النظر نحوه . وقال
لوشين فجأة :

- وماذا سنفعل نحن ايها السادة ، اذا كنا بين

* اسكت !

** شكراً .

الضيوف وعلمنا بأمر ذلك المحظوظ صاحب النافورة ؟
فقاطعته زينايدا بقولها :

— طوّلوا بالكم ، لا تعجلوا ، فانا بالذات أقول ما
سيفعله كل منكم . فانت يا بيلوفزوروف تدعوه الى
المبارزة ، وانت يا ميدانوف تهجوه بمقطوعة ... ولكن
لا ، فانك قصير باع في كتابة المقطوعات ، ستهجوه بمعلقه
على طريقة باربييه وتنشر خريدتك في مجلة
«التلغراف» . وانت يا ثيرماتسكي تقترض منه ... كلا ،
بل تقرضه النقرود بفائدة مئوية . أما أنت يا دكتور ...—
وأمسكت لحظة ثم قالت— هل رأيت ، اني لا أدري ما
كنت ستفعله أنت .

فأجاب لوشين :

— بصفتي طبيب البلاط ، كنت أنصح للملكة أن لا
تحيي حفلات راقصة حينما تكون في مزاج ينبو بها عن
الضيوف .

— لعلك أن تكون على صواب . وانت يا غراف ...
— انا ؟— عاد ماليفسكي يسألها وعلى وجهه ابتسامة
خبيثة .

— أما أنت فكنت تقدم اليه السم في قطعة حلوى .
فارتعش وجه ماليفسكي ، واكتسى خلال لمحة بتعبير
لثيم ولكنه ما لبث ان قهقه ضاحكا .
وتابعت زينايدا متوجهة الي :
— وماذا بخصوصك يا فولديمار ... ولكن بس ففي
هذا القدر كفاية ، وهيا نلعب لعبة أخرى .
فقال ماليفسكي في لدع :

— ان السيد فولديمار وصيف الملكة ، وبهذا الحق
سيحمل أذيال ثوبها حينما تهرع الى الحديقة .
فاختنق وجهي بالاحمرار ، ولكن زينايدا وضعت يدها
على كتفي ونهضت ، وقالت بصوت فيه رجفة خفيفة :
— اني لم أسمح لسيادتك قط بأن تكون بذيئاً ،

ولهذا أرجوك أن تغادر هذا المنزل . - وأشارت له نحو الباب .

فتمتم ماليفسكي وقد شحب لونه :

- ما هذا الكلام يا أميرة ؟

فصاح بيلوفزوروف وهو ينهض أيضاً :

- ان الاميرة على حق .

فقال ماليفسكي :

- اقسم بالله اني ما كنت أتوقع ، ما كنت أظن أن

في كلامي شيئاً مما ... لم يخطر ببالي شيء قد يسيء اليك ... سامحيني أرجوك .

فرمته بنظرة باردة ، وضحكت في برودة ، وقالت وهي

تطوح يدها في استخفاف :

- لك أن تبقى اذا شئت ، فقد غضبنا أنا والسيد

فولديمار من دون مبرر . انت تمزح لتجرح ... تفضل صحتين .

فعاد ماليفسكي يقول :

- سامحيني أرجوك .

وتذكرت حركة زينايدا فقلت في نفسي ، ما كان

لملكة حقيقية أن تومي لمطرود نحو الباب بجلال أعظم من تلك الايماءة .

لم تستمر لعبة الجزاءات الا قليلا بعد هذا الحادث

العابر ؛ فقد سرى التحرج بين الحاضرين جميعاً لا بسبب

الحادث نفسه ، بل من جراء شعور ثقيل لم يتحدث عنه

احد ، وانما استشعره كل في نفسه وأدركه في جاره .

وانشدنا مايدانوف قصيدته ، فاندفع ماليفسكي يثني عليها

بكثير من الحماسة ، فهمس لوشين في أذني : « ما أشد

رغبته في أن يبدو كريم النفس الآن » . وما لبثنا أن

تفرقنا ، فان زينايدا قد استغرقت في التفكير ، والاميرة

العجوز أرسلت من يقول انها تتألم من رأسها ، وأخذ

نيرماتسكي يتشكى من روماتيزمه .

وتعصى عليّ النوم وقتاً طويلاً فقد بهرتني قصة زينايدا ، وساءلت نفسي : « هل قصدت ان تلمح بها الى امر ، فما هو المقصود ، ومن هو المقصود ؟ واذا كان ما لمحت اليه واقعاً بحذافيره فكيف أقدمت ؟ .. لا ، لا ، فان هذا مستحيل » ، - همست وانا اتقلب من خد متوقد الى آخر ... ثم تذكرت ما ارتسم في وجه زينايدا من تعبير وهي تروي قصتها ... وصيحة لوشين التي اطلقها عفو لحظته في حديقة نيسكوتشني ، وما طرأ فجأة من انقلاب على مسلكها تجاهي - وارهقتني الظنون « فيمن يكون ؟ » . كانت هاتان الكلمتان بالذات نصب عيني منقوشتين في الظلام ، وشعرت كان سحابة منخفضة مملوءة بالشر تخيم فوق رأسي ، شعرت بضغطها وانتظرت ان تنفجر في أية لحظة . لقد تعودت كثيراً من الاشياء في الآن الاخير ، ورأيت كثيراً من الاشياء عند آل زاسيكين ، حيث : الفوضى ، واعقاب الشموع الذائبة ، والسكاكين المثلمة ، والشوكات المهتمة ، وسحنة فونيفاتي العابسة ، ورئاسة الخدم ، وبدوات الاميرة العجوز . كل هذه الحياة الغريبة أصبحت لا تدهلني ... ولكني لم أستطع ان أتعود ما كان يبدو مستغلقاً في زينايدا « المغامرة » - هذا ما قالت له أمي عنها ذات مرة ، ان هذه « المغامرة » معبودتي ، إلهتي ! لقد ألهمتني هذه التسمية فالتمسيت الفرار منها باغراق وجهي في الوسادة . كنت مغيظاً ... ولكني مهياً في الوقت نفسه لكل تضحية وبذل أبهظ ثمن تلقاء أن أكون أنا ذلك المحظوظ صاحب النافورة ! ..

كان دمي يغلي ويفور ، وفكرت : « الحديقة ... النافورة ... علي ان اخرج الى الحديقة » . وفي ومضة كنت أرثدي ثيابي وأنسل من المنزل . كان الليل مظلماً ، والاشجار تتهامس في خفوت ، وبرودة هادئة تسقط من السماء ، ورائحة الشمار تنبعث من المبقلة . ذهبت ارتاد دروب الحديقة ، ووقع خطواتي يثير في الرهبة والانتعاش

في آن . كنت أتوقف وأنتظر وأصغى الى نبض قلبي وهو يخفق قوياً سريعاً ، واخيراً بلغت السور ، فاستندت الى احدى دعائمه الدقيقة . وفجأة شعرت - او لعل هذا ما توهمته - ان جسماً انثوياً على مبعده بضع خطوات من موقفي ، قد انخطف مسرعاً . . . فحدقت في أعماق الظلام وأنا أحبس انفاسي . . . فما هذا ؟ أكان وقع خطواتي ، ام نبض قلبي ؟ وعدت أهمس : « من هناك ؟ » . ولكن ما هذا أيضاً ؟ أهو ضحك مكتوم ؟ .. ام حفيف أغصان ؟ .. ام انفاس تتردد في أذني ؟ لقد ملأ الرعب قلبي فهمست باطراف شفتي : « من هناك ؟ » . تراوحت نسمة في خلال لحظة ، وبرق بارق في السماء ، وسقطت نجمة ، فهممت بان أسأل : « هل انت زينايدا ؟ » ، ولكن الصوت اختنق في حلقي ، وجثم فجأة سکون عميق كهذا السكون الذي يلم كثيراً في دلج الليل . . . وصمت كل شيء حتى أزيز الجنادب في دغل الشجيرات ، ثم سمعت صرير نافذة ، ولم أبرح مكاني بل مكثت قليلا وعدت بعدئذ الى غرفتي والى فراشي البارد . كنت اضطرم بانفعال غريب : فكأنني ذهبت الى موعد لقاء ، بقيت فيه وحيداً ، ومررت عابراً بسعادة امرى غريب .

١٧

لم أستطع أن أرى زينايدا في اليوم التالي اكثر من لمحة مختطفة وهي تمر في عربة مع أمها ، ورأيت لوشين ولكنه اختصر التحية ولم يتلبث ثم رأيت ماليفسكي ، فلبث الغراف الشاب يبتسم ويتحدث الي في ود ، كان الوحيد بين زين الجناح الذي استطاع ان يندس علينا في المنزل وان يكون مقرباً من أمي . كان أبي يستثقل ظله ويسرف في التأذب معه الى درجة الاهانة . وبدأ ماليفسكي قائلاً :

— Ah, monsieur le page,* اني لسعيد بلقائك .

ترى ماذا تفعل ملكتك الرائعة ؟

* آه ، يا سيدي الوصيف .

وبدا وجهه النضير الجميل مقرفاً في تلك اللحظة ، ونظرته
ماجنة مستهترة بحيث أمسكت دونه عن كل جواب .
ومضى يقول :

— ألا تزال غاضباً ، دع هذا العبث ، فما أنا من لقبك
بالوصيف ، فإن اصطناع الوصفاء من حق الملكات ، ولكن
اسمح لي ان ألفت انتباهك الى انك تهمل واجباتك .
— كيف ذلك ؟

— من واجبات الوصيف ألا يفترق أبداً عن سيده ،
وعلى الوصفاء ان يحيطوا علماً بكل أمر ، والأى يجهلوا ما
يجري في السر . — واضاف بصوت خافت : — وعليهم ايضاً
ان يراقبوهن في النهار والليل .
— ماذا تريد ان تقول ؟

— ماذا اريد ان اقول ؟ ما بعد هذا الافصاح زيادة
في الايضاح . ليل نهار ، في النهار بين بين لأنه مبصر بنوره
وبالناس ، وانتظر الفجاءات في الليل ، وانصح لك بأن
تسهر الليالي ، وان تراقب بعين مفتوحة . راقب بكل ما
تملك من القوة ، وتذكر : الحديقة والليل والنافورة ،
فهناك ينبغي لك ان تترصد ، ولسوف تشكرني .

ضحك ماليفسكي وهو يدير لي ظهره . ولعل الأرجح
انه لم يكن يحفل كثيراً بما قال ؛ فالمعروف عنه أنه مهذار
لا يشق له غبار ، كان مشهوراً بخداعه الناس في الحفلات
المقنعة يساعده ما هو عليه من زيف يتغلغل في كل
طبيعته . . . اراد ان يعبث بي فقط ، ولكن كلماته سرت
في عروقي كأنها السم ، وصعد الدم في رأسي . . . وقلت لنفسي :
« آ ، واذن هكذا ! طيب ! الامر اذن ان هو اجسي امس
كانت في محلها ، وان انجذابي الى الحديقة لم يكن من دون
سبب ! » فصحت وانا أقرع صدري بقبضة يدي : « هذا لن
يكون ! » ولم يكن في مقدرتي ان اعرف ما هذا الذي لن
يكون . وفكرت : « لئن جاء ماليفسكي نفسه الى الحديقة
ولعله كان ينطق بالحقيقة ففي صفاقته ما يكفي لهذا) او

كان القادم شخصاً آخر (كان سياج حديقتنا منخفضاً فلا يصعب على احد ان يتخطاه) فان من سيقع في يدي لن يلقي ما يشرح الصدر ، ولا انصح لاحد ان يتصدى لمواجهتي ، سأثبت للعالم كله ، ولتلك الخائنة (أجل سميتها ، الخائنة) اني قادر على الانتقام !»

عدت الى غرفتي وسحبت من درج مكتبتي سكيناً انجليزية كنت اشتريتها منذ وقت غير بعيد ، وتحسست شفرتها القاطعة ، ثم وضعتها في جيبي بحركة باردة حازمة وانا مقطب الجبين كأنني صاحب سوابق عريق في نظائر هذا التدبير ، وقد توقد قلبي بالشر وأصبح كالحجر ، وبقيت مقطب الجبين مكتز الشفتين حتى أقبل الليل ، أروح وأجيء ، ويدي في جيبي تقبض على السكين الدافئة ، وقد اعددت نفسي لأمر رهيب . شغلني هذه الاحاسيس الجديدة حتى انها أشعرتني بالمرح ايضاً ، ورأيتني لا افكر في زينايدا الا قليلا ، وأطاف بي طيف الفتى النوري «أليكو» : «الى أين ايها الفتى الجميل ؟ - هيا توسد الارض ...» ثم : «انك خضبت بالدماء ! .. اوه ماذا فعلت ؟ ..» - «لا شيء !» * ، وبأي ابتسامة قاسية رددت هذه الكلمة : «لا شيء» . لم يكن أبي في البيت ، ولكن أمي ، وكانت منذ ايام تقيم على حال دائمة من الانفعال المكبوت ، تنبهت لما يظهر في سحنتي من علائم الشؤم ، فسألني وقت العشاء : «فيم انت عابس الوجه مثل الفار في الطحين ؟» فتلطفت عليها بابتسامة كانت فصل الجواب ، وانا اقول في نفسي : «آه لو انهم عرفوا !» . دقت الساعة الحادية عشرة ، فذهبت الى غرفتي ، ولكني لم اخلع ثيابي ، بل انتظرت أن ينتصف الليل ، وما لبثت الساعة ان دقت ، فهمست لنفسي من خلال أسناني المطبقة : «حان الوقت !» ،

* مقتطفات من قصيدة بوشكين «النور» . (المترجم) .

وزررت سترتي حتى العنق ، وشمرت عن ساعدي ، وانطلقت نحو الحديقة .

كنت قد انتقيت المكان الملائم للترصد : ففي آخر الحديقة حيث يتصل السياج الذي يفصل بين عقارنا وعقار آل زاسيكين ، كانت تقوم شجرة شوح متوحدة ، فلو انني وقفت تحت اغصانها الكثيفة المنخفضة ، لتمكنت ان ارى ما يجري حولي بالمقدار الذي تسمح به ظلمة الليل ؛ فهنا يتلوى الطريق الذي كان يبدو لي محاطاً بالغموض ، ويتأففى ذاهباً تحت السياج ، وعليه في هذا الموضع آثار القافزين ، ثم يفضي الى عريش مستدير تناهت اليه فروع من أشجار الأكاسية . عندئذ مضيت الى شجرة الشوح واستندت الى جذعها وأخذت أرقب .

خيم على الليل سكون عميق يشبه ما خيم على الليلة الفاتئة ؛ ولكن السماء بدت أقل ظلمة مما كانت أمس ، فظهرت أطراف الشجيرات وحتى الاطراف العالية من الازهار على نحو أوضح . مرت الدقائق الاولى من الانتظار مملولة بل مخوفة ايضاً ، كنت مستعداً لكل امر ، لا يشغلني الا كيف أبدأ الهجوم : أرعد صائحاً : « الى اين تذهب ؟ قف ! اعترف او تموت ! » ام أظعن فقط . . . كان كل صوت ، وكل نامة من حفيف او هفيف يبدو لي مثيراً عجبياً خارقاً . . . فأتحفز وأنحني الى امام . . . ولكن مضي نصف ساعة . . . ثم ساعة ، فهدأت فورة دمي وبردت ؛ وبدأت أدرك ان عملي هذا عبث لا جدوى منه ، وانني سلكت على نحو يدعو الى الضحك ، وان ما ليفسكي قصد الى الهزء بي ، وقد سرى ذلك كله في نفسي ، فغادرت مكمني ، وذهبت أجوس خلال الحديقة . وبدا كأن في الامر قصداً لا صدفة ، فقد اشتمل السكون كل شيء ، فما يلتقط السمع نبرة ولا نامة ، بل حتى كلبنا تكور منطوياً على نفسه عند باب الحديقة وغط في النوم . ثم تسلقت الدفيئة المتهدمة وأرسلت بصرى من عليائها الى الحقول البعيدة ، وخطر ببالي التقائي بزينايدا فسرحت ذهني .

ونقزت فجأة . . . فقد شبّه علي أنني سمعت صرير باب يفتح ويتبعه على الاثر صوت غصن يتقصف في خفوت ؛ فرأيتني أبلغ الارض بوثبتين واجمد في مكاني . فهناك خطوات سريعة خفيفة ولكنها محاذرة كانت تخفق واضحة وتدب في الحديقة . . . أخذت تقترب مني ، فومض في قلبي : « انه هو ، ها هو ذا أخيراً ! » وسحبت السكين من جيبي بيد يرعشها الانفعال ، وفتحتها مهترأ والشرر الاحمر يتطاير من عيني ، وقد قفّ شعر رأسي من الخوف والغضب . . . وزادت الخطوات اقتراباً مني ، فتربصت ، وهممت بها . . . فترأى لي شخص . . . ولكن يا إلهي ! كان الرجل أبي !

عرفته في الحال على الرغم من معطفه الاسود الذي أسبغه على جسمه ، ومن قبعته التي شدها على وجهه ، واجتاز بي على اصابع قدميه . لم يكن هناك ما يحجبني ، ولكنه لم يلحظني . ذلك لأنني انكشمت وتضاءلت حتى لكأنني وطأة من الارض . وتحول عطيل الغيران الظمآن الى الدم ، دفعة واحدة ، الى مجرد تلميذ . . . لقد أفزعني ظهور ابي المفاجئ ، حتى اتني ذهلت للوهلة الاولى فلم ألحظ من أين جاء وأين اختفى ، ولما عاد السكون يمد رواقه حولي ، شددت قامتي وتساءلت : « فيم جاء هذا الاب يسير ليلا في الحديقة ؟ » . كانت السكين قد سقطت مني في العشب أثناء الوهل ، ولكنني لم أذهب في البحث عنها جرأاً ما اعترائني من شعور طاغ بالخجل . لقد أفقت لنفسي دفعة واحدة ، ولكنني عجت في طريق العودة الى البيت على دكتي تحت شجيرة الطلح ، وأرسلت بصري الى نافذة الغرفة التي تنام فيها زينايدا ؛ لم تكن النافذة كبيرة ، كان زجاجها المستدير قليلا يبدو أزرق اغبش تحت النور الضعيف الذي يسقط من غسق السماء . وفجأة أخذ لونه يتغير . . . ووراءه كان ستار ابيض ينزل - لقد رأيت هذا ، رأيته واضحاً بأم عيني - واستمر ينزل في بطء وهدوء حتى بلغ حافة النافذة ، ثم سكن عن الحركة .

حينما صرت الى غرفتي رأيتني اقول بصوت مرفوع :
« ما هذا ؟ أكان ما كان حتماً أم مصادفة ام . . . » . لقد
ازدحمت الظنون بغتة في رأسي ، وكانت جديدة غريبة بحيث
تعصى على ان أركن اليها .

١٨

استيقظت في الصباح برأس موجوع ، وقد زال ما اعتراني في
الليل من الانفعال ، وتبدل بشعور من دهشة ثقيلة ومن كآبة
لم اعرف مثلها من قبل ، فكان شيئاً يموت في نفسي .
وقال لوشين حينما التقينا :

— لماذا تنظر كالأرنب الذي نزع عنه نصف مخه ؟
جعلت استرق النظر في أثناء الفطور تارة الى أمي وتارة
الى ابي ، فكان هو في مألوف عادته من الهدوء ، وهي في
مألوف عادتها من الغيظ المكتوم . وانتظرت ان يأخذ أبي
معني في حديث ودود مما يجري مثله بيننا في بعض الاحيان . .
ولكنه لم يتكلم عليّ بملاطفته اليومية الباردة . وقلت في
نفسي : « هل أحدث زينايدا بكل شيء ، فالامر سواء مادام
كل شيء قد انتهى بيننا » . وذهبت اليها ، ولكن لم يتفق لي ان
اتكلم معها على امر ، بل ما تاح لي أن أتحدث معها على حدة
كما رغبت . فقد كان ابن الاميرة الحميم قد وصل قادماً
من بطرسبورغ لتمضية العطلة ، وهو تلميذ نظامي * في
الثانية عشرة من عمره ، فعهدت اليّ زينايدا بامر أخيها
قائلة :

— اليك بهذا الرفيق يا حبيبي فولوديا (هذه اول مرة
تناديني على هذا النحو) ، اسمه فولوديا أيضاً ، أرجو ان

* رأينا ان نترجم كلمة كاديت الروسية على هذا النحو لأنها
تدل في الاصل على طرز من تلاميذ المدارس العسكرية المعروفة في
ذلك الحين . (المترجم) .

تعبه ، انه لا يزال وحيشاً * ولكن قلبه طيب . اخرج
للتجول معه في حديقة نيسكوتشني ، او للنزهات ، فاني
أعهد به الى رعايتك ، فهل تفعل ؟ انك لطيب على ما
أعرف .

ووضعت يديها على كتفي بلطف فتضعضعت وضعت . لقد
اعادني قدوم هذا الصبي الى عهد الصبا ؛ ونظرت صامتاً
اليه ، وكان يحدق في صامتاً ، ففقهت زينايدا ودفعت
بنا أحدنا نحو الآخر ، وقالت :

— هيا تعانقا أيها الطفلان !

فتعانقنا .

وسألت الصبي :

— أتريد ان أقودك الى الحديقة ؟

فأجابني بنبرة جشء ولهجة تلميذ نظامي :

— تفضلوا اذا سمحتموا .

فعدت زينايدا تضحك . . . فلاحظت ان وجهها لم
يكن أبداً على ما كان عليه من الاشراقات البديعة . وانطلقت
زاهباً مع الصبي . كان في حديقتنا أرجوحة قديمة ، فأصعدته
على مقعدها الخشبي الضيق ، وجعلت أؤرجحه وهو جالس
من دون حركة ببذلته النظامية الجديدة المفصلة من قماش
سميك والمزينة بشرائط ذهبية عريضة ، وقد تشبث بالحبال
في قوة .

قلت له :

— لماذا لا تحل ياقاتك ؟

فقال وهو يجلو حلقه :

— لا بأس ، فنحن تعودنا .

كان يشبه اخته ، وقد ذكرتني عيناه خاصة بعينيها ،
فابهجني ان أعني بشؤونه ، كنت مؤوداً في الوقت نفسه بحزن
دفين يمس في قلبي ، وفكرت : « اني الآن لا أزيد عن طفل ،

* المقصود انه لم يالف المجتمعات من الناس . (المترجم) .

واما امس . . . » وتذكرت أين سقطت مني السكين فوجدتها،
وطلب الصبي أن أعيره اياها ، ثم انه قطع ساقاً غليظة من
القصب فصنع مزمراً وجعل ينفخ فيه ، وكذلك فعل عطيل
فكان له دوره في الزمير أيضاً .

ولكن هذا العطيل بكى في ذلك المساء بكاء شديداً على
ذراعي زينايدا حينما عثرت عليه في ركن الحديقة وسألته
عما يحزنه ، لقد انهمرت دموعي بغزارة افزعتهما
فسألتني :

— ماذا بك ، ماذا بك يا فولوديا ؟ — أعادت سؤالها
بقوة فلما رأته لا أجيب ولا أنقطع عن البكاء ، ارادت ان
تقبل خدي الندي ، ولكنني استدرت عنها بوجهي وانا اتمتم
من خلال الزفرات :

— اني أعرف كل شيء ، فلماذا عبثت بي ، وما الذي
أحوجك الى بعث هذا الحب في قلبي ؟
فقلت زينايدا :

— اني مذنبه تجاهك يا فولوديا . . . آه ، ان ذنبي
لعظيم . . . — أعادت قولها وهي تضم يديها — ما أكثر ما
أنطوي عليه من الشر والظلمة والأثم . . . ولكنني الآن لا أعبت
بك ، فاتني أحبك وانت لا تتصور لماذا ، وكيف . . .
ولكن . . . ما هذا الشيء الذي تعرفه ؟

ماذا بمقدرتي ان أقول لها ؟ كانت واقفة امامي لا
ترفع بصرها عني ، كنت مملوكها من رأسي الى قدمي تلقاء
هذه النظرات الي . . . وبعد انقضاء ربع ساعة كنت أجري
مع الصبي وزينايدا في سباق ؛ لم أكن ابكي ، بل كنت
أضحك ، وكان الضحك يستنفر دموعي فتطفر من أجفاني
المتورمة ، وقد استبدلت من ربطة عنقي شريط زينايدا ،
كنت أصرخ من السعادة كلما تمكنت من اللحاق بها وتطويق
خصرها ؛ لقد كانت قادرة على ان تفعل بي ما شاءت .

أصعب ما يصعب عليّ أن أروي بالتفصيل ، لو طلب احد ذلك ، كل ما عانيته طوال الاسبوع الذي تلا تلك الرحلة الاستطلاعية الليلية الخائبة ، فقد كانت اياماً غريبة محمومة ، اختلطت فيها النقائض من المشاعر والافكار والظنون والآمال والاحزان واخذت تدور في دوامة . لكان يفزعني أن أنظر في ذات نفسي لو أن بمقدرة صبي في السادسة عشرة من عمره أن ينظر في ذات نفسه . كنت اخاف ان اناقش نفسي الحساب عما كان ، ولا افعل الا ان استدفع النهار واستعجل المساء . اما في الليل فكنت انام ، وقد ساعدتني غرارة سني . كنت لا أريد ان أعرف هل كانت تحبني ، ولا أريد ان اعترف لنفسي بانها لا تحبني ؛ وقد التمسيت كل مهرب من ابي ، أما التهرب من زينايدا فكان فوق طاقتي . . . كنت اضطرم كالنار وهي مني على قرب . . . ولم يهمني ان اعرف ما هذه النار التي أحترق فيها واذوب ما دمت ألتذ ما اشعر به من احتراق وذوبان . كنت مستسلماً لكل انفعال مما يلهم بي ، اخذع نفسي ، وأعرض عن الذكريات ، واغض عيني عن هموم الغد . . . ولكن ما كان لهذا الشقاء ان يستمر وقتاً طويلاً . . . فقد قصفته ضربة قاصمة قضت عليه جميعاً ودفعت حياتي في مجرى جديد .

عدت ذات يوم وقت الغداء بعد نزهة طويلة ، ففوجئت بمن اخبرني بانني سأطعم وحيداً ، فقد سافر أبي ، واعتزلت امي في غرفة نومها وهي موعوكة لا تشتهي ان تأكل . ولكن أدركت من وجوه الخدم ان واقعة غير عادية قد وقعت . . . لم اجرؤ على استجوابهم بالاسئلة ، ولكن كان لي فيهم صديق وهو الساقى الشاب فيليب ، وكان مولعاً بالشعر وبالعرفز بالقيثارة ، فعلمت منه حين استجوبته ان مشجرة مروعة شجرت بينهما (أمكن الاستماع لكل كلمة في غرفة الوصيفات وكان الحديث أكثره بالفرنسية ، ولكن القهرمانه ماشا قضت

خمس سنين من حياتها لدى خياطة من باريز فكانت تفهم ما يدور منه) ، وان امي قد اتهمت ابي في امانته الزوجية ، وبأنه على صلة موصولة بالجارة الصبية ، وكان ابي يتبرأ من التهمة في اول الامر ، ولكنه غضب ايضاً بدوره ، وربما بكلمة وجيعة ، « لعلها عن عمرها » ، فبكت أمي ، وذكرته بامر كمبيالة أعطيتها الاميرة العجوز ، وتحدثت عنها وعن الآنسة ايضاً بأشد السوء ، وعندئذ استشاط ابي غضباً عليها . ثم أضاف فيليب قائلاً :

— ولكن هذا البلاء كله انما وقع بعد رسالة خالية من التوقيع ، كتبها مجهول ، فانكشف بها الغطاء ، ولولاها لما كان هناك دليل .

فقلت بصوت متعب ، وقد شاعت برودة في أطرافي وسرت رعدة في اعماق صدري :

— هل أردت ان تقول ان امراً قد حدث ؟

فغمز فيليب غمزة ذات معنى وقال :

— لقد حدث ، فهذه أمور لا تخفى ، وقد كان ابوك في هذه المرة شديد الحذر ، ولكن لا يخلو الامر ، مثلاً : تدبير عربية او شيء من هذا القبيل . . . ولا يمكن الاستغناء عن الناس في هذه الحالة .

سرفت فيليب ، وارتميت على الفراش . لم اشهق بالبكاء ، ولا استغرقت في القنوط ، ولا تساءلت متى حدث ذلك وكيف ، ولا دهشت من اني لم افطن الى الامر منذ وقت بعيد ، بل اني لم اعذل ابي بلومة . . . كل ما أعلمته كان فوق ما أطيع : لقد سحقتني هذه المكاشفة . . . فانتهى كل شيء . وها هي ازهاري مقتلعة من الجذور ، مبعثرة فيما حولي تحت مواطى الاقدام .

٢٠

أعلنت أمي في اليوم التالي أنها راحلة الى المدينة . فدخل ابي عليها في الصباح غرفة نومها ، وجلس اليها وقتاً طويلاً .

لم يسمع أحد ما قال لها ، ولكن امي انقطعت عن البكاء ، واشتملتها السكينة ، وأمرت بان يأتيها الطعام من دون ان تظهر في غرفة الطعام او تلغي قرارها . واذكر انني قضيت النهار في التجول ، ولكني لم أطرق الحديقة ، ولا القيت نظرة على الجناح . وفي المساء رأيت مشهداً أدهشني : كان ابي يأخذ الغراف مالفيسكي من ذراعه ويعبر به الصالة الى المخرج ويخاطبه في برودة على مرأى من الوصيف قائلاً : « منذ بضعة أيام مضت ، حدث في أحد البيوت أن دلوا سيادتكم على الباب ، والآن لا أريد ان أخوض معكم في الايضاحات ، ولكني أتشرف ببلاغكم بأنه اذا خطر لكم ان تتفضلوا بزيارتي مرة اخرى ، فسأرميكم من النافذة . ان خطكم لا يعجبني » . فانحنى الغراف ، وكزّ بأسنانه ، واصطنع المسكنة ، واختفى .

بدأت الاستعدادات للانتقال الى المدينة حيث كان لنا منزل في شارع آربات ؛ واغلب الظن ان ابي نفسه أصبح راغباً عن المكثان في الدارة ، ولكن كان من الواضح أنه أفلح في اقناع امي بان تحسم الحكاية . وجرى كل شيء في هدوء من دون استعجال ، بل ان امي أمرت بمن يبلغ الاميرة العجوز تحيتها والاعتذار عنها بان صحتها الموعوكة لا تساعدنا في ان تمر بها مودعة قبل الرحيل . اما انا فقد كنت اتجول كالمأخوذ ، لا اتمنى الا امرأ ليس غير ، وهو ان ينتهي هذا كله بسرعة . فكرة واحدة لم يتهمها عقلي ، وهي : كيف أمكنها ، وهي الفتاة الشابة - والاميرة على كل حال - ان يخطر لها هذا المسلك ، على الرغم من علمها ان ابي امرؤ غير طليق ، وفي قدرتها ان تتزوج لو أرادت ، فما هو ذا بيلوفزوروف على سبيل المثال ؟ فعلى أي أساس أقامت أمها ؟ أفلم تخش ان تهدم مستقبلها جملة ؟ وقلت في نفسي : أجل ، هذا هو الحب ، هذا هو الهيام ، هذا هو الوفاء ... وخطرت ببالي كلمات لوشين : ان التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض . . . ولمحت عيني في تلك

الائناء بقعة بيضاء تراءت في احدى نوافذ الجناح . . .
ففكرت : « أليس هذا وجه زينايدا ؟ » كان ذلك وجهها
من دون ريب ، فانتفى عنى الصبر ، ولم احتمل رحيلها
عنها من غير كلمة وداع ، فانتهزت فرصة سانحة وذهبت
أسعى الى الجناح .

في غرفة الاستقبال طالعطني الاميرة العجوز على عاداتها
من ثقل الدم والاستهتار ، وسألتهني وهي تدس السعوط في
فتحتي أنفها :

— ما هذا يا شيخى ، ان جماعتك قد ابكروا في اهتمامات
الرحيل ؟

نظرت اليها فانزاح عبء عن قلبي ، فان كلمة كميالة
التي قالها فيليب كانت تشقلني ، ولكن الاميرة العجوز كانت
خالية البال مما حدث ، او لعل هذا ما تراءى لي آنذاك .
وأقبلت زينايدا من الغرفة المجاورة في ثوب أسود ، ووجه
شاحب ، وشعر محلول . من غير كلام ، أمسكت بيدي ،
وقادتني الى غرفتها ، وابتدأتني قائلة :

— سمعت صوتك فأتيت من فوري ، فهل من اليسير
عليك ان تهجرنا ايها الولد الشرير ؟
فأجبت :

— جئت أودعك يا اميرة ، وأغلب الظن انه وداع الى
الابد ، ولعلك سمعت أننا عائدون .

فأخذت زينايدا تمعن النظر في وجهي :

— نعم ، سمعت ، واشكر لك هذه الزيارة ، كنت اظن أنني
لن اراك ، اذكرني بالمعروف ، ولئن أسأت اليك في بعض
الاحيان ، على كل حال لست تلك التي تداخلك فيها
الظن .

استدارت واستندت الى حافة النافذة .

— الحقيقة اني لست كذلك . ولا أجهل انك تسيء

بي الظن .

— أنا ؟

— أجل ، أنت ... أنت .

— أنا ؟ — كررت القول في شجى ، وقد ارتعش قلبي
كما في الماضي تحت تأثير سحرها الغلاب الذي يتعصى على
الوصف . — انا ؟ صدقيني ، يا زينايدا الكسندروفنا ، ومهما
يكن مما فعلت وعدّبت ، فاني سأحبك وأعبدك حتى آخر
يوم من حياتي .

فاستدارت بسرعة ، واقبلت بذراعين مفتوحين على
رحبهما ، فحاطت بهما رأسي ، وقبلتني بقوة وحرارة ، ولا
يعلم الا الله من كان المقصود بهذه القبلة الوداعية الطويلة ،
ولكنني انتهلت من عدوبتها في نهم ، وأنا أعرف أنها لن تتكرر
على الاطلاق .

وأعدت بقوة :

— وداعاً ، وداعاً ...

فانتزعت نفسها وذهبت ، فخرجت في اثرها . ليس في
طوقى ان أصف ذلك الشعور الذي ملأ نفسي لحظة انصرافي ،
ولا أتمنى أن يتكرر في يوم من الايام ، ومع هذا ما كنت
احسب نفسي في السعداء لو أنني لم أمتحن بهذه التجربة .
عدنا الى المدينة ؛ ولكن البرء من الماضي لم يكن سريعاً
ولا كان اقبالي على العمل سريعاً ، فقد كانت جراحي تندمل
في ببطء ، ولكن نفسي لم تضمرو ولو مثقال ذرة من الضغن
على أبي ، بل على العكس : لقد كبر في عيني ؛ وليعلل علماء
النفس هذا التناقض كما يشاؤون . في ذات مرة كنت أتجول
في البولفار ، فكانت سعادتي تفوق الوصف حينما صادفت
لوشين ، فقد كنت احبه اعجاباً باستقامته وصراحته ، وكان
عزيزاً بما يوقظه في نفسي من الذكريات ، فاندفعت اليه
حينما رأيته فقال وهو ينظر اليّ بحاجبين مقرونين :

— آها ، أهذا أنت يا فتى ؟ وعني أتبين احوالك . انك
بعمامة لا تزال ازغب الوجه ، ولكن تلك الكآبة القديمة زالت
من عينيك ، وانت الآن انسان ولست كلب غرفة ، هذا
حسن . والآن قل لي ، هل أخذت في العمل والجد ؟

فتنهدت ، لأني تأييت عن الكذب ، واستحييت من قول الحقيقة . فقال لوشين :

— لا بأس عليك تشجع ، فان الاساس أن تكون حياتك طبيعية ، وألا تتجاوزك الاهواء . فان هذا لا طائل فيه ، والسوء كل السوء ان ينجرف المرء حيث تجرفه الموجة ، على المرء ان يقف على قدميه ما دام له ولو حجر يعتمد عليه . انظر ما انا فيه ، اني أسعل... عن بيلوفزوروف— هل سمعت شيئاً ؟

— لا ، فماذا حدث له ؟

— اختفى فلا أثر ولا خبر ، ويقال إنه رحل الى القوقاز هذا درس لك أيها الشاب . وكل ذلك يتأتى لمن لا يستطيع حين يأزف وقت الرحيل أن يتخلص من الشبكة . ويخيل اليّ على ما اظن أنك تخلصت . احذر ان تقع وقعة أخرى . وداعاً .

فقلت في نفسي : « لن أقع ، ولن أراها بعد اليوم » .
ولكن قدر لي أن أرى زينايدا مرة أخرى .

٢١

كان ابي يخرج كل يوم الى الطراد ، وكان عنده جواد انجليزي اصيل ممتاز ، طويسل العنق ، كميت ، دقيق القوائم ، قوي جموح يسميه « اليكتريك » . وكان صعب المراس لا تلين صهوته لراكب غير ابي . دخل عليّ ذات يوم غرقتي وهو في مزاج رائق ما عهدته فيه منذ وقت بعيد . كان على أهبة الركوب وقد وضع في حذائه مهمازين ، فالتمست منه ان يستصحبني ، فأجابني قائلاً :

— الافضل لك أن تلعب بالنطة ، فانك لا تستطيع ان

تجري معي وتجاريني بقزمك .

— بلى أستطيع ، وسأضع مهمازي .

— طيب تعال .

وخرجنا . كنت على جواد أشعث ، أدهم ، متين القوائم ،
 خفيف الحركة ؛ كان ينبغي له في الحقيقة ان ينطلق بأقصى
 ما تسعفه قوائمه ليجاري « اليكتريك » في سيره الخبب ؛
 ولكنني لم اتخلف عن اللحاق في كل حال . وكان ابي فارساً
 لم تقع عيناي على نظيره ، فهو يستوي على الصهوة في جمال
 ورشاقة ، حتى ليبدا ان الجواد نفسه يشعر بهما ويرفع
 رأسه مزهواً بفارسه . وذهبنا نرود الشوارع المشجرة ، ثم
 طفنا حول منطقة « ديفيتشييه بوله » ، وتواثبنا على بعض
 الحواجز (الحقيقة انني فزعت من الوثوب اول الامر ، ولكنني
 أقدمت عليه لأن ابي كان يزدري المفزعين) . وعبرنا نهر
 موسكو مرتين ، فظننت أننا في طريقنا الى البيت ، ورجح
 هذا الظن حينما لاحظ ابي أن حصاني متعب ، ولكنه مال
 بجواده فجأة نحو مخاضة كريمسكي وانطلق على حف الشاطىء ،
 فانطلقت وراءه حتى أدركته عند كومة من الكتل الخشبية
 القديمة ، وعندئذ وثب عن « اليكتريك » فى خفة ، وأمرني
 بأن أترجل في إثره ، وألقى اليّ بعنان جواده ، وقال بأن
 عليّ أن أنتظره هنا عند كومة الخشب ، وأما هو فقد مال
 على طريق فرعي ضيق واختفى . فأخذت أزرع شاطىء النهر
 ذاهباً جائئاً وأنا ممسكاً بأعنة الجوادين ، غير منقطع عن
 زجر « اليكتريك » الذي لم تهدأ له حركة ، فهو بين حران
 وجماح وتوثب واهتزاز ونخير وصهيل ، فاذا وقفت به وقف
 يفحص الأرض بحافره ، وجعل يصهل ويعض جوادي في
 رقبتيه ؛ والخلاصة كان يحسب نفسه في المدللين ويأخذ
 بسلوك أصحاب * pur sang كل ذلك ولما يعد ابي .
 وهبت من النهر رطوبة مؤذية ، وتساقط مطر خفيف فانداحت
 قطراته في بقع محبرة صغيرة على تلك الكتل الخشبية
 الرمادية البليدة ، التي كنت ادور حولها متسكعاً حتى
 سُممتها . وهيمنت عليّ الكتابة ، ولكن ابي لم يعد . كان هناك

* الدم الازرق والاصل الاصيل .

حارس من أبناء الشمال ، كله رمادي ايضاً ؛ فوق رأسه خوذة ، وفي يده رمح (لم يكن في الخاطر أن يوضع حارس ليخطر على شاطئ نهر موسكو !) وما لبث أن أقبل عليّ ، وطالعتني بوجهه العجوز وهو جلدة على عظم ، وسألني :
— ماذا تفعل هنا ومعك الخيل يا سيدي الشاب ؟ هات المقاود عنك .

لم أجبه ، فطلب مني شيئاً من التبغ ، وكنت ابتغي الخلاص منه (ثم ان صبري قد نفذ) ، فمشيت بضع خطوات في الاتجاه الذي ذهب فيه أبي ، ومضيت في الشارع الفرعي حتى بلغت آخره ، وانعطفت وراء زاويته ووقفت أنتظر . في الشارع على مبعدة أربعين خطوة مني ، قرب نافذة مفتوحة من بيت خشبي صغير ، كان أبي يقف ، وظهره الى ناحيتي ، وقد اتكأ ب صدره على حافة النافذة . في البيت جلست امرأة في ثوب عامق ، يحتجب نصف جسمها وراء الستار ، وأخذت في حديث مع أبي ؛ وكانت هذه المرأة هي زيناويدا .

جمدت في مكاني . ولأعترف بأني لم أتوقع أن أرى ما رأيت في أي حال ؛ واتجهت حركتي الاولى نحو التماس سبيل الفرار ، وفكرت : « لو أن أبي التفت الى وراء لدهتني داهية . . . » ، ولكن شعوراً غريباً ، كان أقوى من الفضول واعظم من الغيرة ، واشد من الخوف ، أوقفني . فوقفت أرى وأسمع . كان يبدو أن أبي يطلب امرأ ، وزيناويدا ترفض هذا الامر . وكأنني أرى وجهها الآن ، كما رأيته وقتذاك ، فهو محزون رصين جميل ، فيه معنى يتعذر وصفه من الاستسلام والأسى والحب ، ومن شيء آخر لعله القنوط — فما أستطيع أن أجد غير هذه الكلمة . كانت لا تنطق الا بكلمات موجزة ، ولا ترفع عينيها ، ولكنها تبتسم في خضوع وعناد ، كنت قادراً على أن أتبين زيناويدا القديمة من هذه الابتسامة وحدها . ورأيت أبي يهز كتفيه ويعدل وضـع

قبعته ، وهي عنده علامة تدل على فراغ الصبر ... ثم سمعته يقول :

... Vous devez vous séparer de cette* . . . فاعتدلت زينايدا ومدت ذراعها الى امام . وفجأة شهدت عيناى مشهداً يبعث على الدهول : فقد رفع أبي السوط الذي يستعمله في الركوب وكان ينفض به معطفه ، وسمعت بغتة ضربة قاسية على ذلك الذراع العاري . فأمسكت نفسي عن الصراخ ؛ ولكن زينايدا ارتعدت ، ونظرت الى أبي صامتة ، ورفعت يدها ببطء الى شفثيها وقبلت الأثر الدامي الذي تركه السوط . فرمى أبي السوط من يده ، وانطلق يصعد في درجات المدخل ، واقتحم البيت ... فابتعدت زينايدا أيضاً عن النافذة ، وأقبلت عليه مفتوحة الذراعين ، ورأسها ملقى الى وراء .

ارتيميت مرتداً على أعقابى في دهول راعب هدّ عزيمتى وخلع قلبي ، ثم انطلقت أعدو هارباً في الطريق يكاد يفلت من يدي مقود «البيكرىك» ، ورجعت الى شاطئ النهر ، وأنا عاجز من جمع شتيت نفسي . كنت أعرف أن أبي قد يخرج عما فيه من برودة ورسانة مسوقا بنوبات مفاجئة من الغضب والهياج ، ولكنى عجزت عن أن أفهم هذا الذي رأيتة . . . غير انى شعرت في الوقت نفسه باننى مهما قدر لي أن أعيش ، فلن أنسى من زينايدا تلك الحركة والنظرة والابتسامة ، وان صورتها التي برزت لي فجأة في هذا المظهر الجديد ستبقى في ذاكرتى الى الأبد . كنت أنظر من دون تفكير في النهر ، غير شاعر بان الدموع تنحدر على خدي ، وأنا اقول في نفسي : «انه يضربها ... يضربها ... يضربها ...» . ثم سمعت صوت ابي من ورائى يقول :

— ماذا بك ؟ هات ناولنى الجواد .

فمددت اليه يدي بالعنان في حركة آلية ، فوثب على

* عليك ان تنفصلي عن هذه ...

صهوة « اليكتريك » . . . فشب الجواد المقرور وقفز الى الامام مقدار قامة ونصف القامة . . . ولكن أبي أسرع الى كبحه ، فهمزه في خاصرتيه ، وضربه بقبضة يده في عنقه . . . وتمتم : « آه ! لا سوط معي » .

فتذكرت ما كان منذ قليل من فحيح هذا السوط نفسه ومن ضربته ، فارتجفت ، وسألت أبي بعد قليل :
— وماذا فعلت به ؟

فلم يجبني أبي ، بل اندفع الى امام ، فلحقت به ، فقد استبدت بي رغبة في النظر الى وجهه ؛ فقال من خلال اسنانه :

— هل سئمت الانتظار من دوني ؟
— بعض الشيء . — وعدت أسأله : — أين سقط منك سوطك ؟

فرمقني أبي بنظرة مختطفة وقال :
— لم يسقط مني بل رميته .
وأطرق مستغرقاً في التفكير . . . وعندئذ رأيت أول مرة بل آخر مرة على الاكثر أي مقدار من الرقة والحنان يمكن لقسمات وجهه الصارمة أن تعبر عنه وتفصح .
وعاد يركض جواده ، ولكني لم أستطع ان ألحق به ، فوصلت الى البيت بعده بربع ساعة .

في تلك الليلة ، رأيتني أقول لنفسي مرة أخرى ، وأنا جالس الى مكتبي الذي بدأت ترتكم عليه الدفاتر والكتب :
« هذا هو الحب ، هذا هو الهيام ! فما كان ليخطر على البال أن يقدر امرؤ على الازعان لضربة مهما كان مصدرها . . . ومهما كانت اليد التي ضربتها حبيبة ! ولكن يبدو أن هذا ممكن ، حينما تحب . . . اما انا . . . فكنت أتصور . . . »
انضجنتني حوادث الشهر الاخير في السن — فبدا غرامي بكل ما فيه من الانفعالات والاشجان شيئاً صغيراً طفلياً ضئيلاً تجاه ذلك الآخر ، ذلك المجهول الذي استطعت أن أستشف أمره بالظنون فقط ، والذي ملأني رعباً ، فكأنه

وجه غير معروف ، جميل ولكنه مكتئب ، يقصر السعى مهما بلغ من القوة عن تعمق ملامحه في الغبشة .
ورأيت حلماً غريباً مخوفاً في تلك الليلة نفسها . تراءى لي أنني أدخل غرفة مظلمة منخفضة السقف . . . وأبي واقف هناك في يده سوط وهو يخطب الأرض بقدميه . وفي الزاوية قبعت زينايدا لم يكن الاثر الاحمر في يدها بل في جبينها . . . ومن ورائهما ينهض بيلوفزوروف ملطخاً كله بالدماء ، ويفتح شفثيه الشاحبتين بوجه ابي متوعداً مغيظاً .
بعد شهرين دخلت الجامعة ، وبعد ستة اشهر فارق ابي الحياة (عقب نوبة قلبية) في مدينة بطرسبورغ بعد وقت قصير من انتقالنا اليها ، ابي وأمي وأنا . وقبيل بضعة ايام من موته تلقى رسالة من موسكو حملت اليه قلقاً شديداً . . . فذهب الى أمي يلتمس منها شيئاً ، ويقال إن ابي ، نعم ابي ، قد بكى ! وفي نفس الصباح الذي أصيب فيه بالنوبة ، شرع يكتب الي رسالة باللغة الفرنسية قال فيهما : « يا ولدي ، تحرز من حب المرأة ، تحرز من هذه السعادة ، من هذا السم . . . » . وبعد وفاته ، بعثت أمي الى موسكو مقداراً لا يستهان به من النقود .

٢٢

مضى أربع سنين ، وكنت قريب العهد بالتخرج من الجامعة ، ولكنني لم أكن قد عرفت على التحديد بم يحسن لي أن أبدأ ولا أي باب أطرق ، فكنت أقضي الوقت من دون عمل . وفي ذات مساء ، التقيت مايدانوف في المسرح ، فعلمت أنه أفلح في الزواج ، وانه يعمل في وظيفة حكومية ، ولكنني لم ألاحظ فيه اي تغيير ، فلا يزال على ما كان ، ينبهر بصغائر الامور ويصاب بنوبات مفاجئة من الخور . وقال لي في عرض كلامه :

— أتدري أن السيدة دولسكايا هنا ؟

— ومن هذه السيدة دولسكيا ؟
 — هل نسيت ؟ انها من كانت تسمى الاميرة زاسيكيينا ،
 وكنا جميعاً متيمين بحبها ، وأنت معنا ايضاً . ألا تذكر
 أيام الدارة القريبة من حديقة نيسكوتشني ؟
 — وهل تزوجت من دولسكى ؟
 — نعم .
 — وهل هي هنا في المسرح ؟
 — لا ، انها في بطرسبورغ ، وقد جاءت منذ بضعة
 أيام . وتتهياً للسفر الى خارج البلاد .
 — وما طرز هذا الزوج ؟
 — فتى رائع ، وذو ثراء أيضاً ، ومن زملائي بالوظيفة
 في موسكو . معلومك ، بعد تلك الحكاية . . . ولا بد ان هذا
 كله معروف لديك كل المعرفة . . . (وابتسم مايدانوف
 ابتسامة ذات مغزى) لم يكن من اليسير عليها أن تدبر أمر
 نفسها ، فقد كان للحكاية ذيل . . . ولكن امرأة في ذكائها
 قادرة على كل شيء . اذهب اليها ، فانها ستكون مسرورة
 بزيارتك ، ثم انها زادت جمالا على جمال .

أعطاني مايدانوف عنوان زينايدا ، وكانت تقيم في
 فندق «ديموت» . وانبعثت ذكرياتي القديمة . . . فأليت
 على نفسي أن أزور «صاحبتى» القديمة في اليوم التالي .
 ولكن حدث ما استأخرنى ، ففات اسبوع ، وتلاه اسبوع
 آخر ، ولما ذهبت اخيراً أسأل في فندق «ديموت» عن
 السيدة دولسكيا أعلمت أنها ماتت منذ أربعة ايام جراء
 عسر طارىء في الولادة .

لقد شعرت بما يشبه الصدمة في قلبي ، وكانت الفكرة
 بأنني كنت قادراً على رؤيتها ، ولم أرها ، وأني لن أراها
 ابداً ، هذه الفكرة المرة كانت تنهش في نفسي بكل قوتها
 وتبهظني بتأنيبها الثابت القاطع . ورددت : «ماتت !» وانا
 انظر ذاهلا الى بواب الفندق ، وانسحبت الى الشارع ، ومضيت
 لا أدري الى اين اذهب . لقد انبعثت احداث الماضي وانتصبت

جميعاً امامي ، ورأيتني أفكر : « تلك هي نهاية المطاف ، وهذا هو المصير الذي كانت تسعى اليه في استعجال واضطراب تلك الحياة الفتية الحارة اللامعة ! » واستعدت في ذهني تلك القسمات الغالية ، تلك العيون ، تلك الخصل - ترقد في صندوق ضيق تطويه الارض الرطبة المظلمة - غير بعيد عني أنا الذي لا أزال حياً ، بل لعلها أن تكون راقدة على بضع خطوات من أبي . . . فكرت في هذا كله ، وحصرت فكري فيه ، وفيما بين ذلك رنت في نفسي هذه الكلمات :

شفاه غير مكترثة نقلت اليّ خبر الموت
وانا ، من دون اكتراث ، أصغيت . . .

آه لك ايها الشباب ! انك طليق لا تبالي بشيء ، فكأنك تملك كنوز الدنيا ، بل حتى الاحزان تزدهيك وتلبق بوجهك . انك تقول وانت واثق بنفسك معتدّ بها : انظروا اليّ ، فأنا فقط من يعيش ، على حين تمضي ايامك ثم تتلاشى فلا أثر ولا ثمر ، ويختفي كل ما فيك ، كما الشمع في وهج الشمس ، وكما الثلج . . . وقد يكون السر فيما أنت عليه من السحر ، لا يكمن في قدرتك على تحقيق ما تريد ، وانما في قدرتك على الايمان بأنك قادر على تحقيق ما تريد ، وأن جوهره على الخصوص في استهتارك بتلك القوى التي تذرّيتها في الريح حينما لا تجد لها منصرفاً آخر ، وفي أن كل فرد منا لا يعتقد انه يهزل حين يحسب نفسه في المبذرين وانه على حق اذ يقول : « أوه ، كم ذا كنت أستطيع أن أعمل لو لم أهدد وقتي في العبث ! » .

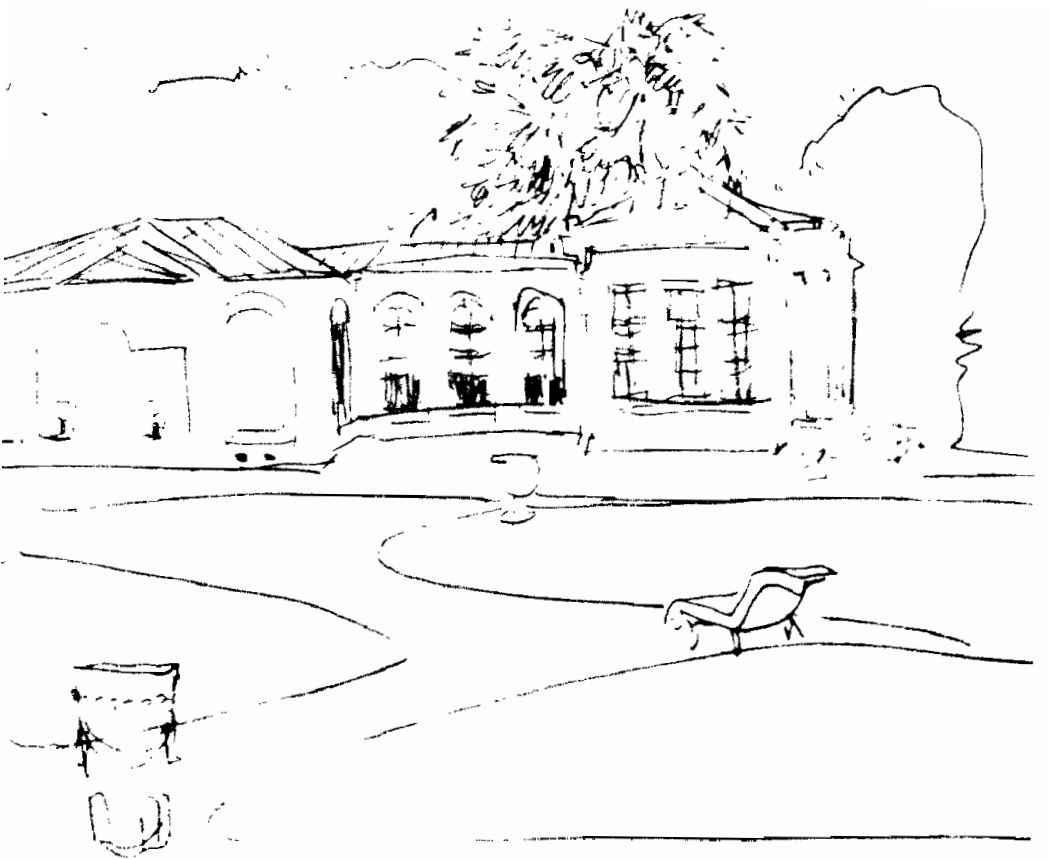
واليكم هذا النموذج - أنا . . . فألى أي أمنية كنت أتطلع ، وماذا كنت أنتظر ، وما هذا المستقبل الباهر الذي كنت أرتقبه ، على حين لم تندّ عني الا زفرة ولم أحزن سوى لحظة وأنا أودع طيف غرامي الاول ؟
ماذا تحقق من جميع تلك الآمال التي طمحت اليها وجددت في طلبها ؟ وماذا بقي لي الآن بعد أن أخذت حياتي

تمضي في ظلالها المسائية ؟ هل بقي شيء أنضر عندي وأعلى
من ذكريات تلك العاصفة الربيعية المبكرة السريعة التي
عبرت حياتي ؟

ولكن من العبث أن أفترى على نفسي ، فحتى في ذلك
العهد الطائش من زمان الشباب ، لم أغلق سمعي دون ذلك
الصوت الحزين الذي طار اليّ برنينه المهيب من وراء القبر .
وأذكر أنني بعد انقضاء بضعة أيام على معرفتي بموت
زينايدا ، ذهبت مدفوعاً بدافع من نفسي لا يقاوم ، الى
عيادة عجوز مسكينة مشرفة على الموت كانت تعيش في
البنية التي تسكن فيها . كانت تلتحف غطاء مهلهلاً ، وترقد
على لوح من خشب ، وتحت رأسها كيس ، وهي تقاسي من
احتضارها مرّ العذاب . لقد تصرمت حياتها جميعاً في صراع
شديد من أجل القوت ، فما رأت قبساً من السعادة ، ولا
تذوقت قطرة من غسل الحظ ، وكان المظنون أنها سترحب
بالموت ، وترى فيه منطلقها الى الحرية والسكينة . ولكن
أما وان جسدها البالي ما يزال يقاوم الموت ، وصدرها يتنفس
في عسر شديد تحت ثقل اليد الباردة وبقيّة أخيرة من ذمء ،
ما تزال فيها ، فإن العجوز لم تنقطع عن التصليب وهي
تهمس : « رب اغفر لي ذنوبي . . . » ومع انطفاء آخر شرارة
من وعيها فقط ، اختفت من عينيها آية رعبها من النهاية . . .
وأذكر عندئذ ، وأنا أشهد موت تلك العجوز المسكينة أن
قلبي امتلأ بالخوف على زينايدا ، ورغبت نفسي في الصلاة
من أجلها ، ومن أجل أبي - ومن أجل نفسي .

فِي مَوْضِعِ الرَّبِيعِ





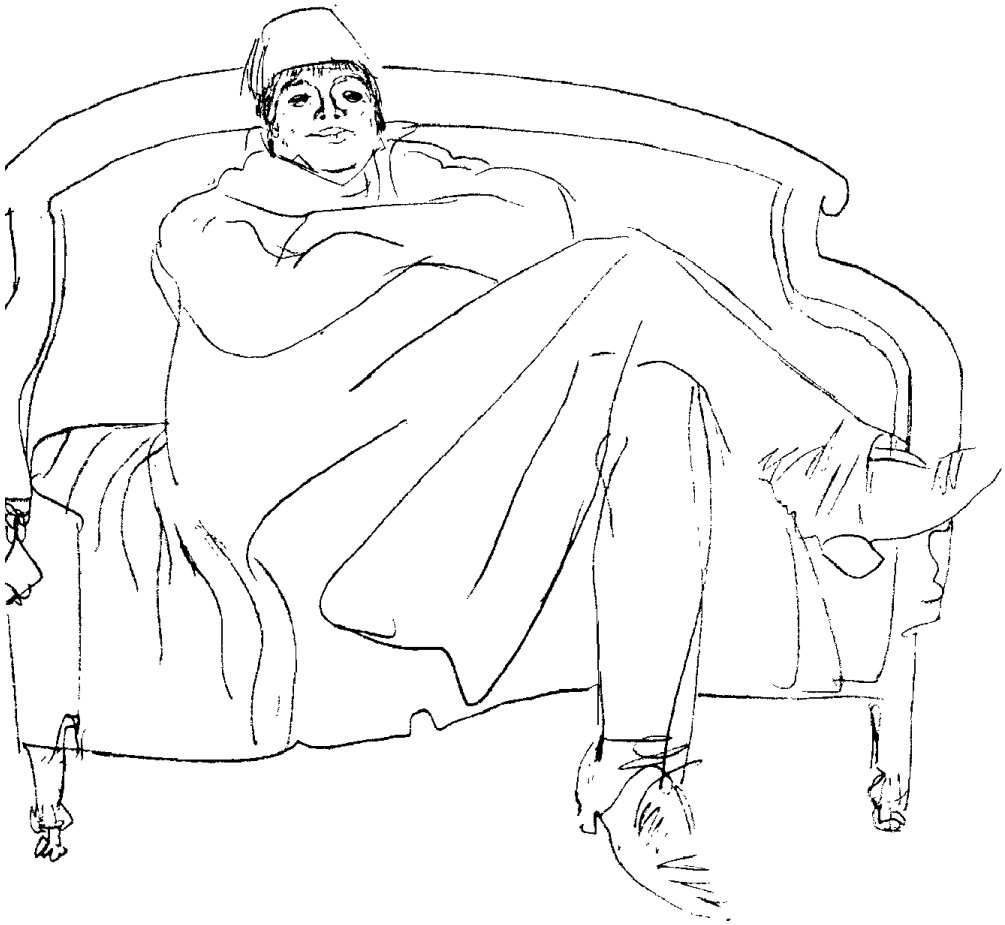




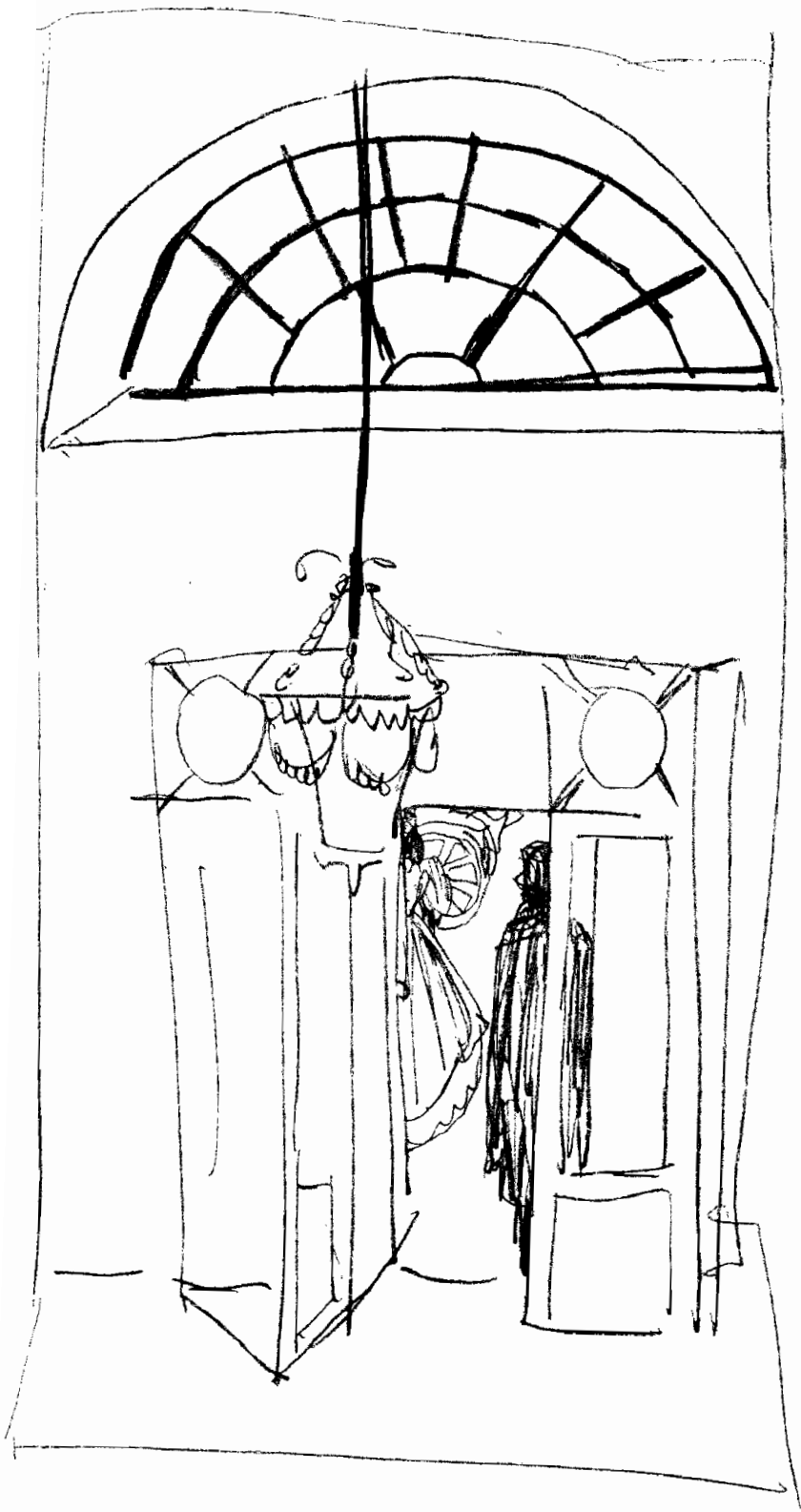














السنوات الرغيدة
والايام السعيدة
مثل فيوض الربيع
غيضها سريع !

من اغنية قديمة

... كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد نصف الليل
حينما عاد الى مكتبه ، وبعد أن صرف الخادم الذي أوقد
له الشموع ، ارتمى في مقعد الى جانب الموقد وغطى وجهه
بكلتا يديه .

لم يحدث له أن شعر من قبل بمثل هذا التعب في الجسم
والروح . كانت سهرته الليلة مع نساء لطيفات ورجال
مثقفين ، وبين السيدات بعض الجميلات ، والرجال اكثرهم
يمتازون بالذكاء والموهبة ، وهو نفسه قد جاذبهم الحديث
فأحسن ولمع ... ولكنه مع هذا كله لم يشعر بهذا
«taedium vitae» ، «السأم من الحياة» الذي تحدث عنه
الرومان القدامى ، كما شعر الليلة . لقد طفى عليه وعذب
روحه . ولو انه في سن أصغر لبكى من الحزن والضيق
والغيظ . كانت نفسه تمتلئُ بمرارة نفاذة لاذعة كالعلمق ،
وشيء لاصق ثقيل يحيل به من كل ناحية يشبه ليلة
خريفية داجية ، وهو لا يدري كيف ينجو من هذا الظلام

وهذه المرارة . لم يحاول ان يلجأ الى النوم ، فقد كان يعرف ان النوم سيجفوه .

أطلق العنان لأفكاره ... فسرحت به في بطن فاطر وشعور بالغيبظ .

وجعل يفكر في ما يتصف به البشر من الزهو والرياء والتفاهة والزيغ ، واستعرض بباله مراحل حياة الانسان في كل جيل على التتابع (كان وقتئذ في الثانية والخمسين من العمر) فلم يجد مرحلة واحدة تستحق منه المغفرة . ففي كلها جميعا نفس الميع الذي يسيل من فراغ الى فراغ ، وهذا الدق في الماء وهو ماء ، والغرور الذي يوهم بأن نصفه نزاهة ونصفه حكمة - وليتسلّ الطفل بما يشاء على أن ينقطع عن البكاء - وفجأة تسقط الشيوخوخة كما يسقط الثلج على أم الرأس ، ويحلّ معها خوف من الموت يقيم في النفس وينخرها من غير انقطاع ، ولا تلبث هاوية النهاية ان تنفتح على حين غرة ! وليت الحياة تقف عند هذا العبث ، فهناك فوق هذا ما يأتي قبل النهاية من العجز والآلم كما يتأني الصدا على الحديد ... لم يكن يرى الحياة بجرأ هائجا مائجا على ما وصفه الشعراء ، وانما تصورها بجرأ هادئا عديم الحس والحركة يشف ماؤه عما فيه حتى أغواره الاخيرة ، وهو نفسه جالس في قارب صغير متقلقل ؛ وهناك في القاع المظلم حيث يشتجر نبات العليق ، تعيش وحوش مهولة على هيئة السمك ، تمثل ما في الحياة من ألوان المساءة : كالمرض والحزن والجنون والحرمان والعماية ... وينظر فاذا هولة من هذه الوحوش تشق ظلمة القاع وترتفع الى أعلى في بطن حتى تظهر جملة بكل ما في حقيقتها من البشاعة ... فيعتمد يده ليحفظ توازن القارب ... فقد بدا ان الهولة توشك ان تقلبه براكبه ! ولكن ها هي ذي تعود الى الاختفاء ، وتأخذ في الابتعاد ، ولا تزال تهبط الى أسفل حتى تستقر في القاع ، فتستلقي هناك لا تكاد تتحرك الا قليلا ...

ولكن اليوم الموعود سيحين ، وسيقلب الوحش هذا القارب .

هز رأسه وهب من المقعد واقفا . ذرع الغرفة ذهابا وجيئة مرة او مرتين ، ثم سار الى مكتبه ففتح أدراجه ، وأخذ يقلب في أوراقه ورسائله القديمة واكثرها من نساء . لا يدري لماذا فعل ذلك ، فانه لم يكن يبحث عن شيء ، وانما اراد ان يشغل نفسه بشاغل يهرب اليه من أفكاره التي تعذبه . حرك الرسائل بيده وأخذ منها رزمة كيفما اتفق (كان فيها رسالة تطل منها زهرة ذابلة عقدت بشريط حائل اللون) . لم يفعل الا ان هز كتفيه ، ونظر الى الموقد ، وقذف بالرزمة الى ناحيته ، كأنما كان يريد ان يحرق هذه المهملات القديمة ، ثم عاد يدس يده في ادراج المكتب ، تارة هنا وتارة هناك ، وفجأة اتسعت عيناه ، واخذ يسحب في بطء ، صندوقا متوسط الحجم ، قديم الطرز ، مثنى الاضلاع ، وفي بطء ايضا رفع عنه الغطاء ؛ كان في طيات الصندوق اوراق صبغها القدم بالاصفرار ، بينها صليب صغير من العقيق الاحمر .

بقي بضع لحظات يحملق مدهوشا في هذا الصليب ، وفجأة نددت عنه صرخة خافتة . . . وارتسم في قسماته تعبير لعله الفرح او لعله الأسى . ان مثل هذا التعبير يرتسم في وجه امرئ يلتقي فجأة مع انسان فقد اثره وخبره وكان يحبه في الماضي حبا رقيقا ، فاذا هو يراه امام عينيه ، يخطر كما كان في الماضي ، ولكن السنين بدلته تبديلا .

نهض وسار نحو الموقد ، ثم عاد فجلس في المقعد وغطى وجهه بيديه . . . وتساءل في نفسه : « لماذا اليوم ، هذا اليوم بالذات ؟ » ؛ وخطرت بباله ذكريات كثيرة من الماضي البعيد .

وهذا ما تذكره . . .

ولكن علينا ان نبدأ الحديث بالتعريف الى اسمه ولقبه
وكنيته . اسمه ديميتري بافلوفيتش سانين .
وهذا ما تذكره :

١

حدث ذلك في صيف سنة ١٨٤٠ . كان سانين يجاوز
الثانية والعشرين من عمره ، وهو في فرانكفورت بطريق
عودته من ايطاليا الى روسيا . لم يكن من أهل الثراء ، ولكنه
رجل طليق الاسار ، يكاد يكون خاليا من اعباء الاسرة .
ورث بضعة آلاف من الروبلات بوفاة رجل تربطه به قرابة
بعيدة ، فزينت له نفسه ان ينفق هذا المال في الخارج ،
قبل ان يبدأ حياته العملية ، ويطوق عنقه باغلال الوظيفة ،
وهي الوسيلة الوحيدة التي بقيت له الى الحياة الموفورة .
وكان سانين حاذقا في انفاق المال ، حتى انه في حين وصوله
الى فرانكفورت ، لم يكن في جيبه الا القدر الذي يكفيه
للعودة الى بطرسبورغ . وكانت السكك الحديدية قليلة سنة
١٨٤٠ ، والسادة السياح يسافرون في العربات ، فدفع سانين
ثمن بطاقة في عربة «بايفاغين» وكانت لا تتحرك للسفر الا
في الساعة الحادية عشرة مساء ، فوجد ان الوقت طويل حتى
هذا الموعد . ومن حسن حظه ان الطقس كان رائعا ، فتناول
طعام الغداء في فندق شهير اسمه «البجعة البيضاء» ،
وانطلق بعدئذ يتجول في المدينة ، فذهب لرؤية اريادنا
لدانيكر * فما أعجب بها الا قليلا ، ثم زار بيت غوته ، مع
انه لم يقرأ من اعماله الادبية سوى كتاب «فرتر» وحتى
هذا قرأه في الترجمة الفرنسية ، وتفصح على ضفة الماين ،

* يوهان هنريخ دانيكر ، نحات الماني (١٧٥٨-١٨٤١)
فرغ من نحت تمثال اريادنا ، وهي فتاة على فهد ، من المرمر
سنة ١٨١٤ ، وفي سنة ١٨١٦ اقام احد اغنياء فرانكفورت
جناحا خاصا لهذا التمثال وفتح ابوابه للجمهور . (المترجم) .

وهو آخذ بمظهر الوحشة الذي يناسب مقام سائح يرعى
الاصول . وفي الساعة السادسة مساء ، انتهى به المطاف
بقدمين متعبتين مغبرتين الى شارع صغير من شوارع
فرانكفورت ، وهو الشارع الذي سيعلق في ذاكرته حينا
طويلا من الزمن ؛ هناك رأى على احد بيوته القليلة ، لافتة
كتب فيها «الحلويات الايطالية - جيوفاني روزيلي» ،
فكانها تدعو عبّار السبيل اليها . فقصد سانين الى الدكان
ليشرب كأسا من عصير الليمون . كانت تمتد في الغرفة الاولى
منصة متواضعة ظهرت وراءها رفوف خزانة لامعة تذكر
بالصيدلية ، عليها بضع زجاجات محاطة بورق مذهب ،
ومرطباتات من الزجاج للبسكويت والشوكولاته والكعك
والملبس ، لم يكن فيها من يتنفس سوى قط رمادي يطرف
بعينيه ويهرّ ويتمطى بأظفاره وهو على مقعد مرتفع الى
قرب النافذة ، وشعاع من الشمس الغاربة يسيّل نوره
المتألق على كرة كبيرة من خيوط الصوف الاحمر ملقاة على
الارض بجانب سلة مقلوبة من الخيزران . كانت اصوات
خافتة تسمع من الغرفة المجاورة ، فانتظر سانين حتى هدا
رنين جرس الباب ، وسأل بصوت مرتفع : «أليس من أحد
هنا ؟» ، انفتح باب الغرفة المجاورة في اللحظة نفسها ،
ورأى سانين ما عقد لسانه من الدهشة .

٢

اندفعت الى الدكان فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ،
بتهدل شعرها خصلات سوداء على كتفيها العاريين ، لما
رأت سانين مدت اليه ذراعيها الحاسرتين ، وارتمت نحوه ،
فقبضت على يده ، وجرته وراءها ، وقالت من خلال انفاسها
اللاهثة : «أسرع ، أسرع الى انقاذه !» . لم يبادر سانين من
فوره الى تلبية نداء الفتاة ، ولم يمسه العزوف عن هذا بل
أمسكته الدهشة لرؤيتها ، فوقف جامدا لا يبدي ولا يعيد
وهو يرى الى هذه الحسناء التي لم يشاهد لها نظيرا في حياته .

التفتت اليه ؛ ويا لليأس الذي شاع في صوتها ، في نظرتها ، في حركة يدها المتقبضة المرفوعة في توتر الى خدها الشاحب حينما قالت له : « تحرك بقي ، تعال ! » ، فأسرع يتبعها في الحال ، وعبر الباب المفتوح .

في الغرفة التي دخلها وراء الفتاة ، كان صبي في الرابعة عشرة من عمره يستلقي على ديوان عتيق الطرز من شعر الخيل ، لبسه الشحوب فهو أبيض مشوب بالصفرة كما الشمع او المرمر العريق . كان يشبه الفتاة كل الشبه ، مما يرجح أنه أخوها . كانت عيناه مغلقتين ، وظل شعره الكثيف يرتمي كالبقعة على جبهة كأنها من الحجر وعلى حاجبيه الساكنين الأزجين ، وكانت شفثاه مزاقتين تنفرجان عن اسنانه المطبقة ، وبدا كأنه لا يتنفس ؛ واسترخت احدى يديه حتى بلغت الارض ، ورقدت الثانية خلف رأسه . كان لا يزال في ثيابه ، وفي صدره المزور ، ورباطه يشد على عنقه .
صاحت الفتاة وهي تندفع نحوه :

— مات ، لقد مات ! منذ لحظة كان جالسا هنا يكلمني ، وفجأة وقع هامدا من الحركة ... يا آلهي ، ألا يمكن ان نساعده بشيء ؟ وامي ، انها غائبة ! بانتاليوني ، يا بانتاليوني ، ماذا عن الطبيب ؟ — قالت فجأة بالايطالية — هل ذهبت تدعو الطبيب ؟

فانبعث من وراء الباب صوت أجش يقول :

— لم اذهب انا يا سينيورة ، وانما ارسلت لويضة .
وأقبل يطلع في الغرفة عجوز ضئيل الجسم في سترة فراك ليلكي بأزرار سوداء وربطة عنق بيضاء عالية وسروال قصير من القطن وجوربين من الصوف الأزرق . كانت رقعة وجهه الصغير مختفية وراء طوفان كثيف من شعر خالط الشيب لونه الحديدي ، وقد فز هذا الشعر وتثنى وتنافر في كل ناحية فأضفى على العجوز منظر دجاجة قنبرانية ، وزاد في هذا الشبه أنفه المدبب وعيناه الصفراوان تحت هذا الطوفان الكثيف من الشعر الرمادي القائم .

وتابع العجوز الضئيل كلامه بالايطالية :

— تستطيع لويزة ان تركض بسرعة ، اما انا فلا أستطيع .
وتحرك ينقل على التوالي قدميه المفرطحتين المؤوفتين
بالنقرس المحشوكتين في حذاء طويل ذي اربطة ، واطاف :

— لقد جئت انا بالماء .

كان يقبض على عنق زجاجة طويل باصابعه الجافة
المعقوفة . وقالت الفتاة وهي تبسط يديها لسانين :

— ولكن اميل ، سيموت اذن ! آه يا سيدي ،
o mein Herr! هل يصدق أنك لا تستطيع ان تساعده ؟

فلاحظ العجوز المسمى بانتاليوني قائلا :

— يجب أن يفصد ، فان هذه صدمة عصبية .
على الرغم من أن سانين لم يكن يعرف مثقال ذرة من
الطب ، فقد كان واثقا من امر واحد ، وهو ان الصدمة
العصبية لا تصيب صبيا في الرابعة عشرة من عمره ، فقال
يخاطب بانتاليوني :

— انه اغماء ، وليست صدمة ، فهل عندكم فرشاة ؟
فرفع العجوز وجهه وسأل :

— ماذا ؟

فردد سانين بالالمانية وبالفرنسية وهو يعبر عن مراده
بما يشبه حركة مسح الثياب :

— فرشاة ، فرشاة .

فهم العجوز آخر الامر ما يراد منه :

— آ ، فرشاة ! Spazzette! أيعقل ألا يكون عندنا
فرشاة !

— هاتها ، وسنخلع ستترته ونفرك جسده .

— طيب ... Benone! والماء ، أليس من حاجة لصبه
على رأسه ؟

— ليس الآن ، بل فيما بعد ، اذهب بسرعة وهات
الفرشاة . وضع بانتاليوني الزجاجاة على الارضية ، وأسرع
يغادر الغرفة ، ثم عاد مسرعا بفرشاتين ، احدهما للشعر

والثانية للشباب ، ودخل في اثره كلب من نوع البوديل جعد الشعر طفق يهز ذيله بقوة وهو يدير نظرات فضول بين العجوز والفتاة ، ويرسلها الى سائين ايضا ، كأنه يريد ان يتبين سبب هذا الارتباك .

وتشط سائين الى خلع السترة عن الصبي الراقد ، ثم فك ياقته ، وشمر له عن ذراعيه، وتسلح بالفرشاة واخذ يفرك بها صدر الصبي ويديه ، وحذا بانتاليوني حذوه بالفرشاة الثانية ، وهي فرشاة الشعر ، فأخذ يفرك بها حذاءه وسرواله . كانت الفتاة جاثية على ركبتيها الى قرب الديوان ، وقد غرست اصابعها في شعرها ، وعلق بصرها بوجه اخيها فما يطرف لها جفن .

كان سائين يعمل بالفرشاة ، ويسترق النظر الى الفتاة .
ياألهي ، ما أبدع هذه الحسناء الفاتنة !

٣

كان أنفها يميل قليلا الى الكبر ، ولكنه أنف أقي جميل ، وفوق شفيتها العليا زغب خفيف يكاد لا يدرك ، اما لون وجهها ولا خلاف في انه يشبه العاج او الكهرمان الحليبي ، ولكن من غير تفاوت ولا بريق . شابته يوديفه - آللوري المعروضة بقصر بيتي * بشعرها المتموج اللامع ، وبدت عيناها على الخصوص ، رائعتين آسرتين ، بلونهما الرمادي الغامق ، وانسانيهما المؤطرين بالسواد ، حتي حين انخطف بريقهما في وهلة الخوف والحزن ... لقد تذكر سائين من دون قصد تلك المنطقة الرائعة التي كان عائدا منها ، ولكنه لم ير حتى في ايطاليا ما يضارع هذا الجمال ! كانت الفتاة تتنهذ

* قصر في فلورنسا يعود الى عصر النهضة . تحول الى متحف تعرض فيه لوحات الفنانين الطليان والاجانب ؛ يوديفه لوحة للفنان الايطالي كريستوفانو اللوري (١٥٧٧-١٦٢١) معروضة في هذا القصر . (المترجم) .

بين الحين والآخر ، كأنها تنتظر في كل مرة : ألم يبدأ أخوها
في التنفس ؟

مضى سائين في مسح جسم الصبي ، ولكنه لم يعلق بصره
بالفتاة فقط ، فقد لفتت انتباهه هيئة بانتاليوني الطريفة .
كان العجوز يلهث من التعب ، وينط الى اعلى عند كل ضربة
فرشاة ، وينح ، فتتأرجح لبدته الكثيفة التي أثقلها العرق
من ناحية الى ناحية ، مثل جذر شجرة عتيقة يتجازبه الماء
في جريانه . وكان سائين يهم بأن يقول له :

— اخلع الحذاء عن قدميه على الاقل . . .

ويبدو ان الكلب البوديل قد انفعل بما يجري حوله ،
فجثا على قائمته الاماميتين واخذ يعوي ، فزجره العجوز
قائلا : — Tartaglia — canaglia!*

في هذه اللحظة ، كان وجه الفتاة يتغير ، فارتفع حاجباها
قليلًا ، واتسعت عيناها ، وتلألأت فيهما الغبطة . . .
التفت سائين ، فاذا الاحمرار يدب في وجه الفتى وجفونه
تختلج ، وتحركت فتحتا انفه ، واخذ نفسا طويلا من خلال
أسنانه المطبقة ، وتنهده . . . فصاحت الفتاة :

— اميل ! اميليو ميو !

أخذ الفتى يفتح عينيه السوداوين في بطاء ، والقى نظرة
فارغة خالطتها ابتسامة واهنة ، وانحدرت هذه الابتسامة
على شفثيه الشاحبتين ، ثم حرك يده المتدللية وقذف بها الى
صدره في عنف .

— اميليو ! — رددت الفتاة ، وهمت بالنهوض . كانت
طلعتها قوية متألفة فكأنها توشك أن تنفجر بالبكاء او بالضحك .
— اميل ! ماذا حدث ؟ اميل ! — ترامى صوت من وراء
الباب ، ودخلت بخطوات سريعة سيده انيقة يتألق شعرها
الفضي على وجهها الاسمر ، وفي اثرها رجل متقدم في السن ،
وكان وجه الخادمة يتراءى من خلف كتفيه .

* تارتاليا - شيطان (بالايطالية) .

ركضت الفتاة الى لقاء القادمين ، وهتفت قائلة وهي
تعانق السيدة بانفعال :

— لقد نجا يا ماما ، وهو حي !
فقات الام :

— ماذا حدث ؟ .. لقد كنت عائدة ... وفجأة وجدت
السيد الطبيب ولويزة ...

اخذت الفتاة تروي على امها ما حدث ، وتحول الطبيب
الى المريض ، وكان هذا يستعيد وعيه ولا ينقطع عن
الابتسام : فكأنه بدأ يستشعر الخجل من هذه الهزة التي
سببها لهم .

وقال الطبيب يخاطب سائين وبانتاليوني :

— رأيت انكما فركتما جسده بالفرشاة . هذا عمل
رائع ... وفكرة طيبة ... فلننظر الآن ماذا ينبغي له من
العلاج ...

وجس نبض الفتى :

— هم ! هات أرني لسانك !

انحنت السيدة على الفتى وهي مستطارة اللب ، فاتسعت
ابتسامته ، وارتفع اليها بصره ، واصطبغ وجهه
بالاحمرار ...

خطر ببال سانين ان بقاءه لم يعد ملائما فخرج الى
الدكان ، ولكنه لم يكن قد امسك بمقبض الباب المؤدي الى
الشارع حين رأى الفتاة تقف وتستوقفه قائلة وهي تنظر اليه
في رقة :

— انك ذاهب ، فلا أملك أن استبقيك ، ولكن لا بد ان
تجيء الينا في هذا المساء . نحن مدينون لك ، وقد تكون أنت
من أنقذ أخي ، نريد أن نشكر لك جهديك ، وماما تريد ذلك .
ثم لا بد ان نتعرف الى احوالك ، وان تشاركنا في سرورنا ...
فقال سانين متداركا :

— ولكني مسافر الى برلين اليوم .

فاعترضت الفتاة بحماسة :

— لا يزال لديك فسحة من الوقت ، فتعال بعد ساعة
على فنجان شوكولاته . فهل تعد بالمجيء ؟ ينبغي ان اعود
اليه ، فهل تأتي ؟

ماذا يستطيع سائين ان يفعل ؟ اجاب :

— سأجي .

فصافحت الحسناء يده بسرعة ، وطارت من الدكان — اما
هو فقد وجد نفسه في الشارع .

٤

لما عاد سائين الى دكان الحلويات ، أستقبل هناك كانه
قريب حميم . وكان اميل يجلس على نفس الديوان الذي
ادركته عليه ايدي المدلكين . لقد وصف له الطبيب بعض
الدواء ، واوصى « بالاناة الشديدة فيما يتعلق بشعوره
واحساسه » — لأنه سريع الانفعال ، مهيا للازمات القلبية .
لقد ألمت به نوبات الاغماء من قبل ، ولكنها لم تبلغ المقدار
الذي بلغته هذه المرة من العنف والطول . ولكن افاد الطبيب
بان الخطر قد زال . ولبس اميل ما يناسب حالة الناقه :
عباءة فضفاضة ، واحاطت أمه عنقه بوشاح من الصوف
الازرق ، ولكنه بدا مرحا ، بل لعله في مزاج يشبه مزاج
العيد ، وكل ما حوله كان ايضا في هذا الابتهاج الغامر . امام
الديوان ، أقيمت مائدة مستديرة مغطاة بغطاء نظيف ،
شمخ فوقها ابريق كبير من الخزف تفوح منه رائحة
الشوكولاته اللذيذة ، واحاطت به الفناجين وآنية المرطبات
وصحاف فيها البسكويت والكعك والخبز ، وكان كل شيء
موفورا حتى الازهار ، وحول هذه الآنية الخزفية ، تألقت ست
شمعات دقات في شمعدانين قديمين من الفضة . والى جانب
الديوان كان المقعد الفولتيري يفتح ذراعيه وحضنه الوثير ،
فأجلس سائين في هذا المقعد بالذات ؛ وكل من تعرف اليه
في دكان الحلويات هذا اليوم كان حاضرا بالوجه ، حتى الكلب
البوديل تارتاليا والقط ؛ كلهم كان سعيدا بصورة تفوق

الوصف ، حتى لقد عطس الكلب من الجذل ؛ ما عدا القط ، فقد جلس وحده يهر ويتغنج ويطرف بعينيه . حاصروا سائين بالاسئلة عن أهله وبلده واسمه ، فلما قال انه روسي ظهر على السيدتين بعض الدهشة ، بل ندت عنهما شهقة ايضا ، وقالتا بصوت واحد ان نطقه بالالمانية ممتاز ، ولكنه يستطيع ان يستعمل الفرنسية اذا كانت أدعي لراحته ، لانهما تفهمان هذه اللغة جيدا وتنطقان بها . لم يبطى سائين في انتهاز هذا العرض . « سائين ؟ سائين ! » ، لم تنتظر السيدتان ان يكون في الكنى الروسية كنية على مثل هذه السهولة في النطق . واستظرفتا كذلك اسمه « ديميتري » ، وقالت الست الكبيرة انها سمعت في صباها اوبرا رائعة اسمها « Demetrio e Polibio » ، ولكن اسم « Dimitri » اجمل من « Demetrio » . وعلى هذه الصورة قضى سائين حوالي ساعة في جلسة وحديث ؛ وأطلعتاه السيدتان من ناحيتهما على ادق التفاصيل من حياتهما . وأدارت الام ذات الشعر الاشيب دفعة الحديث اكثر الوقت ، فعرف سائين منها ان اسمها ليوتورا روزيللي ، وانها ارملة وزوجها المرحوم جيوفاني باتيستا روزيللي الذي اقام طوال خمس وعشرين سنة في فرانكفورت يصنع الحلويات ، وانه في الاصل من ابناء فيشنزا ، وهو رجل طيب ، ولكنه لم يخل من بعض النزق والتكبر ، يضاف الى هذا ان نزعتة جمهورية ! واشارت في اثناء كلامها الى صورته الزيتية المعلقة على الجدار القائم وراء الديوان ، وتنهدت قائلة : — لا يبعد ان يكون الرسام الذي رسمها « جمهوريا ايضا ! » ، فانه لم ينجح كل النجاح في التقاط الخطوط المشابهة لملامح زوجها ، فظهر المرحوم جيوفاني باتيستا على هذا القدر من التجهم والصرامة ، حتى لكأنه قاطع طريق على شاكلة رينالدو رينالديني * ! اما السيدة روزيللي فانها من « المدينة

* قاطع طريق اسطوري .

القديمة الرائعة بارما ، حيث القبة المعجزة التي حليت برسوم كوريجيو الخالد ! » . ولكنها اقامت وقتا طويلا في المانيا ، واستوطنتها حتى تألمت او تكاد . ثم قالت في أسي وهي تهز رأسها : لم يبق لها الا هذه البنت وهذا الابن (وشارت باصبعها الى كل منهما على التتابع) ؛ وان البنت اسمها - جيما ، والولد - اميل ؛ وانهما ولدان طيبان مطيعان - ولا سيما اميل . . . (فقاطعتها ابنتها قائلة : « وهل انا غير مطيعة ؟ » - فاجابت الام : « آه ، انت ايضا نزعتك جمهورية ! » . اما الاحوال فانها اسوأ منها مما كانت على ايام زوجها الذي كان معلما عظيما في صنع الحلويات . . . (وعندئذ نبذ بانتاليوني قائلا بهيئة صارمة : « *Un grand'uomo») ، ولكن الحياة ، مع ذلك ، لا تزال ميسورة والحمد لله !

٥

كانت جيما تصغي الى أمها - وهي تبتسم تارة ، او تتنهد تارة اخرى ، او تمسح بيدها على كتف أمها ، او تهز اصبعها محذرة ، او ترنو بالنظر الى سائين . ثم قامت فطوقت أمها بذراعيها ، وقبلتها في عنقها ، فأضحكت الام هذه الحركة ، التي أنغشتها ؛ وقدم بانتاليوني ايضا الى سائين ، فظهر انه في ذات زمان كان مغني اوبرا بالصوت الباريتون ، ولكنه انقطع عن اعمال المسرح منذ وقت بعيد ، واصبح في اسرة روزيلي بمقام وسط بين صديق العائلة وخدامها . اقام حيننا طويلا من الزمن في المانيا ، ولكنه لم يتعلم من لغتها الا كلمات الشتائم ، ولم تسلم هذه الالفاظ ايضا من التحريف والتشويه عند نطقه بها ، فكان يلفظ النعت الذي يطلقه على كل الماني بقوله : « فيروفلوكتو

* رجل عظيم (بالايطالية) .

سبيتشيبويو» ** . بيد ان نطقه بالايطالية في غاية الاتقان ، ذلك انه من ابناء سينيغاليا حيث تسمع «*!lingua toscana in bocca romana» . اما اميل فكان مستسلما لأحاسيس امرى نجا وشيكا من خطر ، او شفى من مرض ، ومن الواضح فوق هذا ، انه في كل شيء صبي الاسرة المدلل . لقد شكر سانين في استحياء ، ولكنه اقبل على المرطبات والحلويات في جراءة . واجبروا سانين على شرب فنجانين كبيرين من الشوكولاته الجيدة ، وأكل مقدار هائل من البسكويت : فما يكاد يزدرد واحدة حتى تأتبه جيما بوحدة غيرها ، ولا مجال عندئذ للرفض ! وسرعان ما شعر بانه في بيته : لقد مرّ الوقت بسرعة لا تصدق ، وكان مضطرا الى ازجاء كثير من القصص - عن روسيا بعامة ، عن الجو الروسي ، والمجتمع الروسي ، والفلاحين الروس - وبخاصة عن القوزاق ، وعن حرب ١٨١٢ ، وعن بطرس الاكبر ، والكرملين ، وعن الاغاني الروسية ، وعن الاجراس . كانت معلومات السيدتين ضئيلة عن بلادنا النائية المترامية الاطراف ، فان السيدة روزيلي او فراو لينوري قد افزعت سانين بهذا السؤال : ألا يزال قائما في بطرسبورغ ذلك القصر الذي اشتهر منذ القرن الماضي باسم قصر الجليد ؟ وقالت انها قرأت عنه مقالا طريفا في كتاب وجدته عند المرحوم زوجها عنوانه «*!Belezze delle arti» . فكان جواب سانين : «وهل ظننت ان الصيف لا يحل في روسيا ابدا ؟ !» ، فاعتزضت فراو لينوري قائلة بانها تتصور روسيا حتى الآن على هذه الصورة : الثلج الابدي ، والناس جميعا في الفرو ، وكلهم عساكر ، ولكنهم على درجة رائعة

* معناها «الصاب الملعون» (وصحيحها بالالمانية : verfluchte Spitzbube)

** اللغة التوسكانية من اقمام رومانية (بالايطالية) .

*** «جماليات الفن» (بالايطالية) .

من الكرم ، وفلاحوها طيعون كل الطاعة ! وحاول سائين ان يعطي الام وابنتها معلومات اكثر دقة عن بلاده . لما لمس الحديث جانب الموسيقى الروسية ، رجته السيدتان أن يغني أحادية روسية من احدى الاوبرات ، واشارتا الى بيانو صغير قائم في الغرفة وضعت اصابعه السود في موضع البيض ، والبيض في موضع السود ، فأذعن سائين من غير تمنع او اغراق في انتحال الاعذار ، وأخذ يغني وهو يعزف باصبعين من يده اليمنى ، وثلاث من يده اليسرى (وهي الابهام والوسطى والخنصر) فغنى بصوت رفيع «تينوري» يخرج من انفه اغنية «سارافان» ، ثم غنى اغنية «خلال الشارع الرحيب» ، فامتدحت السيدتان غناؤه وعزفه ، وارسلتا آهات الاعجاب بعدوبة اللغة الروسية ولطف جرسها ، وطلبتا اليه ان يترجم لهما معاني الاغنيتين ، فاستجاب سائين لهذا الطلب ، ولكن كلمات اغنية «سارافان» وبخاصة اغنية «خلال الشارع الرحيب» (جاءت في ترجمته لها على هذا النحو الطريف : sur une *rue pauvéé une jeune fille allait à l'eau) فلم ينقل الى مستمعيه كثيرا من دقائق الشعر الروسي . ولهذا غنى الاغنية «اني لأذكر اللحظة الرائعة» وهي من تلحين غلينكا وشعر بوشكين ، بعد ان قرأها ، وترجم معانيها ، ولكنه غالط قليلا في المقطع المينوري . هنا عصفت الحماسة بالسيداتين - بل ان فراو لينوري اكتشفت في اللغة الروسية شبيها مدهشا باللغة الايطالية . وحتى اسما بوشكين (كانت تنطقه : بوسيكين) وغلينكا - رأيت ان في جرسهما رتيئا ما لوفيا في سمعها . ثم جاء دور سائين ، فرجا السيدتين ان تغنيا ما يحضرهما من الاغاني ؛ ولم تتمنعا ايضا ، فجلست فراو لينوري الى البيانو ، واشتركت معها

* في شارع رحيب تسير فتاة صبية الى الماء . (المترجم) .

جيمًا في غناء بعض المقطوعات الاحادية والثنائية . كان الكونترال ذات يوم رائعًا في صوت الام ، اما صوت البنس فانه على شيء من الضعف ولكنه مطرب .

٦

ولكن سائين كان معجبا بجيمًا نفسها لا بصوتها . جلس بجانبها الى وراء منها قليلا وطفق يفكر قائلا في نفسه : ليس من نخلة - حتى في شعر بينديكتوف وكانت موضته شائعة وقتذاك - بقادرة على منافسة امتشاق قامتها وهيف خصرها ؛ وخيل اليه وهو يرى اليها منصرفه بحواسها الى الغناء ، رافعة عينيها الى أعلى ، ان السماء التي لا تفتح رحابها لمثل هذه النظرات لم توجد في هذا الكون . بل ان العجوز بانتاليوني الذي استند بكتفه الى الباب واغرق ذقنه وفمه في ربطة عنقه الواسعة ، وأصغى في وقار اصغاء الخبير العارف ، كان ينظر في افتتاحان الى وجه الفتاة الرائع ، كان مذهولا به ، وهو الذي تعود رؤيته ولا شك ! لما انتهت فراو لينوري من الغناء مع ابنتها اشارت قائلة : ان اميل له صوت ممتاز ، مثل رنين الفضة الاصيلية ، - ولكنه الآن في السن التي يتغير فيها الصوت (كان في الواقع يتكلم بصوت فيه خشونا متقطعة) ، ولهذا فهو ممنوع عن الغناء ، اما بانتاليوني فانه قد يستطيع أن يجدد أيامه الخوالي على شرف الضيف ! أظهر بانتاليوني عدم الرضى من فوره ، وتجهم وجهه ، وأخذ ينبش في شعره ، ثم أعلن : أنه أهمل ذلك وتركه منذ وقت بعيد ، على الرغم من أنه استطاع في صباه ان يثبت وجوده ، وأنه بصورة عامة ينتمي بزمانه الى ذلك العصر العظيم الذي عاش فيه المغنون الكلاسيكيون الحقيقيون الذين يجلب غناؤهم عن الموازنة بمواء المغنين المحدثين ! فوقتئذ كانت مدرسة حقيقية للغناء . وانه هو بانتاليوني تشيباتولا من أبناء فاريزه ، قدموا اليه في مودينا

اكليلا من الغار ، وأطلقوا الحمائم البيض في المسرح لهذه المناسبة ؛ وان الامير الروسي تاربوسكي («il principe Tarbusski» الذي كانت بينهما صداقة وثيقة كان يدعوه كثيرا أثناء أكلهما في العشاء للسفر الى روسيا ، ووعده بأن يكون له جبل من الذهب ، جبل ! .. ولكنه أبى ان ينفصل عن ايطاليا ، وطن دانتى — il paese del Dante! — ثم حدثت أمور مؤسفة ، وهو بالذات لم يلتزم جانب الحذر . . . وهنا قطع الشيخ حديثه ، وصعد زفرة عميقة مرة او مرتين ، وأطرق برأسه ، ثم عاد يتحدث عن عظمة عصر الغناء الكلاسيكي ، وعن المغني التينور الشهير غارسيا الذي يشعر له بقدر غير محدود من الاحترام . وقال :

— يا له من انسان ! فان غارسيا العظيم — il gran Garcia — لم يهن نفسه أبدا بغناء يسفّ به الى مستوى مطربي هذا الزمان — tenoracci — كان غناؤه من صدره ، من صدره — voce di petto, si!* — وهنا أخذ العجوز يدق بيده الصغيرة اليابسة على صدرته — وياله من ممثل ! بركان ، miei** un Vesuvio . لقد تشرفت وسعدت بالغناء معه في أوبرا « عطيل » التي وضعها dell'illustrissimo maestro*** روسيني ! وكان غارسيا في دور عطيل ، وأنا في دور ياغو — ولما أخذ يؤدي هذا المقطع . . . هنا اتخذ بانتاليوني وضعا مسرحيا ، وبدأ يغني بصوت مرتعش مبحوح ولكنه جهير فخم :

L'i... ra daver... so daver... so il fato
Io più no... no... no non temerò!****

-
- * صوت الصدر ، نعم (بالاطالية) .
 - ** يا سادتي (بالاطالية) .
 - *** المايسترو الاشهر (بالاطالية) .
 - **** لتغضب الاقدار فاني لن اخافها بعد اليوم (بالاطالية) .

— لقد اهتز المسرح signori miei! ولكني لم أتقهقر
بل غنيت بعده :

L'i... ra daver... so daver... so il fato
Temèr più non davró!*

— وانقض هو فجأة كالبرق ، كالنمر ، بهذا المقطع :
Morro!... ma vendicato!...**

— او اسمعوا هذا ايضا ، عندما غنى ... عندما غنى
هذه الاحادية الشهيرة ***Pria che spunti... من اوبرا
il gran «Matrimonio segreto»... هنا اضاف
Garcia بعد كلمتي : (*l'cavalli di galoppo قوله :
Senza posa caccierà! (**فاسمعوا ما أروع هذا ،
com'è stupendo! — وهنا بدأ العجوز في ترديد نغمة فذة ،
لكنه توقف عند نوطتها العاشرة ، وأخذ يسعل ، ثم طوح
بيده ، وغغم وهو يستدير برأسه : — لماذا أنتم
تعذبونني ؟

فنهضت جيما من مقعدها في تلك اللحظة ، وهتفت وهي
تصفق بملء قوتها : برافو ! .. برافو ! واسرعت الى ياغو
المتقاعد المسكين تهزه من كتفيه بترفق وحنان . ولكن اميل
وحده كان يضحك من دون شفقة ، فان هذه السن —
Cet âge est sans pitié — لا تعرف الشفقة — هكذا قال
لافونتين .

* لتغضب الاقدار فليس حتماً ان اخافها بعد اليوم
(بالايطالية) .

** اني أموت ! .. ولكني أموت منتقماً ! .. (بالايطالية) .

*** قبل ان يطلع ... (بالايطالية) .

**** «الزواج السرى» — اوبرا من تلحين الملحن الايطالي دومينيكو
تشيما روزي (١٧٤٩ — ١٨٠١) .

(* جياذ السباق) (بالايطالية) .

(** سنطاردها من غير توقف) (بالايطالية) .

حاول سانين أن يواسي المغني العجوز : فحاطبه باللغة
 الإيطالية ، (كان قد التقط بضع كلمات منها اثناء جولته
 الاخيرة) وحده عن * «paese del Dante, dove il si suona»
 وكانت هذه الجملة مع جملة * «Lasciate ogni speranza»
 هي كل ما حملته من ايطاليا حقيبة السائح الشاب من المتاع
 الشعري الايطالي . ولكن بانتاليوني لم يؤخذ بهذا التملق ،
 فزاد رأسه انخفاضا ، وذقنه غوصا في رباط عنقه ، واكتأبت
 نظراته الشتيتة ، وصار من جديد يشبه الطائر ، بل ان
 الغضب جعله كالغراب ، او أدهى ، كالحدأة ؛ وعندئذ سرت
 حمرة خفيفة في وجه اميل كما يحدث للولاد المدللين ،
 والتفت يقول لاخته : ان خير ما تفعله اذا كانت ترغب في
 امتاع الضيف ان تقرأ عليه شيئا من اعمال الكاتب الفكاهي
 مالتز فانها تجيد قراءتها . فضحكت جيما وقالت وهي ترشق
 أخواها بيدها : « انه هكذا دائما في تفكيره ! » ، ولكنها قامت
 من فورها الى غرفتها ، وعادت بكتاب صغير ، فجلست الى
 المائدة امام المصباح ، ثم التفتت وهي ترفع اصبعها -
 « صمتا . هس ! » - حركة ايطالية صرف - وطفقت تقرأ .

٧

كان مالتز أديبا من فرانكفورت ، اشتهر في الثلاثينات * * *
 بضرابه القلمية الهزلية التي أرسلها في مقطوعات قصيرة ،
 مكتوبة باللغة المحلية الدارجة ، كذلك اشتهر بنوادره التي
 لم تكن عميقة المعنى ولكنها ظريفة مرحة ، وقد صور بهذا
 كله نماذج من سكان فرانكفورت . وظهر ان جيما تحسن

* بلاد دانتي حيث ترن كلمة نعم (بالاطالية - «CU»).

** «دع الامل الى الابد» (من دانتي ، بالاطالية) .

*** واضح ان المقصود هنا ثلاثينات القرن التاسع عشر .

(المترجم) .

اللقاء كالممثلين . كانت تعبر بحركات وجهها عن سمات كل شخصية ، وتلتقط خصائصها بصورة ممتازة ، مستعينة بوسائلها الموروثة عن جنسها الايطالي في ابراز هذه الخصائص . لم تأخذها الرحمة بصوتها الرقيق ولا بوجهها الرائع ، فحين تقتضي منها المناسبة تقليد عجوز ملتاث العقل ، او حاكم بليد ، كانت تقلب سحنتها في اشكال هزلية شتى ، وتكيفها على أوضاع ساخرة شائثة ، فتغرب عينيها ، وتجعد أنفها ، وتلثغ او ترأرى ، وتموء ، وتصفي . . . لم تضحك وقت القراءة ، ولكن حينما كان المستمعون (ما عدا بانتاليوني ، فقد خرج غاضبا عندما بدأ الحديث عن *quel ferroflucto Tedesco*) حينما كان المستمعون يقاطعونها بانفجار من قهقهتهم المشتركة المشجعة ، كانت تضع الكتاب على ركبتيها ، وترن ضحكتها ، وعندئذ ترتد برأسها الى الوراء ، وترتعش خصل شعرها الاسود في حلقات ناعمة على عنقها ، وعلى كتفيها المهترزين ، فاذا سكن الضحك ، عادت الى الكتاب ، وجعلت ملامحها في الوضع الملائم ، واستأنفت القراءة في جد وتوتر . لم يستطع سائين ان يكبح جماح اعجابه بها . بهرته خصوصا بان وجهها المثالي الرائع اتخذ ، على نحو يشبه الاعجاز ، هذه السمات الهازلة بل حتى الماجنة في بعض الاحيان . ولكن جيما لم توفق الا قليلا في تأدية ادوار الفتيات التي تمثلها من تسمى *jeunes premières* ، لم تنجح على الخصوص في تأدية المقطوعات الغرامية ، وقد شعرت هي بذلك ، فكانت تضيف على هذه الادوار نبرات خفيفة من السخرية — كأنها لا تصدق كل هذه المطارحات الغرامية الحارة ، وهذه الخطب الرنانة التي حاول المؤلف ان يتجنبها بقدر ما استطاع .

لم يلحظ سائين ان الوقت يطير . تذكر موعد سفره

* الالمانى الملعون (بالايطالية) .

** الفتاة الاولى (بالفرنسية) .

انقريب عندما دقت الساعة العاشرة ، فقفز من مقعده
كالمسوع ؛ فسأله فراو لينوري :

— ماذا بك ؟

— ينبغي ان اسافر اليوم الى برلين — وقد احتجرت
مكانا في العربة .

— متى تتحرك العربة للسفر ؟

— في منتصف الساعة الحادية عشرة .

فقالَت جيما :

— واذن فاتك الموعد ، فابق ... سأواصل القراءة .

فسألت فراو لينوري باستطلاع :

— أدفعت قيمة التذكرة كلها أم دفعت عربونا فقط ؟

فأجاب سانين وهو يزفر من صدر مثقل :

— كلها !

نظرت اليه جيما ، ورأت بعينيها وضحكت ، فأنبتها

أمها قائلة :

— أضع الشاب نقوده في الهواء وانت تضحكين .

فقالَت جيما :

— لا بأس ، فان هذا لن يفقره ، وسنحاول ان نخفف

عنه . هل تريد ليمونادة ؟

فشرب سانين كأسا من الليمونادة ، وشرعت جيما في

القراءة من مالتز ، وسار كل شيء في سهولة ويسر

كالزيت .

دقت الساعة الثانية عشرة ، فتهيا سانين للانصراف ،

وقالَت جيما :

— لا بد لك ان تبقى بضعة ايام في فرانكفورت ، فالى

اين يقتضيك الاسراع في الرحيل ؟ لن تكون مدينة اكثر مرحا

من فرانكفورت — وبعد ان امسكت قليلا عن الكلام اضافت

بابتسامة — الحقيقة لن تكون . لم يجب سانين بشيء . كان

يفكر : ان فراغ جيبه سيضطره الى البقاء في فرانكفورت

حتى يأتي جواب صديق من برلين اعتمزم ان يكتب اليه

ويطلب ان يقرضه شيئاً من النقود . وقالت فراو روزيلي :

— ابق ، ابق ، سنعرفك الى السيد كارل كلوير خطيب جيما . لم يستطع ان يجيء اليوم لان لديه مشاغل كثيرة في مخزنه ... لا شك انك رأيت في شارع تسيل اكبر مخزن للاجواخ والحراير . انه مدير هذا المخزن ، ولكنه سيكون مسرورا جدا بان يقدم لك نفسه .

شعر سانين بالخيبة— ولا يعلم سببها الا الله— تلقاء هذه الانباء ، ولمعت في ذهنه هذه الخاطرة — « ما أسعد هذا الخطيب » ، ونظر الى جيما فخيل اليه ان مسحة من السخرية خالطت نظرتها . أخذ يودع مضيفيه ، فسأله فراو لينوري :

— الى الغد اذن ؛ هل اتفقنا ؟

وقالت جيما بلهجة التوكيد لا بلهجة السؤال كأن الامر

حتم لا محيص عنه :

— الى الغد !

فاجاب سانين :

— الى الغد !

سار معه اميل وبانتاليوني والكلب تارتاليا يشيعونه حتى زاوية الشارع . ولم يصبر بانتاليوني على كتمان عدم رضاه عن طريقة جيما في الالقاء :

— ما أقل حياءها ! تتمسخر ، وتصئي ، una

*carricatura . كان عليها ان تمثل ميروبه او كليتيمنيسترة ،

اي شيئاً لشوامخ التراجيديين ، ولكنها جعلت تتماجن مثل المانية مريبة ! أنا أيضا أستطيع ان أرطن بهذه الميرتز والكيرتز والسميرتز— قال ذلك بصوته الخشن المبجوح وهو يدفع ذقنه الى الامام ويمد اصابع يده ، فاخذ الكلب تارتاليا

* واحدة كاريكاتورية (بالاطالية) .

ينبجه ، واغرق اميل في الضحك ، فاستدار الشيخ مرتدا الى الورااء .

عاد سائين الى فندق «البجعة البيضاء» (كان قد ترك اشياءه في الصالة العامة) ، بنفس يعتلج فيها احساس غامض ، وفي اذنيه يرنّ هذا الخليط من الالمانية والفرنسية والايطالية .

— خطيبة ! — همس وهو يستلقى على السرير في الغرفة المتواضعة التي أعطيها — وما أروع جمالها ! واذن ما بقائي في هذه المدينة ؟

ولكنه في اليوم التالي أرسل رسالة الى صديقه في برلين .

٨

ما كاد يلبس ثيابه حتى دخل الخادم ينبئه بأن سيدين ينتظران مقابلته . وظهر ان اميل احدهما ، اما الثاني ، وهو رجل يملأ النظر ، مديد القامة ، في مقتبل العمر ، وسيم الملامح ، فكان الهر كارل كلوبير خطيب الحساء الرائعة جيما .

أغلب الظن ان مدينة فرانكفورت من أولها لآخرها لم تعرف وقتذاك في أي مخزن من مخازنها مديرا تجاريا يشبه في لياقته وتهذيبه وخطورة شأنه وعذوبة محضره السيد كلوبير . لقد تناسبت أناقته التي لا تشوبها شائبه بمظهره المتحرز المهذب . والحقيقة ان أناقته مشوبة بقليل من برود الانكليز وتحفظهم (كان قد قضى سنتين في انجلترا) ، ولكنه مع هذا كله أسر ساحر بمحضره ومظهره . لا تخطى العين منذ النظرة الاولى ان هذا الشاب الجميل ، الصارم قليلا ، الجم التريية والتهذيب ، النظيف كل النظافة ، قد تعود ان يخضع للاعلين ، ويخضع الادنين ، وان عليه وهو الى جانب منصة البيع في المخزن ان يوحى حتى الى الزبائن انفسهم بالاحترام . وما عليك الا ان تنظر الى ياقته المنشأة الصلبة لتدرك ان نزاهته ابعده من ان يعلق بها ولو مثقال ذرة من الشك !

اما صوته فهو مما تتوقعه من رجل على طرزه ، فهو قوي واثق ريان ، هادى وقور رقيق النبرات ، يلائم على الخصوص توزيع الاوامر على المرؤوسين بمثل هذه العبارات : « انزل هذه القطعة الوردية من المخمل ! » او « احضر كرسيًا لهذه الست ! » .

بدأ السيد كلوبير بتقديم نفسه ، فباي جلال اخى جذعه ، وبأي لباقة شد ساقيه ، وبأي تأدب ضم كعبيه . وكان لهذا من قوة التأثير ما يشعر « بأن لهذا الانسان ثوبا وروحا من الصنف الاول ! » . ان اناقة يده اليمنى النظيفة العارية (اليسرى مكسوة بقفاز سويدي ، ممسكة بقبعة سوداء عالية تلمع كالمرآة ، وفي داخلها الفرده الثانية من القفاز) التي مدّها الى سائين في تواضع ولكن في قوة ، برزت على نحو يبهر العقل : كل ظفر منها قد أخذ ما يكفيه من العناية والاتقان . ثم افاد بلغة ألمانية عالية : انه يود ان يعبر عن احترامه وامتنانه وعرفانه لجميل السيد الاجنبي الذي أدى مثل هذه الخدمة الجليلة لقريبه العتيد شقيق خطيبته ؛ وبسط أثناء ذلك يده على رحبها الى ناحية اميل ، وكان هذا يقف في استحياء ملتفتاً بوجهه نحو النافذة واصبعه في فمه . واضاف السيد كلوبير انه سيكتب نفسه في السعداء اذا استطاع من جهته ان يكون في حالة استعداد لتوفير البهجة للضيف الكريم . فأجاب سائين بلغة ألمانية لا تخلو من العسر انه سعيد جدا . . وان ما قدمه لا يستحق الذكر ، ودعا ضيفيه الى الجلوس . الهر كلوبير عبر عن امتنانه ، ورفع ذيل فراكه كلمح البرق ، وانزلق على الكرسي ولكن بأي رشاقة وخفة انزلق ، وجلس من دون استقرار ، حتى ليتعذر على المرء ألا يدرك أن « هذا الاتسان يجلس من باب المجاملة ويوشك ان يطير ! » . والواقع انه لم يبطن ، فقد رفرف فجأة ، وراوح بقدميه مرة او مرتين في خفسر وحياء كأنه يهم بأن يرقص ، وأعلن أنه على غير ما يتمنى لا يستطيع ان يطيل المكوث وقتاً أطول ، وانه عليه ان يسرع

الى مخزنه فأن - العمل قبل كل شيء - ولكن ما دام الغد يوم احد ، فانه سيعدّ نزهة مرحة الى «سودين» بعد موافقة فراو لينوري وفراولين جيما ، ويشرفه ان يدعو السيد الاجنبي اليها ، والمأمول ألا يرفض السيد الاجنبي اصدقاء البهاء على هذه الرحلة بحضوره الكريم . لم يرفض سانين اصدقاء البهاء على هذه الرحلة . فقدم الهر كلوير نفسه مرة ثانية وذهب ؛ وكانت سراويله تخفق بلونها الفستقي اللطيف، ونعل حدائه الجديد يبعث صريحا مستعذب الوقع .

٩

بقي اميل واقفا في مكانه ملتفتا بوجهه الى النافذة حتى بعد دعوة سانين له بأن يستريح : فلما غادر صهره العتيد الغرفة ، استدار من فوره يسرة ، وأقبل مبرطما كالطفل ، أحمر الوجه من استحياء ، ورجا سانين ان يسمح له بالمكث عنده قليلا ، وقال : « ان حالتي الصحية الآن احسن مما كانت قبل ، ولكن الطبيب لم يسمح لي بالعمل » . فأسرع سانين الى القول :

— لك ان تبقى فانك لا تعيقتي في شيء .

كان يسره مثل اي روسي اصيل ان يعتم بصول ذريعة تعرض له ، على ان لا يوضع بها في موضع المضطر الى القيام بعمل من الاعمال .

شكره اميل ، وبعد قليل من الوقت ، كان في الفة مع المضيف وغرفته ، فأخذ يتفرج على اغراضه واشيائه ، ويسأل عن هذا وذاك منها ، من أين اشتراه ، وما ثمنه ؟ ثم ساعده في الحلاقة ، واقترح عليه ان يطلق شاربييه ، وانتهى به المطاف الى الافضاء بكثير من التفصيلات عن شؤون امه واخته ، وعن بانتاليوني ، بل حتى عن الكلب البوديل تارتاليا ، وعن كل شاردة وواردة من امور حياتهم وسعيهم ، وزال عنه كل أثر من آثار الحياء ، وشعر فجأة بميل عارم الى سانين ، لا لانه أنقذ حياته امس ، بل لانه مؤنس جذاب ،

وأسرع الى البوح له بكل اسراره ، وبخاصة ما تخمر لديه ، من ان امه تريد جاهدة ان تصنع منه تاجرا ، ولكنه يعرف ، وهو على يقين مما يعرف ، انه ولد رساما ، موسيقيا ، مغنيا ، وان المسرح هو المكان الحقيقي الذي يدعوه ، وان بانتاليوني يشجعه في هذا ، ولكن السيد كلوبير يدعم امه في موقفها بما له من نفوذ عليها ، والفكرة عن اعداده ليكون تاجرا انما جاءت على الخصوص من السيد كلوبير هذا ، ففي عرفه انه ليس من شي في العالم يستحق ان يوازن ويقارن بلقب تاجر ! والتاجر يبيع الجوخ والمخمل و- يغش الناس باسعار «Narren — oder Russen-Preise» (يدفعها الحمقى او الروس) - هذا هو مثله الاعلى ! *

وما كاد يفرغ سائين من ارتداء ملابسه وكتابة رسالة الى برلين حتى هتف به اميل قائلا :

- اذن ! وبعدين ؟! ينبغي ان تذهب الينا الآن !

فلاحظ سائين :

- ولكن الوقت مبكر الآن .

قال اميل وهو يدنو منه في نعومة :

- لا عليك ، فلنذهب . سنمر بمكتب البريد ، ومنه

الينا . ستكون جيما سعيدة ! وستفطر عندنا . . . ولسوف

تتحدث الى امي في أمري وأمر مستقبلي .

فقال سائين :

- طيب ، لنذهب .

وغادرا الغرفة .

* كانت الحال في الماضي ، بل لا تزال حتى الآن ، ان يبدأ

الروس في التوافد على مدينة فرانكفورت عند بداية شهر مايو من

كل سنة ، فيطرا عندئذ ارتفاع على اسعار السلع في كل المخازن

ولذلك اطلق اسم «Russen» («روسية») - او للاسف ! -

«Narren-Preise» («اسعار الحمقى») على هذه الاسعار المرتفعة .

(ملاحظة المؤلف) .

أقبلت عليه جيما في غبطة لا شك فيها ، واستقبلته فراو لينوري بأعظم ترحيب : كان واضحا انه ترك في نفسيهما اثرا طيبا امس ، وقبل ان يجري اميل ليوصي باعداد الفطور ، همس في اذن سانين قائلا : « لا تنس ! » ، فأجاب سانين : « لن أنسى ! »

كانت فراو لينوري متوعكة الصحة ، تشكو صداعا ، وتسترخى في مقعدها من دون حركة ؛ وجيما تلبس بلوزة صفراء ، وتشد خصرها بزئار أسود من الجلد . كانت تبدو متعبة ايضا ، يكسو وجهها بعض الشحوب ، وتحت عينيها ظل من السواد ، ولكن بريقهما لم يكن اقل ، بل ان الشحوب قد اضفى على قسمات وجهها ذات الطابع الكلاسيكي شيئا من الغموض والعدوبة . وكان سانين في هذا اليوم بالذات مأخوذا بهذا الجمال المنساب من كفيها ، كلما رفعتها ترد خصلاتها اللامعة او لتسويها - لم يكن قادرا على ان يحول بصره عن أصابعها الرشيقة الطويلة المتباعدة بعضها عن بعض مثل فورناريناً * كما رسمها رافائيل .

كان الحر شديدا في فناء الدار ، فأراد سانين ان ينصرف بعد الفطور ، ولكن القوم أشاروا بأن خير ما يفعله المرء في مثل هذا اليوم القائظ ان لا يتحرك من مكانه ، فوافق ونزل . كانت الغرفة الخلفية التي جلس فيها مع مضيفيه تمتاز بشيء من لطف الجو ؛ تطل نوافذها على حديقة صغيرة مزروعة بشجيرات الاكاسيا ، المكسوة بالازهار الذهبية حيث اجتمعت في خمائلها أسراب النحل والدبابير والصرابير ، وانتشرت في طنين متصل كان يتسرب الى الغرفة من صفق

* فتاة بائسة أحبها رافائيل وأبرز ملامحها في كثير من لوحاته . في قصر بربريني بروما لوحة بهذا الاسم ، ولكنها نسخة منقولة أصلها المفقود . (المترجم) .

النافذة الموارب ، ومن خلال الاستار المسدلة ، فكانه ينبيء
بما يسيل في الخارج من القيظ ، وان الاستقرار في منزل
مغلق مريح أحلى من العسل .

تحدث سائين كثيرا كما فعل أمس ، ولكنه لم يتحدث
عن روسيا ولا عن الحياة الروسية . لقد تمنى ان يرضى
صديقه الشاب الذي أرسل بعد الافطار مباشرة الى السيد
كلوبير ليتمرن على اعمال المحاسبة ، فدفع الحديث دفعا الى
الموازنة بين ما يفيد وما لا يفيد في كل من الفن والتجارة .
ولم يدهشه ان فراو لينوري وقفت الى جانب التجارة فقد
توقع ذلك منها ، ولكن جيما كانت ايضا متفقة مع امها في
الرأى :

— حينما تكون فنانا ، ومغنيا على الخصوص — أكدت
هذه الكلمة بحركة حماسية من يدها من أعلى الى أدنى — فلا
بد أن تكون في المقام الاول ! ولا يليق المقام الثاني ابدا ،
فمن يدري ، هل تستطيع ان تستأثر بالمقام الاول ؟
كان بانتاليوني يشترك في الحديث (سمح له بالجلوس
على مقعد في حضرة السادة باعتباره خادما قديما وشيخا
عجوزا ، ثم ان الطليان بعامة لا يتشددون في الرسميات) .
وصمد بانتاليوني كالجبل في دفاعه عن الفن ، ولكن الحجج
التي أدلى بها لم تكن مما يعتدّ به كثيرا ، فقد اعتمد في اكثر
دفاعه على القول بأن المفروض في الفنان ان يتمتع قبل كل
شيء — *d'un certo estro d'ispirazione* — بنفحة من
الالهام ! فلاحظت فراو لينوري قائلة بأنه كان يتمتع ايضا
بهذا «estro» ولكنه مع ذلك ... فأجاب بانتاليوني في
جفوة :

— كان لي أعداء .

— ولماذا تعرف أنت (الطليان يستعملون ضمير المفرد
بسهولة) ان اميل لن يكون له أعداء حتى حين يكتشف لديه
هذا «estro» ؟

فأجاب بانتاليوني غاضبا :

– هيا اذن ، اعلمي منه تاجرا ، ولكن ما كان جيوفاني
باتيستا ليفعل هكذا على الرغم من انه بالذات كان حلوانيا !
– جيوفاني باتيستا ، زوجي ، كان انسانا عاقلا ، ولو
انه في صباح شغف . . .

ولكن الشيخ كان قد عزف عن الاصغاء فخرج وهو يكرر
في عتاب :

– آ ! جيوفاني باتيستا !

واندفعت جيما الى القول لو ان اميل كان يشعر مواطنا
بان عليه ان يحشد قواه جميعا من اجل تحرير ايطاليا ،
فان هذه الغاية السامية المقدسة تستحق ولا شك ان يضحى
بمستقبله الرخي في سبيلها ، ولكن ليس في سبيل المسرح !
هنا ظهر القلق على فراو لينوري ، فأخذت تتوسل الى ابنتها
ان لا تضلل أهاها على الاقل ، وتكتفي هي بان تكون تلك
المتحمسة للجمهورية ! وما إن انتهت من قولها حتى
اخذت تتأوه وتشكو من رأسها الذي « يوشك ان ينفجر »
(كانت فراو لينوري تخاطب ابنتها بالفرنسية مجاملة
للضيف) .

وأسرعت جيما من فورها الى العناية بها ، فكانت تنفخ
على جبينها في هدوء ، وتبلله بماء الكولونيا ، وتقبل خديها
في رقة وتمهد وضع الوسادة تحت رأسها ، وتوصيها بالصمت
عن الكلام ، ثم تعود الى تقبيلها ؛ والتفتت اخيرا تروي على
سائين ما كانت عليه أمها من الجمال والفتنة ، واستدركت
قائلة : « لماذا اقول كانت وهي الآن ساحرة ! انظر ما افتن
عينها ! »

واختطفت جيما من جيبها منديلا أبيض غطت به وجه
أمها ، ثم أخذت تسحبه من طرفه في بطء الى اسفل ، فكان
جبينها يبرز شيئا فشيئا ، ثم برز حاجباها ، ولما ظهرت عينا
فراو لينوري ، انتظرت جيما لحظة ، ثم طلبت الى أمها ان
تفتح عينها ، فأطاعت الام ، وعندئذ صرخت جيما صرخة
افتتان (كانت عينا فراو لينوري جميلتين جدا ولا شك) ثم

أزلقت المنديل بسرعة الى اسفل حيث ظهر جزء من وجه
امها اقل تناسقا مما عداه ، وعادت تقبلها من جديد .
طفقت فراو لينوري تضحك وهي تصطنع مدافعة ابنتها عن
نفسها ، وكذلك اخذت جيما تصطنع المقاومة وتمسح بأماها
اثناء ذلك ، ولكن بحركات لا تشبه تغنج الققط ، ولا تشبه
التشخيصات الفرنسية ، ولكنها في تلك الرشاقة الايطالية التي
تنطوي دائما على الشعور بالقوة .

أعلنت فراو لينوري اخيرا أنها متعبة . . . فنصحت لها
جيما بأن تغفو قليلا حيث هي على مقعدها ، - وسنبقى انا
والسيد الروسي - * «avec le monsieur russe» - هادئين
هادئين . . . مثل فأريين صغيرين . . . - «comme des
petites souris» * - فأجابتها فراو لينوري بابتسامة وهي
تغمض عينيها ، وبعد ان تنهدت قليلا ، أخذت تهوّم ،
فانزلقت جيما على المقعد اللاصق بمقعد امها ، وجلست
ساكنة لا تند عنها حركة الا فيما ندر - كانت تضع سبابتها
على شفيتها ، وتسند الوسادة تحت رأس امها بالثانية -
وتهمس لسانين بصوت خافت : «هس» وهي ترمقه بجانب
عينيها حينما تند عنه حركة ولو ضئيلة . وانتهى ذلك كله
بسانين الى التجمد عن الحركة ، والجلوس كالمسحور ،
والاتجاه بكل روحه وقلبه الى النظر في اعجاب الى هذه اللوحة
التي تعرض عليه في هذه الغرفة المعتمة ، حيث تتألق هنا
وهناك ازرار الورد الحمراء وتطل من اكماتها الناضرة المؤنقة
في كؤوسها الخضراء العتيقة ، وهذه المرأة النائمة بيديها
الملمومتين في تواضع ، ووجهها الطيب المتعب ، تؤطره
وسادة في بياض الثلج ، وهذه الصبية اليقظة الحساسة ، وهي
الى هذا طيبة ذكية طاهرة ، ولا جدال في انها مخلوق رائع

* بالفرنسية .

** بالفرنسية .

فوق الوصف بعينيها السوداوين العميقتين اللتين تتلألآن على
الرغم من هذه الظلال الوظفاء التي تغمرهما . ما هذا ؟ أهو
حلم ام حكاية ؟ وكيف وقع هو نفسه هنا ؟

١١

رن الجرس المعلق في الباب الخارجي ، ودخل الدكان فتبي
من الفلاحين ، بقبعة من الفرو ، وصدار احمر ، لم يكن قبله
اي زبون قد دخل الدكان منذ الصباح . . .
— على هذه الصورة نحن نتعاطي التجارة ! — تنهدت
فراو لينوري وهي تخاطب سائين اثناء الافطار . وعادت الى
تهويمها .

تهيبت جيما ان تسحب يدها من تحت الوسادة ، فهمست
الى سائين قائلة : « دبر الامر هناك بدلا مني ! »
فقام سائين يسعى الى الدكان على اصابع قدميه كي يعطي
الفتي مطلوبه وهو ربع رطل من اقراص النعناع ، وهمس
من خلال الباب الى جيما :
— كم يطلب منه ؟
فاجابت هامسة مثله :
— ستة كريتزورات * !

وزن سائين ربع رطل ، وانتقى ورقة جعلها على شكل
مخروط ، وما كاد يضع فيه الاقراص حتى سقطت ، فأعادها
الى الورقة ، ولكنها تبعثرت من جديد ، وأخيرا أعطاه الفتي ،
وقبض منه النقود . . . كان الفتي يراقبه في دهشة وهو يعتصر
قبعته على بطنه ، وفي الغرفة المجاورة ، كانت جيما تشد
بيدها على فمها وهي تكاد تموت من الضحك ؛ وما ان ذهب
هذا الزبون حتى جاء زبون آخر ، ثم ثالث . . . فقال سائين
في نفسه : « لا بد أن يدي مباركة » . طلب الزبون الثاني
كأساً من عصير اللوز ، وطلب الثالث نصف رطل من السكاكر ،

* نقود المانية . (المترجم) .

فاقبل سانين يلبي ما طلباه ، وارتفع رنين الملاعق ، ونقل
الاطباق ، وكان يدس اصابعه في الصناديق والمرطبات من
دون تهيب ، وظهر له بعد الحساب انه تقاضي في عصير اللوز
أقل من سعره ، وأخذ في السكاكر زيادة بلغت كريتزورين ،
ولم تنقطع جيما عن ضحكها المكتوم ، بل ان سانين نفسه
كان يستشعر مرحا يزيد عن المألوف ، ونفحة من السعادة
العارمة تسري في روحه ، وخيل اليه انه يستطيع ان يبقى
قرنا من الزمن وراء هذه المنصة يبيع السكاكر وعصير اللوز ،
بينما هذه المخلوقة الجذابة تنظر اليه من وراء الباب بعينيها
المعابثتين ، وشمس الصيف تتدفق في الظهيرة من خلال فروع
الكستناء الكشيفة النامية قرب النافذة وتملأ الغرفة كلهسا
بذهب الاشعة المحضوضر وبالظلال ، وقلبه الهاني يحس
تراخيا عذبا وفراغا من الهموم ، ويحس بالشباب - بفورة
الشباب الاولى .

طلب الزبون الرابع فنجانا من القهوة فاضطر سانين ان
يدعو بانتاليوني (لم يكن اميل قد عاد من مخزن السيد كلوير
حتى تلك اللحظة) . وجلس سانين الى جنب جيما من جديد ،
كانت في فرح عظيم لان امها مستغرقة في قيلولتها ، وقالت
لسانين في همس :

— ان الصداح يزول عن امي في اثناء النوم .

وحدثها سانين - في همس كما من قبل - عن «تجارته» ،
واستعلم منها في جد عن اسعار الحلويات ، فأجابته جيما
بنفس لهجته الجدية عن هذه الاسعار ، وكانا في سرية والفة
كأنما يدركان انهما يمثلان دورا في تمثيلية كوميدية مرحة
للغاية . وفجأة ارتفع في الشارع صوت «شارمانكا» * وهي
ترسل اغنية من اوبرا «فريشيوتس» . «Durch die Felder,
durch die Auen. . .»* وانبعثت النغمة رنانة نائحة ، تهتز

* آلة موسيقية تدار باليد . (المترجم) .

** «خلال السهول ، خلال الوديان . . .» (باللغة الالمانية) .

في الهواء الساكن وتصفر ، ففزعت جيما . . . «سيوظ
أمي !» ، فأسرع سائين الى الشارع ، وفرك كف الرجل
ببضعة كريتزورات ، وأجبره على أن يصمت ويبتعد عن هذا
المكان . ولما عاد ، شكرته جيما بايماءة خفيفة من رأسها ،
وأخذت تدنّ بصوت يكاد لا يسمع الا قليلا ، متذكرة وهي
تبتسم ، تلك المقطوعة من موسيقى فيبر التي يعبر فيها
ماكس عن حيرته من أحاسيس الحب الاول . ثم سألت سائين
عما اذا كان يعرف «فريشيوتس» ويحب مؤلفها فيبر ،
واضافت انها على الرغم من اصلها الايطالي تسيغ دفء الموسيقى
اكثر مما تسيغ غيرها . ثم تفرغ الحديث من فيبر الى الشعر
والرومانسية ، الى هوفمان ، وكان دارجا بين القراء حتى في
ذلك الزمان . . .

اما فراو لينوري فقد بقيت نائمة طوال هذا الوقت ،
بل انها شخرت قليلا ، وضوء الشمس يرسل من صفق النافذة
خيوطا رفيعة تكاد لا ترى ، ولكنها في تدفقها الدائم ، تنتقل
مناسبة على الارض والاثاث ، وعلى فستان جيما واوراق
الازهار واكمامها .

١٢

كان الواضح ان جيما لا تشعر بالميل الى هوفمان ، بل
انها تراه . . . مملا ! فان الطابع الضبابي في خيال ابناء
الشمال ، وهو الطابع الغالب في قصصه ، كان مستغلقا على
طبيعتها الجنوبية وفطرتها . لقد اكدت باستخفاف : «ان
كل ذلك حكايات كتبت جميعا للاطفال !» ، واحست كذلك ،
ولو بصورة غامضة ، غياب الشاعرية عند هوفمان بل ان
قصة واحدة من قصصه نسيت اسمها ، قد اعجبتها جدا ، او
الاصح انها اعجبت ببدايتها التي لا تذكرها ، اما نهايتها
فانها لا تدري هل أهملت قراءتها ام قرأتها ونسيتها . تدور

أحداث القصة حول شاب يلتقي فتاة في موضع يبدو انه
دكان حلوى ، والفتاة يونانية رائعة الجمال يرافقها شيخ
غامض شرير . ويحب الشاب هذه الفتاة من اول نظرة ،
فتبادله هي نظرة حزينة كأنها تتوسل اليه ان يحررها .
ويخرج الشاب لحظة ثم يعود فلا يجد اثرا لا للفتاة ولا
للشيخ ، فينطلق في طلبهما ، وكلما لاح له اثر جديد ذهب
وراءه لعله يلقيهما ، ولكنه أخفق في العثور عليهما بأي
صورة او وسيلة . لقد اختفت الحسنة الى الابد ، وتعذر
عليه طوال حياته ان ينسى نظرتها المتوسلة ، وبقي معذبا
بهذه الفكرة ، وهي ان سعادة العمر قد انزلت من يديه ...
من المشكوك فيه ان هوفمان وضع لقصته هذه الخاتمة ،
ولكن جيما تصرف بها على هذا النحو ، وهكذا استقرت في
ذاكرتها .

واضافت :

— اعتقد ان امثال هذا اللقاء وهذا الفراق تحدث في
العالم اكثر مما نتصور .

بقي سائين صامتا ... ثم أخذ بعد ان أمسك قليلا عن
الكلام يتحدث عن ... السيد كلوير ، وهذه اول مرة يتذكره
فيها ، فانه لم يخطر بباله حتى هذه اللحظة .

صمتت جيما بدورها ، وطفقت تفكر في هدوء وهي تقضم
ظفر سبابتها وتحدّ النظر الى ناحية ، ثم أخذت تمدح
خطيبها ، وأشارت في حديثها الى رحلة الغد التي اعدّ العدة
لها ، ثم عادت الى الصمت بعد ان اختلست نظرة سريعة
الى سائين .

لم يعرف سائين عمّ ينبغي له ان يتحدث ، فكان في غاية
السرور حينما اندفع اميل الى الغرفة في ضوضاء فايقظ
فراو لينوري ...

نهضت فراو لينوري عن المقعد عندما ظهر بانتاليوني
ليعلن ان الغداء جاهز ، ذلك ان صديق الاسرة ، المغني
بالامس والخدام اليوم ، كان يقوم ايضا بوظيفة الطاهي .

بقي سائين بعد الغداء ايضا ؛ استبقاه مضيفوه متذرعين بالحر المخيف ، ولما انفثا الحر في الاصيل دعوه الى شرب القهوة في الحديقة تحت ظلال الاكاسيا ، فوافق سائين . كان يشعر بانه في حالة طيبة ، فان الحياة تنطوي على فتنة عظيمة في تواترها الهادي وجريانها المطمئن ، وقد استسلم سائين الى لذاة تلك الفتنة ، فلا يطلب شيئا معيناً من يومه الحاضر ولا يفكر بهموم الغد ولا يستعيد ذكريات الامس . وأي نعمة أغلى من هذا التداني المجرد مع فتاة مثل جيما ؟ انه سيفارقها عما قريب ، ولعله فراق الابد ، ولكن الزورق المسحور الذي وصفته اغنية أولاند* العاطفية ما يزال نفسه حتى الآن يحملهما في مجرى حياة مروضة التيار- فاسعد وتمتع يا أيها السائح ! فكل شيء يبدو له سائفا جذابا . عرضت عليه فراو لينوري مبارزة يشترك فيها بانتاليوني بلعبة « التريستو » ، وعلمته هذه اللعبة الايطالية البسيطة من العاب الورق ، وقد ربحت منه بضعة كريتزورات فكان في غاية الرضى ؛ واستجاب بانتاليوني لرجاء اميل ، فحمل الكلب تارتاليا على ان يعرض كل العابه ، فقفز على العصا ، و « تكلم » ، اي انه نبح وعطس ، واغلق الباب بانفه ، وحمل الى صاحبه حذاءه المفلطح- ثم وضعت على رأسه قبعة « كيفر » * * قديمة ، ومثل دور الماريشال برنادوت وهو يواجه من الامبراطور نابليون حملة عنيفة من التائب تلقاء خيانتة . وطبيعي ان بانتاليوني كان في دور نابليون ، وقد مثله بدقة وأمانة : صلب يديه على صدره ، وكبس قبعته المثلثة حتى عينيه ، وأخذ يتحدث ، على نحو خشن قاطع

* اولاند لودفيغ (١٧٨٧-١٨٦٢) شاعر غنائي الماني .

* * قبعة عسكرية بولونية من الجلد مزينة بالريش .

(المترجم) .

لاذع بالفرنسية ، ولكن رباه ! بأي لغة فرنسية ! اما الكلب
نارتاليا فقد ألقى أمام مولاه خاشعاً مرتبكا منكمش الذيل ،
وهو يطرف بعينيه ، شعوراً بالخجل واعتراضاً بالذنب ، او
توصوص بهما من تحت القبعة المائلة على رأسه ؛ وكما
رفع نابليون صوته بين الحين والآخر ، كان برنادوت يقف
مستقيماً على قائمته الخلفيتين ، واخيراً صرخ نابليون
- «Fuori traditore!»* - كأنما أخرجه الغضب عن طوره
فنسي ان موقفه يقضي بأن يستمر الى النهاية محتفظاً بمزاجه
الفرنسي ، فاذا برنادوت يندفع من غير تبصر ويرمي بنفسه
تحت الاريقة ، ولكنه عاد من مخبئه في اللحظة نفسها وهو
ينبح جذلاً مغتبطاً كأنما يريد ان يعلن للحاضرين ان العرض
انتهى . لقد ضحك المتفرجون كثيراً ، وضحك سائين اكثر
مما ضحكوا جميعاً .

كان لجيما ضحكة لطيفة ، متصلة ، خافتة ، مانوسة
برنين خفيف عذب . . . وقد خلبت سائين بهذه الضحكة حتى
لقد تمنى ان يقبلها من اجل رنينها المانوس !
ثم هبط الليل ، واصبح من حسن الذوق ان ينصرف ،
فقام يودع مضيفيه واحداً واحداً ، ويردد لكل منهم قوله : الى
الغد ! (حتى انه قبل اميل) ثم ذهب الى مسكنه حاملاً في
نفسه صورة الفتاة الصبية ، فهي ضاحكة ، او مفكرة ، او
هادئة ، او حتى غير مكترثة ، ولكنها في كل حالاتها فاتنة !
كانت عينها تفتحان على رجبها تارة ، فهما مشرقتان
كالنهار ، او تسترخيان تارة اخرى في ظل اهدابها الوطف ،
فهما عميقتان مظلمتان كالليل . هكذا مثلت عينها امام عينيه ،
نافذتين في غرابة وعدوبة من خلال مختلف الصور والاضاع .
اما عن السيد كلويير ، وعن دواعي بقائه هو في
فرانكفورت - فانه على الجملة ، لم يفكر بكل هذا ، ولا بكل
ما كان يقلقه امس ولو مرة واحدة .

* «اغرب عن وجهي ايها الخائن» ! (بالاطالية) .

ولكن يجب علينا ان نتحدث ببضع كلمات عن سائين بالذات .

اولا- كان جذابا في غاية الجاذبية ، ممشوق القامة أهيفها ، ملامحه لطيفة ولكنها مهزوزة قليلا ، شعره ذهبي ، وعيناه وديعتان مكحولتان بالزرقة ، وبياضه الناصع مشرب بالحمرة - والأهم : أن ملامحه تفيض بالبساطة وطيب السريرة ، مع صراحة توحى للوهلة الاولى بانه ساذج . مثل هذا الوجه كان يحملك في الماضي على التسليم من فورك بأن صاحبه ولد من أولاد الذوات ، سليل أسرة محافظة ذات حسب ونسب ، «ابن ابيه» ، فهو فتى طيب ، ولد وترعرع في رحابنا الطليقة التي يقتسمها السهل والغابة ، مشيته متعثرة ، وفي صوته نبرة ، ما تكاد تنظر اليه حتى يبتسم كالطفل ... فهو في الجملة كل الطراوة والنضارة والصحة والنعومة ، كل النعومة ، هذا هو سائين . ولكنه ، ثانيا - لم يكن بليداً ، ولا فارغا من بعض ما جمع واستوعى ، حافظ على طهارته ونضارته على الرغم من تنقله خارج الحدود ، اما الاحاسيس المقلقة التي تسرق خيرة شباب اليوم فما كان يعرف منها الا قليلا .

بعد اخفاق ادبنا مؤخرا في العصور على «البشر الجدد» بدأوا يخرجون طرزا من الشباب ممن يبذلون كل ما في وسعهم ليحافظوا على نضارتهم ... وهي نضارة تشبه اصداق فليينزبورغ التي تستورد الى بطرسبورغ ... لم يكن سائين يشبه هؤلاء . فاذا ذهبنا الى التشبيه والمقارنة ، فان سائين يذكر بفرع غض من فروع التفاح طعم منذ وقت قريب في تربة حدائقنا الخصيبة - او انه في احسن الحالات : مهر من المهار المدللة ، ناعم الجلد ، سمين القوائم ، رقيق ، في عامه الثالث ، ترعرع في اسطبل سيد من «اصحاب الاسطبلات» ، ولا يزال رسن الترويض جديدا عليه ... اما

الذين رأوا سائين فيما بعد ، حينما صوّحت الحياة وبدلته
تبديلاً وأذبلت لحمه المكتنز بالشباب ، فقد رأوا فيه امرأ
يختلف كل الاختلاف عن ذلك الانسان .

في اليوم التالي كان سائين لا يزال راقداً في فراشه حينما
اقتحم اميل عليه الغرفة ، وهو في حلة العيد ، في يده عصا
انيقة ، وفي زينته اسراف شديد ، وأنباءه ان الهر كلوبير
قادم اليه بالعربة ، والطقس يعد بأن يكون مدهشاً ، وان
كل شيء لديهم جاهز ، ولكن ماما لن تذهب معنا ، لان
رأسها يؤلمها من جديد . ثم اخذ يستعجل سائين ويحثه على
ان لا بضيع دقيقة واحدة . . . أكيد ان الهر كلوبير وصل
قبل ان يتم سائين زينته . طرق الباب ، وانحنى بجذعه ،
وأبدى استعداده للانتظار مقدار ما يلزم - ثم جلس ، ووضع
قبعته على ركبته في اناقة . كان البياع في أبهى منظر ، فهو
يلمع من شدة الغندرة ، تفوح منه رائحة عطر نفاذة : كل
حركة من حركاته ترافقها دفقة قوية من العطر . جاء في عربة
مكشوفة فارهة مما كان يطلق عليه اسم «لاندو» ، استقرت
وراء حصانين ضخمين قويين ولكنهما عاطلان من الجمال .
بعد ربع ساعة كانت عجلات هذه العربة تخب في أبهة ،
حاملة سائين وكلوبير واميل الى دكان الحلوى . هناك رفضت
السيدة روزيلي بكل قوتها ان تشارك في هذه الرحلة ،
فأرادت جيما أن تبقى مع أمها ، ولكن أمها ذادتها عن نفسها
وقالت في ثقة :

— لست في حاجة الى أحد ، فاني سانام ، لقد أردت ان
ارسل معكم بانتاليوني ايضاً ، ولكن الدكان ما فيه احد .

وسألها اميل :

— هل تستطيع ان آخذ تارتاليا ؟

— تستطيع ولا شك .

لم يبطى تارتاليا فاندفع في جدل يتسلق العربة ويجلس
في موضع السائق وهو يلمظ بلسانه ، وكان واضحاً انه متعود

على مثل هذه الرحلة . وكانت جيما تضع على رأسها قبعة واسعة من القش ، ذات شريط بني ، التوت حافتها من امام الى أسفل فأخفت وجهها ، ووصل ظلها حتى شفيتها : وكانت شفاتها تفيضان بالحمرة والطراوة والرقّة كما تكون براعم الورد ، وأسنانها تلمع في استخفاء وبراءة مثل براءة الاطفال . وكان مجلسها في مقعد الصدر الى جنب سانين ، وجلس كلوبير واميل في المقعد المقابل ، ولما ظهر هيكل فراو لينوري الابيض من خلال النافذة ، لوححت جيما لها بمنديلها ، وانطلق الجوادان .

١٥

سودين - بلدة غير كبيرة تقع على مسافة نصف ساعة من فرانكفورت ، وترقد في منطقة جميلة في أذيال جبل ناؤونوس ؛ مشهورة عندنا في روسيا بمياهها التي يقال انها مفيدة للمصدورين . اكثر ما يقصدها اهل فرانكفورت للفسحة ، لأن في هذه البلدة حديقة غناء ، فيها مختلف المقاصف التي تقدم البيرة والقهوة تحت ظلال أشجار الزيزفون والاسفندان العالية . والطريق من فرانكفورت الى سودين يمتد على ضفة نهر الماين اليمنى ، وكله مغروس بأشجار الفاكهة . كانت العربية تدرج في هدوء خلال طريق رائع ، وسانين يراقب في الخفاء كيف تعامل جيما خطيبتها : فهو اول مرة يراها مع مجتمعين . اما هي ، فقد احتفظت بهدونها وبساطتها ولكن مع مقدار يزيد على المعتاد من الانطواء والجد ، وأما هو ، فكان ينظر في تسامح الوصى الذي سمح لنفسه ولمن في معيته بشيء من المتعة المتواضعة المهدبة . ولم يلحظ سانين انه يخص جيما بتلك الاهتمامات التي يسميها الفرنسيون * «empressement» . كان واضحا ان الهر كلوبير يحسب هذه القضية منتهية ، فلا يرى ما يدعوه

* اهتمامات حميمة (بالفرنسية) .

لهم او القلق ؛ ولكن التسامح لم يفارقه لحظة ! فحتى قبيل الغداء ، اثناء الجولة الكبيرة خلال الغابات الجبلية والوهاد المحيطة ببلدة سودين ، وفي وقت الاستمتاع بجمال الطبيعة ، كان يخصصها في هذه الطبيعة نفسها بكل تسامحه ، وقد ينفذ هذا التسامح في بعض الاحيان من خلال صرامته الآمرة النهائية . مثلا : لاحظ على ساقية من السواقي انها تجري في وهدة تزيد استقامة عما ينبغي ، بدلا من ان ترسم بعض الالتواءات العفوية ؛ واستهجن سلوك طائر - من الحساسين لأن تغريده يفتقر الى شيء من التشكيل والتنويع ! لم يبد على جيما انها تشعر بالسأم ، بل كانت تبدو راضية مغتبطة ، ولكن سانين لم يرها كما عرفها : وما ذلك لان موجة من الظل طغت عليها ، فان جمالها لم يتلأأ كما تملأ في هذا الحين ، ولكن نفسها انطوت في قرارة ذاتها . فتحت مظلتها من غير ان تنزع قفازيها ، وذهبت تتفسح في مظهر رصين وخطوات وئيدة كما تتفسح البنات المثقفات ولا تتكلم الا قليلا . وقد أحس اميل ايضا بالخجل ، فكيف سانين . كان يزيد ارتباكا ان الحديث في هذا الظرف يجري بالالمانية . اما تارتاليا فانه الوحيد الذي لم يكتب ولم يمل ! كان يجري وراء ما يصادفه من الشحارير ، وهو يهر وينبح من غير انقطاع ، ويقفز فوق الحفر ، وفوق جذور الاشجار وبقايا جذوعها ، ويرمي بنفسه في الماء ، ويلعق قطراته في سرعة ونهم ، ويهز جسمه وهو ينبح ، ويطوح لسانه الاحمر الى كتفه من جديد . وعمل السيد كلوبير من ناحيته كل ما ارتأى انه باعث على المرح ، فعرض عليهم ان يجلسوا في ظل شجرة بلوط كثيفة الاغصان ، ونسل من جيبه كتيبا يسمى « Knallerbsen - oder du sollst und wirst lachen! » (« متفجرات * - او يجب ان تضحك وستضحك ! ») وبدأ يقرأ بعض النوادر الطويلة المفصلة التي امتلأ بها الكتاب فقرأ حوالي اثنتي

* المقصود هنا ما يؤدي الى تفجير الضحك .

عشرة نكتة ، ولكن المرح الذي اشاعته كان قليلا . ما عدا
سانين فانه طفق يكشر عن أسنانه من باب المجاملة ، وكان
السيد كلوبير نفسه يصدر بعد كل نكتة ضحكة قصيرة
لازمة مع انها متسامحة ايضا . وفي الساعة الثانية عشرة
عادت الجماعة الى سودين ، وقصدوا الى احسن نزل في
البلدة .

ثم حان الوقت للايعاز بتحضير الغداء .

كان من رأى السيد كلوبير ان يكون الغداء في عريش
محتجب من كل جانب - *«im Gartensalon» ، ولكن جيما
اعترضت فجأة على هذا ، واعلنت انها لن تتغدى الا في الهواء
الطلق ، في الحديقة ، على احدى الموائد الصغيرة الموضوعة
امام النزل ، لأنها سئمت ان تكون مع نفس الناس ونفس
الوجوه ، وتريد ان ترى الى غيرهم . وكانت جماعات من
الضيوف قد وصلت وجلست الى بعض الموائد .

ومع هذا أذعن السيد كلوبير «لأهواء خطيئته» ، وذهب
لبحث الامر مع النادل ، ووقفت جيما من غير حركة ،
مسترخية العينين مطبقة الشفتين . كانت تشعر بأن سانين
يلح عليها بنظراته المتسائلة - ويبدو ان ذلك أغضبها .
وأخيرا عاد الهر كلوبير وأعلن ان الغداء سيكون جاهزا بعد
نصف ساعة ، وارثأى ان يقضوا هذا الوقت في لعب القناني
الخشبية ، وأضاف ان ذلك مفيد لتحسين الشهية خه - خه -
خه ! ولعب بمهارة المعلم ، اتخذ اثناء قذف الكرة وضع
فتوة تصنع العجائب ، فارقص عضلات يديه ، وتأرجح
متغندرا على ساق واحدة . كان عتلا على طريقته ، رائع
الجسم ! ويدها ايضا كانتا رائعتين وكذلك منديله الذي كان
يمسح به يديه ، فانه من الحرير الهندي الثمين المطرز
بالنقوش المذهبة !

ثم حانت لحظة الاكل فجلست الجماعة الى المائدة .

* صالة في الحديقة . (بالالمانية) .

هل يجهل احد ما هو الغداء الالمانى ؟ انه حساء مائع ، فيه حبات من العجين والقرفة ، وقطع من اللحم ممزقة من طول الغلي ، جافة مثل الفلين ، يعلق بها الدهن الابيض ، ومعها قطع ملساء من البطاطا ، وشيء من الشوندر المنفوخ والفجل الحار . ثم قطعة مزرققة من السمك تسبح في الخل والخردل ، ولحم مقلي مع مربى ، ولا مفر بعد هذا من «Mehlspeise» وهي شيء من قبيل الخشاف ذو مرق احمر وطعم حامض قليلا ؛ تلقاء هذا كان النيذ والبيرة غاية ما هناك ! هذا هو الغداء الذي قدمه النادل «السويدي» الى ضيوفه . لقد مرّ الغداء بسلام ولكن للحقيقة انه كان من دون بهجة ، ولم تظهر هذه البهجة حتى حين شرب الهر كلويير وهو يهتف بصحة « ما نحب ا » («Was wir lieben!»,). وكان كل شيء يجري في غاية الاحتشام والتهديب . ثم قدمت القهوة بعد الغداء ، فكانت مائعة مصفرة - او بصراحة ، كانت قهوة ألمانية . وطلب السيد كلويير من جيما ، كما يكون الفارس الحقيقي ، ان تسمح له بتدخين سيكارة ... ولكن حدث فجأة أمر لم يكن في البال ولا في الخاطر ، وهو على التحديد حادث مكرر ، بل حادث فظيع !

كان يحتل احدى الموائد المجاورة بعض الضباط من حامية الماين ، وكان يلحظ بسهولة من نظراتهم وهمساتهم ان جمال جيما أذهلهم . بينهم واحد يبدو انه من رواد فرانكفورت ، فكان لا يرفع نظره عنها ، كأنه يعرفها كل المعرفة ، او لعله فيما يبدو يعرف من تكون . وفجأة هب هذا الضابط واقفا ، وكأسه في يده - كان السادة الضباط قد أسرفوا في الشرب ولا يزال على مائدتهم كثير من الزجاجات - واقترب من المائدة التي تجلس جيما اليها . كان شابا صغير السن ، اشهب الشعر ، على قسط من حسن المظهر ، ومن جمال الملامح ايضا ، ولكن السكر شوه هذه الملامح ، فكان

خداه المختلجان ، وعيناه الزائغتان المؤرقتان ، تضفي عليه مظهرا شائها سليطا . حاول رفاقه ان يمنعوه اول الامر عما هو مقدم عليه ، ولكنهم ما لبثوا ان تركوه : وليكن ما يكون - فماذا سيحصل من هذا ؟

وقف الضابط أمام جيما وهو يترنح قليلا على ساقيه ، وصرخ بصوت مرتفع انفلت من دون ارادته اثناء صراع قام في داخل نفسه ، فقال : « اشرب على صحة أجمل صاحبة مقهي في كل فرانكفورت وفي كل العالم (و« بلح » الكأس دفعة واحدة) - وتعويضا عن كل عطل وضرر آخذ هذه الزهرة التي قطفتها اناملها الالهية ! » واخذ الوردة الملقاة على المائدة قرب صحن جيما . اعترتها الدهشة اول الامر ، ثم اعترها الخوف ففرّ لونها . . . وما لبث خوفها ان صار الى اشمزاز ، فاحمرت فجأة حتى منابت شعرها ، واسلطت عينها على هذا المتهجم السليط ، وغامت عينها في الوقت نفسه واستطار منهما الشرر ، ثم اظلمتا وهما تتوقدان بلهب من غيظ أفلت من كل عقال . ولا بد ان الضابط تلبك من هذه النظرات ، فتمتم بشيء غير مفهوم ، وانحنى ، ثم استدار عائدا الى جماعته . وهناك استقبلوه بالضحك والتصفيق الخفيف .

عندئذ نهض السيد كلوبير عن المائدة في الحال ، واستقام على طول قامته ، ووضع قبعته على رأسه ، وقال بصوت وقور لا يتجاوز ارتفاعه حدود السمع : « هذا شيء لم يسمع بمثله ! وقاحة لم يسمع بمثله ! » (« Unerhörte! Unerhörte ») وفي اللحظة نفسها دعا اليه النادل بصوت صارم وطلب قائمة الحساب . . . ولم يكتف بذلك بل امر بأعداد العربية ، وأضاف ان كرام الناس ينبغي ألا يقصدوا هذا المكان ، لأنهم يلقون الاهانات ! كانت جيما لا تزال جالسة في مكانها وهي جامدة عن الحركة ، فلما نطق بهذه الكلمات أخذ صدرها يخفق ، واستدارت اليه بعينها ، واحدت اليه

النظر كما فعلت حين كانت تشزر الضابط . وكان اميل ينتفض
من الغضب . وقال الهر كلوبير بالصوت الصارم نفسه :
. - قومي يا «مايين فراولين» * ، هذا مكان لا يليق بك
ان تبقي فيه . سنذهب الى داخل المطعم !

قامت جيما صامته ، فثنى ذراعه وقدمه اليها فتأبطته -
فسار الى المطعم في تعاضم وخيلاء يزيدان كلما ابتعد عن
مائدة الغداء . وسار اميل المسكين يجر قدميه في اثرهما .
كان الهر كلوبير لا يزال يحاسب النادل ، وقد أمسك
يده عن البخشيش على سبيل العقاب فلم ينقده كريتزرا
واحدا . في هذه الاثناء كان سانين يذهب بخطوات مسرعة
الى المائدة التي يجلس اليها الضباط - وخاطب
الضابط الذي أهان جيما (كان في هذه اللحظة يطوف بالوردة
على رفاقه ليشموها بالدور) وقال بلسان فرنسي مبین :
- ان ما عملته الآن يا سيدي الكريم لا يليق برجل
شريف ، بل لا يليق بالزي العسكري الذي ترتديه ، وقد
جئت لأقول لك انك وقع فاسد التربية !

هب الشاب واقفا على قدميه ، ولكن ضابطا آخر اكبر
منه سنا أجلسه بحركة من يده ، ثم التفت الى سانين وسأله
بالفرنسية ايضا :

- ماذا ، هل انت قريب حميم لهذه البنت ؟ أخوها
أم خطيبها ؟

فصاح سانين :

- أنا غريب عنها قطعا ، فانا روسي ، ولكني لا
استطيع ان اقف مكتوف اليدين تجاه السفاهة . هذه هي
بطاقتي وعنواني حيث يستطيع السيد الضابط ان يجدني .
وأتبع قوله بأن رمى بطاقته على المائدة ، وانتزع في
اللحظة نفسها وردة جيما وكانت ملقاة في صحن احد الضباط
الجالسين ، فحاول الشاب ان يقوم مرة ثانية عن مقعده ،

* يا آنستي . (بالالمانية) . (المترجم) .

ولكن زميله أمسكه من جديد وهو يقول : «دونغوف ، الزم الهدوء !» («Dönhof, sei still») ونهض هو نفسه فرفع يده بتحية عسكرية ، وكان الاحترام باديا في هيئته وصوته حين قال لسائين بأن احد ضباط كتيبته سيكون له الشرف في ان يوافيه الى مسكنه . اجاب سائين بانحناءة مختصرة ، وعاد مسرعا الى جماعته ،

تظاهر السيد كلوبير بأنه لم يلحظ غياب سائين ولا الايضاح الذي رمى به السادة الضباط ، وأخذ يستحث الحوذي على الاسراع في شد الجوادين الى العربة ، وهو غاضب من بطئه . كذلك لم توجه جيما اي كلمة الى سائين ، بل انها لم تلتفت اليه : ولكن تقطيب حاجبيها ، وانطباق شفتيها ، وجمودها عن الحركة ، كانت تنبئ جميعا بما في حالتها النفسية من الكدر . كان واضحا ان اميل وحده يتمنى الحديث مع سائين . تمنى ان يستوضحه : فقد رآه يذهب الى الضباط ، ويدفع اليهم بشيء ابيض - لعله ورقة او رسالة او بطاقة كان قلب الفتى يخفق خفقا عنيفا ، ووجنتاه تشتعلان ، وكله استعداد للارتقاء على سائين ، والبكاء مقدار ما تسعفه الدموع ، او للذهاب معه في هذه اللحظة الى هؤلاء الضباط السفهاء ، ونتف زغبهم ووبرهم وتكسير عظامهم ! ولكنه امسك بزمام نفسه ، واكتفى بان ينظر في انتباه الى كل حركة تصدر عن صديقه الروسي النبيل . فرغ الحوذي اخيرا من شد الجوادين ، واستقرت الجماعة في العربة ، اما اميل فقد تسلقها الى مقعد الحوذي وراء تارتاليا : لقد شعر في هذا المكان بهدوء البال ، فما كان ليستطيع ان ينظر الى كلوبير بعدم اكرات ، فأثر ان يبتعد عن مجال نظره .

مض الهركلوبير يتشدد طوال الطريق . كان يتشدد وحده ، لا يعترض عليه احد ، ولا يوافق على كلامه احد

ايضا ، وكان يلف ويدور على الخصوص حول هذه النقطة ، وهي ان هذا الحادث المكدر ما كان ليحدث لو أنهم أصغوا الى نصيحته ولم يضيعوها سدى حينما اقترح ان يكون الغداء في العريش المحتجب . ثم ازجى بعض الآراء اللاذعة وحتى الليبرالية ، عن تسامح الحكومة مع هؤلاء الضباط وتهاونها في الرقابة على تقيدهم بواجبات النظام ، وعدم احترامها للعناصر المدنية في المجتمع (das bürgerliche Element in der Societät) ، وان هذا سيؤدي بمرور الزمن الى انفجار السخط ، وليس السخط بعيدا عن الثورة ، وان هذا المثل المؤسف (وزفر في حنان ولكن في صرامة ايضا) - قد يفضي الى المثل المؤسف الذي وقع في فرنسا ! ولكنه استدرك هنا ايضا بانه شخصيا عظيم الولاء للحكومة ، ولن يكون ثائرا قطعا ، . . . وابدأ ! . ولكنه لا يستطيع ان يحبس استنكاره تجاه هذه السفاهات ! ثم اضاف بضع ملاحظات عامة عما هو اخلاقي وغير اخلاقي ، وعن الاحتشام والشعور بالكرامة ! اثناء هذا «التشدد» كله لم يظهر على جيما شيء من الرضى تجاه السيد كلوبير ، كالحال التي كانت عليها خلال النزهة التي سبقت وقت الغداء - ولهذا احتفظت بشيء من التباعد عن سانين ، فكان وجوده زادها استحياء ، وكان واضحا انها اصبحت تشعر بالخجل لان لها هذا الخطيب ! وما اشرفت الفسحة على نهايتها حتى كان ضيق جيما شاملا ، ولكنها بقيت على تباعدها عن سانين فلا تبادله بالحديث ، وفجأة أرسلت اليه نظرة متوسلة . . . وكان يشعر من جهته ان شفقتة عليها أشد من غضبه على السيد كلوبير ، بل لعله شعر في السر بغبطة مبهمة تجاه ما حدث في هذا النهار على الرغم من الدعوة التي قد تنتظره في صباح الغد . وانتهى اخيرا عذاب * partie de plaisir هذه . وعند

* رحلة المرح (بالفرنسية) .

نزول جيما من العربية امام الدكان وضع سانين في يدها وردتها التي استردها من غير ان ينطق بكلمة ، فالتهمت بالاحمرار ، وضغطت على يده وهي تخفي الوردة في لمح البصر . لم يشأ ان يدخل البيت ، رغم ان المساء كان في لحظات بدئة ، ثم انها لم تدعه الى الدخول ، وزاد على هذا ان بانتاليوني ظهر في مدخل انباب ، وأعلن ان فراو لينوري أوت الى سريرها ؛ وأقبل اميليو على استحياء فودع سانين كأنه يلتمس الفرار منه : وهو شديد الاعجاب بهذا الانسان ؛ اما كلوير فقد اوصل سانين الى فندقه ، وانحنى يودعه في تأدب . ان هذا الالمانى المطبوع على الدقة كان يشعر بالارتباك على الرغم من كل ثقته بنفسه ، وكذلك كان شعورهم جميعا .

ولكن هذا الشعور - الشعور بالارتباك - تبدد عن نفس سانين بسرعة ، وصار الى شيء من الارتياح المبهم ، بل الى شعور بالغبطة ، وأخذ يذرع الغرفة وهو يصفر ، خلي البال من كل تفكير ؛ وكان راضيا عن نفسه .

١٧

« سانتظر السيد الضابط لتبادل الايضاح حتى الساعة العاشرة - قال هذا في نفسه وهو يأخذ زينته في صباح اليوم التالي - وعليه بعدها أن يبحث عني ! » . ولكن الالمان يستيقظون مبكرين ، فما كادت الساعة تدق التاسعة حتى دخل الخادم ليخبر سانين بأن الملازم الثاني (der Herr Seconde Lieutenant) فون ريختر يرجو رؤيته . أسرع سانين الى وضع سترته على كتفيه وأشار للخادم قائلا : « ليتفضل » . وعلى غير ما انتظر سانين ، كان الهر ريختر صغير السن ، بل انه يكاد يكون غلاما وقد أراد ان يكسب وجهه الأمرد طابع الخطورة - ولكنه أخفق ، بل أخفق حتى في اخفاء حيرته - فعندما جلس على الكرسي اوشك ان يقع متعثرا بسيفه ، ولم

يسعفه النطق فتلعثم وتأتأ وهو يعلن سانين بلغة فرنسية ركيكة بأنه قدم بناء على تكليف من صديقه البارون فون دونغوف ، وان الغاية من هذا التكليف هي دعوة السيد فون زانين الى الاعتذار عما فرط منه أمس من كلمات الالهانة ، فاذا رفض السيد فون زانين هذا من جهته ، فإن البارون فون دونغوف يتشرف بدعوته الى المباراة . وأجاب سانين بأنه لا ينوي الاعتذار ، وانه على استعداد لتنفيذ التسوية ، وعندئذ سأل الهر فون ريختر بطريقته المتعثرة عمّن يكون شاهده ، وفي أي مكان وأي زمان يستطيع ان يقابله لمحادثته في كل ما ينبغي لهذا الامر ؟ فأجابه سانين بأنه يستطيع المجيء اليه بعد ساعتين فإنه ، اي سانين ، سيسعى الى العثور على شاهد (وفكر في هذه الاثناء بينه وبين نفسه : « الى الشيطان ، من أين لي ان أدبر هذا الشاهد ؟ ») . وقف الهر فون ريختر متهيئاً للانصراف . . . ولكنه توقف عند وصيد الباب كأنه شعر بتأنيب الضمير ، والتفت الى سانين يقول ان صديقه البارون فون دونغوف . . . لم يخف عن نفسه انه الى حد محدود . . . يستحق المؤاخذة عما حدث امس — ولهذا يرتضي بكلمة اعتذار خفيفة — *des exghizes* « *léchères* . وأجاب سانين على هذا بأنه لا ينوي ان يقدم اي كلمة اعتذار ، لا ثقيلة ولا خفيفة ، فهو لا يعتقد أنه ملوم في شيء .

فأجاب الهر فون ريختر وقد زاد احمراراً :

— في هذه الحالة لا بد ان يكون تبادل اطلاق النار

بصورة ودية — *des gouts de bisdolet à l'amiaple!*

فقال سانين :

— لم أفهم هذا على الاطلاق ؛ فهل سنطلق النار في الهواء

يا ترى ؟

فتمتم الملازم وقد بلغ به الارتباك نهايته :

— اوه ، ليس هذا ولا ذلك ، ولكني ظننت ان ما يحدث

بين كرام الناس . . . ولكني سأبحث الامر مع شاهدك .

قال ذلك قاطعا كلامه نفسه وانصرف .

غاص سائين في مقعده فور انصراف الملازم ، وأخذ يحدث في الارض : «ماذا يعني كل هذا ؟ وكيف ادار هذا دولاب حياتي فجأة ؟ كل ما فات ، وكل ما هو آت ، غاب فجأة . واختمنى ، ولم يبق منه الا اني في فرانكفورت وهناك مبارزة ، وفيهم ؟» وخطرت بباله عمه له مجنونة كانت تحب كثيرا ان ترقص وتغني :

يا ملازمنا !

يا خيارتنا !

يا ساكن في مهجتنا !

تعال نرقص في سهرتنا !

وأخذ يقهقه ضاحكا وهو يغني كما كانت تغني : «يا ملازمنا ! تعال نرقص في سهرتنا !» ، ثم قال بصوت عال :
- ولكن حان وقت المبادرة ، وينبغي ألا نضيع الوقت !
وهب واقفا ، فاذا بانتاليوني امامه وفي يده رسالة .
- طرقت الباب مرارا ولكنك لم تجب ، خطر لي انك غائب عن الغرفة - هذه لك من السينورينا جيما .
واعطاه الشيخ الرسالة ؛ فتناولها سائين بحركة آلية كما يقال ، ثم فضاها وقرأها . كتبت اليه جيما بأنها قلقة الآن من جراء القضية التي يعرفها ، وترجو ان تراه في الحال .
وبدأ بانتاليوني الكلام :

- السينورينا قلقة (وكان واضحا انه يعرف مضمون الرسالة) وقد امرتني ان أرى ما تعمل وأعود بك اليها .

نظر سائين الى الايطالي الشيخ ، وطفق يفكر . وفجأة ومض في رأسه خاطر مفاجئ ، بدا له غريبا في اللحظة الاولى حتى

لكأنه المستحيل . . . ولكنه سأل نفسه : «ولماذا لا ؟» ،
ثم هتف بصوت عال :

— ايها السيد بانتاليوني !

فجفل الشيخ ، وأخفى ذقنه في رباط عنقه وشخص
ببصره الى سائين ، بينما تابع سائين يقول :

— هل تعرف ماذا حدث أمس ؟

لمظ بانتاليوني بشفتيه ، وهز خصلة شعره المتدللية .
— أعرف .

(اميل حدثه اثر عودته بكل شيء) .

— آ ! انت تعرف ! — هه ، هذا هو اذن . والآن فقط

ذهب من عندي ضابط ؛ فقد أرسل ذلك الوقح يدعوني الى
المبارزة ، وقبلت دعوته ، ولكن ليس عندي شاهد ، فهل
تريد ان تكون شاهدي ؟

اضطرب بانتاليوني ازاء هذا العرض ، وارتفع حاجباه
الى أعلى حتى اختفيا تحت فروة شعره . ثم قال بالاطالية
وكان حتى هذه اللحظة يتكلم بالفرنسية :

— هل عليك ان تعارك من كل بد ؟

— من كل بد ، واذا احجمت لحقني العار الى الابد .

— هم . — واذا لم اوافق على ان اذهب معك شاهدا فهل

تنشد عندئذ شاهدا آخر ؟

— سأفعل ولا شك .

فأطرق بانتاليوني .

— اسمح لي ان اسألك يا سينور دو تسانيني ، الا ترى

ان هذه المبارزة ستلقي شيئا من الظل لا يليق بسمعة شخص
معين ؟

— لا أعتقد ؛ ولكن الامر هكذا ، وليس من حل آخر .

فاختفى بانتاليوني كله في ربطة عنقة ، ثم صرخ فجأة

وهو يرفع رأسه الى اعلى :

— ولكن هذا الفيروفلوكتو كلوبيريو — ماذا عنه ؟

— هو ؟ لا شيء .

فهز بانتاليوني كتفيه بازدراء .

— كه (Che*) .

ثم قال بصوت مرتجف :

— يجب عليّ ان اشكرك في كل حال ، لأنك استطعت ان تقرّ ، وانا في حالتي المهينة الراهنة ، باني انسان شريف — un galant 'uomo — وبهذا برهنت على انك انسان galant 'uomo حقيقي ، ولكن ينبغي لي ان افكر فيما عرضته . — ولكن الوقت لا ينتظر يا عزيزي المحترم السيد

تشيب... تشيبا... .

فذكره الشيخ قائلا :

— تولا ؛ — ارجو ان تأذن لي مقدار ساعة ، فان الامر يمسّ بنت أولياء نعمتي... ولهذا يجب علي ، بل يفرض علي ان أفكر !! بعد ساعة .. بعد ثلاث أرباع الساعة ستعرف رأيي .

— طيب سأنتظر .

— والآن... ما هو الجواب الذي سأحمله الى السينورينا

جيما ؟

ف سحب سائين قطعة من الورق وكتب فيها : « لتطمئي ، يا صديقتي العزيزة ، بعد ثلاث ساعات سأجيء اليكم ، وسأشرح لك كل شيء . أشكر لك من كل قلبي هذه المشاركة » — ثم سلّم بانتاليوني الرسالة .

تناولها بانتاليوني في حرص ، ووضعها في جيبه ، وكرر مرة ثانية قوله : « بعد ساعة ! » — واتجه نحو الباب ثم استدار الى سائين ، وأسرع فامسك بيده ، وشدها الى صدره وهو يرفع عينيه الى السماء ، وصاح :

— ايها الشاب النبيل ، ايها القلب الكبير ! (Nobil

* صرخة عيب ايطالية لا يمكن ترجمتها مثل : « نو ! » عندنا .

(ملاحظة المؤلف) . (وبالعريسة معناها « يا للعجب ! » .

(المترجم) .

(a un giovanotto! Gran cuore!)
(la vostra valorosa vecchiotto)
destra!) ثم قفز قفزة قصيرة الى الورا ، وبسط يديه
مرفرفا بهما ، واندفع خارجا .

نظر سائين في اثره . . . وتناول جريدة وأخذ يقرأ . ولكن
عينيه كانتا تجريان على السطور ولا تريان المسطور ، لم يكن
يفهم شيئا على الاطلاق .

١٨

بعد انقضاء ساعة من الزمن ، دخل الخادم الغرفة على
سائين وقدم اليه بطاقة عتيقة رثة فيها هذه الكلمات :
« بانتاليوني تشيباتولا ، من فاريزي ، مغني بلاط (cantante
di camera) صاحب السمودوق مودينا » ، وظهر في اثر
الخادم بانتاليوني بالذات وقد تبدل كله من المفرق حتى
القدمين . كان عليه فراك حال سواده الى اصفرار ، وصدار
من البيكية الابيض تتدلى منه سلسلة براقاة من النحاس
الاصفر ذات طرة ثقيلة من العقيق تنوص على سرواله الاسود
الضييق . في يده اليمنى قبعة سوداء من وبر الارنب ، وفي
اليسرى قفازان من الجلد المخملي . ربطة عنقه معقودة بشكل
زادها عرضا وارتفاعا عما هي في الحالة المعتادة ، وصدورته
المنشأة مشكوكة بدبوس في رأسه حجر مما يسمى « عين
القط » (ocill de chat) . أصبعه الشاهدة باليد اليمنى مزينة
بخاتم على شكل يدين مضمومتين على قلب ملتهب ، وفي هذا
كله ثوت رائحة هي شيء من الكافور والمسك ، وفاحت من
حضرة الشيخ جميعا . . كان هذا الاحتفال الشديد بمظهره
جديرا ان يدهش حتى من ليس يدهشه شيء ! ونهض سائين
الى استقباله .

— اني شاهدك .

قال بانتاليوني بالفرنسية وهو ينحني بكل جسمه الى
الامام ويفرج قدميه كما يفعل الراقصون واطاف :

— جئت أتلقى تعليماتك فهل تنوي ان تقاتل من غير
رحمة ؟

— لماذا من غير رحمة يا عزيزي السيد تشيباتولا ؟ ان
ما قلته امس لا يعريني شيء في العالم على سحبه ، ولكني لست
سفاك دماء ! ان شاهد خصمي سيأتي الآن فاصبر ، وسأذهب
الى الغرفة المجاورة ، ريثما تتفقان ، وثق باني لن أسي يدك
طوال حياتي ، وانا شاكر لك صنيعةك من كل قلبي .
فأجاب بانتاليوني :

— الشرف فوق كل شيء ! — وارتمى على احد المقاعد
قبل ان يدعوه سانين الى الجلوس ، وقال في مزيج من
الايطالية والفرنسية : — اذا كان هذا الفيروفلوكتو
سبيتشيبويو ، اذا كان هذا البياع الغشاش كلوبيريو قد
عجز عن ادراك واجبه بالذات ، او جبن عنه ، فان هذا أسوء
له !.. وهو تافه النفس وبس ! اما بخصوص المباراة فأني
شاهدك ، ومصلحتك عندي مقدسة ! عندما كنت أعيش في
بادويا كانت ترابط هناك كتيبة من فرسان الدراغون البيض ،
وكانت العلاقة بيني وبين اكثر ضباطها وثيقة ، فكل قواعدهم
معروفة لدي ، وما اكثر ما جلسنا انا وبرنسكم تاربوسكي
وتناقشنا حول هذا الموضوع ... اما كان ينبغي على هذا
الشاهد ان يسرع في المجيء ؟

— اني انتظره دقيقة دقيقة — واضاف وهو ينظر الى
الشارع : — ولكن ها هو ذا ، انه نفسه القادم .

نهض بانتاليوني وهو ينظر في الساعة ويهز فروة شعره ،
وأسرع الى دس رباط جوربه في حذائه وكان متديا من
سرواله ، ثم دخل الملازم الشاب احمر الوجه متلبكا ، فقدم
سانين الشاهدين احدهما الى الآخر :

— M-r Richter, souslieutenant! — M-r Zippatola,
artiste!*

* — السيد ريختر ، ملازم ثان ! — السيد زيباتولا ، فنان !
(بالفرنسية) .

دهش الملازم قليلا وهو يرى الى الشيخ ... فماذا تراه يقول لو همس في اذنه وقتئذ ان «الفنان» الذي قدم اليه فنان في الطبخ ايضا !.. ولكن بانتاليوني اتخذ وضعا يناسب الموقف ، فكأنه تعود المشاركة في المبارزات الفردية حتى اصبحت من اموره العادية . والواقع ان ذكرياته المسرحية ساعدته في هذا ، فأدى دور الشاهد كما يؤدي دورا على المسرح ؛ وبعد ان ساد الصمت قليلا بينه وبين الملازم ، بدأ الكلام وهو يلعب بطرته العقيق ، فقال :

— ماذا ؟ هل نبدا ؟

فأجاب الملازم :

— سنبدأ ، ولكن وجود احد الخصمين ...

فصاح سائين :

— سأترككم من فوري ايها السادة ...

وانحنى لهما ، وذهب الى الغرفة الداخلية واغلق الباب

وراءه .

تهافت على الفراش ، وطفق يفكر في جيما ... ولكن حديث الشاهدين تسرب اليه من خلال الباب المغلق ؛ كان يدور بالفرنسية ، وكل منهما يشوّه هذه اللغة بطريقته من غير رحمة . وعاد بانتاليوني فأقحم ما رواه عن الدراعون في بادوييا وعن البرنس تاربوسكي . وتحدث الملازم عن «*exghizes léchées» وعن «*goups á l'amiaple» ، ولكن الشيخ أبى حتى مجرد الاصغاء لشيء يتعلق ب***exghizes ! وافزع سائين ان الشيخ بدأ يحدث جليسه فجأة عن بنت صبية بريئة اصبعها البنصر أعلى من كل ضباط العالم ... (oune zeune damigella innoucenta, qu'a ella sola dans soun péti doa vale piu que toutt le zouffissié del

* كلمة اعتذار خفيفة (بالفرنسية) .

** اطلاق النار بصورة ودية (بالفرنسية) .

*** بالاعتذار (بالفرنسية) .

mondo!) وكرر قائلا في انفعال: « هذا معيب ، هذا معيب ! »
«!E ouna onta, ouna onta». لم يعارضه الملازم أول الامر،
ولكن نبرة غاضبة سرت في صوت الشاب ، ولاحظ قائلا بانه
لم يأت ليصفي الى المواعظ الاخلاقية ، فقال بانتاليوني :
- من المفيد لمن في سنك ان يصفي دائما لكلمة
الانصاف !

وتطورت المناقشة بين الشاهدين فكانت تشتد احيانا
وتعصف ، ودامت على هذا المنوال اكثر من ساعة ثم اختتمت
في النهاية بالاتفاق على هذه الشروط : «يجري تبادل اطلاق
النار بين البارون فون دونغوف والسيد دي سانين في الساعة
العاشرة من صباح الغد ، في الغابة الصغيرة الواقعة قرب
غاناو . تفصل بينهما مسافة مقدارها عشرون خطوة ، ويحق
لكل منهما ان يطلق النار مرتين بعد اشارة الشاهد ، ويكون
المسدسان غير محلزي الفوهة» . ثم انصرف السيد فون
ريختر اما بانتاليوني فقد فتح الغرفة الداخلية على سانين
بحركة احتفالية ، وابلغه نتائج الاجتماع وهو يصيح :-
*«!Bravo, Russo! bravo giovanotto سيحالفك النصر !»
بعد دقائق ذهب يقصدان دكان روزيلي ، واشترط سانين
على بانتاليوني قبل ذلك ان يحتبس قضية المباراة في سر
عميق ، فكان جواب الشيخ انه رفع اصبعه الى اعلى ، وضيق
عينيه ، وهمس مرردا مرتين متتاليتين : ! Segredezza (هذا
سر !) وكان يبدو عليه انه عاد الى عهد الشباب ، بل انه
أصبح طليق الحركة خفيفها ايضا ، فان هذه الاحداث الخارقة
التي لا تخلو ايضا من بواعث الضيق ، قد بعثت فيه بهاء
ذلك العصر الذي كان يتلقى فيه التحدي ويستجيب الى دعوة
الخصم - صحيح ان ذلك جرى على المسرح ، ولكن المعروف
عن هؤلاء المغنين انهم مزهوون بأدوارهم كالديوك .

* برافو ايها الروسي ، برافو ايها الشاب ! (بالايطالية) .

خرج اميل يعدو الى استقبال سائين ، بعد انتظار زاد على ساعتين واسرع يهمس اليه في اذنه بان الام لا تعرف شيئاً عما حدث امس من السوء ولا يجوز حتى مجرد التلميح اليه ، وقد أرسلوه الى المخزن من جديد !! ولكنه لم يذهب ، بل ارتأى ان يتواري عن النظر . شرح هذا في ثوان معدودات ، ثم التصق فجأة بكتف سائين واختطف منه قبلة ، وانطلق يهبط الشارع . في الدكان جاءت جيما تستقبل سائين . كانت تريد ان تقول له شيئاً ولكن اعيائها ان تنطق ، قوقفت بشفتين مرتعشتين ، وعينين توضحان في كل ناحية ، فأخذ يهدى من روعها ويؤكد لها ان القضية انتهت وهي حادث طفيف ، فسألت :

— ألم يأت اليك احد اليوم ؟

— نعم ، جاءني وجه واحد وتبادلنا الحديث ، وقد توصلنا الى تفاهم .

فاستدارت جيما وعادت تقف وراء المنصة ، ففكر في نفسه :

— انها لم تصدقني .

ولكنه ذهب الى الغرفة المجاورة ، فوجد هناك فراو لينوري .

لقد ذهب عنها الصداح ، ولكنها بدت مكتئبة النفس ، وابتسمت لسائين في حفاوة ، ولكنها حذرته في الوقت نفسه من انه سيشعر معها بالملل لأنها ليست على استعداد لأيناسه ، ورأى عند اقترابه منها ان اجفانها محمرة منتفخة :

— فراو لينوري ، ماذا بك ؟ أتراك كنت تبكين ؟

— هس ، وأومات برأسها الى الغرفة التي كانت فيها بنتها — لا تقل ذلك بصوت عال .

— ولكن لماذا تبكين ؟

— آه يا مسيو سائين . انا نفسي لا اعرف لماذا .

— ألم يسيء اليك احد ؟

— اوه ، لا ! .. شعرت فجأة بالاكْتئاب . تذكرت جيوفاني باتيستا ... شبابي وما بعده . ما أسرع ما تولى هذا . اني أتقدم في السن يا صديقي ، ولم استطع باي وجه من الوجوه ان أتلاءم مع هذه الفكرة ، ويخيل اليّ انني لا ازال كما كنت من قبل ، اما الشيخوخة فما هي ذي ، كما ترى !

ونفرت الدموع من عيني فراو لينوري .

— ارى انك تنظر اليّ في دهشة ... ولكن السن ستتقدم

بك ايضا يا صديقي ، وستعرف كم في هذا من مرارة !

أخذ سانين يواسيها ، فذكرها بولديها اللذين يتفتح فيهما شبابها وينبعث ، وحاول ان يمازحها فزعم لها انها فعلت ذلك لتسمع الاطراء ... ولكنها طلبت اليه من غير مزح ان « يكف » ، فأيقن عندئذ للمرة الاولى ان مثل هذا الاسى الذي يشعر به من تتقدم به السن يجلب عن كل تعزية ، ويجب الانتظار حتى يذهب من حد ذاته . عرض عليها ان يلعبا بالتريستو ، وكان هذا أحسن ما يستطيع ان يفكر به ، فوافقت من فورها ، وبدا كأنما عاد اليها الانشراح .

بقي سانين يلعب معها بالورق قبل الغداء ثم بعد الغداء ، واشترك بانتاليوني ايضا في اللعب وقد زادت غرته نزولا على وجهه ، وذقنه غوصا في ربطة عنقه بشكل لم يسبق له نظير ابدا . كل حركة من حركاته كانت تتنفس بالتركيز والاهتمام ، والنظرة اليه توحى من غير قصد بهذه الفكرة : على أي سر يحافظ هذا الرجل بمثل هذه القوة ؟

— ولكن — segredizza, segredizza!

سلك كل سبيل طوال اليوم لابداء احترامه وتقديره لسانين ، فتجاوز الجالسين جميعا في أثناء الاكل وأقبل عليه يقدم له الطعام باهتمام وحفاوة ، وحابه في اللعب ، ولم يطبق عليه جزاءات اللعبة ، وقال من دون مناسبة بأن الروس أعظم أهل الارض أريحية وشجاعة وعزيمة ! ففكر سانين في نفسه :

— « آه منك ايها العجوز المراوغ ! »

ولم تدهشه هذه الحالة النفسية الطارئة في السيدة روزيلي
مقدار ما أدهشته معاملة ابنتها له ، ولا يعود هذا الى انها
كانت تتجنبه . . . بل على العكس ، فأنها كانت تجلس اليه
كثيرا ، وتصغي الى حديثه في اهتمام ، وتديم اليه النظر ،
ولكنها وطدت نفسها على ان لا تأخذ معه في اي حديث ، بل
انه ما يكاد يبدأ بازجاء الحديث اليها ، حتى تنسل من مكانها ،
وتبتعد في هدوء بضع دقائق ، ثم تعود مرة ثانية ، فتنزوي
في ركن من الغرفة من غير ان تند عنها حركة ، وتجلس مفكرة
ذاهلة . . . ولكنها ذاهلة اكثر مما هي مفكرة . وقد سألتها
امها مرة مرتين عما بها ؟ فأجابت جيما :

— لا شيء ، فانت تعرفين انها حالة تنتابني في بعض

الاحيان .

فوافقت أمها قائلة :

— الامر كذلك بالضبط .

وانقضي ذلك اليوم الطويل على هذا النحو . كان فاترا
خاليا من الحياة ، لم يشع فيه المرح ولا الملل ، ولو ان جيما
ساست نفسها بشكل آخر ، فمن يدري كيف يكون سانين ؟
لعله لا يملك نفسه وقتئذ عن التظاهر قليلا ، او لعله كان
يستسلم الى الشعور بالأسى تلقاء ما قد يجد من فراق الى
الابد . . فلما تعذر عليه ان يتحدث الى جيما ولو مرة ،
أصبح عليه ان يلتمس الراحة ربع ساعة على الاقل قبيل
قهوة المساء ، فجلس الى البيانو يعزف بعض الالحان
الهادئة .

عاد اميل في وقت متأخر ، ولم يلبث ان انسحب ليتجنب
الاسئلة عن السيد كلويير ، ثم حان وقت انصراف سانين ،
فلما اخذ في توديع جيما ، تذكر ، ولا يدري لماذا ، ساعة
الوداع بين لينسكي وأولغا في رواية « اونيغين » * . شد بقوة

* من تأليف بوشكين . (المترجم) .

على يدها ، وحاول ان ينظر في وجهها ، ولكنها استدارت قليلا ، وحررت اصابعها من يده .

٢٠

حينما خرج الى الشارع كانت النجوم تملأ السماء ؛ وتنتشر في رحابها كبيرة صغيرة صفراء حمراء زرقاء بيضاء ، كلها يومض ويتلألأ ويتبارى بهذا اللعب البديع . لم يكن القمر قد طلع ولكن كل شيء على الرغم من غيابه كان واضحا في غيبش السماء الخالي من الظلال . تمشى سائين في الشارع حتى نهايته . . . فما كان راغبا في العودة الى مسكنه في هذه الساعة . كان يشعر بالحاجة الى الفسحة في الهواء الطلق . ثم استدار عائدا ، وما كاد يقترب من واجهة البناية التي فيها دكان روزيللي حتى انبعث صرير من احدى النوافذ المطلة على الشارع ، وانفتحت النافذة فجأة على مصراعها ، ورأى من خلال زواياها المظلمة (لم تكن الغرفة مضاءة) جسما انثويا ، وسمع صوتا يناديه باسمه : «Monsieur Dimitri!» فاندفع من فوره نحو النافذة . . . جيما ! كانت متكئة بكوعها على حافة النافذة وهي منحنية الى الامام .

وبدأت الكلام بصوت محترس :

— Monsieur Dimitri ، حاولت طوال هذا النهار ان اعطيك شيئا . . . ولكني ترددت في الامر ، ثم رأيتك الآن على غير توقع ، فخطر ببالي ان هذا قدر على ما يبدو . . . وتوقفت جيما فجأة عن الكلام غير قادرة على ان تزيد كلمة : فقد حدث في هذه اللحظة بالذات حادث من الخوارق . ففي أعماق هذا السكون ، وتحته سماء خالية من الغيوم ، هبت فجأة نفحة من الهواء فزلزلت الارض تحت الاقدام ،

* سيد دميتري ! (بالفرنسية) .

وتدفق خيط نجمي رفيع مرتعش ، وأخذ الهواء يدور في دوامات ليست باردة ولكنها دافئة وحتى حارة ، جعلت تعصف بالأشجار وبسطح المنزل وجداره ، وبالشارع ، اختطفت قبعة سانين ، وبعثرت شعر جيما في كل ناحية . كان رأس سانين قريبا من حافة النافذة ، فانحنى نحوها بحركة عفوية ، وإذا جيما تتشبث بكتفيه ، وتلقى بصدرها على رأسه . استمر الصخب والرنين والهدير حوالي دقيقة ، فكان سربا من الطيور الهائلة مرق ذاهبا في مهب الريح ، ثم عاد السكون العميق يخيم من جديد .

ويا للمعجزة التي رآها سانين فوقه حينما استقام . اي وجه خائف مضطرب متهيج ، واي عينين واسعتين باهرتين ، وأي حسناء رأى حتى لقد جمد لحسنها القلب ، فلمس بشفتيه خصل الشعر المرسل على صدره ، وقال عندما أسعفته القدرة على الكلام :

— آه يا جيما !

فسألت وهي تدير عينين واسعتين في الفضاء ، من غير ان ترفع ذراعيها العاريين عن كتفيه :

— ما هذا الذي حدث ؟ هل هو برق ؟

فكرر سانين قائلا :

— جيما !

فتنهدت . ثم نظرت خلفها في الغرفة ، وانتزعت من نطاقها في لمح البصر ، وردة ذابلة ، رمت بها الى سانين .

— أردت ان اعطيك هذه الوردة . . .

وعرف سانين فيها تلك الوردة التي استعادها بالقوة

امس . . .

وانصفقت النافذة ، واصبح الزجاج مظلما لا يرى وراءه

ظل ولا طيف . . .

وعاد سانين الى مسكنه من غير قبعة . . . ولم يلحظ انه

فقدتها .

لم ينم الا في الصباح ، ولا غرابة في ذلك ، فبعد هذه الصدمة التي حملتها العاصفة الصيفية الخاطفة ، ومض في نفسه شعور لا يزيد علمه بأن جيما رائعة الجمال او بانها تستأثر باعجابه ، فان هذا قد عرفه من قبل ، وانما هو الشعور بأنه يحبها ! لقد داهمه الحب في لحظة خاطفة مثل تلك العاصفة . ولكن امامه هذه المباراة السخيفة ! وبدأت تعذبه الهواجس . وعلى فرض انه لم يمت ... فما يجديهِ ان يحب فتاة مخطوبة لآخر ؟ او على فرض ان هذا « الآخر » لم يعد خطرا عليه ، وان جيما ستحبه هو ، او انها احبته ... فماذا بعد هذا ؟ لماذا السؤال ؟ فتاة على مثل هذا الجمال الرائع ...

أخذ يذرع الغرفة ، ويجلس الى المنضدة ، ثم سحب ورقة فخط فيها بعض السطور وما لبث ان شطبها ... وتذكر جسم جيما المدهش في النافذة المظلمة تحت النجوم المنتثرة في السماء وكله مبعثر في العاصفة الحارة . تذكر ذراعيها المرمرين كما آلهة الاولمب ، وأحس بثقلهما الحي على كتفيه ... ثم أمسك بالوردة التي ألقته اليه ، فخيل اليه ان وريقاتها الداوية يوضع منها شذى أرق من أشداء الورد المألوفة ...

« واذا قتلوه فجأة او شو هوه ؟ »

لم يستلق في فراشه بل نام بشيابه على الديوان .

شعر بمن يهزه من كتفيه ...

فتح عينيه فرأى بانتاليوني . وقال الشيخ :

— انك تنام مثل الاسكندر المقدوني ليلة معركة

بابل * !

* يروى ان الاسكندر المقدوني نام نوماً عميقاً ليلة المعركة التي قادها بوجه دارا الثالث ملك الفرس (٣٣١ - ق . م .) . لأنه كان مطمئنا الى ان النصر سيكون حليفه . (المترجم) .

فسأله سانين :

— كم الساعة الآن ؟

— الساعة الا ربعا ، والركوب الى غاناو يستغرق ساعتين ، ولكن يجب ان نكون السباقين الاوائل الى المكان ، فان الروس سباقون دائما على الاعداء ! لقد أخذت أحسن عربة في فرانكفورت !

وبدأ سانين في الاغتسال .

— وأين المسدسان ؟

— سيحملهما ذلك الفيروفلوكتو تيديسكو ، وسيأتي ايضا بطبيب .

كان واضحا ان بانتاليوني يحاول ان يبدو نشيطا كما بدا امس ، ولكن المغني السابق صديق فرسان الدراغون في بادويا تبدل بغتة حينما جلس في العربة مع سانين وساط الجوزي الجوادين فانطلقا يخبران مسرعين ، فقد اعتراه الانزعاج والخوف ، وكان شيئا قد انهار في نفسه كما ينهار الحائط الهش . وصاح فجأة وهو يمسك بشعر رأسه :

— ما هذا الذي نعمله يا الهي ، ايتها santissima

Madonna* — ما هذا الذي اعمله انا الاحمق العجوز ، انا المجنون frenetico ؟ . . .

فوجي سانين فأخذ يضحك ، وطوق بانتاليوني قليلا بذراعه وهو يذكره بالمثل الفرنسي القائل : «Le vin est tiré — il faut le boire»** (او بالمثل الروسي : «حين تمسك بالاجام لا تقل انه صعب») .

فأجاب الشيخ :

— نعم ، نعم ، سنشرب هذه الكأس معا ، ولكني في كل حال معتوه — انا معتوه . كم كانت الحال هادئة طيبة . . . وفجأة : تا — تا — تا ، ترا — تا — تا !
فعلق سانين قائلا :

* العذراء المقدسة (بالاطالية) .

** «الزجاجة مفتوحة ، فيجب ان تشرب» . (المترجم) .

— هذا يشبه *tutti* في الاوركسترا .
واضاف مع ضحكة مفتضبة :
— ولكن المسؤول ليس انت .
— أعرف اني لست المسؤول ، فما كان ناقصني الا هذا ،
ولكن هذا كله تهور ، *Diavolo! Diavolo!
أخذ بانتاليوني يكرر ذلك وهو يهز غرته .
اما العربية فكانت تجري ، وتجري .

كان الصباح رائعا ، والحياة بدأت في شوارع فرانكفورت ،
فهي تفيض نظافة واناقة ، ونوافذ البيوت تتألق بألوان
شتى مثل ورق الزينات ، ولما جازت العربية بأبواب المدينة ،
كانت أصوات القنابر تتساقط من أعلى ، من السماء الزرقاء
القائمة . وفجأة تراءى لسائين وجه مألوف كان وراء شجرة حور
عالية ثم تقدم بضع خطوات ، ووقف لا يريم ، فحدق سائين
إليه . . . يا آلهي ! هذا اميل ! والتفت الى بانتاليوني يسأله :
— هل كان يعرف شيئا ؟

فاجاب الايطالي المسكين بصوت كأنه النحيب :
— قلت لك اني معتوه ، وهذا الولد المنحوس لم يترك
لي كل الليل سبيلا الى الهدوء — وفي النهاية ، كشفت له هذا
الصباح عن كل مخبا !

فقال سائين في نفسه : « اما segredenza معك ! »
لما صارت العربية في محاذاة اميل ، أمر سائين الحوزي
بأن يوقف الجياد ، ودعا اليه هذا « الولد المنحوس » ، فأقبل
اميل مترددا شاحب الوجه يشبه ما كان عليه في يوم اغمائه ،
ويكاد لا يتماسك على ساقيه . سأله سائين بلهجة صارمة :
— ماذا تعمل هنا ؟ ولماذا لست في البيت ؟
فتمتم اميل بصوت مستعطف :

* التوتي — اصطلاح موسيقي معناه اشتراك الآلات كلها في
تأدية نغمة واحدة في وقت واحد ، والكلمة ايطالية .
* * شيطان ! شيطان ! (بالايطالية) .

— اسمح لي . . . اسمح لي ان اذهب معك .
وَضَم يديه ، واصطكت اسنانه كأنما ادركته رعدة
الحمى .

— لن أعيقك عما انت فيه ، ولكن خذني معك !
فقال سانين :

— لو انك متعلق بي مقدار شعرة ، او لو انك تشعر
نحوي بالاحترام ، لعدت من فورك الى البيت ، او لذهبت الى
مخزن السيد كلوبير ، وانتظرت عودتي من غير ان تقول
كلمة لأحد .

فقال اميل بصوت يرن ويتقطع :
— عودتك ؟ ولكن اذا . . .

فقاطعته سانين وهو يوميء بعينيه الى ناحية الحوذي :
— اميل . . . ثب الى نفسك . أرجوك يا اميل ، عد الى
البيت . أصغ اليّ يا صديقي ! انت على يقين انك تحبني ،
واذن ارجوك !

قال ذلك ومد اليه يده مودعا ، فانحنى اميل عليها ،
واستعبر باكيا وهو يضمها الى شفثيه ، ثم قفز الى جانب
الطريق ، وعاد ركضا الى فرانكفورت من خلال الحقول ؛
فغمغم بانتاليوني قائلا :

— قلب نبيل ايضا .

ولكن سانين نظر اليه عابسا ، فانزوى الشيخ في زاوية
العربة . لقد أقر بذنبه ، وفوق هذا كان يزداد دهشة في كل
لحظة : أيعقل ان يكون هو من اصبح في عالم الحقيقة شاهد
مبارزة ، وانه هو من دبر الجياد واعد كل امر ، ثم فارق
مسكنه الهادي في الساعة السادسة من الصباح ؟ يضاف الى
هذا ان ساقيه ترمضان وتؤلمان .

رأى سانين ان عليه ان يترضاه ، فاختر ناحية حساسة ،
وانتقى لها الكلمات الملائمة .

— اين همتك القديمة يا سينوري المحترم تشيباتولا ؟

اين — il antico valor?

فشد السينور تشيباتولا قامته وقطب وجهه ، وقال
بصوت عميق :

Il antico valor? Non e ancora spento il antico valor! ! —
(لم تتبدد الهمة القديمة كلها) .

واتخذ وضعا ملائما ، وطفق يتحدث عن فلاحه ونجاحه :
عن الاوبرا ، وعن المغني العظيم غارسيا ، فلما وصل الى غاناو
كان مثل شيخ الشباب ، فتأمل : ليس في العالم شيء اقوى
من الكلمة . . . ولا اضعف منها !

٢٢

تقع الغابة الصغيرة التي تقرر ان تجري فيها المبارزة على
مسافة مقدارها ربع ميل من غاناو ، وقد وصل اليها سانين
مع بانتاليوني قبل غيرهما كما تنبأ الشيخ : أمرا الحوذي
بأن ينتظر على طرف الغابة ، وتوغلا في ظلال شجر كثيف
الاعصان كثير الفروع ، وقد اقتضى منهما الانتظار حوالي
ساعة .

لم يشعر سانين بثقل الانتظار ، فقد راح يتمشى ذهابا
وجيئة في الدروب ، مصغياً الى تغريد الطير ، متتبعا طيرانه ،
وحاول ، كأكثر الروس في هذه المواقف ، ألا يفكر في شيء .
لم تخطر بباله هذه الفكرة الا مرة واحدة : فقد صادف شجيرة
زيزفون قصفتها عاصفة امس على ما يظن ، فرقدت ميتة . . .
ويبس كل ما عليها من الاوراق . « ما هذا ؟ أنذير شؤم ؟ » ،
لمح هذا السؤال في رأسه كالبرق ، ولكنه جعل يصفر في
اللحظة نفسها ، ووثب فوق الزيزفونة ذاتها متابعاً سيره في
الدرب . اما بانتاليوني ، فقد وقف يتذمر ويسب الالمان
ويتأوه ويحك في ظهره وفي ساقيه ، بل كان يتشاءب ايضا من
القلق فيضفي التثاؤب شكلا مضحكا على وجهه الصغير
المنكمش ، وكاد سانين يقهقه ضاحكا لما نظر اليه .
طرق السمع اخيرا وقع عجلات على الطريق الناعم فصاح
مانتاليوني :

— هؤلاء هم !

واستقام مرهفا سمعه وهو يرتجف قليلا من الانفعال ،
ويغطي انفعاله بهذا الصوت : برررر ! متذرعا بالقول ان
الصباح بارد ؛ والانداء كانت تفيض على العشب واوراق
الاشجار ، ولكن الحر اللافت ينفذ في اعماق الغابة نفسها .
لاح بعد قليل ضابطان تحت قبة الغابة ، ومعهما رجل
صغير الجسم مفتول الاعضاء بارد المزاج له وجه ناعس —
وهو الطبيب العسكري ؛ وكان يحمل بأحدى يديه جرة ماء
من اجل الطوارئ ، ومن كتفه اليسرى تتدلى حقيبة فيها
عدة الجراحة والضمادات . والواضح انه تعود مثل هذه
الجولات فهي من جملة موارد : كل مبارزة تدر عليه ثمانين
روبلا — يدفع منها كل مقاتل اربعين . اما السيد فون ريختر
فقد حمل صندوق المسدسات ، وكان الهر فون دونغوف يدير
سوطا صغيرا بيده — لعله على الارجح من مقتضيات
« الشياكة » .

همس سانين الى الشيخ :

— بانتاليوني ، اذا ... اذا هم قتلوني — ولا يستبعد أمر
عن الحدوث — فاسحب من جيبى الجانبي ورقة ملفوفة على
زهرة ، وسلم السينيورينا جيما هذه الورقة . أتسمع ؟
وتعد ؟

نظر اليه الشيخ في أسى ، وأوما برأسه موافقا ... ولكن
هل فهم ما طلبه سانين ؟ علم ذلك عند الله وحده .
تبادل الخصمان والشاهدان الانحناء بعضهم لبعض تبعا
للتقاليد . اما الطبيب ، فانه الوحيد الذي لم يتحرك له
حاجب ، فجلس يتشاءب على العشب : « ليس ما يدعوني الى
التظاهر بأداب الفروسية » . وطلب السيد فون ريختر الى
السيد « تشيبادولا » ان يختار المكان ، فأجاب السيد
« تشيبادولا » بصوت متبلد ولسان سقيم (انهار « الحائط »
مرة ثانية في نفسه) : « ابدأ انت يا مولاي صاحب السعادة ،
وعلي ان أراقب ... »

بدأ السيد فون ريختر في العمل ، فوقع في الغابة على بقعة رائعة مكسوة كلها بالازهار ، فذرع المسافة بخطواته ، وحدد مكانين للمبارزين بعضا اقتضبها من شجرة وأعدّها في تعجل ، ثم أخرج من الصندوق مسدسين وقعد القرفصاء ليحشوهما بالرصاص . مجمل القول : عمل الرجل ما عليه ، وبذل غاية جهده ، وما انقطع عن مسح وجهه المستعرق بمنديل ابيض . وقد رافقه بانتاليوني فكان كثير الشبه برجل مقرر ، وفي خضمّ هذه الاستعدادات ، كان الخصمان يقفان كل منهما في ركن قصي ، وفي منظرهما ما يذكر بتلميذين نزل بهما العقاب فوقفا يرمقان مؤدبهما بالنظر الشزر .
ثم حانت اللحظة الحاسمة ...

وكلّ امسك بمسدسه ... *

هنا لفت الهر فون ريختر انتباه بانتاليوني الى ان اعراف المبارزات تقتضي منه بصفته الشاهد الأسنّ ، ان يعرض على الخصمين قبل ان يحم وقت العد : « واحد ، اثنين ، ثلاثة » هذا العرض الاخير ، وهو : ان يجنحا الى السلم . وعلى الرغم من ان هذه النصيحة لم تسفر في وقت من الاوقات ولا في حالة من الحالات عن نتيجة ، فأنها على العموم اجراء شكليّ مجرد ، ولكن قيام السيد تشيباتولا بهذا الاجراء الشكلي سيخفف عن نفسه بعض المسؤولية ؛ وان مثل هذه « الآلوكوتسيا » * في الحقيقة يجب ان يعهد بتأديتها الى من يطلق عليه اسم « الشاهد المحايد » (unparteiischer Zeuge) ، ولكن ما دام نظير هذا الشاهد لا وجود له عندهم ، فانه هو ، فون ريختر ، يتنازل بطيبة خاطر عن هذا الشرف

* من كلمات بوشكين في رواية « يفغيني اونيفين » . (المترجم) .

* * آلوكوتسيا : عند قدماء الرومان ، هي الخطبة التي كان

يلقيها القائد قبيل بدء المعركة . (المترجم) .

لزميله المحترم ؛ اما بانتاليوني الذي كان مختبئاً وقتئذ وراء بعض الشجيرات لكيلا يقع بصره على الضابط المسيء ، فانه لم يفهم اول الامر شيئاً من خطبة السيد ريختر ، لا سيما وان هذا كان يتكلم بصوت أجش ؛ ولكنه اختلج فجأة ، واندفع ناشطاً الى الامام وهو يضرب بيديه على صدره صارخاً بصوت أجش يرتجف من الانفعال وكلام اختلطت فيه اللغات :
«A la la la. . . Che bestialità! Deux zeun'ommes comme ca qué si battono-pechè? Che diavolo? Andate a casa!»*

فأسرع سانين يقول :

— اني لا اوافق على الصلح .

فردد خصمه في اثره :

— وأنا أيضا لا اوافق .

فقال فون ريختر يُخرج بانتاليوني من ذهوله :

— عليك اذن ان تصيح : واحد ، اثنين ، ثلاثة !

هنا أسرع بانتاليوني الى الاختباء في مكنمه وراء الشجيرات . ومن هناك وقف يتلوى ، وبعد ان أغمض عينيه واشاح بوجهه ، صاح بملء صوته : Una. . . due. . . e tre!
كان سانين الاول في اطلاق النار ، فأخطأ الهدف ، ورنّت رصاصته في شجرة ، واطلق بعده البارون فون دونغوف ، مصوباً الى الفضاء عن عمد .

وخيم صمت مشحون بالتوتر . . . لم يتحرك احد من

مكانه ، ثم تأوه بانتاليوني ، وقال دونغوف :

— أتأمر بمتابعة المباراة ؟

فسأله سانين :

— لماذا أطلقت في الهواء ؟

— ليس هذا شغلك .

فعاد سانين يسأل :

* ما هذا التوحش ! لماذا القتال بين اثنين لهما مثل هذا

الشباب ؟ اخزوا الشيطان داهبوا الى البيت . (بالإيطالية) .

— أنتوي ان تطلق مرة ثانية في الفضاء ؟
— يجوز ، فاني لا أدري .
واعترض فون ريختر قائلاً :
— اسمحوا لي ، من فضلكم ايها السادة . ليس من حق
المتبارزين ان يتبادلوا الكلام . هذا مخالف للنظام .
— اني أتنازل عن اطلاق رصاصتي .
قال سانين هذا ورمى بالمسدس الى الارض .
فصاح دونغوف وهو يلقي أيضا بمسدسه :
— وانا كذلك لا أنوي ان أمضي في المباراة ؛ وأضيف
الى هذا انني مستعد الآن للاعتذار ، فقد كنت مسيئاً اول
امس .
ووقف منطويا في مكانه ، ثم مد يده في تردد الى امام ،
فأسرع اليه سانين يصافحه ، وأخذ الشابان ينظران الى
بعضهما البعض مبتسمين مصطبغين بالاحمرار .
وصرخ بانتاليوني فجأة مثل المجنون :
— Bravi! bravi!
واندفع مثل الحمامة من خلال الشجيرات وهو يصفق
بيديه . اما الدكتور ، وكان يجلس في ناحية على جذع شجرة
مقطوع ، فقد بادر الى النهوض ، وسفح الماء من الجرة ،
ثم مضى يغربل في مشيته الكسول الى طرف الغابة .
وأعلن فون ريختر قائلاً :
— لقد استوفى الشرف حقه ، وانتهت المباراة !
وعاد بانتاليوني يصرخ مرة ثانية من خلال ذكريات
الماضي :
— Fuori!* —

* بالاطالية ، صيحة معناها : بديع او رائع ، كان النظارة —
قبل عصر المؤلف — يحيون بها الممثلين المجيدين . ثم استبدلت
بكلمة « برافو » التي كانت متداولة في زمان تورغينيف كما هي اليوم .
(المترجم) .

انحنى سانين لكل من الضابطين ، وجلس في العربة . كان يملأ وجوده شعور ، إن خلا من الغبطة ، فإنه لم يخل من بعض الراحة ، كالحال بعد الخلاص من عملية جراحية . ولكن شعورا اخر أخذ يدب في نفسه أشبه بالخجل . . . لقد ظهر له ان هذه المباراة التي فرغ قبل لحظات من لعب دوره فيها ، كانت شيئا زائفا ، واجراء شكليا تم الاتفاق عليه من قبل ، وحيلة مألوفة بين الضباط والطلبة . وتذكر سانين الطبيب الخامل ، تذكر كيف ابتسم الطبيب حتى تغضن انفه حينما رآه يغادر الغابة ، مع البارون دونغوف بل انه كان يأخذ بذراع البارون . ثم تذكر لحظة دفع بانتاليوني لهذا الطبيب استحقاقه وهو اربعون روبلا . . . ايخ ! قد حدث شيء لا خير فيه !

لا شك أن سانين كان يحس بشيء من تأنيب الضمير ، ومن الخجل . . . ولكن ماذا كان عليه - من ناحية ثانية - ان يفعل ؟ أكان عليه ان يترك سفاهة الضابط الشاب من غير عقاب ويتشبه بالسيد كلوبير ؟ لقد فعل ما فعل من اجل جيما ، ودافع عنها . . . ومع هذا ، كانت نفسه تعذبه ، وضميره يؤنبه ، ويؤوده الخجل .

يقابل هذا عند بانتاليوني انه - ببساطة - في حالة عيد ! فقد استأثر به الزهو دفعة واحدة ، فما يباريه في الرضى عن نفسه جنرال منتصر يعود من المعركة التي انتصر فيها . لقد استفاض اعجابه بسلوك سانين اثناء المباراة ، فنادى به بطلا ، وأبى ان يستجيب الى نصح هذا البطل حتى بعد ان صار نصحه الى رجاء ، فشبهه بنصب من المرمم او من البرونز ، ثم شبهه بتمثال القائد في قصة «دون جوان» واعترف بانه شعر ببعض الاضطراب ، ثم لاحظ قائلا : «ولكني فنان عصبي الطبع ، اما انت - فأنت ابن الثلوج وصخور الغرائيت» .

ولم يعرف سانين على التحديد ما السبيل الى تهدئة فان
أطلق لهياجه العنان .

في نفس المكان من الطريق ، او غير بعيد عنه ، حيث
تركا اميل قبل ساعة - ساعتين ، وجداه يندفع من وراء
شجرة وهو يطلق صيحات السعادة ، ويلوح بقبعته فوق
رأسه ، ويتوثب ، ثم قذف بنفسه نحو العربية حتى لقد أوشك
ان يقع تحت عجلاتها ، ولم ينتظر حتى تقف الجياد ، فتسلقها
خلال بابها المغلق ، وأخذ يحدق في سانين مرددا بالحاح :
- انت حي ، ما بك جرح ! اصفح عني فأني عصيت
كلمتك فلم أرجع الى فرانكفورت ... ما قدرت ! فانتظرتك
هنا ... قص علي ما حدث ؛ هل قتلته ؟ ..

وجد سانين مشقة شديدة حتى هدأ من روع اميل
وأجلسه .

روى عليه بانتاليوني تفاصيل المباراة فأطنب وتزيد
وهو في غاية الرضى ، وطبيعي انه عاد الى قصة نصب البرونز
وتمثال القائد ، حتى انه استقام واقفا في مكانه يمثل القائد
سانين ، ففرج ساقيه لحفظ التوازن ، وصلب يديه على
صدره ، وارسل نظرة ازدراء من فوق كتفه ! واصغى اميل
الى روايته متهيبا لا يقاطعه الا بهتفة يطلقها بين الحين
والآخر ، او بقبلة يتناول مسرعا الى خطفها من صديقه تلقاء
بطولته .

ثم أخذت عجلات العربية تقعق على المرصوف من شوارع
فرانكفورت ، وتوقفت في النهاية لدى باب الفندق الذي ينزل
فيه سانين .

لما رافق زميليه مصعدا في الدرج الى الطابق الثاني -
مرقت فجأة في الممر الصغير المظلم امرأة محجبة تسير
بخطوات سريعة ، ثم اقتربت منه لاهثة الانفاس ، فتوقفت
قليلا وهي تميل بجسمها الى ناحيته ، وما لبثت ان ركضت
خارجة الى الشارع - واختفت عن النظر ، فقال خادم الفندق

وهو في دهشة عظيمة : « ان هذه السيدة قد انتظرت السيد الاجنبي اكثر من ساعة » . وأدرك سانين منذ اللحظة الاولى انها جيما ، عرف عينيها من وراء خمارها البني الحريري السميك ؛ فقال يوجه الكلام بالالمانية الى اميل وبانتاليوني وهو يمد في نطق الحروف :

— هل كانت فراولين جيما تعرف . . ؟

فتمتم اميل من خلال ما اعتراه من الخجل والارتباك :
— لقد حدثت هي بالامر ، ولم استطع شيئا ، فاضطرت

ان اروي عليها كل شيء .

واضاف في حماسة :

— ولكن لم يبق للتحرج معنى الآن ، فقد انتهى ذلك

نهاية رائعة ، ورائتك سليما معافي .

فغمغم سانين وهو يتولى عنهما غاضبا :

— يا لكما من ثرثارين !

ودخل يجلس في غرفته على مقعد .

فتوسل اليه اميل قائلا :

— لا تغضب ، أرجوك .

— طيب لن أغضب . (أكيد أن سانين لم يكن غاضبا —

ويكاد يتمنى ألاّ تجهل جيما كل شيء) — طيب ، كفاك الآن

معانقات ، فانصرف ، أريد ان أبقى وحدي ، لأنام ، فأني

متعب .

فصاح بانتاليوني :

— فكرة رائعة ، انك بحاجة الى الراحة ، ولأنت تستحقها

ايها السنيور النبيل . هيا نذهب يا اميليو ! على رؤوس

الاصابع ، على رؤوس الاصابع ! شش !

زعم سانين انه يرغب في النوم ليتخلص من رفيقيه ليس

غير ، فلما بقي وحيدا ، شعر حقيقة بالتعب الشديد يسري

في اعضائه جميعا ، ففي الليلة البارحة لم يغمض له جفن الا

لما ، وما ان ألقى بجسمه المكدود على السرير حتى غط

في نوم عميق .

لم يستيقظ طوال بضع ساعات متتاليات ، ثم تراءى له انه يخوض مبارزة جديدة ، وان الخصم الذي يقف امامه هو السيد كلوبير ؛ وعلى شجرة من أشجار الشربين تحط بغاء تشبه بانتاليوني ، توقع بمنقارها مرددة : واحد - واحد ! واحد - واحد - واحد ! واحد !

ثم اصبح الصوت بيئنا في سمعه : « واحد . . . واحد . . . واحد . . . واحد ! ! » ففتح عينيه ، ورفع رأسه قليلا . . . كان هناك من يطرق عليه الباب .

صاح سانين :

- ادخل !

ظهر الخادم ليخبره بأن سيدة تتلف كثيرا الى رؤيته . خطرت بباله - « جيما ! » ، ولكن ظهر ان السيدة هي امها - فراو لينوري .

ما كادت تدخل حتى سقطت من فورها على كرسى واستعبرت باكية .

- ماذا بك يا طيبتى ، يا عزيزتى السيدة روزيللي ؟ - بدأ سانين قوله وهو يجلس الى جنبها ، ويلمس ذراعها بترفق وحنان - اهدئي ، ارجوك .

آه يا Herr Dimitri ، اني . . . في غاية التعاسة !

- انت تعيسة ؟

- آه ، كثيرا ! هل كان من الممكن أن أتوقع ؟ لقد انقض ذلك فجأة ، كالصاعقة من سماء صافية . . . كانت تتنفس في عسر .

- ولكن خبريني ، ماذا حدث ؟ أتريدين كأس ماء ؟

- لا ، وشكرا لك ، - وما ان مسحت فراو لينوري عينيه بمنديلها حتى عادت تبكي على نحو أشد - اني أعرف كل شيء ! كل شيء !

— ماذا يعني : كل شيء ؟

— كل ما حدث اليوم ، وكذلك السبب في ما حدث . . .
لم يعد خافيا عليّ ! لقد سلكت مسلك الرجل النبيل ، ولكن
ما أشد ما تعاقب من البلاء ! ما كان عبثا أنني لم ينشرح
قلبي لتلك الرحلة الى سودين . . . ما كان عبثا ! (لم تكن
فراو لينوري قد اشارت الى شيء من هذا يوم الرحلة ،
ولكنها تراءى لها الآن ان حدسها أنبأها « كل شيء ») —
لقد قصدتك كما يقصد الرجل النبيل ، كما يقصد الصديق ،
على الرغم من انني لم أتعرف اليك الا منذ خمسة أيام . . .
ولكني أرملة ! وحيدة . . . وابنتي . . .

وطغى البكاء على صوت فراو لينوري ، فردد سانين
قائلا وهو لا يعرف ماذا هناك :

— بنتك ؟

فانفلت أنين فراو لينوري من خلال منديلها المبلل
بالدموع وقالت :

— ابنتي جيما ، لقد أنبأتني اليوم انها لا تريد الزواج
من السيد كلوبير ، وان عليّ ان اخبره بذلك !
تزعج سانين قليلا من مكانه : فانه لم يتوقع هذا . وتابعت
فراو لينوري :

— وانا لم أتحدث عن وجه العار في هذا الامر الذي
لم يحدث مثله في العالم ، وهو امر الخطيئة التي تهجر
خطيبتها ، ولكن فيه الخراب لنا يا Herr Dimitri.

واخذت فراو لينوري تكور منديلها بقوة ومثابرة ،
كأنها تريد ان تحتبس كل احزانها في هذه الكرة الصغيرة .
— موردنا من الدكان لم يعد فيه ما يكفي للعيش يا
Herr Dimitri ! اما الهر كلوبير فانه واسع الثراء ،
وسيكون اوسع ثراء ، فماذا حداها الى رفضه ؟ لأنه لم
يتقدم للذياد عن خطيئته ؟ اني أسلم بأن تصرفه غير
محمود على الاطلاق ، ولكنه رجل مدني ، لم ينشأ في
جامعة ، وينبغي له بحكم مركزه تاجراً محترماً ان يترفع

عن اعمال الطيش التي يعبث بها ضابط صغير مغمور ، فيالها
اساءة يا Herr Dimitri!

– اسمحي لي يا فراو لينوري ، يبدو انك تتهميني .
– انني لا أتهمك بشيء ، فانت لك شأن آخر .
انك مثل الروس جميعا رجل عسكري ...

– اسمحي لي ، فاني لست ابدا . . .
– انك غريب الدار ، عابر سبيل ، وانا شاكرة لك ما
قدمت ، – تابعت فراو لينوري كلامها من غير أن تصغي
الى سائين ، كانت تتنهد وتلوح بيديها ، وتبسط منديلها ،
وتنفث فيه ، وكان واضحاً من الطريقة التي عبرت فيها عن
همومها انها لم تولد تحت سماء شمالية .

– هل من سبيل للسيد كلويير الى البيع في المخزن لو
انه ذهب يصارع المشتريين ؟ لا يعقل هذا أبدا ! ثم ينبغي
عليّ الآن اعلنه بالقطيعة ، ولكن على أي مورد سنعيش ؟
كنا الوحيدين من قبل في صنع غزل البنات والنوكة
بالفستق ، وكان المشترون كثرة ، اما الآن فان كل حلواني
يصنع غزل البنات !! فتأمل : من غير هذا سيتحدث كل
أهل البلد عن مبارزتك . . . فهل من السهل اخفاء أمرها ؟
ثم يأتي فجأة فسخ الخطبة ! ان هذا فضيحة وأي فضيحة !
جيما فتاة رائعة ولا شك ، وهي تجني كثير ا ، ولكنها
جمهورية عنيدة ، لا تخشى رأي الناس ، وانت الوحيد من
يستطيع اقناعها !

فزاد سائين دهشة عما كان عليه من قبل .

– انا ، يا فراو لينوري ؟

– نعم ، انت . . . انت وحدك ، ولهذا جئت أقصدك .
لم يسعفني التفكير بحل آخر ! انك في غاية الثقافة والطيبة،
وقد ذدت عنها على الخصوص ، فهي تثق بك **ويجب** ان تثق
بك ، فقد جازفت بحياتك من أجلها ، انك قادر على تبصيرها
بالامر ، اما انا فما عدت قادرة على شيء ! – تستطيع ان
تثبت لها انها ستدمر حياتها وحياتنا معها . لقد أنقذت

ابني ، فلعلك ان تنقذ ابنتي ايضا ! ان الله قد أرسلك
الينا . . . واني لمستعدة ان أتوسل اليك وأنا جائية على
ركبتي . . .

وهمت فراو لينوري بالقيام عن الكرسي كأنها بسبيلها
الى الارتقاء عند قدمي سائين . . . فأمسك بها .

— فراو لينوري ! نشدتك الله ، ما هذا منك ؟

فأطبقت على يده في انفعال وقالت :

— هل تعدني ؟

— فراو لينوري ، فكري ، هل يحق لي . . .

— هل تعدني ؟ أتطلب مني ان أموت هنا امامك في

الحال ؟

أسقط سائين في يده ، فأنها المرة الاولى في حياته
التي يواجه فيها التجربة مع الدم الايطالي الملتهب ؛ ثم صاح
قائلا :

— سأفعل كل ما يبعثك على الرضى ! — سأتحادث الي

فراولين جيما . . .

فأطلقت فراو لينوري صيحة فرح .

— ولكني لا أدري على التحديد ما هي النتيجة التي ستطلع

باليد . . .

فقالت فراو لينوري بصوت متوسل :

— آه ، لا ترفض ، لا ترفض ! لقد وافقت ! اما النتيجة

فلا بد ان تكون رائعة ، ومهما يكن **فأني** لم أعد قادرة على

ان أزيد عما فعلت ، فأنها لن تصغي اليّ !

فسألها سائين بعد قليل من الصمت :

— هل كانت قوية العزيمة لما أعلنت اليك رفضها الزواج

من السيد كلويير ؟

— كانت قاطعة مثل السكين ! فهي صورة من أبيها جيوفاني

باتيستا — جريئة !

فردد سائين وهو يمد في نطق الحروف :

— جريئة ! هي ؟

– نعم ، انها كذلك ، ولكنها ملاك ايضاً ، ولسوف تطيعك ، فهل تأتي من دون ابطاء ؟ اوه يا صديقي الروسي العزيز !

وهبت فراو لينوري ناهضة عن الكرسي ، وسائين يجلس الى جنبها ، فأحاطت رأسه بيديها ، وقالت :

– تقبل البركة من أم . . . وأعطني ماء !

حمل سائين الى السيدة روزيلي كأساً من الماء ، ووعدها بأن لا يبطيء عليها في المجيء ، ثم ودعها منحدرًا معها في الدرج حتى الشارع ، وعاد الى غرفته وهو يضرب كفا بكف ، ويحملق مذهولاً .

فكر في نفسه : «ها هي ذي الحياة تدور الآن ! وانها لتدور على نحو يدور له رأسي» . لم يحاول ان ينظر في طوية نفسه ليستشف ما يجري في باطنه : هناك الفوضى – وبس ! وهمست شفته من غير قصد : «يوم مشهود ! جريئة . . . هذا ما قالته امها ، وينبغي عليّ أنا ان أنصح لها – لها ؟ ! فبماذا أنصح ؟ !»

كان رأس سائين يدور بالفعل ، وفي كل هذه الزوبعة من العواطف المختلفة والانطباعات والافكار المبتورة ، كانت تطفو على نحو ثابت صورة جيما ، هذه الصورة التي انغrust في ذاكرته فما تزول ، كما رآها في تلك الليلة المضطربة الدافئة المكهربة ، وهي في نافذتها المظلمة ، تحت أشعة النجوم المتعاكسة !

٢٤

كان سائين يقترب من منزل السيدة روزيلي بخطوات مترددة وقلبه يخفق خفقاً شديداً شعر به واضحاً واحس به يقرع في ضلوعه . ماذا تراه سيقول لجيما ، وكيف سيفاتها بالحديث ؟ دخل البيت من بابه الخلفي لا بطريق الدكان ، وقابل فراو لينوري في الغرفة الصغيرة الامامية ، فكانت فرحة

وخائفة من هذه المقابلة ؛ قالت له همسا وهي تأخذ يده
بأحدى يديها ثم بالثانية :

— لقد انتظرتك وانتظرتك . — اذهب الى الحديقة فانها
هناك ، وانتبه للامر فاني أعقد عليك الامل !
وسار سائين الى الحديقة .

كانت جيما تجلس على دكة خشبية قريبة من الممر ،
وامامها سلة مملوءة بالكرز ، وقد شغلت بانتقاء الحبات
الناضجة منها ونقلها الى طبق ، والشمس منحدرت الى الغروب
فقد جاوزت الساعة السادسة من المساء ، وفيض عريض من
أشعتها المائلة يغرق حديقة السيدة روزيلي أشد حمرة مما
هو ذهبي ، وأوراق الاشجار يندّ عنها بين الحين والآخر همس
خفيض يكاد لا يسمع الا قليلا ، والنحل المتخلف عن سربه
يطنّ متنقلا من زهرة الى زهرة ، وقمرية ترسل من مجثمها
هديلا رتيبا متصلا .

كان على رأس جيما تلك القبعة المستديرة التي لبستها
اثناء الرحلة الى سودين ، فرفعت بصرها تحديق الى سائين
من تحت طرف القبعة الملتوي ، ثم عادت تنحني على سلة
الكرز .

كانت خطوات سائين تبطيء عن غير قصد كلما زاد
اقترابا منها و . . . و . . . لم يجد ما يقوله بل وجد
ما يسأل عنه فقال : لماذا تنتقين هذا الكرز ؟

فأمسكت جيما قليلا عن الجواب ، ثم تمتمت اخيرا :
— هذه الحبات الناضجة من أجل المربي ، وهذه لحشو
الفظائر ، فانت تعرف اننا نبيع مثل هذه الفطائر المحلاة
بالسكر .

قالت هذه الكلمات وعادت تنحني على السلة برأس
اكثر انخفاضا عن ذي قبل . اما يدها اليمنى التي تحمل بين
اصابعها حبتين من الكرز فقد بقيت معلقة في الهواء بين
السلة والطبق .

سألها سائين :

— أتأذنين لي في الجلوس معك ؟
فتزحزحت جيما قليلا عن الدكة الخشبية وقالت :
— تفضل .
جلس سائين الى قريها وهو يفكر : « كيف أبدأ ؟ » ،
ولكن جيما انتشلتته من حيرته فقالت في حماسة :
— لقد اشتبكت اليوم في مبارزة .
والثفتت اليه بكل وجهها الرائع المشرب بحمرة الحياء ،
ويا للامتنان العميق الذي كان يشع في عينيها !
— ثم أراك على مثل هذا الهدوء ، أفلا تعرف الشعور
بالخطر ؟
— خلّي عنك فأني لم أواجه أي خطر ، وقد مضى كل
هذا في سلام ، ولم يصب احد بسوء .
فرفعت جيما اصبعها وحركتها يمنا ويسرة امام
عينيها . . . وهذه ايضا عادة ايطالية .
— لا ! ابدأ ! لا تقل ذلك ! فانك لا تستطيع ان
تخدعني . لقد أنبأني بانتاليوني بكل ما حدث !
— لقد عثرت على من تثقين بقوله ! ألم يشبهني ايضا
بتمثال القائد ؟
— قد تكون طريقتة في التعبير مضحكة ، ولكن شعوره
وما عملته اليوم لم يكن مضحكا ، وكل ذلك من جرّائي . . .
ومن اجلي . . . لن انسى هذا ابدا .
— أوكد لك يا فراولين جيما . . .
فكررت قولها وهي تشد على الحروف :
— لن أنسى هذا ما عشت .
وعادت تحدق فيه متملية ثم أدارت وجهها .
لقد استطاع عندئذ ان يرى الى جانب وجهها النقي
الناعم ، فخيّل اليه انه لم ير في حياته وجها يشبهه ، ولم يشعر
في حياته بما شعر به في هذه اللحظة ، واشتعلت روحه جملة .
« اين ما وعدت به ؟ » — لمع في رأسه هذا الخاطر فبدأ
الكلام بعد لحظة من التردد :

— فراولين جيما ...

— يا نعم .

انها لم تلتفت الى ناحيته بل استمرت في انتقاء الكرز
فكانت تأخذ الحبة من ذيلها باطراف أصابعها في ترفق ،
وترفع أوراقها في حرص ... ولكن بأي ثقة وحنان نطقت
بهذه الكلمة : « يا نعم » !

— ألم تخبرك امك بشيء ... حول ...

— حول ؟

— حولي أنا .

قذفت جيما بما في يدها من الكرز فجأة الى الوراء ، في
السلة ، وسألته بدورها :

— هل تحدثت اليك ؟

— نعم .

— وماذا قالت لك ؟

— قالت لي انك ... غيرت فجأة ما كان في نيتك من قبل .
خفضت جيما رأسها فاختمى وجهها كله تحت قبعتها ،
ولم يبد غير عنقها اللدن الناعم الذي يشبه ساق زهرة كبيرة .
— اي نية ؟

— نيتك ... بخصوص ... بناء مستقبل حياتك .

— المقصود ... انك تتحدث بهذا ... عن السيد

كلوبير ؟

— نعم .

— هل قالت لك أمي اني لا اريد الزواج من السيد

كلوبير ؟

— نعم .

تحركت جيما في مقعدها فمالت السلة وسقطت ، وتدحرج
منها بضع حبات من الكرز على الممر ... وانقضت دقيقة ...
ثم اخرى ، وسمع صوتها تقول :

— لماذا تحدثت اليك امي في هذا ؟

بقي وجه جيما مختفيا عن نظر سائين كما كان من قبل ؛

فما يبدو له غير عنقها ، وكان صدرها يرتفع وينخفض في
عنف . . .

— لماذا ؟ لقد فكرت امك باننا اصبحنا اصدقاء في
وقت قصير ، وانك تشعرين نحوي بشيء من الثقة يمكنني
من اسداء بعض النصح اليك ، وانك ستنتصحين بها .

فانزلقت يدا جيما في هدوء الى ركبتها . . . وبدأت
تسوي طيات فستانها ، ثم سألت بعد انتظار قليل :

— واي نصيحة تريد ان تسديها اليّ يا monsieur Dimitri
رأى سانين أن أصابع جيما كانت ترتجف على ركبتها . . .
وان تسوية الفستان لم تكن الا لأخفاء هذا الارتجاف ، فوضع
يده في رفق على هذه الاصابع الشاحبة المرتعشة وقال :

— جيما — لماذا لا تنظرين اليّ ؟

فأزاحت قبعتها الى الوراء من خلال كتفها بأسرع من
ومض البرق ، ونظرت اليه في عينيه مباشرة نظرة فيها كل الثقة
وعرفان الجميل ، وانتظرت ان يتكلم . . . ولكن مرأى وجهها
حيره وخفف بصره ، فقد استضاء هذا الوجه الفتىّ ببريق
شمس الاصيل الدافئة ، فبدت قسامته أشد سناء وبهاء من
هذه الشمس .

— سأطيعك يا monsieur Dimitri .

بدأت قولها وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة خفيفة
وارتفع حاجباها قليلا .

— ولكن ما هذه النصيحة التي تريدان تسديها اليّ ؟
فكرر سانين :

— ما هذه النصيحة ؟ على علمك ان والدتك تعتبر أن
لرفضك السيد كلوير سبباً وحيداً وهو انه لم يظهر منذ
ثلاثة ايام ما ينبغي له من الشجاعة . . .

— أهذا هو السبب الوحيد ؟

قالت جيما ذلك وانحنت فتناولت السلة ووضعتها الى
جنبها على الدكة الخشبية .

– وتري . . . أن رفضك . . . بصورة عامة ، بعيد من
جهتك عن التبصر ، وان عواقب مثل هذه الخطوة يجب ان
تحسب جميعا أدق حساب ، وأن وضعكم يفرض واجبات
واضحة على كل فرد من افراد الاسرة . . .
فقاطعته جيما :

– كل هذا آراء ماما ، وكلماتها ، وأنا اعرف هذا
جميعا ، فما رأيك انت ؟
– رأيي ؟

وصمت سانين ، فقد شعر بشيء يسري في حلقه
ويحتبس انفاسه ، ثم اضاف في جهد جهيد :
– وانا اظن ايضا . . .
فاعتدلت جيما :

– وانت ايضا ؟ انت ؟
– نعم . . . ولكن قصدي . . .
وأعياء القول فما استطاع ان يضيف كلمة ، وقالت
جيما :

– طيب ، ما دمت تنصح لي ، باعتبارك صديقا ، ان اغير
رأيي . . . أقصد ان لا اغير ما ارتأيتته من قبل – فاني سأفكر
في الامر . . . – ومن غير ان تدري ما تفعل أخذت تنقل من
الطبق الى السلة ما انتقته من الكرز .

– ان امي تأمل في ان استمع لنصحك . . . واذن ، لا
يبعد ان اعمل بما تنصح لي به على وجه الضبط .
– ولكن ارجوك يا فراولين جيما . هل لي ان أعرف
الاسباب التي حملتك على . . .

فكرت جيما وقد تفضن جبينها وشحب خذاها وانطبقت
اسنانها على شفتها السفلى :

– سأستمع لنصحك . فقد جهدت كثيرا من أجلي ،
فوجب عليّ ان أحقق لك ما تريد ، وأعمل بمشيئتك ،
وسأنبني امي . . . سأفكر في الامر . ولكن ها هي ذي تجيء
الى هنا .

والواقع ان فراو لينوري ظهرت على عتبة البيت المؤدية الى الحديقة . لقد برحت بها اللهفة وفراغ الصبر فلم تطق الجلوس في مكانها ، وقدرت ان سانين لا بد قد أنجز منذ وقت طويل ما سيشرحه لجيما في حين ان جلسته لم تستغرق أكثر خمس عشرة دقيقة .

وصاح سانين في سرعة وتخوف :

— لا ، لا ، لا ، لا ، نشدتك الله ألاّ تنبئها بشيء ابدا ،
انتظري ... سأقول لك . سأكتب اليك . . . فلا تنجزي
أمرأ حتى ذلك الوقت . . . انتظري !
وشدّ على يد جيما وهو ينهض من المقعد ، ويالدهشة فراو لينوري لما رأته ينسل مارا بها مرّ المجانب ، رافعا لها قبعبته ، متمتما بكلام غير مفهوم ثم يختفي . . . فتقدمت من ابنتها وقالت :

— قولي أرجوك يا جيما . . .

فقامت جيما فجأة واحتضنت امها :

— ماما ، يا حبيبتي ، هل تستطيعين ان تنتظري قليلا حتى الغد ؟ أقل القليل من الصبر ، فهل تستطيعين ؟ ولا تنطقي بكلمة حتى الغد ؟ . . . آه ! . . .
وفاضت دموعها المتألثة فجأة على غير توقع منها بالذات ، وقد أدهش فراو لينوري على الخصوص ان ملامح جيما كانت بعيدة عن الأسى ، بل أنها اقرب الى السعادة ، فسالتها :

— ماذا بك ؟ لم يكن البكاء من شأنك ابدا ، ثم

فجأة . . .

— لا شيء يا ماما ، لا شيء ! انتظري وحسب ، ينبغي لنا نحن معا ان ننتظر ، لا تسألني عن شيء حتى الغد ، وهيا بنا ننتق الكرز ما دامت الشمس لم تمل الى الغروب .

— ولكن هل ستكونين متبصرة ؟

— أوه ، اني لشديدة التبصر !

أومات جيما برأسها ايماءة اهتمام وادراك ، وبدأت

تنظم الكرز في عناقيد صغيرة كانت ترفعها الى أعلى امام
وجهها المشرب حمرة ، ولم تمسح دموعها ، فقد نشفت
الدموع من تلقاء ذاتها .

٢٥

كاد سانين يركض وهو عائد الى مسكنه ، فقد شعر ،
بل أدرك ، انه سيقدر آخر الامر ، حين ينفرد بنفسه في هذا
المسكن فقط ، ان يتبين ما به ، فماذا به ؟ والواقع : ما ان
وصل الى غرفته وجلس الى مكتبه مرتفقا عليه بكلتا يديه ،
آخذا وجهه بين راحتيه ، حتى صاح من أسى بصوت أصم :
« أحبها ، وأنا مجنون بحبها ! » - لقد التهب في دخيلته
فجأة كما الفحم نفخ عنه الرماد المنطفى . . . مرت لحظة . . .
وهو لا يملك القوة على ان يفهم كيف استطاع ان يجلس الى
جنبها ويتحدث اليها دون ان يشعر بأنه يعبدها حتى طرف
فستانها ، وانه مستعد على حد تعبير الشباب « للموت عند
قدميها » . لقد كان اللقاء الاخير في الحديقة حاسما - وحينما
يفكر فيها الآن ، فانه لا يذكرها وهي مبشرة الشعر تحت
ضوء النجوم ، وانما يذكرها كما رآها جالسة على مقعد
الحديقة ، كما رآها تحسر قبعتها فجأة وتنظر اليه في
ثقة . . . فيسري ظمأ الحب الملتهب في كل عروقه . تذكر
الوردة التي يحتفظ بها في جيبه منذ ثلاثة ايام - فسحبها
وجذبها الى شفثيه بقوة محمومة فاذا وجهه يتغضن من
الألم . انه لا يستطيع الآن أن يعقل أمرا ولا أن يفكر في
أمر ، ولا ان يحسب لشيء حسابا ولا ان يستشف ما يطويه
الغد . لقد تفلت من الماضي كله ووثب الى الامام : منفصلا
من شاطئ حياة الوحدة والعزوية الكئيب وألقى بنفسه في
هذا التيار الممراح العارم المتدفق - غير متحسر على شيء ،
ولا راغب في ان يعرف الى أين سيحمله ، او على اي صخرة

قد يحطمه ؛ وهو بعد ليس هذه السيول الهائلة لرومانس
أولاند التي كانت تهدده منذ وقت قريب . . . وانما هو امواج
عارمة لا تقاوم ! وانها لتطير وتتواثب مندفعة الى الامام
وهو معها يطير !

أخذ ورقة ، ومن غير ان تشطب ريشته على كلمة او
تتوقف عند كلمة كتب ما يلي :

«عزيزتي جيما !

انت تعرفين أي نصيحة أخذت على نفسي أن أزجها
إليك ، وتعرفين ما تتمناه والدتك وما طلبته مني ، ولكنك
لم تعرفي شيئاً مما ينبغي لي ان اقول له الآن—وهو أنني
أحبك . أحبك بكل أشواق قلب يحب أول مرة ! وقد
اشتعلت فيّ هذه النار على حين غرة ، اما عن قوتها فلست
أجد ما يعبر عنها من الكلمات ! ! لما قصدتني والدتك
وطلبت مني ما جاءت من أجله — لم تكن هذه النار قد
التهبت بل كانت ترمض مستخفية في سريرتي ، والا لرفضت
من كل بد أن ألبى طلبها باعتباري رجلاً شريفاً . . . وكذلك
هذا الاعتراف الذي أفضي به الآن ، لهو اعتراف رجل
شريف ؛ يجب ان تعرفي طرز من تتعاملين معه — وان لا
يكون بيننا غموض في الفهم . وانك ترين انني لا أستطيع
ان أزجي إليك أي نصيحة ، فاني أحبك . . . أحبك . . .
أحبك — وليس غير هذا في عقلي وفي قلبي ! !

«ديم . سائين»

طوى هذه الرسالة وجعلها في غلاف ، ثم اراد ان يدعو
الخادم ليرسلها معه ، ولكن . . . «لا ! فان هذا غير
مستحسن — فهل نتوسل بأميل ؟ ولكن الذهاب الى المخزن
والبحث عنه بين المستخدمين غير مستحسن ايضا ، ثم ان
الظلمة قد انتشرت في الخارج والارجح انه غادر المخزن» .
وضع سائين قبعته على رأسه وهو لا يزال يقلب الامر على
وجوهه وخرج الى الشارع ، فما اجتاز زاوية وانعطف في

زاوية اخرى حتى رأى اميل امامه ففرح به فرحا عظيما .
كان الشاب المتحمس مسرعا الى البيت : حقيبة تحت ابطه
وصرة كبيرة من الورق في يده ، ففكر سانين وهو يناديه :
« ليس عبثا ما قيل من ان لكل عاشق نجمة » .

التفت اميل وأقبل مسرعا من فوره .

لم يترك له سانين ان يمضي في فرحته بل ناوله
الرسالة وأوضح له لمن ينبغي ان يسلمها وكيف يوصلها ...
وكان اميل يصغي اليه في انتباه .

— أي بحيث لا يرى احد ؟

سأل وهو يعطي لوجهه تعبيرا من الخطورة والسرية
كأنه يقول : « نحن ندرك أين بيت القصيد » .

فقال سانين وقد اعتراه شيء من الخجل :

— نعم يا صديقي .

ولكنه اضاف وهو يربت بيده على خد اميل :

— واذا كان ثمة جواب ... فاحمله انت اليّ ، أليس

كذلك ؟ وسأنتظر في غرفتي .

فهمس اميل بمرح :

— لا تقلق من هذه الناحية !

وانصرف راكضا ، ثم التفت اثناء ركضه فأوما لسانين

برأسه .

عاد سانين الى مسكنه ، وارتمى على الاريغة دون ان
يوقد الشموع ، فوضع يديه وراء رأسه ، وارسل نفسه مع
الاحاسيس التي ابتعثها ادراكه انه عاشق ، وهي مما لا
يجدي وصفه : فمن يكابد عذابها ويرتشف عذوبتها يعرفها ،
اما الذي لم يكابدها فمن المستحيل افهامه .

فتح الباب وظهر رأس اميل ، وهمس قائلا ،

— جئت بالجواب ، وها هو ذا ...

ورفع فوق رأسه ورقة مطوية .

فنهض سانين عن الاريغة واختطف الورقة من يد اميل .

كان الشوق يعصف به فاستهتر بالكتمان ، ولم يبالي بأعراف

التوقر حتى امام هذا الصبي الذي هو أخوها ، وانه لجدير
ان يستحيي منه ، وان يقسر نفسه على هذا لو انه استطاع !
مشى نحو النافذة حيث يبلغها النور من فانوس امام
الفندق ، وقرأ هذه السطور :

« ارجوك ، بل أتوسل اليك - ألا تأتي الى زيارتنا طوال
يوم غد ، وألا تظهر في طرفنا ، فان هذا ضروري ، وضرورته
محتومة ، وسيكون حل لكل ما هنالك . أعرف انك لن
ترفض هذا الطلب لأن . . .

جيبها» .

قرأ سانين هذه السطور مرتين - ويا لخطها كم بدا له
مؤثرا لطيفا جميلا ! - وبعد ان فكر قليلا التفت الى اميل -
وكان الفتى بدافع من رغبته في لفت الانتباه الى انه جم
التواضع ، يقف مديرا وجهه الى الجدار وينكت فيه بأظفاره -
فناداه باسمه .

فأسرع اميل من فوره الى سانين .
- بم تأمر ؟

- استمعوا اليّ يا صديقي . . .

فقاطعه اميل بصوت مستعطف قائلا :

- مسيو ديميتري ، لماذا لا تخاطبني بضمير المفرد ؟
فابتسم سانين :

- طيب اذن ، اسمع يا صديقي (اميل نط عندئذ قليلا
من الفرح) اسمع : ستقول لمن هناك ، وانت تدرك من
المقصود ، ان كل ما طلب سينفذ بما ينبغي من الدقة (اميل
ضغط على شفتيه ، وهز رأسه باهتمام) وانت . . . ماذا
ستعمل يوم غد ؟

- انا ؟ ماذا سأعمل ؟ ما الذي تريدني ان أعمله ؟

- اذا أمكنك المجيء ، فتعال اليّ في الصباح الباكر ،
لنقوم بجولة حتى المساء في ضواحي فرانكفورت . . . فهل
تريد ؟

نط اميل مرة ثانية .
- ياسلام ، هل في الدنيا أحسن من هذا ؟ النزهة معك
انها معجزة ، سأحضر ولا شك .
- واذا منعوك ؟
- لن يمنعوني !
- اسمع ... لا تقل هناك اني دعوتك لقضاء
النهار كله .

- وعلام الكلام ؟ سأخرج وحسب ، فهل في هذا ضير ؟
وقبل سائين بحرارة وانطلق يجري .
بقي سائين يذرع الغرفة وقتا طويلا ، لم يستلق في
فراشه التماسا للنوم الا في ساعة متأخرة - كان يترشف
تلك الاحاسيس الرهيبة اللذيذة نفسها وتلك السعادة المبهورة
امام الحياة الجديدة ؛ وفكر سائين وهو في غاية الغبطة من
انه خطر بباله ان يدعو اميل الى نزهة الغد : « انه سيذكرني
بأخته » .

كان أشد ما ادهشه في هذا كله : كيف استطاع ان يكون
امس غير ما كانه اليوم ؛ فقد خيل اليه انه احب جيما طوال
عمره ، وانه احبها هذا الحب الذي يستشعره لها اليوم .

٢٦

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كان اميل يدخل
الغرفة على سائين وهو يمسك بطوق الكلب البوديل تارتاليا ؛
ولو أنه كان من أبوين ألمانيين لما استطاع ان يكون اكثر
دقة مما ظهر منه . لقد خدع الاهل في المنزل فقال انه
سيذهب للفسحة مع سائين حتى وقت الفطور ، ومن ثم
سيقصد المخزن . وفيما كان سائين يلبس ثيابه أخذ اميل
يحدثه - ولكن في شيء من الارتباك - عن جيما ، وعن
اختلافها مع السيد كلوبيير ، ولكن سائين صمت متجهما عن
الجواب ، فاتخذ اميل وضع من يفهم لماذا يجب ألا تلمس

هذه النقطة الحساسة ، ولم يعد الى الخوض في حديثها ، واكتفى بأن يصطنع بين الحين والآخر هيئة رزينة بل صارمة ايضا .

بعد شرب القهوة ، سار الصديقان - على الاقدام بطبيعة الحال - الى غاوزين ، وهي قرية صغيرة ترقد في موقع قريب من فرانكفورت ، تحيط بها الغابات ، وتبدو منها سلسلة جبال تاؤونوس مثل راحة الكف . كان الطقس رائعا ، والشمس ساطعة حارة ولكنها غير لافتحة ، والهواء الصافي يوضي ممراحا في الاوراق الخضراء ، وظلال السحب المدورة العالية ترتمي بقعا غير كبيرة ، وتنزل متموجة مسرعة خلال الارض . غادر الشابان المدينة بعد وقت قليل ، وراحا يطويان الطريق الممهّد النظيف يستخفهما النشاط والمرح ، ثم أوغلا في الغابة ، وهاما وقتا طويلا في مسارها ، وبعد غداء دسم تناولاه في نزل القرية ، ذهبا يتسلقان الجبل ويتمتعان بما حولهما من منظر ، وطفقا يقذفان الحجارة من أعلى ، ويصفقان بأيديهما وهما ينظران كيف تتواثب على نحو مضحك غريب ، حتى ان عابر سبيل في أسفل الجبل لم يكن ظاهرا لأعينهما ، وقف يشتمهما بصوت مجلجل عال . ثم تمددا مبسوطي الايدي على الطحالب القصيرة الجافة ذوات اللون البنفسجي الضارب الى الصفرة ، وشربا البيرة في مقصف آخر ، وتسابقا في الركض ، وتباريا بالقفز الطويل ، وفتحوا حوارا مع الصدى ، فتحدثا ، وغنّيا ، وصوتًا ، وتصارعا ، ثم قطعوا الاغصان من الشجر ، وزينا قبعتيهما بازهار السرخس ، بل انهما رقصا ايضا . وأسهم تارتاليا بما اطاقه وقدر عليه في كل هذه الاهتمامات : صحيح انه لم يقذف الحجارة ولكنه تدحرج وراءها رأسا على عقب ، ونبح عندما غنى الشابان - بل انه شرب البيرة ايضا ، ولكنها لم ترق له : وقد تعلم هذا الفن من طالب كان يؤويه ذات حين ؛ وظهر انه لا يقر لأميل بالطاعة التامة مثلما يطيع صاحبه بانتاليوني ، فاذا أمره اميل بقوله : « تكلم »

أو « اعطس » كان لا يزيد عن تحريك ذيله ومد لسانه وتكويره مثل الانبوب . وتجاذب الشبان ايضا أطراف الحديث . ففي بداية الرحلة ، بدأ الكلام سائين - فالأرشد في السن أرشد في العقل - فتحدث عن معنى القضاء والقدر ، وعن تعيين المصائر ، وعن مفهوم رسالة الانسان وعناصرها ؛ وما لبث الحديث ان جنح الى ناحية أسهل ، فسأل اميل صديقه ومرشده عن روسيا ، وعن المبارزات التي تجري فيها ، وهل نساؤها جميلات ، وهل يمكن تعلم اللغة الروسية بسرعة ، وما شعوره حينما صوب اليه الضابط ؟ وسأله سائين بدوره عن أبيه وأمه وعن أحوال أسرته بعامة ، وجهد في ألا يذكر اسم جيما - وهو لا يفكر الا فيها - ولكنه والحق يقال لم يفكر فيها بل في الغد ؛ في هذا الغد الغامض الذي سيحمل اليه سعادة خفية لا مثيل لها ! فهو كالستار . . . وانه لستار رقيق شفاف يتموج في سكون امام نظرتة الواعية ، وهو يشعر بأن وراء هذا الستار يتراءى وجه في رونق الصبا ، ثابت عن الحركة ، ملائكي الملامح ، على شفثيه ابتسامة رقيقة ، وفي عينيه المسبلتين قسوة مصطنعة ، لم يكن وجه جيما ، وانما هو وجه السعادة نفسها ! وها هي ذي ساعته الموعودة قد حانت اخيرا ، فاذا هذا الستار الشفاف ينحسر ، وتنفرج الشفتان المطبقتان ، وترتفع الرموش ، وتتجلى له الحضرة الالهية - وعندئذ يشرف نور كأنه يتدفق من الشمس ، ومعه فيض لا نهاية له من السعادة والغبطة ! ! لم يفكر في هذا الغد الا عادت نفسه تجمد من بهر السعادة وتذوب من لوعة الانتظار !

لم يؤثر هذا الشوق وهذه اللوعة في شيء ، فأنها معه في كل حركة من حركاته - ولكنهما لم يمنعاه عن شيء . لم يمنعاه عن تناول غداء فاخر كامل مع اميل - ما عدا حالات نادرة كانت تخطر بباله هذه الفكرة مثل ومضة البرق الخاطفة : لو أن أحدا في العالم عرف ؟ ! ولم تمنعه هذه

اللوعة من اللعب بعد الغداء مع اميل بالنطة . . . كانت تجري هذه اللعبة فوق مرج رحيب معشب . كان الكلب يطلق نباحه الحماسي ، وسانين مثل الطائر ينشر ساقيه بقفزة حاذقة يطير بها فوق ظهر اميل ، حينما رأى فجأة امامه ما جعله في غاية الارتباك والخجل ، ففي طرف هذا المرج الاخضر الرحيب نفسه ، كان يقف ضابطان عرف فيهما من فوره خصمه امس السيد فون دونغوف ، وشاهده السيد فون ريختر ! كان كل منهما يضع على عينه عويينة واحدة وينظر اليه مبتسما . . . فأسرع سائين في النزول على قدميه وهو يدير وجهه ، ولبس معطفه على عجل ، وطلب من اميل في اقتضاب ان يلبس سترته وذهبا مسرعين .

وصلا الى فرانكفورت في ساعة متأخرة . وقال اميل وهو يودع سائين :

- سيوبخونني - ولكن لا بأس ، فقد قضيت نهارا كأنه المعجزة .

عاد سائين الى الفندق فرأى رسالة من جيما ، فيها تضرب له موعدا في الساعة السابعة من صباح الغد في احدى الحدائق العامة التي تحيط بمدينة فرانكفورت . كم خفق قلبه ! وكم كان سعيدا بامتثاله لامرها دون اعتراض ! يا آلهي بم يعد هذا الغد . . . وبم لم يعد هذا الغد الفريد المستحيل ، ولكنه - المؤكد ؟ !

غرس نظرتيه في رسالة جيما . ان هذا الذيل الطويل الالهيف لأول حرف من اسمها ، وهو حرف G الذي يقف في نهاية الرسالة ، قد ذكره باصابعها الجميلة ، وبيدها . . . تذكر انه لم يلمس هذه اليد بشفتيه ولا مرة واحدة ، ففكر : « ان الايطاليات يختلفن عما يشاع عنهن ، فانهن رصينات حصينات ، وأما جيما فهي أرصن وأحصن ، انها ملكة . . . آلهة . . . عذراء نقية مثل المرمز . . . » .

ولكن الاوان سيئين - وليس هذا بعيدا . . . في تلك الليلة كان في فرانكفورت رجل سعيد واحد . . .

أوي الى النوم ولكنه يستطيع ان يقول عن نفسه ما قاله
الشاعر :

اني انام . . . ولكن قلبي المرهف لم ينم . . .

كان قلبه يدق في اطمئنان ، كارتعاش اجنحة فراشة
تعلق زهرة تحت شلال من أضواء شمس صائفة .

٢٧

استيقظ سائين في الساعة الخامسة ، وفي السادسة كان
قد فرغ من ارتداء ثيابه ، وفي منتصف السابعة كان يتمشى
في الحديقة العامة قرب العريشة الصغيرة التي ذكرتها جيما
في رسالتها .

كان الصباح هادئا دافئا رماديا ، وبدا احيانا ان المطر
يوشك ان يهطل ، ولكن الكف لا تشعر بشيء اذا بسطت نحو
السماء ، وقد تلحظ العين اثرا من رذاذ ليس غير ينتثر على
الاكمام مثل الخرز الدقيق ، بل حتى هذا الرذاذ لسرعان ما
انقطع ، وسكن الهواء فكأنه فقد من هذا العالم ، وكل صوت
لا يطير بل ينتشر ، وفي البعيد تكاثف ضباب اغبر ، وتضوع
في الهواء عير الخزامى وأزهار الاكاسيا البيضاء .

وفي الشوارع ، لم تكن الدكاكين قد فتحت ابوابها ، ولكن
ظهر فيها بعض العابرين ، وبين الحين والآخر كانت تقعقع
عجلات عربة منفردة . . . اما الحديقة فكانت خالية من رواد
النزهة ؛ هناك البستاني ، وكان ينكش الممر بمجرفته في
تراخ ، وعجوز بمعطف من الجوخ الاسود كانت تطلع خلال
الطريق . لم يشبه لسانين لحظة أن هذه المسكينة جيما ،
ولكن قلبه ضج في صدره لمرآها ، وراح يتابعها بنظره في
انتباه وهي تبتعد عنه حتى اصبحت نقطة سوداء .

دقت ساعة البرج سبع دقائق !

وتوقف سائين . — أيحتمل ألا تأتي ؟ فاذا رعدة برد
تسري فجأة في جسمه ، ثم شعر بهذه الرعدة بعد لحظة ،

ولكن من جرّاء سبب آخر ، فقد سمع سانين خطوات خفيفة من خلفه ، وحفيف ثوب نسائي ... فالتفت الى وراء : فكانت هي !

أقبلت جيما وراءه خلال الممر . كان عليها شال رمادي وقبعة غامقة غير كبيرة ؛ نظرت الى سانين ثم التفتت برأسها الى ناحية ثانية ، ولما حادثه أسرعت في سيرها مبتعدة عنه ، فنادها بصوت مهموس :
- جيما .

فأومات اليه بحركة خفيفة من رأسها وتابعت سيرها الى الامام ، فتبعها .

كان لاهث الانفاس ، تكاد قدماه لا تطاوعانه الا في عسر . جازت جيما بالعريشة منعطفة الى اليمين ، ومرت بحوض صغير مسطح يططبب في مائه عصفور ، ثم دارت من وراء مسكبة مشجرة بأشجار الليلك العالية ، وجلست على دكة خشبية في هذا الركن المريح المحتجب ، وجلس سانين الى جنبها .

مرت دقيقة - لم ينطق خلالها هو ولا نطقت هي بكلمة ، بل انها لم تنظر اليه . ونظر هو اليها ، ولم ينظر في وجهها بل نظر في يديها المشتبكتين على مظلة صغيرة . وما عسى ان يقولوا ؟ وأي كلام افصح في التعبير من وجودهما في هذا المكان على انفراد في هذه الساعة المبكرة على مثل هذا التداين احدهما من الآخر ؟

ما لبث سانين ان قطع حبل الصمت فقال :

- هل انت غاضبة مني ؟

لقد تعذر على سانين ان يقول شيئا اكثر سخفا من هذه الكلمات ... كان يعرف هذا ، ولكنهما خرجا عن الص ، في كل حال . أجابت :

- انا ؟ لماذا ؟ لا .

فأضاف :

- وهل تثقين بي ؟

— أتقصد بما كتبت ؟

— نعم .

فخفضت جيما رأسها من غير ان تجيب ، وأفلتت المظلة من يدها ولكنها أدركتها قبل ان تقع على الأرض . وصاح سائين :

— آخ ، صدقيني ، ثقي بما كتبه اليك .

تبدد تهيبه فجأة وأخذ يتكلم في حماسة :

— ان كان على الأرض حقيقة مقدسة لا ريب فيها فهي

اني احبك ، احبك وانا مدله بحبك يا جيما .

فرمقته بنظرة جانبية— وكادت المظلة تسقط مرة

ثانية ، فقال مؤكدا :

— ثقي ، ثقي بي .

ومد اليها يديه متضرعا من دون ان يجرؤ على لمسها .

— ماذا تريد مني ان افعل لاقنعك ؟

فعادت تنظر اليه ، ثم قالت :

— قل لي يا monsieur Dimitri ، لما اقبلت علي منذ

ثلاثة أيام لتقنعني— أكنت وقتئذ لا تعرف... ولا تشعر...

فتابع سائين قائلا :

— بلى كنت أشعر ، ولكني لم أعرف ، لقد أحببتك لحظة

رأيتك أول مرة— ولكني لم أدرك وقتئذ موقعك عندي !

ثم اني سمعت بأنك مخطوبة ، وأنك بسبيل الى الزواج...

اما بخصوص ما كلفتني به والدتك ، فهل كنت قادرا على

رفض طلبها اولا ؟ ثم اني أديت المهمة— ثانيا— على نحو

تستطيعين فيه ان تحدسي...

بلغ سمعها صوت خطوات ثقيلة ، وظهر سيد ممتلي

الجسم يحمل حقيبة وراء ظهره ، ويبدو انه اجنبي ، ثم برز

لهما من وراء المسكبة ، وارسل من قمة رأسه الى الجالسين

على المقعد هذه النظرة المتطفلة التي تعودها السياح ، وسعل

بصوت عال وهو يتابع طريقه .

وقال سائين حينما خف وقع الخطوات الثقيلة :

— لقد انبأ تني أمك بأن رفضك سيحدث فضيحة (عبست جيما قليلا) ، واني بالذات أعطيت لألسنة السوء ولو شيئا مما تتذرع به ، واني بالتالي أحمل نصيبا من الواجب في اقناعك بعدم فسخ الخطبة بينك وبين خطيبك السيد كلويير .

فقلت جيما وهي تمسد شعرها بيدها من الجهة التي يجلس فيها سائين :

— Monsieur Dimitri ، لا تسمه خطيبي ، أرجوك ؛
لن اكون زوجة له ، وقد أعلنته برفضي .

— أعلنته ؟ متى ؟

— امس .

— في وجهه بالذات ؟

— في وجهه بالذات حينما جاء يزورنا .

— جيما ! هذا معناه انك تحبيني ؟

فاستدارت اليه ، وقالت في همس :

— أكنت أجيء الى هنا لولا ان الامر كذلك ؟

وسقطت كلتا يديها على المقعد .

فأخذ سائين بيديه هاتين الراحتين الضعيفتين المفتوحتين ، ورفعهما ضاغطا بهما على عينيه وشفتيه . . .
ها هي ذي اللحظة التي انحسر فيها الستار الذي تراءى له امس ! وها هي ذي السعادة ، وها هو ذا محياها المتألق !
رفع رأسه قليلا ونظر الى جيما — مباشرة وبجراحة .
ونظرت اليه ايضا ، من اعلى الى ادنى ، بعينين مسبلتين ، تلمعان قليلا بما استفاض فيهما من دموع الغبطة . اما وجهها ، فلم يكن يبتسم . . . لا ! كان يضحك ، وكان يضحك من غبطة أيضا ومن غير صوت .

أراد أن يجذبها الى صدره فانحرفت عنه وهي لا تزال تضحك ضحكتها الصامتة وتوميء برأسها رفضا ، وبدا كأن عينيها السعيدتين تقولان : « انتظر » ، فصاح سائين :
— اوه جيما ! أكان يخطر ببالي انك ستحبيني ؟

(ارتعش قلبه مثل الوتر لما لفظت شفتاه اول مرة
« انك ! » هذه) * .
فقامت جيما بصوت يكاد لا يسمع :
— وانا بالذات لم انتظر ذلك .
واضاف سانين :
— اكان يخطر ببالي لما وصلت الى فرانكفورت ، حيث
ظننت . انني سأمكث بضع ساعات ، انني سأعثر هنا على
سعادة الحياة كلها ؟
فسألته جيما ؟
— الحياة كلها ؟ هل انت متأكد ؟
فنال سانين في فورة جديدة :
— كل الحياة ، وعلى مدى العمر ، والى الابد !
أخذت مجرفة البستاني فجأة تنقر في الدرب على بعد
خطوتين من المقعد الذي يجلسان عليه ، فهمست جيما :
— لنذهب الى البيت — لنذهب معا فهل تريد ذلك ؟
لو انها قالت له في هذه اللحظة : « ألق بنفسك في
البحر — هل تريد ؟ » ، لطار مندفعا الى الهاوية قبل ان تأتي
على آخر كلمة .
وغادرا الحديقة متوجهين الى البيت لا من خلال شوارع
المدينة بل من خلال اطرافها .

٢٨

لم يرفع سانين بصره عن جيما ، ولم ينقطع عن
الابتسام ، وهو يسير الى جانبها تارة ويتخلف عنها تارة
اخرى . كانت تبدو انها تعجل في خطواتها تارة وتتوقف
تارة اخرى ، ومجمل القول انهما كانا يسيران الى امام كأنهما

* يقصد المؤلف ان المخاطبة كانت تجري بينهما بضمير الجمع
قبل ان يزيل الحب مظاهر الكلفة بين المحبين . (المترجم) .

يسبحان في الضباب . كان شاحبا كل الشحوب ، وكانت هي متوردة من الانفعال ، فان ما فرغا منه منذ لحظات - حين وهب كل منهما قلبه الى الآخر ، كان قويا جديدا رهيبا الى حد تبدل فيه فجأة كل ما في حياتهما وانقلب ، وتعذر عليهما ان يفيقا الى نفسيهما ؛ كل ما ادركاه ان عاصفة فاجأتها ، تشبه تلك العاصفة الليلية التي كادت تلقي بكل منهما في احضان الآخر . مثنى سائين وهو يشعر بان نظرتة نفسها الى جيما قد تغيرت : فقط لحظ في لمحة عين بضع سمات في مشيتها وحركاتها ، - فيا آلهي ! ما أعلى هذا وما أعزّه عنده ! كانت تشعر هي بانه يرمقها بهذه النظرة .

أنهما ، سائين وهي ، يعرفان الحب اول مرة ، فاذا كل معجزات الحب الاول تهبط عليهما . وما الحب الاول ؟ - انه يشبه ثورة : تنفجر فيها هذه الرتابة المتواترة التي تصوغ الحياة اليومية وتتحطم في لحظة واحدة ، ويقف الشباب وراء المتاريس - يرفرف علمه المشرق عاليا ، وسواء كان في انتظاره - الموت او الحياة الجديدة - فانه يقابل ما يلقيه امامه بتحيته الملتهبة .

قال سائين :

- من يكون ؟ أليس هذا شيخنا ؟

وأشار باصبعه الى جسم ملتف بثيابه كان يمرق مسرعا مجانبا كأنه يحرص على ان يبقى بعيدا عن العيون . ففي هذا الفيض من الغبطة شعر سائين بالرغبة في ان يتحدث الى جيما بموضوع آخر غير موضوع الحب الذي اصبح مؤكدا مقدسا لا ريب فيه .

فأجابت بلهجة مرحة سعيدة :

- نعم ، هذا بانتاليوني ، أظن انه خرج من البيت في اثري ، وكان طوال اليوم الفانت وراء كل خطوة من خطواتي . . . لقد حزر !

فردد سانين في ابتهاج ، - وهل من كلمة قالتها جيما
لم تبعث فيه الابتهاج ؟
- لقد حزر !

ثم طلب منها ان تقص عليه كل ما حدث في اليوم
الفأنت .

فأسرعت الى الحديث في لهوجة واعجال وهي تبتسم
وتتنهد وتبادل سانين نظرات قصيرة مضيئة ، فروت عليه :
أن امها بعد الحديث الذي جرى قبل يومين ، جهدت في ان
تحصل منها ، من جيما ، على جواب ، وانها افلتت من فراو
لينوري تلقاء وعد بأن تعلنها برأيها خلال اربع وعشرين
ساعة ، وان اضطلعها بهذا الوعد كبدا كثيرا من المشقة ، ثم ان
السيد كلوير جاءهم على غير توقع ، وهو مترصن متحصن
مقولب أكثر مما كان من قبل ، وانه عبر عن سخطه على
نزوة الروسي الغريب الصبانية التي لا تغتفر (هذا ما قاله
بالحرف الواحد) ، فأنها - وكان يقصد مبارزتك - اهانة
عميقة الاثر له ، لكلوير - وطالبنا بأن نظردك من البيت :
« لأن هذا - قال هو - وهنا حاولت جيما قليلا ان تقلد
صوته وحركاته - يلقي ظلا على شرفي ، فكأنني لم أقدر على
الدفاع عن خطيبيتي حينما وجدت ان ذلك قاطع ناجع !
وستعرف فرانكفورت غدا ان غريبا قاتل ضابطا في سبيل
خطيبيتي ، فما معنى هذا ؟ انه اساءة لشرفي ! » . فتصور ،
كانت ماما تؤيده فيما قال وكلني انبا فجأة ان خوفه على شرفه
وسمعه غير ذي موضوع ، ولن تلحق به اهانة من جراء
التقول على خطيبيته ، لأنني لست خطيبيته بعد اليوم ، ولن
اكون له زوجة أبدا ! ولأعترف بأنني أردت أول الامر ان
اتحدث معكم . . . معك قبل أن اعلنه بالقطيعة ، ولكنه
جاء . . . ولم اقدر على درء نفسي . واستبد الخوف بأمي
فأخذت تصرخ ، أما أنا فقد ذهبت الى الغرفة وجئته بخاتم
الخطبة وأعطيته اياه - ولعلك لم تلحظ انني نزعته هذا
الخاتم منذ يومين ، كان غيظه شديدا ؛ ولكن أنانيته

وغطرسته المغرقتين فرضا عليه ألا يتكلم طويلا وان يذهب . فكرت ان الامر يقتضي مني ان اصبر على امي كل الصبر واكون معها طويلا البال ، وآلمني ان أراها على هذا المقدار من الحزن ، وخطر ببالي انني عجلت قليلا ، ولكن رسالتك كانت عندي ، وانا من دونها كنت أعرف -
- انني احبك ، - قال سانين متمما عبارتها .

- نعم ، انك وقعت في حبي .
هذا ما قالته جيما ، وكانت تتحدث بعباراة مشوشة ، وهي تبتسم ، وتخفص صوتها في الحديث ، او تسكت عن القول كلما أقبل عابر سبيل او مرّ بهما . اما سانين فكان يستمع اليها معجبا مذهولا متلذذا برنين صوتها كما كان مفتونا في اليوم الفائت بخط يدها .
وعادت جيما تقول بكلمات متدفقة يزاحم بعضها البعض :

- امي في كرب عظيم ، فانها لا تريد ان تسيغ ، بأي صورة من الصور ، ان السيد كلوير يملك ما يبعثني على المقت ، وانني استجبت لطلبه بدافع من الحاحها الشديد لا بدافع من حب وهي تنظر اليكم اليك بعين الازتياب - والوقع ، من دون لف ودوران ، انها أيقنت انني احبك ، فكان هذا شديد الوقع في نفسها ، لان مثل هذا الخاطر لم يخطر ببالها قبل يومين ، حتى انها كلفتك بان تقنعني ، فياله تكليفا عجيبا ، أليس كذلك ؟ والآن ، انها تراك تراكم جديرا ان تلقب بالخبيث الماكر ، وتقول بانك كذبت ثقتها بك ، وتتنبا بانك ستكذب علي
فصاح سانين :

- جيما ، ألم تقولي لها ؟ . . .
- لم اقل لها شيئا ! فاي حق كان لني في ان أقول قبل ان اتحدث اليك ؟
فأسبل سانين يديه :
- جيما ، ارجو ان تصارحيها الآن على الاقل ان

تقوديني اليها . . . اريد ان أبرهن لأمك على اني لست
كذابا !

كان صدر سانين يعلو وينخفض من توقد العواطف
الكريمة والاحاسيس الملتهبة .

ونظرت اليه جيما بما وسعت عينها .

— أواثق انك تريد الآن ان تجيء معي الى امي ؟
امي التي توقن ان . . . ان كل ما بيننا مستحيل ، وانه
لن يسفر عن شيء ؟

كانت هناك كلمة تحرق شفتي جيما ولا تجد القوة على
النطق بها ؛ ولكن سانين قالها بطيبة خاطر :

— عن الزواج بك يا جيما ؟ ان منتهي الغبطة ان اكون
لك زوجا !

لم يكن لغرامه ولا لشهامته ولا لعزيمته حدود يعرف
انها تنتهي عندها .

لما سمعت جيما هذه الكلمات تحركت بسرعة بعد ان
توقفت قبيلها لحظة عن السير . . . فكأنها تلتمس الفرار
من هذا الفيض المفاجي من السعادة !

ولكن ساقبها تخاذلا على حين غرة ، فقد برز السيد
كلوبير من زاوية الزقاق على بضع خطوات منها ، وهو في
قبة جديدة ومعطف جديد ، مستقيما كالسهم أجعد الشعر
مثل الكلب البوديل . لما رأى جيما ورأى سانين بدا كأنه
انفجر ضاحكا في سره ، واعتدل الى الورااء بقوامه الاهيف ،
واقبل عليهما متبخترا ، فوجم سانين ؛ ولكنه لما نظر الى
كلوبير الذي بذل ما بذل من الجهد ليكسو وجهه بمظهر
الاستخفاف والدهشة بل حتى بمظهر الشفقة ايضا ، ورأى
الى هذا الوجه الرقيق المبتدل ، طغى عليه الغضب فجأة —
وخطا الى الامام .

أطبقت جيما على يده ، وأعطته يدها الثابتة المطمئنة
وهي تفرز بصرها في وجه خطيبها السابق . . . فوصوص هذا

عينيه ، وتضاءل ، ومر بهما مرّ المجانب وهو يتمتم من خلال اسنانه المطبقة : «النهاية المألوفة لكل اغنية !»
("Das alte Ende vom Liede",) ، وابتعد متبخترا وهو ينطنط قليلا .

فسألها سائين :

— ماذا قال هذا النذل ؟

وهمّ بأن يندفع في اثر كلوير ، ولكن جيما أمسكت به ، وسارت معه مبتعدة وذراعها لا يزال مشبوكا بذراعه .
لما ظهر امامها دكان ورزيلي توقفت جيما مرة ثانية وقالت :

— Dimitri, monsieur Dimitri ، اننا ما نزال هنا لم ندخل البيت ولم نقابل ماما . . . فاذا أردت مزيدا من التروي في الامر . . . واذا . . . فانك لا تزال حرا يا ديميتري .

كان جواب سائين انه ضغط بيدها على صدره بقوة ، وجذبها من هذه اليد الى امام .
قالت جيما وهي تدخل مع سائين الغرفة التي تجلس فيها فراو لينوري :

— لقد جئتك بالرجل الحقيقي !

٢٩

لو أن جيما أعلنت انها جلبت معها الكوليرا او الموت نفسه ، لما كانت فراو لينوري اكثر قنوطا مما أُلّم بها لما تلقت هذا النبا . أسرعت تجلس في زاوية الغرفة راحت بوجهها الى الحائط وغرقت بدموعها ، بل انها طفقت تندب ، فكانت من دون زيادة ولا نقصان مثل فلاحه روسية على تابوت زوجها او ابنها . بلغت الحيرة بجيما في اللحظة الاولى انها لم تهرع الى امها بل وقفت كالتمثال في وسط الغرفة ؛ اما سائين فقد طاش صوابه جملة حتى لقد تهيات

نفسه لذرف الدموع ! ساعة كاملة ! استمر هذا البكاء الذي جلّ عن كل عزاء ، ساعة كاملة ! وفكر بانتاليوني ان الخير في ان يقفل باب الدكان منعاً لدخول غريب - ومن حسن الحظ ان الساعة مبكرة . لقد شعر الشيخ نفسه بالحيرة ، فانه لم يحبذ في ما جرى هذا الاسراع الذي لجأ اليه سانين وجيما ، ولكنه لم يخطر بباله ان يديهما ، بل انه كان مستعداً لنصرتهما وأخذهما برعايته عند الاقتضاء ، فان كراهيته لكلوبيير شديدة ! وكان اميل يحسب نفسه وسيطاً بين صديقه وشقيقته - فشعر ببعض الزهو من ان هذا كله انتهى الى نهاية رائعة ، ولم يكن في وسعه ان يفهم لماذا اکتربت فراو لينوري هذا الكرب ، وفكر في قلبه ان النساء حتى احسنهن تعقلاً وحكمة يعانين من نقص في العقل والحكمة . كان سانين أسوأهم حالاً ، فقد كانت فراو لينوري تصرخ من رأسها وتلطم بيديها كلما همّ بالاقتراب منها ، ولم يجده نفعاً انه عمل على ان يبقى بعيداً وصاح بضع مرات بصوت عال : « اني اطلب يد ابنتك ! » . لقد انصب غضب فراو لينوري على نفسها بالذات : « كيف عميت عن هذا ولم أتبصر شيئاً ؟ » وأكدت من خلال الدموع : « لو ان جيوفاني باتيستا حي يرزق لما حدث شيء من هذا ! » - وفكر سانين : « يا آلهي ما هذا ؟ لا شك انه غاية السخف ! » . لم يجد في نفسه الجرأة على النظر الى جيما ولا هي اعترفت أن ترفع اليه عينيها . لقد حزمت أمرها على المصابرة فأقبلت تعنى بأمرها ، ولكن امها صدها في البداية عن نفسها كما صدت غيرها . . .

ثم انتهت العاصفة شيئاً فشيئاً الى الهدوء ، فأمسكت فراو لينوري عن البكاء ، وأذنت لجيما ان تأخذ بيدها من الركن الذي كانت تنزوي فيه وتجلسها في مقعد قريب من النافذة ، وان تعطيها للشرب ماء معطراً بعطر البرتقال ، وسمحت لسانين - لا ، لم تسمح له بأن يقترب منها ، اوه ، لا - وانما سمحت له بما قلّ ، بأن يبقى في الغرفة

(وكانت تصر من قبل على ان يذهب) وأمسكت عن قطع
سبيل الكلام عليه كلما بدأ . وانتهز سانين فرصة الهدوء
المخيم فأظهر البديع الرفيع من فصاحة اللسان : وما كان
ليستطيع الا في عسر ان يعرض على جيما نفسها ما كان
يعتزمه ويشعر به بمثل ما اظهر وقتئذ من توقد الحماسة
وقوة الاقناع ، كانت هذه المشاعر هي النيات نفسها ،
والنيات طاهرة نقية كما هي عند آلمافيها في «حلاق
اشبيلية» . - ولم يخف على فراو لينوري ولا على نفسه
وجوه الغبن في هذه النيات ، ولكنه غبن سطحي : فالحقيقة
انه أجنبي ، لم يتعرف اليهم الا منذ وقت قريب ؛ هم لا
يعرفون شيئا قاطعا مانعا عن احواله الشخصية والمالية ،
ولكنه مستعد لتقديم كل ما يؤكد أنه ذات محترم ميسور
الحال ، مع الاشارة الى كثير من الشهود الموثوق بهم من
مواطنيه ! - ويأمل في ان تكون جيما سعيدة معه ، وان
يقدر على تعويضها بالمسرة بدلا من فراق الاهل ! . . -
كادت الاشارة الى الفراق بهذه الكلمة ان تخرب العملية
كلها . . . فقد اهتز بدن فراو لينوري اي اهتزاز ، ونبا
بها المقعد . . . فأسرع سانين الى القول بان الفراق سيكون
وقتها ليس غير ، وقد لا يكون في النهاية فراق على الاطلاق .
لم تذهب فصاحة سانين نفخة في رماد ، فقد بدأت
فراو لينوري تنظر اليه ، ولئن لم تخل نظرتها من الحسرة
واللوم ، فانها خلت مما كان فيها من النفور والغضب ؛ ثم انها
أذنت له بالاقتراب منها ، بل أذنت له بالجلوس الى جنبها
ايضا (وكانت جيما جالسة في الجانب الآخر) وأخذت تعاتبه
بالكلمات بعد النظر مما دل على ان قلبها بدأ يلين ، واخذت
تتشكى ولكن شكواها أصبحت خافتة هادئة . وتناوبت
شكاواها مع أسئلتها التي كانت توجهها الى كل من سانين
وجيما ؛ ثم سمحت له بان يسندها من يدها ولم تسحب
يدها في الحال . . . وما لبثت ان عادت الى البكاء - ولكن
بدموع مختلفة كل الاختلاف عن الدموع التي ذرفت منذ

قليل . . . ثم ابتسمت في أسى وتحسرت على غياب المرحوم جيوفاني باتيستا ولكن ليس بالمعنى السابق . . . وانقضت لحظة أخرى - فإذا المذنبان سائين وجيما كلاهما راعع على ركبتيه امامها ، وهي تضع يدها على التتابع فوق رأسيهما ، وانقضت لحظة في اثر اللحظة الماضية ، فإذا هما يعانقانهما ويقبلانهما ، واميل يجري في انحاء الغرفة مبتهجا متهلل الوجه ، ثم اندفع نحو المتعانقين وارتص معهم في كتلة واحدة .
أطل بانتاليوني على الغرفة ، فابتسم في امتعاض واستدار عائدا الى الدكان يفتح بابه المفضي الى الشارع .

٣٠

حدث الانتقال من القنوط الى الحزن ، ومن الحزن الى «ريزينيتسيا الهادى» * على نحو سريع عند فراو لينوري ؛ ولكن هذا الاستسلام الهادى لم يلبث ان صار الى غبطة خفية تكتمت أمرها جملة وكبتتها حفاظا على الوقار .
لقد انفتح قلبها لسائين منذ اليوم الاول الذي تعرفت فيه اليه ، واعتادت فكرة أنه سيكون صهرها ، ولم تجد في هذه الفكرة اي شائبة ولكنها حسبت ان واجبها يقضي بان تحتفظ في وجهها ببعض الاشياء . . . او على الاصح بمظهر الهم وانشغال البال ، يضاف الى هذا ان ما حدث في الايام الاخيرة كان بعيدا عن المؤلف . . . يحدث دائما كل شيء في آن واحد ! كذلك حسبت فراو لينوري ان واجبها ، امرأة عملية وأما ، يتأداها ان تمتحن سائين بمختلف الاسئلة : اما سائين الذي ذهب في الصباح الى لقاء جيما وهو خالي البال من فكرة الزواج بها - فالحقيقة انه لم يفكر بهذا وقتذاك ، وانما كان منطلقا مع اشواقه فقط - فانه قام بدوره احسن قيام ، بل يمكن القول انه أداه في

* الاذعان للقدر ، الاستسلام (حاشية المؤلف) .

حماسة ، وهو دور الخاطب الراغب ، فاجاب على ما طرح عليه من الاسئلة في دقة وتفصيل ورحابة صدر . وبعد ان تحققت فراو لينوري من انه نبيل حقيقي نسبا وأرومة ، وظهرت دهشتها من انه ليس أميرا ، اتخذت هيئة الجد ، « حذرته مقدما » من انها لن تتخرج معه ولن تتكلف بل ستكون صريحة كل الصراحة - لأن هذا مما يفرضه واجب الامومة ! - وأجاب سانين على قولها بانه لا ينتظر منها غير ذلك ، وانه يرجوها ويلح في الرجاء - ألا تشفق عليه ! عندئذ قالت فراو لينوري بان الهر كلوبير (لما نطقت بهذا الاسم ارسلت زفرة قصيرة وضغطت على شفيتها وتلعثمت بالكلام) - الهر كلوبير خطيب جيما السابق له الآن دخل يبلغ ثمانية آلاف غولدن ، وسيزداد هذا الدخل في كل عام ، فكم يبلغ دخل السيد سانين ؟

- ثمانية آلاف غولدن ، - كرر سانين وهو يمد في صوته - هذا يساوي بعملتنا - ما يقرب من الخمسة عشر الفا روبلات ورقية . . . ان دخلي أقل من هذا كثيرا . عندي ضيعة غير كبيرة في ولاية تولا اذا أحسنت ادارتها أعطت - بل يجب أن تعطي خمسة آلاف او ستة آلاف من الروبلات . . . واذا أخذت بالعمل في وظيفة حكومية - فاني أستطيع في يسر وسهولة ان أحصل على راتب مقداره الفان من الروبلات . صرخت فراو لينوري :

- وظيفة في روسيا ؟ هذا معناه الافتراق عن جيما !
فالتقط سانين الكلام :

- قد أعمل في السلك الدبلوماسي فان لي روابط ببعض النافذين ، وتكون الوظيفة عندئذ في خارج روسيا ، بل هناك ما يفضل هذا جميعا : بيع الضيعة واستعمال ما نقبضه من المال في عملية رابحة ، كاصلاح شؤون الدكان على سبيل المثال . - كان يشعر سانين بان ما يقوله كلام فارغ ، ولكن جرأة غير مفهومة عصفت فيه . لما نظر الى جيما ، وكانت منذ ان بدأ الحديث « العملي » لا تستقر على حال ، فهي واقفة ، او

رائحة جائية في الغرفة ، او جالسة - لقد تداعت الحدود لما
نظر اليها ، واصبح على استعداد لتدبير كل أمر في الحال ،
وعلى أحسن الوجوه ، تلقاء عودة السكينة الى نفسها وزوال
كل ما بها من القلق . وقالت فراو لينوري بعد قليل من
التردد :

- لقد أراد السيد كلوبير ايضا ان يعطيني مقدارا من
النقود لتحسين احوال الدكان .

فهمت جيما بالايطالية :

- ماما ، نشدتك الله !

فأجابت فراو لينوري بالايطالية ايضا :

- ما يقال في مثل هذه الشؤون يجب ان يقال في وقته
يا بنتي .

وعادت تلتفت الى سائين لتسأله عن قانون الزواج المعمول
به في روسيا ، وما هي المحاذير التي تحول دون الزواج من
كاثوليكية كما هي الحال في بروسيا (في ذلك الوقت ، وهو
سنة ١٧٤٠ ، كانت المانيا تذكر تلك الضجة التي قامت بين
الحكومة البروسية وبين رئيس أساقفة كولونيا حول الزواج
المختلط) . لما سمعت فراو لينوري ان ابنتها ستتزوج من
نبيل روسي ، وان ابنتها نفسها ستصبح من النبلاء - اظهرت
شيئا من الغبطة ، وقالت : - واذن ، يجب عليك ان تذهب
أولا الى روسيا ؟

- لماذا ؟

- كيف لا ؟ لتستأذن القيصر .

فأوضح سائين لها ان هذا لا ضرورة له . . . ولكن
ينبغي له على التحديد ان يعود الى روسيا قبل الزواج ويقضي
وقتا قصيرا (قال هذه الكلمات وقلبه يعتصره الألم - وأدركت
جيما انه يتألم حينما نظرت اليه - فتورد وجهها واستغرقت
في التفكير) - وانه سينتهز فرصة عودته الى بلاده
فيحاول ان يبيع ضيعته . . . ومهما يكن من الامر فانه سيعود
حامل ما يلزم من النقود .

قالت فراو لينوري :

– ارجوك كذلك ان تحمل الي من هناك فراء استراخان
للمعطف ، فالمسموع انه هناك مدهش بجودته ورخصه !

فصاح سائين :

– من كل بد ، سأحمل هذا الفراء لك ولجيما بكل
سرور !

وتصدى اميل للكلام وهو يطل برأسه من الغرفة
المجاورة :

- واحمل لي قبعة من الجلد مطرزة بالفضة .
 - – طيب سأفعل ، وسأتي بانتاليوني بحذاء .
- ولاحظت فراو لينوري قائلة :

– ما هذا ؟ اننا نتكلم الآن على امور جدية ، نعم فهناك
شيء آخر ايضا – قالت السيدة العملية – انك تحدثت عن
بيع الضيعة ، فما سبيلك الى هذا ؟ هل بات عليك أن تبيع
الفلاحين ايضا ؟

شعر سائين بوخزة في جنبه ، وتذكر ما دار بينه وبين
السيدة روزيلي وابنتها من حديث عن استرقاق الفلاحين ،
الذي يثير على حد قوله غيظا عميق الغور في نفسه ، فذهب يؤكد
ويعيد تأكيده ، بأنه لن يبيع فلاحيه في اي حال لانه يعتقد
ان مثل هذا البيع عمل غير اخلاقي .
وقال في كلمات متعثرة :

– سأجتهد في ان أبيع ضيعتي من انسان اعرف انه من
طرز طيب ، او عسى ان يقدر الفلاحون على افتداء انفسهم .
– هذا احسن حل ، فان بيع البشر
— *Barbari!

صاح بانتاليوني بهذا وهو يطل من وراء اميل خلال
الباب ، وهز فروة شعره ثم اختفى .
فكر سائين في نفسه : « هذا سيء ! » وهو يسترق نظرة

* برايرة (بالاطالية) .

الى جيما . وبدا انها لم تسمع كلماته الاخيرة ، فاستدرك مفكرا
في نفسه ايضا : « واذن لا بأس ! » .

استمر الحديث عن الشؤون العملية على هذا النحو حتى
حل موعد الغداء ؛ وارتاضت فراو لينوري آخر ، واخذت
تنادي سائين باسمه المجرد - ديميتري ، وتهدهه باصبعها
في لطف ، وتتوعده بالثأر منه تلقاء غدره بها ، وسألته عن
تفصيلات كثيرة عن أهله - « لأن هذا على جانب كبير من
الأهمية أيضا » ، وفرضت عليه ان يصف لها طقوس الزفاف
كما ترسمها تقاليد الكنيسة الروسية - واستسلمت مقدما
لنشوة الاعجاب بجيما وهي في الثوب الابيض والتاج الذهبي
على رأسها ، وصاحت بزهو الامومة :

- انها جميلة كالملكة - بل ان نظائرها من الملكات لم
يخلقن في العالم !

والتقط سائين الكلام فقال :

- لم يخلق في العالم الا جيما واحدة !

- نعم ، ولهذا سميت جيما ! (من المعروف أن جيما
باللغة الايطالية معناها الدرة الكريمة) .

اندفعت جيما تقبل امها وبدا انها تستطيع الآن
فقط ان تتنفس في حرية وأن عبئا ثقيلا زال عن صدرها .
وشعر سائين فجأة بانه في غاية السعادة ، وان مرحا طفليا
يملا قلبه ، منبعثا من هذه الفكرة ، وهي ان أمانيه التي
خطرت بباله في هذه الغرفة نفسها قد تحققت ؛ فاذا نفسه
تشتعل رغبة في ان يذهب مسرعا الى الدكان ، وكان يتمنى من
كل قلبه ان يقف الى منصة البيع هناك كما فعل منذ بضعة
ايام . . . « اني كما يقال املك هذا الحق الآن ، فاني واحد
من اهل الدار ! »

ذهب بالفعل يقف وراء المنصة ، ويقوم باعمال البيع ،
فباع ذات مرة من طفلتين طلبتا رطلا واحدا من الملابس
فأعطاهما رطلين بدلا من واحد وقبض منهما نصف الثمن
فقط .

واقترضت الرسميات ان يجلس اثناء الغداء الى جنب جيما باعتباراه خطيبها ، واستأنفت فراو لينوري افكارها العملية ، وكان اميل يضحك بين الوقت والآخر ، وقد رجا سانين ان يستصحبه الى روسيا ؛ ثم استقر الرأي على ان يكون سفر سانين بعد اسبوعين . اما بانتاليوني فانه الوحيد الذي ظهر متجههم السحنة قليلا حتى ان فراو لينوري عرضت به في قولها : « لقد كنت شاهد المباراة ! » - فقطب وجهه وصار ينظر من تحت حاجبيه .

ركنت جيما الى الصمت اكثر الوقت ، ولكن وجهها لم يبلغ ما بلغه وقتئذ من الملاحظة والاشراق ، ثم دعت سانين بعد الغداء الى دقيقة يقضيانها في الحديقة ووقفت هناك عند المقعد الذي كانت تنتقي عليه الكرز وقالت :

- ديميتري لا تغضب مني . ولكني أريد ان أذكرك مرة ثانية بأنك غير مضطر الى حساب نفسك مقيدا بشيء .
لم يعطها فرصة للاستمرار في الكلام . . .
وادارت جيما وجهها .

- اما بخصوص ما لمحت امي اليه - أتذكر ؟ - عن اختلاف مذهبينا فما هو ذا . . .
واجتذبت صليبا من العقيق الاحمر معلقا حول عنقها بشريط دقيق ، فقطعته بنثرة شديدة ، وقدمت اليه الصليب .
- ما دمت لك - فان مذهبك مذهبي !
لما عاد سانين مع جيما الى البيت كانت الدموع لا تزال آثارها في عينيه .

ثم جاء المساء ، فاذا كل شيء يذهب في مجراه الطبيعي ، حتى انهم لعبوا بالورق لعبة « التريستي » .

٣١

استيقظ سانين مبكرا في صباح اليوم التالي . كان في قمة الهنأة الانسانية ، ولكن لم يكن هذا الذي أقض مضجعه ، وانما هو موضوع حيوي ، موضوع محتوم : ما السبيل الى

بيع ضيعته ، بأسرع وقت ، وأنسب ثمن ؟ هذا ما كان يعكر اطمئنانه ؛ وقد تعارضت في رأسه مشروعات شتى من غير أن يكون بينها مشروع واضح راجح ؛ ثم غادر مسكنه لاستنشاق الهواء النقي ، وأراد ألاّ يمثل امام جيما الاّ بمشروع جاهز ، لا غير .

لمن هذا الجسم الذي يسير امامه ثقيل الوزن غليظ الاطراف ولكنه حسن الهندام ، وهو يتمايل قليلا ويطلع ؟ واين رأى هذا القدال الذي تتدلى منه هذه الخصل الشهباء ، وهذا الرأس الذي يبدو كأنه لاصق بالكتفين ، وهذا الظهر الشحيم اللحيم اللين ، وهاتين اليدين المنتفختين المسترخيتين ؟ أليس هذا بولوزوف زميل الدراسة القديم الذي اضاع سحته منذ خمس سنين ؟ أسرع سائين حتى اجتاز بالجسم الذاهب ثم التفت . . . فاذا وجه عريض مصفار ، بعينين صغيرتين خنزيريتين ، وشعر ابيض في الحاجبين والرموش ، وانف قصير مسطح ، وشفتين غليظتين مصمغتين ، وذقن حليقة مدورة . أمّا سيمة هذا الوجه جميعا ، فانها حامضة ، كسلى ، مرتابة - نعم ، هذا هو بالذات : ايبوليت بولوزوف ! « أليس معنى هذا ان تجمي يثبت وجوده مرة ثانية ؟ » - ومضت هذه الخاطرة ببال سائين .

- بولوزوف ! ايبوليت سيدوريتش ، أهذا أنت ؟ فتوقف الجسم ، ورفع عينيه الصغيرتين ، وانتظر قليلا - ثم شق شفثيه الملتزقتين ، وقال بصوت أجش :

- ديميتري سائين ؟

فصاح سائين :

- هو بالذات !

وصافح احدى يدي بولوزوف المحشورتين في قفازين رماديين من جلد الماعز ، وهما كالعهد بهما مسترخيتان على جنبيه من غير حياة . - أنت هنا منذ وقت طويل ؟ من اين قادم ؟ واين تقييم ؟

- فاجاب بولوزوف في بطاء :
- وصلت من فيسبادن امس ، في شراء اشياء لزوجتي ،
وسأعود الى فيسبادن اليوم .
- آه ، نعم ، انت متزوج ، ويقولون ان زوجتك حسناء
وأى حسناء !
- فقال بولوزوف وهو يدير وجهه :
- نعم هذا ما يقولونه .
فضحك سائين :
- أرى انك لا تزال عديم الاكتراث كما كنت على ايام
المدرسة .
- ولماذا أتغير ؟
- ويقولون — شد سائين على كلمة « يقولون » — ان
زوجتك واسعة الثراء .
- يقولون هذا ايضا .
- وانت يا ايبوليت سيدوريتش ، ألا تعلم هذا ؟
- انني يا اخ ديميتري . . . بافلوفيتش ؟ اي نعم
بافلوفيتش ! لا أتدخل في شؤون زوجتي .
- لا تتدخل ؟ ولا في اي شأن آخر ؟
- فطرف بولوزوف بعينيه :
- ولا في اي شأن آخر يا أخ . انها في حالها ، وانا
في حالي .
- فسأله سائين :
- والى اين ذاهب انت الآن ؟
- لا أذهب الآن الى اي مكان ، وانما أقف في الشارع ،
وأبادلك الحديث ، وعندما نفرغ من بعضنا البعض ، سأحمل
نفسي الى الفندق لأتناول طعام الفطور .
- أتريدني في رفقتك ؟
- أتقصد رفقتي على الفطور ؟
- نعم .

– تفضل ، فالطعام مع رفيق أهنا . هل انت قليل الكلام ؟

– اعتقد ذلك .

– واذن اتفقنا .

فتحرك بولوزوف الى الامام وهو يلهث ويتمايل ، والترزت الشفتان الغليظتان ، فكر سانين وهو يسير الى جانبه : بأي وسيلة استطاع هذا البليد ان يقتنص زوجة جميلة غنية ؟ فما هو بالغني ولا باللامع ولا بالذكي ، كان معروفا في المدرسة بانه ولد راكد الهمة والذهن نؤوم أكول ، لقبه الشائع « أبو ريال » * – انها لمعجزة !

« ولكن اذا كانت زوجته واسعة الثراء – ويقال انها بنت واحد من المتعهدين – أفلا تشتري ضيعتي ؟ لقد زعم انه لا يتدخل في شؤون زوجته ، ولكن هذا لا يصدق ! فوق هذا سأعرض ثمنا ملائما مغريا ! فلماذا لا أحاول ؟ لعل هذا دليل على ان نجمي يثبت وجوده ، فلنعزم ، ونجرب ! »

سار بولوزوف بسائين الى واحد من أحسن فنادق فرانكفورت ، وطبيعي انه احتجز احسن غرفة فيه . كانت اللعب والصناديق والصرر متكوّمة على المناضد والمقاعد . . . « كل هذه المشتريات يا أخ تخص ماريا نيقولايفنا ! » (وهو اسم زوجة ايبوليت سيدوريتش) ، وارتمى بولوزوف على مقعد وهو يئن : « يا له من قيظ ! » حل رباط عنقه ، ثم قرع الجرس يدعو الوصيف ، واوصاه في عناية ان يهيب فطورا سخيا . « يجب ان تكون العربة جاهزة – اسمع ، في تمام الساعة الواحدة ! »

فانحنى الوصيف في خنوع ، وتوارى كالعبد . حل بولوزوف ازرار صدرته . كان في مظهره حين ارتفع حاجباه ، وضاق نفسه ، وتفضن خطمه ، ان الكلام سيكون عبئا ثقيلا عليه ، وانه يستشعر بعض القلق من ان يضطره

* الريال – اللعاب . (المترجم) .

سانين الى تحريك لسانه ، او لعله ان يحمل عنه كل اعباء
المحادثة .

فهم سانين مزاج صاحبه فأمسك عن ارهاقه بالاستئلة ،
واقصر على الضروري منها فعرف : انه قضى في الخدمة
العسكرية (في سلاح الفرسان ! فياسلام على اللباقة واللياقة وهو في
السترة العسكرية القصيرة !) وتزوج منذ ثلاث سنين ،
وهذه السنة الثانية التي يقضيها مع زوجته في الخارج «وهي
الآن تستشفى من شيء ما في فيسبادن» ، وسترحل بعدئذ
الى باريز . لم يستفص سانين من جهته في الحديث عن حياته
الماضية وعن مشاريعه ، بل دخل لب الموضوع ، وتحدث
عما يهمه وهو بيع ضيعته .

كان بولوزوف يستمع اليه صامتا ، وينظر بين الحين
والآخر الى جهة الباب حيث ينبغي ان يأتي الفطور ، ثم جاء
الفطور أخيرا . ظهر الوصيف ومعه اثنان من الخدم وقد حمل
عددا من الاطباق بأغطية من الفضة . وقال بولوزوف وهو
يجلس الى المائدة ويضع فوطة في ياقة قميصه :
— هل تقع ضيعتك في ولاية تولا ؟
— في ولاية تولا .

— انها في منطقة يفريموف ... أعرف ...
فسأله سانين وهو يجلس ايضا الى المائدة :
— أنت تعرف ضيعتي في قرية الكسييفكا ؟
— وكيف لا أعرف ؟— وحشر بولوزوف في فمه لقمة من
البيض المقلي بالكماة ،— تملك زوجتي ماريا نيقولايفنا
ضيعة في جوارها ...— أيها الوصيف ، افتح هذه الزجاجة —
الارض كبيرة ولكن فلاحيك قطعوا الغابة — لماذا تريد ان
تبيع ضيعتك ؟

— انها الحاجة الى النقود يا أخ ، وانا مستعد للبيع
بشمن بخس ، فلعلك ان تشتريها ... انها فرصة طيبة .
ابتلع بولوزوف كأسا من النبيذ ومسح شفثيه بالفوطة
وعاد يمزغ في بطء وشقشقة ، ثم قال :

— ن . . . نعم ، — انا لا أشتري الضييع : ليس عندي نقود — ناولتي الزبدة . لعل زوجتي تستطيع ان تشتري ، فتحدث اليها ، واذا عرضت ثمننا معقولا فانها لا تتعفف . . . ولكن ما طينة هؤلاء الالمان — حمير ! لا يستطيعون ان يقلوا سمكة وهذا من أبسط الامور ، ثم يتحدثون فوق هذا عن : « توحيد الاراضي الالمانية » ، يا وصيف ، ارفع هذه الفطاعة .

سأله سائين :

— اتقصد ان زوجتك تشرف بالذات على . . . ادارة املاكها ؟

— هي بالذات ، — هذه الشرائح جيدة ، اوصيك بان تذوقها . قلت لك يا ديميتري بافلوفيتش اني لا أتدخل في شيء من شؤون زوجتي ، وأعيد عليك الآن ما قلت من قبل . واستأنف بولوزوف المضغ .

— هم . . . ولكن كيف السبيل الى الحديث معها يا ايوليت سيدوريتش ؟

— هذا بسيط للغاية يا ديميتري بافلوفيتش . سافر الى فيسبادن ، فهي غير بعيدة عن فرانكفورت . يا وصيف ، هل عندكم خردل انكليزي ؟ لا ؟ بهائم ! ولكن عليك ألا تضع الوقت فأنا راحلون بعد غد . اسمح بان أملأ قدحك : النيذ المنتقى يخلو من الحموضة .

دبت الحيوية في وجه بولوزوف وتضرج بالاحمرار ، فهو لا ينتعش الا حينما يأكل . . . او يشرب . وتمتم سائين :

— الحقيقة انني لا أعرف السبيل الى تحقيق هذه الغاية .

— وما هذا الامر الذي استعجلك فجأة ؟

— لديّ ما يعجلني يا أخ .

— هل تحتاج الى كثير من المال ؟

— الى كثير منه ، فاني . . . كيف أشرح لك ؟ لقد

اعتزمت . . . ان أتزوج .

وضع بولوزوف القدرح على المائدة وكان قد رفعه على شفتيه ، وصاح بصوت يحشرج من الدهشة :
- تتزوج ؟

وأضاف بالصوت نفسه وهو يضع يديه المنتفختين على بطنه :

- أهكذا على جناح السرعة ؟
- نعم ... على جناح السرعة .
- الخطيبة - في روسيا بطبيعة الحال ؟
- ليست في روسيا ، لا .
- اين هي اذن ؟
- هنا في فرانكفورت .
- وممن تكون ؟
- ألمانية ؛ لا ، بل انها ايطالية تعيش هنا .
- ذات مال ؟
- من غير مال .
- معنى هذا ان الحب عنيف جدا ؟
- يا لك مضحكا ! اي نعم عنيف .
- ومن أجل هذا تحتاج الى النقود ؟
- أي نعم ... نعم ، نعم .

ابتلع بولوزوف النبيذ ، وتمضمض وغسل يديه وجففهما بالفوطة في عناية ، وأشعل سيجارا . وكان سائين ينظر اليه صامتا .

وغمغم بولوزوف اخيرا وهو يلقي برأسه الى الورااء وينفث الدخان في خيط رفيع :

- امامك وسيلة واحدة . قابل زوجتي ، فاذا ارادت مسحت مصيبتك باليد .

- طيب ، ولكن ما السبيل الى رؤية زوجتك وانت تقول انكما مسافران بعد غد ؟

أغمض بولوزوف عينيه ، ثم قال وهو يدير السيجار بين شفتيه ويتنهد :

— أتعرف ما سأقوله لك ؟ اذهب الى مسكنك ، وجهر نفسك بسرعة— وعد الى هنا . سأرحل في الساعة الواحدة ، فعربتي رحيبة وأستطيع ان أخذك معي . هذا أحسن حل . والآن أريد ان أنام ، فاني يا أخ لا أكاد أكل حتى أطلب النوم . حكم الطبيعة وأنا لا أعارض فيه ؛ وعليك ألا تزعجني . فكر سائين وفكر ، ثم رفع رأسه فجأة وقال في حزم : — طيب وافقت ، وانا شاكر لك هذا . سأكون هنا في منتصف الساعة الواحدة ، ونرحل معا الى فيسبادن . فأتمنى ألا تغضب زوجتك .

ولكن بولوزوف كان يهوم ، وتمتم مستعظفا : « لا تزعجني ! » وهز رجليه وهو ينام مثل الطفل الرضيع . عاد سائين ينظر اليه جملة ، الى جسده الهائل ، الى رأسه ، الى عنقه ، الى ذقنه المستديرة كالتفاحة ، المرفوعة الى اعلى ، وغادر الفندق بخطوات مسرعة قاصدا دكان روزيللي ، فقد كان لا بد من أن يحمل هذا النبا الى جيما .

٣٢

وجدها في الدكان مع أمها . كانت فراو لينوري تحني ظهرها وييدها مقياس فوتات* صغير تقيس به ما بين النوافذ ، فاستقامت لما رأت سائين وحيته في مرح يشوبه بعض التحرج ، وقالت :

— كل الافكار تدور في رأسي بعد كلامك امس عن تحسين مخزننا . انظر ، أتمنى ان أضع هنا خزانتين برفوف من المرايا ، معلومك ان موضتها دارجة الآن ، ثم ايضا . . . قاطعها سائين :

— رائع ، رائع ، كل هذا يجب ان يكون موضع تفكير . . . ولكن تعالا الى هنا ، اريد ان أنبئكما بشيء . —

* وحدة قياسية للاطوال (المترجم) .

وأخذ فراو لينوري وجيما من الذراعين ، وقادهما الى غرفة اخرى . قلقت فراو لينوري فسقط المقياس من يدها ، وكذلك قلقت جيما ، ولكنها شعرت بالاطمئنان لما أمعنت النظر في سائين . كان وجهه يدل في الحقيقة على انشغال البال ، ولكنه يعبر في الوقت نفسه عن الانشراح والنشاط والعزم .

رجا المرأتين ان تجلسا . اما هو فقد وقف امامهما ملوحا بيديه مشعثا شعره ، وهو يروي عليهما كل ما جرى : لقاءه ببولوزوف ، وسفره المتوقع الى فيسبادن ، وامكان بيع الضيعة ؛ وهتف في الختام :

— تصورا سعادتي ، فالامور تطورت على نحو قد لا يبقى فيه ما يدعوني للسفر الى روسيا ! وتستطيع ان نجعل الزفاف في موعد أقرب مما توقعت !
فسألته جيما :

— متى ينبغي لك ان تسافر ؟

— اليوم — بعد ساعة ، فقد استأجر صديقي عربة وسيصحبني معه .

— أستكتب اليانا ؟

— من دون بطء ! فما ان أتحدث الى هذه السيدة حتى أكتب من فوري .

فسألته فراو لينوري العملية :

— أتقول ان هذه السيدة غنية جدا ؟

— جدا . كان أبوها من أصحاب الملايين وقد ورثت ثروته جميعا .

— كل ثروته لها وحدها ؟ واذن هذا من حسن حظك . ولكن خذ بالك ، لا تبخس في ثمن ضيعتك ! كن متبصرا صلبا ، ولا يدفعتك الهوى الى التساهل ! اني أدرك امنيتك ، فانت تبحث عما يعجل في زواجك من جيما ، ولكن التروي قبل كل شيء — ولا تنس ان كل زيادة في ثمن الضيعة سيكون زيادة في ما يبقى لكما ولاولادكما .

استدارت جيما بوجهها وعاد سانين الى التلويح بيديه .
— تستطيعين يا فراو لينوري ان تثقي بأناتي ! ليس
في نيتي ان أساوم ، بل سأقول الثمن الحقيقي ، فاذا دفعت —
كان خيرا ، واذا لم تدفع — فالله معها .
وسألته جيما :

— هل تعرف هذه السيدة ؟

— لم أرها في الوجه ابدا .

— ومتى تعود ؟

— بعد غد اذا لم تسفر القضية عن نتيجة ، اما اذا
سارت الامور على ما يرام فقد أعود في بحر يومين — ثلاثة ،
ومهما يكن من الامر فاني لن أتأخر دقيقة واحدة . فاني اترك
روحي كلها هنا ! ولكني استغرقت معكما في الكلام ، وينبغي
ان أعوج على مسكني قبل الرحيل . . . فراو لينوري ،
أعطني يدك على تية الحظ — فان هذا عادة عندنا في روسيا .
— أتريد اليمنى ام اليسرى ؟

— اليسرى فهي قريبة من القلب . سأعود بعد غد حاملا
درعي او محمولا عليها ! ولكن هاتفا يهتف بي أنني سأعود
منتصرا ! الى اللقاء يا أعزائي يا أحبائي . . .

ثم عانق فراو لينوري وقبلها ، وطلب من جيما ان
تأتي معه مقدار دقيقة الى غرفتها لأن عليه ان يفضي اليها
بأمر ضروري جدا ، وكان يرمى ببساطة الى الانفراد بها
لتوديعها ، وأدركت فراو لينوري ذلك فلم تتطفل بالسؤال
عن هذا الامر الضروري . . .

لم يدخل سانين غرفة جيما قبل هذه المرة ، فاذا اشواق
الحب ونيرانه وبهجته وعدوبته المروعة تقتمح نفسه وتشتعل
فيه ، حينما اجتاز العتبة المقدسة . . . وتلفت يلقي فيما حوله
نظرة مبهور ، ثم ركع امام فتاته الحبيبة وألصق وجهه
بجسمها فهمست :

— هل انت لي ؟ أتعود بسرعة ؟

فقال مؤكدا وهو يلهث :

— أنا لك ... وسأعود .

— سانتظرك يا عزيزي .

بعد لحظات كان سانين يركض في الشارع بطريقه الى مسكنه ، ولم يلحظ ان باتتاليوني اندفع من باب الدكان في اثره ، أشعث مهتاجا ، وهو يصرخ بكلمات مبهمه ، ويهز يده المرفوعة الى أعلى كأنما يتوعده .

في تمام الساعة الواحدة الآ ربعا عاد سانين الى بولوزوف . كانت عربة بأربعة جياذ تقف امام بوابة الفندق . لما رآه بولوزوف لم يزد على ان قال : « آ— واذن صممت ؟ » ، وليس قبعته ومعطفه وقالوشه ، وحشر في أذنيه بعض القطن على الرغم من فصل القيط وخرج الى فناء الفندق . كان الوصفاء قد رتبوا مشترياتهم الوافرة في داخل العربة بناء على تعليماته ، وغطوا مقعدها بالوسائد الحريري والحقائب والحزم ، ووضعوا عند قدميه صندوق الزاد ، وربطوا احدى الحقائب الكبيرة الى مقعد الحوذي . وزع بولوزوف النقود بيد سخية— على الرغم من عناية البواب ولباقتة وهو يسنده من وراء بترفق واجلال ، فانه كان ينفخ ويتأوه وهو يتسلق سلم العربة ، ثم قبع في مكانه فرتب ما حوله ومهده ، وبعد ان انتقى سيجارا أوما بأصبعه الى سانين : « تعال انت انحشك أيضا » ، فجلس سانين بجنبه ، وأرسل بولوزوف امره الى الحوذي بطريق البواب ان يقود العربة ملتزما بالدقة ، وسيكون له « حلوتها » اذا أحسن عملا . ثم قعقت السلام ، وانصفت الابواب ، ودارت دواليب العربة .

٢٣

يستغرق السفر بالقطار الآن من فراآكفورت الى فيسبادن اقل من ساعة . كانت عربة البريد الممتازة تقطع هذه المسافة في ذلك الزمن بثلاث ساعات ، وتستبدل الجياذ

خلال الطريق خمس مرات . كان بولوزوف يغفي تارة ، او يتأرجح والسيجار بين أسنانه ، لم يتكلم الا قليلا ، ولم يلق من النافذة نظرة واحدة : فالمناظر الطبيعية لا تعجبه ، بل لقد أفاد بأن « الطبيعة - موت له ! » . كذلك ركن سائين الى الصمت ، ولم يستظرف هذه المناظر ، ثم انه كان في واد آخر ، فاستغرق في التفكير وفي الذكريات . كان بولوزوف دقيقا في توزيع النقود على مستحقيها في المحطات ، والنظر في ساعته للتحقق من الوقت ، وقد وزع الهبات على السواقين والسواس كل بحسب جده واجتهاده ، وفي منتصف الطريق سحب من صندوق الزاد برتقالتين ، فاخص نفسه بأحسنيهما ، وناول سائين الثانية ، فحقد سائين في رفيقه وانفجر ضاحكا على حين غرة ؛ فسأله بولوزوف وهو يسلم جلد البرتقالة بأظفاره البيضاء القصيرة :

— ماذا أضحكك ؟

فكرر سائين :

— ماذا ؟ - اني أضحك من رحلتنا .

فعاد بولوزوف يسأله وهو يمر في فمه جزءا هُبره

من لحمة البرتقالة :

— وماذا فيها ؟

— ان امرها في غاية الغرابة ، فقد كنت لا تخظر بيالي

امس - بصراحة - الا كما يخظر امبراطور الصين - فاذا انا

أرحل معك اليوم ، لأبيع ضيعتي من زوجتك التي ليس لي

عنها اي فكرة .

فأجاب بولوزوف :

— لا يستبعد شي - وكلما عشت كثيرا رأيت كثيرا .

مثلا : أتستطيع ان تتصورني على صهوة جواد ضابطا في

سلاح الفرسان ؟ ولكني كنت ، وركبت ، وأمرني الامير الكبير

ميخائيل بافلوفيتش : « خببا خببا ايها السمين حامل العلم !*

خببا أكثر ! »

* حامل العلم : رتبة عسكرية . (المترجم) .

فحك سانين وراء أذنه .

— قل لي من فضلك يا ايبوليت سيدوريتش ، ما احوال زوجتك ؟ وما طرز مزاجها ؟ لا بد لي ان أعرف هذا .

فاستأنف بولوزوف منفعلا على غير توقع :

— انه يتلذذ باصدار الاوامر : « خيبا ! » ، فماذا كان مني ؟ فكرت في نفسي : خذ مراتبك وشارتك فالله معها . . . اي نعم ، سألتني انت عن زوجتي . زوجتي ؟ ماذا أقول ؟ انها انسان مثل باقي الناس . لا تضع أصبعك في فمها اذا أردت ان يسلم لك ذراعك . نعم فانها لا تحب هذا . النقطة الرئيسية ان تحدثها على نحو يشيع بينكما فيه الضحك — حدثها عن حبك ، كيف . . . بصورة فكهة ، معلومك .

— فكهة ؟

— نعم ، على هذا النحو . لقد رويت عليّ انك عاشق تريد الزواج ، فصور لها هذا ايضا .

فقال سانين متأذيا :

— وماذا رأيت في هذا من المضحك ؟

لم يجب بولوزوف بل طفق يزيغ عينيه وعصير البرتقالة يسيل من ذقنه . ثم سأله سانين بعد صمت قصير :

— أهي زوجتك التي أرسلتك الى فرانكفورت في شراء هذه الاشياء ؟

— هي نفسها .

— وما هذه الاشياء ؟

— واضح : انها لعب .

— لعب ؟ هل عندك اولاد ؟

فتزحزح بولوزوف مبتعدا عن سانين .

— غريب ! وما الداعي لأن يكون عندي اولاد ؟ انها

اشياء نسائية ، خرق . . . لوازم خالصة للتواليت .

— هل انت خبير في هذا المذهب ؟

— خبير .

— كيف قلت انك لا تتدخل في شؤون زوجتك ؟

— لا أتدخل في شؤونها الأخرى ، أما في مثل هذه الشؤون فلا جرم ؛ دفعا للملل ، ثم ان زوجتي تطمئن الى ذوقي ، فانا لها متسوق حاذق .
وبدا بولوزوف يلهث في كلامه من شدة التعب .
— وهل زوجتك غنية جدا ؟
— من جهة الغنى ، غنية ، ولكن لنفسها فقط .
— أحسب انك ايضا لا تستطيع ان تشتكى .
— كيف لا أنتفع وانا زوج ؟ ثم اني امرؤ مفيد لها ، وهي معي — في أحسن حال ! فانا — رجل مريح !
ومسح بولوزوف وجهه بمنديل من الحرير وهو يتنفس مجهدا كأنه يقول : « كن رحيما بي ولا تحملي على الاسراف في الكلام فانت ترى ان الكلام عسير علي » .
تركه سائين ينعم بالهدوء وعاد يستغرق في التفكير .

كان الفندق الذي توقفت امامه العربية في فيسبادن يشبه القصر . تسارعت الاجراس الى القرع في اعماقه ، وساد الهرج والمرج ، وارتفع خفق الاقدام المسرعة ، وأقبل من الباب الخارجي رجال في سمت محترم ، كلهم بالفراك الاسود ، وسبقهم البواب بذهبه وقصبه واشرطته ففتح باب العربية .
نزل بولوزوف كأنه الغازي المنتصر ، وبدأ يصعد في سلم معطر مفروش بالسجاد ، وطار نحوه رجل في ثياب فاخرة ووجه روسي — وهو وصيفه الخاص . قال له بولوزوف سيأخذه معه في المستقبل اينما ذهب لأن القوم في فرانكفورت تركوه الليلة الفائتة ، هو بولوزوف ، من غير ماء ساخن ! فعبر الوصيف بوجهه عن استنطاقه للامر وانحنى في رشاقة ينزع القالوش من قدمي سيده . وسأله بولوزوف :

— هل ماريا نيقولايفنا في جناحها ؟
— في جناحها ، تتفضل بارتداء ثيابها ، وستتكرم بالغداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكايا .
— آ ، على مائدة هذه . انتظر ، في العربية اشياء ،

احملها انت بالذات الى مسكننا . - وأضاف بولوزوف : -
وانت يا ديميتري بافلوفيتش ، احتجز لنفسك غرفة ، ثم
عد اليّ بعد ثلاثة ارباع الساعة لتتناول الغداء معا .
سبح بولوزوف مبتعدا ، اما سانين فقد احتجز
لمبيته غرفة بسيطة - وبعد ان رتب شأنه وأصاب قسطا
من الراحة توجه الى الجناح الفخم الذي ينزل فيه صاحب
الفخامة (Durchlaucht) الامير فون بولوزوف .
هناك وجد هذا « الامير » مستويا فوق مقعد فاخر من
المخمل يقوم في وسط صالة رائعة . كان صديق سانين
الخمول الكسول قد استحم ولبس عباءة ثمينة من الاطلس
ووضع على رأسه طربوشا أحمر . اقترب منه سانين وتأمله
بالنظر قليلا . اما بولوزوف فكان يجلس من دون حركة
مثل الصنم ، فما التفت له وجه ، ولا تحرك في وجهه حاجب ،
ولا نداءً عنه صوت ، فكانت هيئته جليلة مهيبة في الواقع !
وقف سانين يتفرج عليه مقدار دقيقتين ، وما ان هم بالكلام
نيخرق هذا الصمت المقدس ، حتى فتح باب الغرفة المجاورة
فجأة ، وظهرت عند العتبة سيدة صبية حسناء في فستان
من الحرير الابيض مطرز بمخرمات سوداء ، وحجارة
الاماس تتألق في عنقها ومعصمها - كانت ماريا نيقولايفنا
نفسها ؛ وكان شعرها الكثيف الأصهب يتهدل على جانبي
وجهها في ضفيرتين لم تلملما الى اعلى .

٣٤

- أوه ، عفوا ! - قالت السيدة من خلال ابتسامة يمتزج
فيها الحياء بالسخر ، ورفعت في اللحظة نفسها ضفيرة من
شعرها وهي تحديق في سانين بعينين واسعتين مضيئتين
رماديتين ، وأضافت : - لم يخطر ببالي أنك جئت .
قال بولوزوف من غير ان ينظر الى سانين او يتحرك
من مقعده وانما أشار اليه باصبعه :

— سانين — ديميتري بافلوفيتش ، صديق الطفولة .
— نعم ، أعرف ... فقد حدثتني عنه من قبل ، واني
لسعيدة جدا بهذا التعارف ؛ ولكني أردت ان أرجوك يا
ايبوليت سيدوريتش ... فأن وصيفتي في غاية التبلد
اليوم ...

— تصفيف شعرك ؟

— نعم ، نعم ، أرجوك . عفوا ، — كررت ماريًا
نيقولاييفنا الاعتذار من خلال الابتسامة نفسها وهي تحني
رأسها لسانين ، واختفت وراء الباب تاركة خلفها اثرا
لائطلاقها ، ومعه انطباع لا تشوبه شائبة تجاه جيدها
البديع ، وكتفيها المدهشتين ، وقوامها الخلاب .
نهض بولوزوف وسار يتمايل في اعياء حتى اختفى وراء
الباب نفسه .

لم يشك سانين لحظة في ان ربة البيت كانت تعلم علم
اليقين بوجوده في صالون « الامير بولوزوف » كل ما قصدت
اليه ان تزهو باظهار شعرها الذي كان جميلا في الواقع ؛ وقد
اغتبط سانين في سره لهذه النزوة التي ظهرت من السيدة
بولوزوف : لئن أرادت ان تبدو امامي جذابة لامعة فمن
يدري ؟ لعلها ان تكون لينة العريكة في موضوع الضيعة .
كانت جيما تملأ نفسه جميعا حتى لم يعد لغيرها من النساء
اي معنى عنده ولم يعد يلحظ وجودهن . واقتصر في هذه
المررة على التفكير فقط : « نعم صحيح ما قيل لي عنها :
فانها سيدة ليس عليها ما يؤخذ ! »

ولكنه لو كان في غير هذه الحالة النفسية الاستثنائية
لاختلف قوله من دون ريب : فان ماريًا نيقولاييفنا بولوزوفا ،
وكنيتها قبل الزواج كوليشكيننا ، كانت شخصية رائعة ،
انها لم تكن كاملة الجمال ، فان طابع الدهماء واضح الاثر
فيها : كانت جبهتها ضيقة ، وانفها معافي قليلا وأرنبته
معقوفة الى اعلى ، ولم تكن بشرتها رقيقة ، اما رشاقة
يديها وقدميها فلم تكن مما تحسد عليه . ولكن ما قيمة

هذا ؟ فان من يقابلها لا يقف امام «الجمال المقدس» على حد تعبير بوشكين ، وانما يقف امام جاذبية عارمة طاغية تشع من امرأة هي بين الروسية والعجورية ، وتزهر في جسدها الانثوي كله ... ولا تكون وقفة الواقف من دون قصد ! ..

ولكن صورة جيما كانت تصون سانين كما الدرع المثلثة التي تغني بها الشعراء .

انقضت عشر دقائق ، ظهرت بعدها ماريا نيقولايفنا في صحبة زوجها ، وأقبلت على سانين ... بهذه المشية التي تكفي وحدها في تلك الازمنة - الازمنة الغابرة البعيدة - ان تخرج اصحاب الطور الغريب عن عقولهم ، وفيهم من كان يقول : «عندما تقبل عليك هذه المرأة فان سعادة العمر كله تقبل عليك» - واعطته يدها ، قائلة بالروسية ، في صوت رقيق كأنه متحفظ :

- ستنتظرنني ، أليس كذلك ؟ وسأعود مسرعة .
فانحنى سانين باحترام ؛ اما ماريا نيقولايفنا فقد غابت وراء الستار المسدل على الباب ، واستدارت قبل ان تتوارى فنظرت مبتسمة الى الوراء في خلال كتفها ، وكان الانطباع الذي تركته في هذه المرة لا تشوبه شائبة ايضا .

لما ابتسمت - لم ترسم غمازة واحدة ولا غمازتان ، بل ارتسمت ثلاث غمازات في كل خد - وابتسمت عيناها اكثر مما ابتسمت شفتاها الورديتان الممثلتان الشهيتان المنقوطتان بشامتين صغيرتين في جانبهما الايسر .

اقتحم بولوزوف الغرفة فاتخذ مكانه المعتاد على المقعد واجما على عادته ، ولكن ابتسامه ساخرة غريبة كانت تنفخ خديه المنطفئين وتغضنهما .

كان له مظهر الشيوخ في حين لم يكن يكبر سانين الا بثلاث سنين .

ولا شك ان الغداء الذي دعا اليه ضيفه جدير ان يرضي حتى أشد خبراء الطعام تزمتا ، ولكنه ظهر لسانين كأنه

حكاية من غير نهاية ، ثقيلة لا حد لثقلها ! وقد أكل بولوزوف ميطنا ملتذا بما يستشعره من مغزى في تركيب ألوانه . كان ينحني على الصحن منتبه الحواس ، فيتشمم كل جزء من أجزائه ، ثم يبدأ بالنبيذ فيتمضمض بجرعة ويبلغها وهو يخفق بشفتيه ... عندما جي بالشواء بدأ الكلام فجأة - ولكن عمّ تكلم ؟ عن اغنام الميرينوس التي اعتزم ان يستورد منها قطيعا كاملا - ويا للرقّة وهو يتحدث عنها في تفصيل مستعملا في تسميتها صيغ التذليل والتصغير . بعد ان شرب القهوة وكانت حارة الى درجة الغليان (ذكر للوصيف بضع مرات بصوت يرتجف انفعالا وعينين دامعتين ان القهوة التي قدمت اليه امس كانت باردة ، « باردة مثل الجليد ») - قضم سيجارا هافانيا بأسنانه الصفراء المعوجة - وأغفى على عاداته ، فكان سرور سائين عظيما ، وقام يروح ويجي بخطوات استخفى وقعها في السجادة الناعمة - مفكرا بجيما ، حالما بمستقبل حياتهما ، مستعرضا ما سيحمله اليها من الانباء . ولكن بولوزوف استيقظ ، ولاحظ نفسه انه استيقظ قبل وقته المعتاد - جملة ما نام مقدار سويعة ونصف السويعة - فشرّب كأسا مثلجا من ماء زيلتر ، وابتلع ثماني ملاعق من المربي ، وهو مربي روسي حمله اليه وصيفه في جرة خضراء غامقة « كييفية » * اصلية ، لا يستطيع - على حد قوله - ان يعيش من دونه . ثم حلق الى سائين بعينه المتورمتين وسأله ألا يريد ان يلعب لعبة « المجنونة » * * ؟ فوافق سائين مرحبا ، فقد خاف ان يعود بولوزوف الى الكلام عن الخراف والنعاج الايانية * * * وما اليها . وانتقل المضيف والضيف الى صالة الاستقبال ، حيث جاء الوصيف بالورق ، وبدأ اللعب - وطبيعي انه كان من غير نقود .

* نسبة الى مدينة كييف (المتزجم) .

* * نوع من ألعاب الورق . (المتزجم) .

* * * ما عظمت آيته من الغنم . (المتزجم) .

على هذه التسلية الساذجة وجدتهما ماريا نيقولايفنا
عند عودتها من بيت الكونتيسة لاسونسكيا .

ما ان دخلت الغرفة ورأت ورق اللعب على غطاء المائدة
الاخضر حتى أخذت تضحك بصوت عال ، وصاحت لما نهض
سانين من مقعده :

— اجلسوا ، والعبوا ، سأعود من فوري بعد استبدال
ثيابي .

كان لثوبها خفيف لما ذهبت ، وأخذت تنتزع قفازيها
اثناء ذهابها .

والحقيقة انها لم تبطى في العودة . استبدلت من ثوبها
الانيق غلالة فضفاضة من الحرير البنفسجي باكمام مفتوحة
متهدلة عند الكتفين ، وشدت خصرها بزناار مجدول ،
وجلست الى جانب زوجها ، فانتظرت حتى فرغ من لعبة
المجنونة فقالت له :

— والآن يكفيك هذا يا فطيرة ، (لما قالت هذه الكلمة
نظر اليها سانين مدهوشا ، فابتسمت بسمة مرحة ، وقابلت
نظرته بملها وقد ظهرت في خديها كل غمازاتها) — يكفيك ،
فأني أرى حاجتك الى النوم . هيا قبل يدي وانصرف ، وسنبقى
نحن مع السيد سانين للحديث .

فقال بولوزوف وهو ينهض في عسر شديد من
مقعده :

— لا أريد النوم ، ولكني سأنصرف ؛ سأنصرف ، وأقبل
يدك .

مدت اليه راحتها وهي لا تنقطع عن الابتسام والنظر الى
سانين .

نظر اليه بولوزوف ايضا ، ثم انصرف دون تحية .
— تحدث ، هات ، تحدث .

قالت ماريا نيقولايفنا بحيوية ، وهي تسند كوعها
العاريين الى المائدة دفعة واحدة ، وتنقر باصابع يدها على
اليد الثانية بصبر فارغ .

— أصحيح ما يقال من انك ستتزوج ؟
قالت ماريا نيقولايفنا هذه الكلمات ، ومالت برأسها
الى جنبها قليلا ، لكي تنظر بعينين ثاقبتين حادثين في عيني
سانين .

٣٥

كان تصرف السيدة بولوزوفا الخالي من الكلفة جديرا ان
يلبك سانين اول وهلة لو انه لم يكن مبتدئا في معاشرة
الناس او بعيدا عن الاحتكاك بهم — او لو انه لم يجد في
هذا السرح العائلي فألا حسنا بخصوص مشروعه . وقال في
نفسه : « سنغض الطرف عن نزوات هذه السيدة الغنية » ،
وعلى ذلك أخذ يجيب في غير تكلف على اسئلتها التي كانت
تطرحها في غير تكلف ، فقال :

- نعم ، سأتزوج .
- بمن ؟ باجنبية ؟
- نعم .
- هل تعارفتما منذ وقت قريب في فرانكفورت ؟
- هذا هو الواقع .
- من تكون ؟ اذا سمحت بان أسأل .
- طبيعي . انها ابنة حلواني .
- فقالت ماريا نيقولايفنا وهي تفتح عينيها على سعتهما
وترفع حاجبيها :
- هذا رائع .
- وأضافت في تمهل :
- هذا أعجوبة . يخطر ببالي ان مثلك من الشباب في
الدنيا لم نعد نلقاهم . ابنة حلواني !
- فقال سانين في شيء من الكبرياء :
- أرى ان هذا قد أدهشك — ولكني ، اولا ، لا أشارك
بكل هذه العنعنات الباطلة . . .
- فقاطعته ماريا نيقولايفنا :

— **اولا** ، لم يدهشني هذا ولو أقل مقدار من الدهشة ،
ولا مكان عندي لمثل هذه العنعنات ، فأنا أيضا ابنة فلاح .
آ ؟ خذ ... ولكن الذي أدهشني ، وسرني ، ان أرى رجلا لا
يخاف الحب . انك تحبها ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— أهي جميلة جدا ؟

صدم سائين قليلا بهذا السؤال ، ولكن لم يبق امامه
سبيل الى التراجع ، فقال :

— معلومك ، ماريان نيقولايفنا ، كل رجل يعتقد ان
الوجه الذي يحبه أجمل الوجوه ، ولكن خطيبي — جميلة
ولا شك .

— هل هذا حقيقة ؟ ما جمالها ؟ طلياني ؟ كلاسيكي ؟

— نعم ، قسماتها في غاية التناسق .

— هل تحمل رسما لها ؟

— لا . (لم يكن للتصوير الفوتوغرافي ذكر في ذلك

الحين ، وكانت طريقة داغير * في بدء انتشارها) .

— ما اسمها ؟

— اسمها — جيما .

— واسمك ؟

— ديميتري .

— وما لقبك ؟

— بافلوفيتش .

فقالت ماريان نيقولايفنا في بطاء :

— أتعرف ؟ انك تعجبني كثيرا يا ديميتري بافلوفيتش ،

لا بد انك رجل طيب . أعطني يدك ، وسنكون اصدقاء .

وضغطت على يده باصابعها الجميلة البيضاء القوية —

* داغير : عالم فرنسي ، قام بتجارب التصوير الفوتوغرافي

الاولى فاستعمل الفضة واليود في التقاط الصور ، ومحلل الزئبق في

نسخها . (المترجم) .

وكانت كفها أصغر من كفه قليلا ، ولكنها اكثر دفئا ونعومة
وليينا وحيوية .

— ولكن أتدري ماذا يخطر ببالي الآن ؟
— ماذا ؟

— انك لن تغضب ؟ لا ؟ قلت انها خطيبتك . ولكن
هل . . . هل هذا ضربة لازم ؟
فتجهم سائين :

— لم أفهم قصدك يا ماريان نيقولايفنا .
ضحكت ماريان نيقولايفنا ضحكة خفيفة ، وردت بحركة
من رأسها ما تهدل من شعرها الى الوراء ، وقالت — اما عن
وعي او عن ذهول :

— لا شك انه رائع . انه فارس ! ثم صدق بعد هذا
زعم القائلين بان المثاليين اندثروا !

كانت ماريان نيقولايفنا تتحدث على نحو مدهش ، طوال
الوقت ، بلغة روسية خالصة ، ولهجة مسكوبية صحيحة ،
لهجة الشعب لا لهجة سكان القصور .

— لا بد انك تربيت ونشأت في اسرة محافظة تخاف
الله ، فمن اي ولاية ؟
— من تولا .

— واذن نحن من نبعة واحدة ، فان أبي . . . أتعرف
من كان أبي ؟
— نعم ، أعرف .

— لقد ولد في تولا . . . كان تولوويا . . . ولكن طيب .
(نعمدت ماريان نيقولايفنا ان تنطق بكلمة «طيب» بلهجة
الطبقة المتوسطة) — لنشرع الآن في القضية .

— أعني . . . كيف هذا ، اي قضية ؟ ماذا قصدت ان
تقولي ؟

فوصوت ماريان نيقولايفنا بعينيها .
— طيب ، وفيم جئت الى هنا ؟
(عندما ضيقت عينيها اصبحت قسماتها في غاية الرقة وان

شابها بعض السخرية ، ولما فتحتها على سعتها نضحت
اعماقها المضيئة الباردة بمعنى كأنه القسوة او كأنه الوعيد -
اما جمالهما الخاص فانه مستمد من حاجبيها الكثيفين
المقوسين قليلا الشبيهين بالسمور الحقيقي) .

- تريد مني ان أشتري منك ضيعة ، والنقود ضرورية
لك من أجل الزفاف ، أليس كذلك ؟
- نعم ضرورية .

- وهل تحتاج الى كثير منها ؟
- يكفيني مقدما بضعة آلاف من الفرنكات ؛ زوجك
يعرف ضيعتي ويمكنك ان تستخبريه عنها ، ثم اني لن أحدد
ثمنا غاليا .

فهزت ماريا نيقولايفنا رأسها يمينا ويسارا ، وقالت
وهي تقطع الكلمات وتنقر برؤوس اصابعها على طرف سترة
سانين :

- **اعلم اولاً** - انني تعودت ألا أستشيره الا في شؤون
زينتي وملابسي ، فهو في هذا لا يشق له غبار . **ثانياً** -
لماذا تقول انك لن تحدد ثمنا غاليا ؟ فاني لا أريد الافادة
من انك عاشق الآن وانك مستعد لكل تضحية . . . هل
يليق ان اضطرك الى اي تضحية بدلا من تشجيعك . . . ولكن
ما السبيل الى التعبير عن هذا بطريقة أحسن ؟ أقصد . . .
هل يليق تلقاء عواطفك النبيلة ان أسلخك كما تسلخ
القشرة ؟ ليس هذا من عاداتي ، واذا حدث - فاني لا أرحم
الناس ، ولكن ليس بهذه الطريقة .

لم يستطع سانين ان يدرك أكانت تهزل ام كانت
تجد ، ولكنه قال في نفسه : «أوه ، ينبغي للمرء ان يكون
معك منتبه السمع ! »

دخل الخادم يحمل صينية كبيرة عليها سماور روسي
وادوات الشاي وما اليها من الحليب والسكر والكعك ، ثم
صف هذه الطيبات على المائدة بين سانين والسيدة بولوزوفا
واختفى .

ملأت فنجانه بالشاي وقالت وهي تضع فيه السكر
باصابعها على الرغم من وجود الملقط :

— هل تعرف ؟

— لا بأس بهذا ! . . من مثل هذه اليد الرائعة . . .
ولم يتم عبارته فقد كاد يشرق بجرعة الشاي ، اما هي
فكانت تنظر اليه نظرة متنبهة واضحة .
واستأنف يقول :

— السبب في قولي انني لا أحدد ثمننا غاليا لضييعتي
يعود الى انك خارج الحدود ، ولهذا لم يخطر ببالي ان تكون
نقودك الزائدة كثيرة . لم يفتني ايضا ان بيع ضيعة
وشراءها في مثل هذه الظروف فيه شيء غير طبيعي ، وان
عليّ ان آخذ هذا بحسن التقدير .

شعر سانين بالتلبك والحيرة ، اما ماريان يقولاييفنا
فقد أسندت ظهرها الى مقعدها في هدوء ، وأخذت تراقبه ،
مصلبة الذراعين ، بعين واعية نافذة ، فركن أخيرا الى
الصمت ؛ وقالت كأنها تحاول ان تسعفه :

— لا بأس ، تكلم ، تكلم — فاني مصغية — يسرني ان
أستمع اليك ، فتكلم .

أخذ سانين يصف ضييعته : مساحتها ، موقعها ، ما يزرع
في أراضيها ، طرق استغلالها . . . وتحدث ايضا عن الدار
الريفية وما تطل عليه من المناظر الطبيعية . كانت ماريان
يقولاييفنا تنظر اليه ولا ترفع بصرها عنه ، وهي تزداد
اشراقا واصغاء ، وشفثاها ترتعشان قليلا — قليلا من غير
ابتسام : كانت تعضهما . وشعر في النهاية بالارتباك ، فعاد
يركن الى الصمت .

— ديميتري بافلوفيتش . . .

بدأت ماريان يقولاييفنا كلامها ، وفكرت قليلا قبل ان
تكرر :

— ديميتري بافلوفيتش . أتعرف ؟ اني على يقين أن
ضييعتك صفقة رابحة ، واننا سنتفق ، ولكن عليك ان تعطيني

موعد يومين - نعم يومين ، فهل تستطيع ان تبتعد عن خطيبتك يومين ؟ لن احتبسك اكثر من هذا الوقت عما ترغب فيه - خذها مني كلمة شرف . اما اذا كنت الآن بحاجة الى خمسة آلاف او ستة آلاف فرنك ، فيسرني جدا ان أقرضك هذا المبلغ ، ثم نحسمه فيما بعد .

نهض سائين واقفا .

- من واجبي يا ماريا نيقولايفنا أن أشكر لك طيب حفاوتك وضيافتك ولطف معاملتك وحسن استعدادك لخدمة رجل لا تعرفينه الا قليلا . . . واذا طاب لك ، فاني أفضل ان انتظر رأيك بشأن ضيعتي - وسأبقى هنا مقدار يومين .

- نعم ، يطيب لي ذلك يا ديميتري بافلوفيتش ، فهل سيكون هذا ثقيلًا عليك ؟ جدا ؟ قل .

- اني أحب خطيبتي يا ماريا نيقولايفنا - وليس فراقها هينا .

- آه ، انك لرجل من ذهب !

ثم تنهدت ماريا نيقولايفنا وقالت :

- أعدك بالألّا أرهقك بالانتظار . أنت ذاهب ؟

فقال سائين .

- الوقت متأخر .

- ولا بد لك من الراحة من عناء الطريق ومن عناء

اللعب بالمجنونة مع زوجي . خبرني - أنت صديق حميم

لزوجي ايبوليت سيدوريتش ؟

- كنا في مدرسة واحدة .

- هل كان وقتئذ كما هو الآن ؟

- ما معنى « كما هو الآن » ؟

فضحكت ماريا نيقولايفنا فجأة حتى احمر وجهها كله ،

ورفعت منديلها الى شفيتها ، ثم نهضت عن المقعد وهي تتمايل

كانها متعبة ، ومدت الى سائين يدها .

فانحنى مودعا وسار يقصد الباب ، فصاحت في اثره :

- تكرم بالمجي' غدا ، وأبكر - أسمع ؟

التفت الى الورااء قبل ان يخرج من الغرفة ، فرآها قد عادت الى مقعدها ، ووضعت يديها وراء رأسها ، فانحسرت اكمام غلالتها الواسعة حتى الكتفين ؛ ولا مناص من الاعتراف بأن منظر هاتين الذراعين وهذا الجسد كله ، كان رائعا فياضا بالسحر .

٣٦

بقي المصباح مضيئا في غرفة سانين الى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل . كان يجلس الى المائدة ويكتب « الى جيمماه » ، روى عليها كل ما حدث ، ووصف لها آل بولوزوف - الزوج والزوجة ، ولكنه أفاض بخاصة في وصف شعوره الخاص - وختم هذا بان حدد موعدا للقائها بعد ثلاثة ايام ! ! ! (مع ثلاث علامات للتنبيه) . وحمل هذه الرسالة في الصباح الباكر الى مكتب البريد ، وذهب للفسحة في حديقة كورغاووزة حيث كانت الموسيقى تعزف . وكان الناس لا يزالون قلة ، فوقف امام العريشة التي تجلس فيها الاوركسترا ، حيث استمع الى مقطوعة « روبرت الشيطان » ، وبعد شرب القهوة ، قصد الى ناحية منعزلة ، وجلس على مقعد ثم استغرقه التفكير .

قبضة مظلة رشيقة ولكنها قوية ، دقت على كتفه ، فاختلج . . . كانت في فستان خفيف من الصوف ، رمادي - أخضر - أشهب ، وقبعة من التول الابيض ، وقفازين سويديين : ناضرة متوردة مثل صباح صيفي ، ولكن حركاتها ونظراتها ما تزال مشوبة بهذا الفتور الذي يدل على ان نوم الليل كان هنيء الاحلام - على هذا النحو وقفت امامه ماريا تيقولايفنا .

- صباح الخير . أرسلت في طلبك اليوم فقيل لي انك خرجت . لقد شربت كأسى الثانية منذ قليل ، فأنهم هنا يرغمونني على شرب الماء ، ولا يعلم الا الله ما القصد من هذا . . . هل انا معتلة الصحة ؟ وفوق هذا ينبغي علي ان

أتمشى ساعة كاملة ، فهل تريد ان ترافقني ؟ وسنشرب
القهوة فيما بعد .

قال سائين وهو ينهض واقفا :

— لقد شربت قهوتي ، ولكن يسرني جدا ان أتمشى
معك .

— أعطني ذراعك اذن ... ولا تخش شيئا ، فان
خطيبتك ليست هنا ، ولن تراك .

اصطنع سائين الابتسام ، فقد كان يشعر بالضيق كلما
نطقت ماريا نيقولايفنا باسم جيما ، ولكنه بادر الى الانحناء
لها في اذعان ... وأخذت يد ماريا نيقولايفنا تنزلق على
ذراعه في بطء ولين وتجوس خلاله وكأنها تشده اليها .

قالت وهي تسند مظلتها المفتوحة الى كتفها :

— تعال معي — الى هنا — ، فأني في هذه الحديقة كأني
في بيتي ، وسأدلك على مكان حسن . أتعرف كيف (كانت
تردد هاتين الكلمتين كثيرا) ، لن نتحدث عن هذه الصفقة ،
بل سنبحث أمرها بعد الفطور ، وعليك ان تحدثني الآن عن
نفسك ... لأعرف مع من أتعامل ، وسأحدثك بعدئذ عن
نفسي اذا أردت . هل اتفقنا ؟

— ولكن ، ماريا نيقولايفنا ، ما المستطرف بالنسبة
لك ...

— قف ، ولا تزيد ، فأنت لم تفهم قصدي . لست أريد
ان أتصدي لك بالمغازلة .

وأضافت ماريا نيقولايفنا وهي تهز كتفها :

— عنده خطيبة مثل التمثال العريق وأتصدي له
بالمغازلة ؟ ! القضية انك تملك بضاعة ، وأنا الشارية ،
وأريد ان اعرف ما هي هذه البضاعة التي عندك ، فهات ما
عندك ، اعرضه علينا — كيف هو ، أريد ان أعرف ، لا
يكفي ما سأشتري ، بل يجب ان أعرف ايضا ممن
سأشتري ، كذلك كانت خطة أبي ، فابدأ اذن
وإذا كنت لا تريد فلا ضرورة الى البدء من طفولتك — مثلا ،

هل انت منذ وقت بعيد خارج الحدود ؟ فأين تجولت حتى الآن ؟ على ان تمشي في هدوء - فليس هناك ما يدعونا للعجلة .

- قدمت الى هنا من ايطاليا بعد ان قضيت هناك بضعة اشهر .

- يبدو انك شديد الولع بكل ما هو ايطالي ؟ غريب كيف لم تعثر هناك على بغية قلبك - هل تحب الفنون ؟ الرسم ؟ او لعلك تفضل الموسيقى ؟

- أحب الفن ... أحب كل رائع .
- وتحب الموسيقى ؟
- والموسيقى ايضا .

- اما انا فلا أحبها على الاطلاق . تعجبني الاغاني الروسية - اما في الريف واما في الربيع - مع الرقص الروسي... في الجلابيب الحمر والبودنيزات* على الرؤوس ، وفي الحقول اعشاب نظيرة ، ورائحة الدخان تهب . . . يالللوعة ! ولكن مالي أمضي في الحديث ، هيا تحدث انت حدثنا .

وتابعت ماريانا نيقولايفنا السير وهي ترنو الى سائين . كانت طويلة القامة يكاد وجهها يرتفع الى مستوى وجهه . بدأ يحدثها في غير اقبال ، او في شيء من العجز أول الامر ، ثم تدفق حديثه حتى أصبح لغوا - وكانت ماريانا نيقولايفنا تصغي اليه متنبهة واعية ، فان ما تظهره من الصراحة كان يحدو غيرها الى الاسترسال بصورة عفوية في الصراحة . كانت تملك تلك الموهبة العظيمة في هذه «المؤالفة العائلية» - le terrible don de la familiarité التي أشار اليها الكاردينال ريتس . وتحدث سائين عن رحلاته ، وعن حياته في بطرسبورغ ، وعن صباه . . . ولو ان ماريانا نيقولايفنا كاتت من سيدات المجتمع المؤنقات لأمسك سائين

* البودنيزة : غطاء نسائي للشعر مطرز بالخرز او بالحجر الكريم ، وهو من الازياء الشعبية القديمة في روسيا . (المتزجم) .

عن الاسترسال معها ، ولكنها وصفت نفسها بانها « غلام طيب » لا تعنى أبدا بالمراسم والأعراف . على هذا النحو قدمت نفسها الى سائين . ولكن هذه «الغلامة الطيبة» كانت في الوقت نفسه تسير الى جنبه بخطوات قطة ، جسمها مائل اليه قليلا ، وبصرها عالق في وجهه — كانت طلعة انثى شابة تفيض بهذه الجاذبية الآسرة الغلابة الهائلة الملتهبة التي تملك القدرة على اثناء اخوتنا الرجال الضعفاء الخاطئين — هذه الجاذبية التي اختص بها بعض الذين انحدروا من عرق سلافي ، ولكنه ليس خالصا ، بل مشوبا في قدر محدود بأعراق شتى .

واستمرت نزهة سائين مع ماريّا تيقولا ييفنا اكثر من ساعة لم يتوقفا خلالها لحظة . كانا يطوفان بأنحاء الحديقة التي لا نهاية لها ، يصعدان في مرتفعاتها ليتمتعا بالمناظر الجميلة ، او ينحدران في وهدانها ليغوصا في ظلالها الكثيفة ، والذراع بالذراع طوال هذا الوقت ، كان هذا يغيظ سائين احيانا ، فانه مع جيما ، جيماه الحبيبة ، لم يقض مثل هذه المدة الطويلة في النزهة . . . ثم يأتي الى هنا فاذا هذه السيدة تستأثر به — وبس !

— سألها عدة مرات :

— ألم تتعبي ؟

فأجابت :

— اني لا أتعب ابدا .

اكثر الذين قابلوهما احيانا من رواد الحديقة كانوا ينحنون لها ، بعضهم اتحنى باحترام وهم الكثرة ، وبعضهم في تملق ، وبين هؤلاء رجل جميل الطلعة انيق الثياب اسود الشعر ، نادته من بعيد وخطبته بلهجة باريسية رفيعة :
«Comte, vous savez, il ne faut pas venir me voir — ni aujourd'hui ni demain»*

* «أتعرف يا كونت ، لا تأتي الى زيارتي لا اليوم ولا غدا»

(بالفرنسية) .

فرفع قبعته صامتا ، وانحنى كثيرا الى اسفل . فسألها
سانين مدفوعا بهذه العادة السيئة التي تميز الروس جميعا
وهي «الفضولية» :
— من هذا ؟

— هذا ؟ واحد فرنساوي — امثاله ممن يلفون يدورون
هنا كثرة ... وهو يلاحقني بغزله ايضا . ولكن حان موعد
شرب القهوة ، فلنرجع الى البيت ، لا بد انك جعت ، وأظن
ان رجلي الامين قد ثقب عينيه .

ردد سانين قائلا في نفسه : «رجلي الامين ! ثقب
عينيه !!» ومع هذا تتكلم بالفرنسية على هذا النحو
الرفيع ، يا للغربية الاطوار !

لم تخطأ ماريا نيقولايفنا ، فانها لما عادت الى الفندق
مع سانين كان «الامين» او «الفطيرة» يجلس الى المائدة
وعلى رأسه طربوشه ؛ فقال وهو يلوي وجهه الحامض :
— لقد انتظرتك حتى هممت بان أشرب القهوة من
دونك .

فقاطعته ماريا نيقولايفنا في مرح :
— لا بأس . هل غضبت ؟ وهذا يفيدك ايضا ، فانك هنا
تكاد تجمد . لقد جئتك بضيف ، فبادر الى قرع الجرس !
انشرب القهوة ، فهوة ، أحسن قهوة — في فناجين سكسونية ،
فوق غطاء ابيض مثل الثلج !
نزعت قبعتها وقفازيها وشفقت بيديها .
نظر بولوزوف اليها من تحت حاجبيه وسألها بصوت
خافت :

— ما وراء هذه النطنطة اليوم يا ماريا نيقولايفنا ؟
— ليس هذا شغلك يا ايبوليت سيدوريتش ! دق
الجرس ! اجلس يا ديميتري بافلوفيتش واشرب القهوة مرة
ثانية ! آه ، لشد ما أشعر بالغبطة وانا أصدر الاوامر !
ليس في العالم غبطة سواها !

فغمغم زوجها قائلاً :

— عندما تطاعين .

— طبعي عندما أطاع ! ولهذا أشعر بالغبطة وبخاصة
معك ، اليس كذلك يا فطيرة ؟ — ولكن ها هي ذي القهوة .
كان بين ما حمله الوصيف على الصينية الكبيرة اعلان مما
توزعه المسارح ، فاختطفته ماريا تيقولاييفنا من فورها ،
وصاحت غاضبة :

— دراما ! دراما المانية . لا بأس ، فانها خير من
الكوميديا الالمانية .

ووجهت كلامها الى الوصيف قائلة :

— اطلب اليهم ان يحجزوا لي احد الالواج ، لوج
بينوار ، ولكن لا ، فالاحسن ان يحجزوا *Fremden-Loge*
أستمع :

Fremden-Loge ليس غير !

فتجرأ الوصيف على القول :

— ولكن اذا كان محافظ المدينة (seine Excellenz
Fremden-Loge... der Herr Stadt-Director) قد احتجز

— أعط سعادته عشرة تاليرات * * ليكون اللوج لي !
— خذ بالك !

فأحنى الوصيف رأسه في حزن واذعان .

— ديميتري بافلوفيتش ، أتذهب معي الى المسرح ؟ لا
شك ان الممثلين الالمان رهييون ، ولكنك ستجيء... موافق ؟
موافق ! يالك من رجل لطيف ! وانت يا فطيرة أتجيء
ايضا ؟

فقال بولوزوف من خلال فنجانه المرفوع الى فمه :
— كما تأمرين .

* لوج الاجانب (بالالمانية) .

* * تالير : نقود المانية . (المترجم) .

— أتعرف . بل ابق هنا . فأنت ستنام في المسرح على كل حال ، ولا تحسن فهم الالمانية ، فإليك ما تفعله :- اكتب رسالة الى وكيلي ، أتذكر ، بخصوص طاحونتنا . . . موضوع حبوب الفلاحين ، قل له اني لا أريد لا أريد لا أريد ! وسيشغلك هذا العمل طوال السهرة . . .

فقال بولوزوف :

— سمعا وطاعة .

— رأيت ما أروعك وأفهمك ! أما الآن يا سادة ، فما دمننا قد تحدثنا عن الوكيل ، فلنتحدث عن لب أعمالنا بعد ان يرفع الوصيف ما على المائدة ، وستحدثنا يا ديميتري بافلوفيتش عن كل ما يتعلق بضيعتك . مثلا : الثمن الذي تطلبه فيها ، مقدار الدفعة التي تريدها مقدما ، عن كل شيء بالاجمال ! (قال سائين في نفسه : « الحمد لله — أخيرا ! ») أذكر انك قلت لي شيئا ، عن الحديقة ، على ما أذكر ، فوصفتها بصورة جيدة ، اي نعم ، فإن الفطيرة لم يحضر هذا الحديث . . . فاتركه يسمع لعل عنده رأيا يغمغم به امامنا ! يسرني جدا انني قادرة على ان أساعدك في زواجك ، وقد وعدتكم بان أتدبر الامر معك بعد الافطار ، وانا أحافظ على وعدي دائما — أليس كذلك يا ايبوليت سيدوريتش ؟ مسح بولوزوف وجهه براحة كفه .

— الحقيقة هي الحقيقة . انك لم تكذبي ابدا على احد .

— لم اكذب على احد ! ولن أكذب ، ابدا ؛ واذن هات

اعرض قضيتك ، على حد ما اصطلحنا عليه في مجلس الشيوخ .

٣٧

أخذ سائين « يعرض قضيته » — اي انه عاد يصف ضيعته مرة ثانية ، ولكنه لم يتطرق الى جمال طبيعتها — كان يستشهد بولوزوف بين الوقت والآخر في توكيد « الوقائع والارقام » ، فلا يزيد بولوزوف شيئا على الغمغمة وهز

الرأس ، اما الاستحسان او غير الاستحسان فلا يعرف أمره حتى الشيطان . ولكن ماريانا نقولاييفنا لم تفتقر لمساهمته ، فقد أظهرت من ضروب الخبرة بالاعمال التجارية والادارية ما يبعث على الدهشة ! كانت تعرف كل ما يتعلق بالشؤون الاقتصادية على نحو ممتاز ، فتسأل عن كل امر بالتدقيق ، وتصيب بكل كلمة هدفا ، وتضع النقط على الحروف . لم ينتظر سائين مثل هذا الامتحان ولا كان مستعدا له ، فشرع في وقته الذي دام ساعة ونصف الساعة انه مذنب يجلس في قاعة محكمة على مقعد ضيق امام قاض صارم دقيق ، فهمس لنفسه متمللا : «ولكن هذا استجواب !» . طوال هذا الوقت كانت ماريانا نيقولاييفنا تتهانف كأنها كانت تسخر ، ولكن هذا لم يسهل الامر على سائين ، ولما ظهر اثناء «الاستجواب» انه لا يعرف المعنى المحدد لمثل هذه العبارات : «المحاصصة» و «الحراثة» نضح كله عرقا . . . وقالت ماريانا نيقولاييفنا اخيرا بلهجة حازمة :

— لا بأس على كل حال ، فان ما أعرفه عن ضيقتك الآن ليس أسوأ مما تعرفه انت ، فما الثمن الذي تطلبه تلقاء كل نفس (من المعروف ان ثمن الضياع في ذلك الحين كان يقدر بحسب عدد الانفس) .

فقال سائين في عسر شديد :

— اي نعم . . . أظن . . . لا أقل من خمسمئة روبل (آه يا بانتاليوتي ! اين انت يا بانتاليوني ، فهذا وقتك لتصبح من جديد : * ! Barbari).

فرفعت ماريانا نيقولاييفنا رأسها الى السماء كأنها تفكر في الامر ثم قالت :

— لا أعتقد ان هذا الثمن باهظ ، ولكني أخذت على نفسي ان أتمهل مقدار يومين ، فعليك ان تنتظر حتى الغد ، وأرجو ان نتفق ، وستقول عندئذ كم تريد على الحساب — وأضافت

* بربرية (بالاطالية) .

لما رأت سانين يهيم بجواب : - اما الآن * ! basta cosi
- كفاية ، فنحن شغلنا بالمعدن الخسيس ...
**! à demain les affaires! أتعرف ؟ سأطلق سراحك الآن
(ونظرت في ميناء ساعة معلقة بزنارها) حتى الساعة
الثالثة ... يجب ان تعطى فرصة للراحة ، فالعب اذا
شئت بالروليت .

فقال سانين :

- انا كل عمري لم أعب بالقمار .

- أهذا صحيح ؟ انت رجل في غاية الكمال ، فأنا لا
ألعب ايضا . من الحماقه ان ترمي النقود الى الريح ، هذا
أكيد ، ولكن اذهب الى صالة اللعب ، وانظر الى اوضاع
الوجوه ، فأنها اشكال والوان . هناك عجوز لها قلادة في
جبينها وشاربان ، ياللعجب ! وأحد أمرائنا ، فهو ايضا
ظريف بجسمه الهائل وانفه الذي يشبه منقار النسر . انه
يضع التالر الواحد ويرسم علامة الصليب في السر تحت
صدرته ؛ او اقرأ مجلة ، اذهب للفرجة ، تفسح ؛ مجمل القول
اعمل ما تريد . . . وفي الساعة الثالثة سأكون في انتظارك ...
***de pied ferme ، يجب ان نبكر في تناول الغداء ، فان
المسرح يبدأ عند هؤلاء الالمان المضخكين في منتصف الساعة
السابعة (أضافت وهي تمد اليه يدها) Sans rancune,
n'est-ce pas?****

- العفو يا ماريما نيقولايفنا ، فيم ينبغي ان أزعل منك؟
فقالت وهي تغمز بعينيها وقد ظهرت غمازاتها دفعة
واحدة في خديها المتوردين :

* فيكفي ! (بالإيطالية) .

** الاعمال الى الغد ! (بالفرنسية) .

*** من كل بد ، اكيد (بالفرنسية) .

**** من دون زعل ، اليس كذلك ؟ (بالفرنسية) .

— لأنني أرهقتك . ولكن على مهلك ، فانت ما رأيت مني شيئا بعد — الى اللقاء !
انحنى سانين ومضى ، فجلجل في اثره ضحك ممراح ، وانعكس في المرآة التي مرّ بجانبها في تلك اللحظة هذا المنظر :
ماريا نيقولايفنا تكبس طربوش زوجها على عينيه ، وهو يخط بيديه عاجزا عن المقاومة .

٣٨

أوه ، ما اعمق الزفرة التي أرسلها سانين وما أحفلها بالغبطة لما وجد نفسه يؤوب الى غرفته ؛ فإن ماريانا نيقولايفنا نطقت بالحقيقة لما قالت انه يحتاج الى الراحة .
الراحة من كل هؤلاء المعارف الجدد ، ومن الارتطام بهم ومحادثتهم ، من هذا الدخان الخانق الذي انعقد في رأسه وفي نفسه — من هذه الالفة التي لم يترقبها ولم يتطلبها من امرأة غريبة عنه ! ومتى جاء هذا جميعا يفرض وجوده ؟
في اليوم التالي تقريبا بعد اليوم الذي عرف فيه ان جيما تحبه ، وانه أصبح خطيبها ! أليس هذا تدنيسا للمقدسات ؟
ألف مرة التمس في سره المغفرة من حمامته الطاهرة البريئة ، وذلك على الرغم من انه لم يجد ما يدعوه الى اتهام نفسه في شيء ، ألف مرة لثم الصليب الذي أعطته اياه ؛ ولولا امله في ان القضية التي جاء من اجلها الى فيسبادن سينتهي منها بسرعة — لاندفع عائدا الى الورا ، الى فرانكفورت الحبيبة ، الى ذلك المنزل العزيز الذي أصبح منزله الحميم ، اليها ، وركع عند قدميها الحبيبتين . . . ولكن هل باليد حيلة ؟
لا بد من شرب الكأس حتى الثمالة ، وعليه ان يلبس ثيابه ليذهب الى الغداء — ومن هناك الى المسرح . . . فياليتها تسرع غدا في اطلاق سراحه !

هناك شيء آخر عذبه وأثار حفيظته : فانه على الرغم من حبه وعطفه ، وعلى الرغم من اعتزازه واغتباطه اثناء

التفكير في جيما ، وفي حياتهما زوجين ، وفي السعادة التي تنتظره في المستقبل - كانت تتدخل بين هذا جميعا هذه المرأة الغريبة ، هذه السيدة بولوزوفا ؛ لم تكن تتراءى له . . . لا ! لم تكن تتراءى بل كانت تتصدى له - ولا تبرح امام عينيه - كانت تتصدى له ، وهو لا يستطيع ان يقصى صورتها من بصره ، ولا يستطيع ان يغلق سمعه دون صوتها وحديثها - ولا يستطيع ان يستدفع حتى هذا العبير الخاص الذي يهف من ثيابها رقيقا ناضرا أخذا نفاذا مثل عبير السوسن الاصفر . كان من الواضح ان هذه السيدة تعبت به ، وتسلك كل طريق الى اغوائه ، فعلام هذا ؟ وماذا تريد ؟ ألا يكون هذا مجرد نزوة من امرأة مدللة غنية ولا يبعد ان تكون امرأة فاسقة ؟ ! وهذا الزوج ؟ ! ما هذا المخلوق ، وما طرز علاقاته بها ؟ ثم لماذا دارت هذه الاسئلة في رأسه ، اي في رأس سائين ، وهو الذي ليس له علاقة خاصة تربطه الى السيدة بولوزوفا او الى زوجها ؟ ولماذا لا يستطيع ان يطرد هذه الصورة التي تلح عليه في الوقت الذي تتجه فيه روحه الى صورة اخرى مضيئة مشرقة كأنها الفجر الآلهي ؟ كيف استطاعت هذه القسمات ان تتسلل متطفلة على تلك القسمات الآلهية ؟ بل انها لم تتسلل وحسب بل جاءت هازئة سليطة ، فهل لوقت به هذه العيون الرمادية المفترسة ، وهذه الغمازات الآسرة ، وهذه الضفائر المتأفعية ، فليس يقدر على ان يبعدها عنه ، ولا يملك القدرة على الخلاص منها ؟

لغو فارغ ! لغو فارغ ! فكل هذا سيزول غدا ولن يبقى له اثر ولا خبر . . . ولكن هل تحل وثاقه غدا ؟ طرح هذه الاسئلة كلها على نفسه ، ولما اقتربت الساعة الثالثة لبس الفراك الاسود ، وخرج يتفصح قليلا في الحديقة قبيل ذهابه الى آل بولوزوف .

وجد هناك في صالة الاستقبال سكرتير سفارة من
الالمان ، وهو رجل طويل - طويل أصهب الشعر ، وجهه
من جانب مثل وجه الحصان ، وشعره مفروق من خلف (كان
ذلك من البدع الجديدة وقتذاك) - ولكن . . . ياللعجب ،
من كان هناك ايضا ؟ فون دونغوف وهو الضابط الذي كان
خصمه في المباراة التي حدثت منذ بضعة ايام . انه لم يتوقع
ان يقابله وبخاصة هنا ، فاعتراه الارتباك من دون ان يدري ،
ولكنه انحنى له يحييه . ولم يفلت تحرج سائين من عيني
ماريا نيقولايفنا :

— هل كان بينكما تعارف ؟

— نعم . . . كان لي هذا الشرف ؛ - قال دونغوف ومال
قليلا يهمس الى ماريا نيقولايفنا مبتسما - هذا هو
مواطنك . . . الروسي . . .

فقالت بضوت هامس ايضا وهي تهدده بأصبعها :

— هذا خبر عجيب !

وقامت من فورها تودعه ، وتشيع سكرتير السفارة
الطويل الذي دل وضعه جميعا على انه ميت في هواها ، فقد
كان يفغر فاه كلما نظر اليها . وذهب دونغوف من غير
تمهل ، مدعنا ، ولكن بطيبة خاطر كما يكون صديق البيت
الذي يدرك من الاشارة قبل العبارة ما يطلب منه . اما
السكرتير فقد حاول ان يتمرد ، ولكن ماريا نيقولايفنا
طرده من دون مجاملة قائلة :

— اذهب الى مولاتك (كانت تقيم في فيسبادن وقتذاك
احدى اميرات دي - موناكو ، وهي تشبه الخليلات
العاديات) - فما جلوسك الى امرأة من عامة الناس مثلي
انا ؟

فقال السكرتير التعس :

— العفو يا سيدتي ، فكل اميرات العالم . . .
ولكن ماريا نيقولايفنا لم تأخذها به شفقة ، فذهب
السكرتير بشعره المفروق من خلف .

كانت ماريا نيقولايفنا في هذا اليوم تبدو في أحسن زينة ، او مثل «العروس» على حد تعبير جداتنا ؛ فقد ظهرت في فستان وردي من الحرير اللامع باكمام 'à la Fontanges' ، وفي كل اذن حجر كبير من الالماس ، وعيناها تلمعان بما لا أقل من هذين الحجرين ، كانت مشرقة النفس منشرحة كل الانشراح .

اجلست سانين الى جنبها وطفقت تحدثه عن باريـز التي تنهياً للسفر اليها بعد بضعة ايام ، وعن سامها من الالمان لأنهم حمقى حينما يحاولون ان يكونوا اذكياء ، ولا محل لذكائهم حينما يحمقون ، - وفجأة سألته في الوجه - 'à brûlle pourpoint' - كما يقال - هل صحيح انه اشتبك على طرز فونتانج (وهي عشيقة لويس الرابع عشر) .
بمبارزة من اجل سيدة مع هذا الضابط الذي كان هنا منذ قليل ؟

فتمتم مدهوشا :

- من أين سمعت بهذا الخبر ؟

- الارض ملأى بما تسمعه يا ديميتري بافلوفيتش .
ولكنك كنت في الواقع على حق ، أنت على حق الف مرة ، وقد سلكت سلوك الفارس . قل لي ، أكانت هذه السيدة خطيبتك ؟

عضن سانين حاجبيه قليلا فأسرعت ماريا نيقولايفنا تقول :

- واذن ، التوبة ، التوبة ، لقد أزعجتك ، سامحني ، ولن أعود لمثلها ! فلا تغضب !
وأضافت لما برز بولوزوف من الغرفة المجاورة وفي يده جريدة :

- وانت ما لك ؟ ام ان الغداء جاهز ؟

- سيقدم الغداء في الحال ، ولكن تعالي انظري ماذا قرأت في «النحلة الشمالية» . . . لقد مات الدوق غروموبوي .

فرفعت ماريًا نيقولايفنا رأسها .
- آ ، رحمة السماء على سمّوه .
والتفتت إلى سائين :

- كان كل سنة قبيل عيد ميلادي في شهر فبراير
يملاً غرفتي كلها بازهار الكاميليا ، ولكن هذا لا يستأهل
مني قضاء الشتاء في بطرسبورغ .
ثم سألت زوجها :

- كم يبلغ من العمر ؟ أظن انه جاوز السبعين .
- نعم انه كذلك - والجريدة وصفت الجنازة . كان
فيها البلاط كله ، وها هي ذي قصيدة الدوق كوفريجكين .
- عظيم اذن .
- أتريدان ان أقرأها عليك ؟ لقد وصفه الدوق بانه
رجل الجلائل من الاعمال .

- كلا لا أريد . ثم من رجل الجلائل هذا ؟ انه لم يكن
سوى رجل تاتيانا يورييفنا . هيا بنا الى مائدة الغداء ،
فإن الحي لا يفكر الا بالحي . ديميتري بافلوفيتش ، هات
ذراعك .

كان الغداء مدهشاً مثل غداء امس ، وقد استفاضت
فيه الحيوية ، وظهر ان ماريًا نيقولايفنا تجيد فن
الحديث . . . وهي موهبة تندر بين النساء ولا سيما
الروسيات ! كانت لا تستحيى من اي تعبير ، واختصت
مواطناتها بأكثر لذعاتها حتى لقد انفجر سائين بالضحك
أكثر من مرة لبعض كلماتها الجريئة الصائبة . كانت ماريًا
نيقولايفنا تضيق خاصة بالكذب والنفاق . . . وقد وجدتهما
في كل مكان تقريبا . وكانت تزهو فخوراً بالوسط البسيط
الذي بدأت فيه حياتها ، وروت كثيراً من النوادر عن أهلها
وعن ايام نشأتها الأولى ، ولقبت نفسها بلقب « اللبادة

الخشنة» ، شأنها شأن ناتاليا كيريلوفنا ناريشكيننا * .
وأدرك سائين انها خبرت من الحياة اكثر مما خبرت الكثرة
الكاثرة ممن فى سنها .

اما بولوزوف فكان يأكل ويشرب مستغرقا بما بين
يديه كأنه يتأمل فى عجائب الأكل والشرب ، ولا يخرج عن
هذا الا فى لحظات نادرة ليلقى نظرة على زوجته او نظرة
على سائين من عينين عمياوين فى الظاهر نفاذتين فى الواقع .
وقالت ماريا نيقولايفنا وهي تلتفت اليه :

— يا سلام عليك وعلى ذوقك ! تلقاء ما أنجزته فى
فرانكفورت من المشتريات تستحق قبلة من جبينك ،
ولكنك لا تسعى الى مثل هذا . . .

فقال وهو يقطع جوزة اناناس بسكين من الفضة :
— لا أسعى .

فنظرت اليه ماريا نيقولايفنا وهي تنقر باصابعها على
المائدة وقالت بلهجة خاصة :

— ألا يزال رهاننا قائما ؟

— لا يزال قائما .

— عال . ستكون انت الخسران .

فدفع بولوزوف ذقنه الى امام وقال :

— على الرغم من كل ثقتك بنفسك فانك انت التي

ستخسرين فى هذه المرة .

وقال سائين يسأل :

— هل يحق لي ان أعرف موضوع الرهان ؟

فأجابت ماريا نيقولايفنا وهي تضحك :

— لا . . . فان هذا لا يجوز لك الآن .

دقت الساعة سبع دقائق ، وجاء الوصيف يقول بأن

العربة جاهزة ، فقام بولوزوف يقود زوجته ثم عاد يجر

* أم القيصر الروسي بطرس الاكبر ، وكانت امرأة من الشعب .

(المترجم) .

نفسه وارتمى في مقعده ، فصاحت به ماريا نيقولايفنا
حينما وصلت الى الممر :
- اياك ان تنسى الكتابة الى الوكيل !
- سأكتب ، ولك ان تطمئني ، فاني رجل دقيق .

٣٩

كان المسرح في فيسبادن سنة ١٨٤٠ سيء المظهر ،
اما فرقه فأنها من حيث جعجعتها وابتذالها وانحطاطها
ونمطيتها لم ترتفع مقدار شعرة عن المستوى الذي يمكن
ان نعهده المستوى الطبيعي للمسارح الالمانية حتى اليوم ،
وقمة ما تحقق في محيطها مؤخرا ، كان على يد فرقة
كارلسرويه التي يقودها السيد ديفريينت . كان اللوج قد
حجز لصاحبة السنمو حرم فون بولوزوف (ولا يعلم الا الله
كيف دبره الوصيف ، فانه لم يرش محافظ المدينة في
الحقيقة !) كانت وراء هذا اللوج غرفة صغيرة فيها بعض
الارائك ، وقد طلبت ماريا نيقولايفنا من سانين قبل ان تدخلها
ان يرخى الستائر التي تحجب اللوج عن الصالة ، وقالت :
- لا أريد ان يراني احد فيتسلق اليانا .
ثم جلست وأجلسته الى جانبها مستدبرين الصالة
ليبدو اللوج كأنه فارغ .

عزفت الاوركسترا افتتاحية من « عرس الفيغارو » . . .
وارتفع الستار ، وبدأت التمثيلية .

وكانت واحدة من تمثيلات مهلهلة كثيرة شتى وضعها
مؤلفون واسعوا الاطلاع ولكنهم من غير موهبة ، ودأبوا
فيها وانتقوا موضوعها ولكنهم عرضوه بلغة ميتة أثقلوها
بالافكار « العميقة النابضة » على نحو أخرق ، ثم حشكوا
فيها ما يسمى الصدمة المأساوية فجاءت مثيرة للغثيان كما
يحدث اثناء الاصابات بالكوليرا الآسيوية . صبرت ماريا
نيقولايفنا فاستمعت الى نصف الفصل الاول ، ولكن عندما

جاء دور العاشق الاول الذي عرف ان حبيبته قد خانته (كان يلبس سترة بنية باكمام منتفخة وياقة مثناة وصدرة مخططة بازرار من الصدف وسروال اخضر بسير من الجلد اللامع في أسفله وعلى يديه قفازان من الجلد المخملى الابيض) عندما أسند هذا العاشق قبضتيه الى صدره ودفع كوعيه الى الامام في زاويتين حادتين ، وأخذ ينوح نوحا يشبه نباح الكلب ، لم يبق عند ماريا نيقولايفنا مثقال ذرة من الصبر ، فصرخت مغيظة وهي تدخل الغرفة الخلفية .

— ان اقل ممثل فرنسي في آخر بلدة فرنسية أسلم طبعاً واحسن تمثيلاً من أشهر الممثلين الالمان .
وقالت لسانين وهي تمسح بيدها في موضع الى قربها على الديوان :

— تعال الى هنا لنثرثر .

أذعن سائين .

ونظرت ماريا نيقولايفنا اليه .

— أرى انك لئين مثل الحرير ! وستكون حياة زوجتك معك مريحة .

وأضافت وهي تشير بطرف مروحتها الى الممثل النباح

(كان يقوم بدور مدرس خصوصي) :

— ذكرني بايام صباي ، فانا أحببت ايضاً مدرّساً ،

وكان ذلك غرامي الاول . . . لا بل كان الثاني ، ففي المرة

الاولى أحببت شماسا في دير دونسكوي . كنت في الثانية

عشرة من عمري ، وكنت أراه في ايام الآحاد فقط ، كان

يلتف بمسح من المخمل ويتعطر بماء اللاوندة ، ويشق

طريقه بين الناس مخاطباً النساء بالفرنسية : « باردون ،

ايكسكوزه » ، لم يكن يرفع بصره ابداً ، كانت رموش

عينيه هكذا ! — وأشارت ماريا نيقولايفنا الى طول نصف

اصبعها الطويلة — اما المدرس فكان يدعى ! monsieur Gaston

وينبغي القول انه كان مدرسا صارماً جداً ؛ وهو سويسري ،

يفيض وجهه بالحيوية ، عذاراه اسودان مثل القطران ،
ووجهه من جانب يشبه الاغريق ، شفتاه كأنهما من الحديد
المسكوب ! كنت أخافه ، ولم أخش احدا سواه في كل
عمري ! كان مربيا لأخي الذي مات فيما بعد . . . غريقا ،
وقد تنبأت لى احدى الغجريات ايضا باننى سأموت قتلا-
ولكن هذا كلام فارغ ، فانا لا أصدق ذلك . أتتصور ايوليت
سيدوريتش بيده خنجر ؟ !
فقال سائين :

- قد يحدث الموت بغير الخنجر .
- كل هذا كلام فارغ ! هل أنت متطير ؟ اني لا أعتقد
بشيء من هذا ، لا سبيل الى الخلاص مما سيكون . كان
monsieur Gaston يعيش معنا في البيت ، فوق رأسي ، وكان
يحدث ان أستيقظ في الليل فأسمع وقع خطواته ، فقد كان
لا ينام الا في وقت متأخر ، فأشعر بقلبي يتجمد من
الرهبة . . . او من شعور آخر . . . وكان محصول ابي من
القراءة والكتابة قليلا ، ولكنه أحسن تنشئتنا ، هل تعرف
انني أفهم اللغة اللاتينية ؟

- انت - تفهمين اللاتينية ؟
- نعم ، انا . علمني اياها monsieur Gaston ، وقرأت
معه الأنيادة * ، انها شيء ممل ، ولكن بعض موضوعاتها
لابأس بها - أتذكر اللقاء بين ديدونه وأنياد في الغابة ؟
فقال سائين بسرعة :

- نعم ، نعم ، أذكر .
كان لا يذكر شيئا مما تعلمه من اللاتينية ، ولم يبق في
ذهنه الا ذكريات مبهمة عن الأنيادة .
فرمقته ماريا نيقولايفنا بنظرها الجانبية المعتادة من
ادنى الى اعلى وقالت :

- ولكن لا تحسب اننى امرأة متعلمة جدا . آخ يا

* ملحمة كتبها الشاعر فرجيل . (المترجم) .

آلهى ، لست متعلمة ، ولا أملك اي موهبة ، وأكاد لا أقدر
على الكتابة ولا أستطيع ان أقرأ بصوت عال ، ولا
احسن العزف على البيانو ، ولا الرسم ، ولا خياطة الثياب . . .
لا أحسن شيئا ! فانا كما تراني !

بسطت يديها وأضافت :

— اني أحدثك بكل هذا لتجنب الاستماع الى هؤلاء
الحمقى أولا (واشارت الى المسرح ، وكان في مكان الممثل ،
ممثلة تنيح وقد دفعت كوعيا ايضا الى الامام) — ثم اني
مدينة لك ثانيا ، فقد حدثتني عن نفسك امس .

فقال سانين :

— ولكنك انت رغبت في ذلك .

— فالتفتت اليه ماريا نيقولايفنا فجأة .

— وانت ، ألا تريد ان تعلم ما هي حقيقة هذه المرأة ؟

وأضافت وهي تتكى من جديد على وسادة الديوان :

— ولكن هذا لن يثير دهشتي — فأين لرجل يستعد

للزواج ، بدافع من الحب ، وبعد مبارزة . . . ان يفكر في
أمر آخر ؟

واستغرقت ماريا نيقولايفنا في التفكير وهي تعض

مروحتها بأسنانها النضيدة البيضاء كالحليب .

وخيل لسانين ان في رأسه هذا الدخان الذي لم يستطع

ان يتخلص منه طوال اليومين الاخيرين .

وكان الحديث يدور بينه وبين ماريا نيقولايفنا خافتا ،

بل هامسا ، وقد زاد هذا في هياجه وقلقه .

متى ينتهي هذا كله ؟

ان الضعفاء لا يقدرّون على انهاء شيء بل ينتظرون

نهايته .

وعطس احد الممثلين على المسرح ، وقد أدخل المؤلف

هذه العطسة في تمثيلته على انها « لحظة هزل » او « عنصر »

هزل ، وهو العنصر المفقود منها ولا شك ، ولكن المتفرجين

وفوا هذه العطسة حقها من الضحك .

وأزعج سائين هذا الضحك أيضا .
لقد مضت دقائق لم يستطع أن يعرف خلالها على وجه
اليقين : أكان مغيظا ام راضيا ، منكذراً ام مغتبطا . أوه لو
ان جيما رأته !

وقالت ماريما نيقولايفنا فجأة :

— أليس غريبا ان تجد من يقول بصوت مطمئن « اني
اعتزم الزواج » ، ولا تجد من يقول لك بهذا الاطمئنان « أريد
ان ألقى بنفسي في الماء » فما الفرق بين الحالين ؟ غريب ،
والحق يقال .

فأجاب سائين مغيظا :

— الفرق كبير يا ماريما نيقولايفنا ! فإن الماء ليس
مخيفا على من يقذف بنفسه اليه ، فقد يستطيع ان يسبح ،
وفضلا عن ذلك . . . ما يتعلق بغرابة الزواج . . . اذا كان
الحديث عن هذا

وسكت فجأة وهو يعرض على لسانه .

ضربت ماريما نيقولايفنا على كفها بمروحتها .

— تابع قولك يا ديميتري بافلوفيتش تابع قولك ،
فاني أعرف ماذا أردت ان تقول . لقد أردت ان تقول :
« يا سيدتي العزيزة ماريما نيقولايفنا . . . لا يخطر بالبال
شيء أدعى الى الاستغراب من **زواجك** . . . ثم اني أعرف
زوجك منذ الطفولة ! » أليس هذا ما أردت ان تقوله انت
يا من تقدر على السباحة ؟

فقال سائين :

— اسمحي لي . . .

فقال ماريما نيقولايفنا في توكيد :

— أقلت الحقيقة ام لا ؟ انظر في وجهي ثم صارحني
أقلت الحقيقة أم لا ؟

ارتبك سائين فما يعرف اين يبعد نظراته ، ثم قال اخيرا :

— نعم ، انها الحقيقة ما دمت تلحين على هذا بالذات .

— هذا هو . . . ولكن ألم تسأل نفسك انت يا من تجيد
السباحة ، عن سبب هذه الخطوة . . . الغريبة من امرأة ليست
فقيرة . . . ولا حمقاء . . . ولا قبيحة ؟ قد لا يهمك هذا ،
ولكن لا بأس ، فسأفضي اليك بالسبب ولكن ليس الآن ، بل
بعد انتهاء فترة الاستراحة ، فاني أخشي ان يجيء احد . . .
ما كادت ماريا نيقولايفنا تقول هذه الكلمات حتى انفتح
الباب وأطل منه رأس أحمر يلمع كالزيت من العرق ، وامتد
نحو اللوج ، كان من غير اسنان على الرغم من صغر سنه ،
بشعر طويل سبط ، وأنف طويل معقوف واذنين كبيرتين
مثل أذني الوطواط ، ونظارة ذهبية فوقها نظارة ثائية ذات
صنارة تشف عن عينين فضوليتين بليدتين ؛ ودار الرأس في
كل ناحية فلما رأى ماريا نيقولايفنا ، كشر فمه الأهم عن
ابتسامة كريهة وأخذ ينحني ويكرر الانحناء . . . فتهتز
لحمة العنق مع هذا الرأس . . .

فنفضت ماريا نيقوييفنا منديلها في وجهه .

— انا لست في البيت! ! Ich bin nicht zu Hause, Herr P . . .!

* Ich bin nicht zu Hause. . . كس ، كس !

دهش الرأس ، ولكنه تكلف الابتسام ، وقال بصوت كأنه
الشهيق مقلدا « ليست » الذي كان هذا الرأس يتمرغ على
قدميه :

— Sehr gut! Sehr gut! **

واختفى .

فسألها سائين :

— من يكون هذا الذات ؟

— هذا ؟ انه ناقد من فيسبادن . « أديب » او صلوك ،

* انا لست في البيت ، ايها السيد ب ! .. انا لست في

البيت . . . (بالالمانية) .

** طيب جدا ! طيب جدا ! (بالالمانية) .

او سمه ما تشاء - لقد استأجره احد المتعهدين ، ولهذا
ينبغي عليه ان يستحسن كل شيء ويعجب بكل شيء على الرغم
من امتلاء صدره بالحقد الاصفر المكظوم الذي لا يجرؤ على
التنفيس عنه . اني خائفة ، فهو نمّام فظيع ، وسيسرع في
الحال الى ابلاغ الجميع أنني في المسرح ، ولكن لا بأس .
انتهت الاوركسترا من عزف موسيقا فالس ، وارتفع
الستار مرة ثانية ... وبدأ على المسرح تصعير الوجه وتكتم
البكاء . وقالت ماريا نيقولايفنا وهي تعود الى استرخاءتها
على الديوان :

- واذن ما دمت قد وقعت فلا مندوحة لك من الجلوس
اليّ بدلا من الاستمتاع بقرب خطيبتك . . . لا تحملق بعينيك
ولا تغضب ، فاني أدرك حالتك ، وقد وعدتك بان أطلق
سراحك في جهات الدنيا الاربع ، فاسمع اعترافي الآن . أتريد
ان تعرف ما هو أحب شيء عندي ؟
فقال سانين مخمنا :
- الحرية .

وضعت ماريا نيقولايفنا يدها على يده ، وقالت بصوت
يرن على نحو خاص يسمع فيه الاهتمام والخطورة والاخلاص ،
على نحو لا يقبل الشك :

- نعم يا ديميتري بافلوفيتش . الحرية ، فانها أحب
اليّ من كل شيء ، وقبل كل شيء . ولا يخطرن ببالك انني
أتبجح فليس في هذا مجال للتبجح ، وانما كانت الحرية
كذلك ، وستبقى **كذلك** بالنسبة اليّ حتى آخر لحظة من
حياتي . لا بد انني رأيت في طفولتي كثيرا من العبودية ،
وعانيت منها كثيرا ، واسهم مدرسي monsieur Gaston
في هذا ايضا ، وقد تستطيع ان تدرك الآن لماذا رضيت
بالزواج من ايبوليت سيدوريتش : انني معه حرة مطلقة
كالهواء ، كالريح . . . وقد عرفت هذا قبل الزواج . كنت
أعرف انني سأكون معه مثل القوزاقي الطليق !
سكتت ماريا نيقولايفنا وألقت بمروحتها جانبا .

— أقول لك شيئاً آخر : اني لا أعترض على التفكير . . .
فانه مدعاة للمرح ، وقد أعطينا الذكاء لنفكر ، ولكني لا
أفكر ابدا في عواقب ما أفعله ، ومهما تكن الحال فاني لا
أشفق على نفسي ولو مقدار ذرة ، لا يجوز . ومبدئي ان :
*«Cela ne tire pas à conséquence» . لست أدري كيف أقول
هذا بالروسية ؛ نعم فما الذي tire à conséquence ؟ ولن يكون
حسابي عن هذا هنا على هذه الارض ، واما هناك (ورفعت
رأسها الى السماء) فليكن تدبيره على قدر تقديره ، فاني لن
أكون من انا حينما يحاسبني هناك . أتصغي اليّ ام لعلك
شعرت بالملل ؟

كان سائين يجلس منحنيا على نفسه فرفع رأسه .
— ليس هذا مما يبعث عليّ الملل يا ماريان نيقولايفنا ،
بل اني استمع اليك متشوقا ، ولكني . . . بصراحة . . .
سألت نفسي : لماذا تتحدثين اليّ بهذا كله ؟
فاقتربت ماريان نيقولايفنا منه قليلا .
— تسأل نفسك . . . أفانت بطي الحزر ام انك
متواضع ؟

فرفع سائين رأسه اكثر قليلا ، وأضافت ماريان نيقولايفنا
بصوت هادئ يختلف عما عبرت ملامح وجهها :
— لقد حدثتك بهذا كله لأنني في غاية الاعجاب بك .
نعم لا تدهش فاني لا أمزح ، فبعد التقائي بك ، كان مما
يضيقني ان تحتفظ عني بذكرى سيئة . . . بل ان الذكرى
السيئة وغير السيئة عندي سواء ، واما الذكرى الغلط . . .
فمن اجل هذا رأيت ان أدعوك الى هنا ، وأجتمعت بك على
انفراد ، وأتحدث اليك بصراحة . . . نعم نعم بصراحة . انني
لا أكذب ، ومعلومك ، ديميتري بافلوفيتش ، اني أعرف
انك واقع في هوى فتاة اخرى ، وانك بسبيلك الى الزواج
بها . . . ولكن اسمع ما اقوله وعليك ان تقدر سخاني حق

* هذا لا يستحق الاهتمام . (بالفرنسية) .

cela ne tire pas à : وقد جاء دورك لتقول :
conséquence!

وضحكت ، ولكن ضحكها انقطع فجأة ، وبقيت جالسة من دون حركة ، فكان ما قالته قد أذهلها ، ولمح في عينيها الممراحتين الجريئتين في الحالة العادية شي يشبه الخفر أو الأسى .

وكان سانين يفكر في هذه الاثناء : « أفعى ! آه ، انها افعى ، ولكن يالها من أفعى جميلة ! »
وقالت ماريا نيقولايفنا فجأة :

– أعطني منظاري فاني أريد ان أرى : أتكون هذه jeune première على مثل هذا القبح ؟ لا يبعد ان تكون الحكومة أعدتها لحماية أخلاق الشباب من الغواية .
قدم سانين اليها المنظار ، ولكنها حين أخذته من يده ، طوقت يده بيديها في حركة سريعة بل خفيفة ، وهمست اليه مبتسمة :

– لا تأخذ نفسك بمثل هذا الجد . هل تعرف ؟ ان تقييد حريتي بالسلاسل مستحيل ، وكذلك انا لا أقيد حرية احد بالسلاسل . – اني أحب الحرية ، ولا أعترف بالواجبات – ولا أختص نفسي بهذا ، فتزحزح قليلا الآن ، ولنستمع الى هذه التمثيلية .

أخذت ماريا نيقولايفنا تجوس أنحاء المسرح بنظرة من خلال المنظار ، وكذلك انصرف سانين ببصره الى التمثيل وهو في موضعه الى قربها في اللوج المظلم وكان يستنشق من دون وعي هذا العطر الدافئ الذي ينبعث من جسدها البديع ، وقد اختلط في رأسه كل ما حدثته به في هذا المساء وبخاصة ما قالته في الدقيقة الاخيرة .

٤٠

استمر عرض التمثيلية ساعة او اكثر من ساعة ، ولكن ماريا نيقولايفنا وساتين ما لبثا ان انقطعا عن النظر الى

المسرح وعادا الى الحديث من جديد ؛ وتسلسل الحديث الى مجراه السابق ، ولكن سانين كان صمته اقل في هذه المرة . كان في باطنه غاضبا على نفسه وعلى ماريا نيقولايفنا ، فحاول ان يبرهن لها على البطلان المطلق « لنظريتها » ، فكأنها ممن يعنى بالنظريات ! واحتدّ في مناقشتها فأفرحها ذلك في السر كثيرا لأن معناه : ان المرء يتنازل حينما يناقش او انه بسبيله للتنازل . لقد مشى الى معلفه مدعنا مرتاضا وانتهى توحشه وعناده ! وكانت هي وراءه على الكعب ، تخالف وتوافق وتضحك وتفكر وتناوش . . . وبين هذا كله كان الوجهان يتدانيان ، ولم تعد عيناه تتجنبان عينيها . . . عينيها اللتين تحومان حول وجهه وتطوفان في قسماته ، وصار يجيب على ابتسامها بابتسام ، وهو في هذا متأدب مجامل ولكنه كان يبتسم . انه راح يتحدث عن المجردات ، فناقش قضية الشرف في العلاقات القلبية ، وتحدث عن الواجب وعن قدسية الحب والزواج . . . جلية الامر : ان هذه المجردات بداية طيبة لتلائم الغاية ، بل انها نقطة الانطلاق . . . فالناس الذين يعرفون ماريا نيقولايفنا يؤكدون ان طبيعتها القوية العنيفة ، حينما تأخذ فجأة بشيء من الرقة والتواضع او بشيء من الخفر العذري ، - وأنى لها ان تأخذ بمثل هذا ؟ . . . فعندئذ . . . نعم عندئذ ، تكون الحالة قد تفاقمت وأندرت بالخطر .

ويبدو ان الحال قد صارت بسانين الى هذا المآل . . . وكان جديرا ان يشعر باحتقاره لنفسه لو أتيحت له لحظة يقدر فيها على تركيز افكاره ، ولكن الوقت لم يواته لا لحصر افكاره ولا لاحتقار نفسه .

اما هي فانها لم تفرط بالوقت ، وكل ذلك قد حدث له لأنه جميل الطلعة ! . . . وهذا يضطرنا الى القول : « كيف نعرف أين تكون الضارة وأين النافعة ؟ »

انتهت التمثيلية ، فطلبت ماريًا نيقولايفنا من سائين ان يضع عليها الشال ، ووقفت من غير حركة ريشما لف كتفيها الملكيتين بالنسيج الناعم ، ثم تابطته من ذراعه وخرجت الى الممر - وهناك كادت تصرخ ، فقد تراءى لها دونغوف مثل الشبح على باب اللوج نفسه ، وشاهدت وراء ظهره وجه الناقد الفيسداني الكريه ، وكان وجه «الاديب» اللامع كالزيت يتهلل بالتشفي . وقال الضابط الشاب يخاطب ماريًا نيقولايفنا بصوت لم يستطع ان يكظم فيه رنة الغضب :
- هل تأمرين يا سيدتي بان أبحث لك عن عربتك ؟
فأجابت :

- لا ، وشكرا لك ، سيبحث خادمي عنها . - وأضافت في همسة آمرة : - فالزم مكانك !

وابتعدت مسرعة وهي تسحب سائين من ورائها .
وصاح دونغوف في وجه الاديب فجأة :
- اذهب الى الشيطان ! لماذا تلتزق بي ؟ - كان لا بد له من وجه يصب عليه غضبه ؛ فغمغم الاديب وهو يبتعد :
- Sehr gut! Sehr gut!*

وجاء خادم ماريًا نيقولايفنا بالعربة في غمضة عين ، وكان ينتظرها في الاروقة ، فأسرعت اليها ، ووثب سائين وراءها ، ولما انصفت ابوابها انفجرت ماريًا نيقولايفنا بالضحك ، فسألها سائين :

- لماذا تضحكين ؟
- آخ ، سامحني أرجوك . . . فقد خطر ببالي : ماذا لو ان دونغوف دعاك الى مباراة جديدة . . . ولكن من أجلي ، أليس هذا عجيبا ؟

فسألها سائين :
- هل صلتك به وثيقة جدا ؟

* طيب ! طيب ! (بالالمانية)

— به ؟ بهذا الصبي ؟ انه يأتمر بأمرى فلا تقلق .
— لا شيء يقلقنى على الاطلاق .
— آخ . أعرف انك لا تقلق ، ولكن اسمع ، أتعرف ،
انك وانت على مثل هذا للطف لا بد الأترفص لى هذا الطلب
الاخير . ولا تنس اننى سأرحل بعد ثلاثة ايام الى باريز ،
وستعود أنت الى فرانكفورت . . . فمن يعرف متى نلتقى ! ؟
— ما هذا الطلب ؟

— يمكنك ولا شك ان تركب الخيل ؟

— نعم يمكننى .

— واذن سأخذك معى ، ونذهب غدا فى الصباح الباكر
الى ضاحية المدينة . سيكون لدينا خيول ممتازة ، وحينما
نعود سننتهى من القضية ثم . . . آمين ! لا تأخذك الدهشة ،
ولا تقل لى ان هذه نزوة او اننى مجنونة ، فكل هذا جائز على ،
ولكن عليك أن تقول فقط : اننى موافق !

والتفتت ماريا نيقولايفنا اليه بوجهها والظلام مطبق فى
داخل العربة ولكن عينيها كانتا تلمعان فى هذا الظلام
نفسه .

وقال سائين وهو يطلق زفرة :

— طيب موافق .

فقال تشاكسه :

— آخ ، انك تتنهد ! ولكن ما المآل : ليس يشكو

تعب البدن من يمسك بالرسن * . ولكن ، لا ، لا ، فأنت —
رجل لطيف ، طيب ، واليك يدي اليمنى من غير قفاز ،
وهي يد العمل ، فأمسك بها وصافحها فى ثقة . لست أدري
أى طرز من النساء انا ، ولكنى انسانة شريفة يمكن التعامل
معى .

لم يحسب سائين حساب ما فعل حينما رفع هذه اليد

* مثل شعبي معناه : اذا بدأت امرا فلا تتراجع عنه .

(المترجم) .

الى شفثيه ، فسحبتها ماريا نيقولايفنا في رفق ، وركنت
فجأة الى الصمت واحتفظت بصمتها حتى وقف العربى .
ثم أخذت في النزول من العربى . . . فما هذا ؟ أكان
سانين واهما ام كان على يقين من شعوره بان شيئاً حاراً
سريعاً لذعه في خده ؟

وهمست ماريا نيقولايفنا وهي على درجات السلم :
— الى الغد !

سارت مسبلة الجفنين ، يتقدمها البواب ذو الحلة
المذهبة المقصبة وهو يحمل شمعدانا تضيء فيه أربع
شمعات .

— الى الغد !

لما عاد سانين الى غرفته وجد على المائدة رسالة من
جيما ، فاعتراه الخوف لحظتها ، ولكنه عاد من فوره يصطنع
الغبطة قناعاً لهذا الخوف تجاه نفسه . كانت الرسالة تنطوي
على بضعة أسطر — فقد سرتها « البداية الطيبة » التي استهل
بها قضيته ، ونصحت له بان يتذرع بالصبر ، وقالت ان كل
من في البيت يتمتع بصحة جيدة ، وانهم جميعاً يترقبون
عودته ليبتهجوا بها . وجد سانين في هذه الرسالة ما فيها
من الجفوة — ولكنه تناول ريشة وورقة . . . وطرح كل
شيء جانبا . — « على م الكتابة ؟ ! سأعود غدا . . . فقد
آن اوان العودة ، آن ! » .

وأسرع الى الاستلقاء في سريره لعل النوم يسرع اليه ،
فلا بد ان يفكر في جيما اذا بقي ساهراً وهو على قدميه ،
وكان هذا مما . . . يخجله دون سبب واضح ، لقد استيقظ
ضميره ، ولكنه طمأن نفسه بان كل شيء سينتهي غدا الى
الابد ، وسينفصل عن هذه المرأة المغامرة الى الابد ، مقتلعا
من ذاكرته كل هذا العبث ! . . .

ان الضعفاء من الناس يستهويهم ان يستعملوا العبارات
الطنائنة حينما يتحدثون الى انفسهم .

Et pius... cela ne tire pas à consequence!*

هذا ما فكر به سائين حينما اضطلع للنوم ، اما ما فكر به في اليوم التالي لما وقفت ماريا نيقولايفنا تدق عليه الباب فى استعجال بمقبض سوطها المرجاني ، ثم لما رآها على عتبة غرفته وهي تحمل على يدها اذيال ثوب الركوب الازرق الغامق ، وتلملم شعرها الكثيف بقبعة رجالية صغيرة ، والوشاح الفوال سارح على كتفها ، وابتسامة التحدي في شفتيها وعينيها وفي قسماات وجهها كله - كل ما فكر به وقتذاك - سكت عنه التاريخ .

وصاحت بصوت ممراح :

— هل انت مستعد ؟

فوقف سائين يزرر ستروته ، ثم تناول قبعته وهو صامت . فأرسلت اليه ماريا نيقولايفنا نظرة مضيئة ، وأومات برأسها ثم أسرعته تهبط الدرج راكضة ، وقفز هو في اثرها .

كانت ثلاثة جياذ تقف في الشارع امام الباب ، احداها فرس ذهبية شقراء اصيلة ، سحنتها مكشرة جافة ، وعيناها سوداوان جاحظتان ، لها قوائم ظبي ، وجسم ضامر ، ولكنها جميلة متوقدة مثل النار - وقد أعدت لماريا نيقولايفنا . وأعد لسائين جواد ضخيم صعب المراس في لون الغراب الاسحم ، ولم يكن فيه ميزة بارزة ، وكان الجواد الثالث للسائس . قفزت ماريا نيقولايفنا الى فرسها في خفة ، فاخبطت الفرس الارض بقوائمها ، ودارت على نفسها وهي رافعة ذيلها ، وناءت بكفلها ، ولكن ماريا نيقولايفنا (وهي فارسة ماهرة !) استوقفتها في مكانها : كان ينبغي لها ان تودع بولوزوف الذي خرج الى الشرفة بطربوشه اياه الذى لا ينزعه عن رأسه وعباءته المحلولة ، ووقف يلوح بمنديل من الباتيسة ، من دون ابتسام ولو قليل ، بل

* ولكن هذا ... لا يستحق الاهتمام ! (بالفرنسية) .

وتعلك الشكائم ، وتعض الهواء ، وتنتفض متوفزة ، وتنخر ؛
وتبعها سائين وهو لا يرفع بصره عن ماريا نيقولايفنا :
كان ايقاع جسمها وهي على صهوة الفرس واثقة رشيقة
يبرز الدقة واللين فى قوامها الذي احتبسه المشد فى ضيق
ولكن فى حرية . والتفتت برأسها الى الوراء تدعوه بعينيها
فلحق بها وحاذها . وقالت :

— أرايت ما أطيب هذا . أقول لك قبل ان نفترق :
انت فاتن— ولن تندم .

كانت تهز رأسها من اعلى الى اسفل وهى تنطق بهذه
الكلمات الاخيرة كأنها ترغب فى توكيدها وفى إشعاره
كان أقرب الى العبوس . وتسلق سائين جواده ، فحيت ماريا
نيقولايفنا السيد بولوزوف بسوطها ، وساطت به الفرس
فى عنقها السوى ، فثبت على رجليها ووثبت الى الامام ،
وانطلقت بخطوات مرتاضة ، وهى ترتعش باعصابها جميعا ،
بمغزاها .

وقد ظهرت سعيدة الى حد دهش له سائين ، فقد
ارتسم فى وجهها تعبير رصين مثل الذي يحدث عند الاطفال
حينما يكونون راضين غاية الرضى .

لما بلغت خيولهم اطراف المدينة ، انطلقوا بها خيبا
على الطريق المرصوف ، وكان الجو جميلا ، كاجواء الصيف ،
والرياح تتدفق على الوجوه وتوشوش او تصفر فى الآذان على
نحو مستعذب . كانا مغتبطين ، يستأثرهما الوعى العارم
لحياة الصحة والشباب بما يبدو من حريتهما وخفة حركتهما
الى الامام ، وكان هذا الوعى يزداد نموا فى كل لحظة .

وهدأت ماريا نيقولايفنا فرسها وأرسلتها متمهلة
فحذا سائين حذوها ، وقالت وهى تزفر زفرة عميقة :

— لا شيء يستحق ان يعاش من اجله سوى هذا : ان
تنال ما تريد بعد ان كان يبدو فى المستحيل— فتمتع—
واغترف من المتع ملء ما تقدر عليه !

وأمرت بيدها على عنقها بالعرض .

— ولشد ما يعتقد المرء بطيبته حينما يشعر بهذا !
انظر . . . ما اطينني انا الآن ! حتى ليخالجني الاحساس
بانني أستطيع ان احتضن العالم ، ولكن لا ، فليس كل
العالم ! . . لا أريد ان احتضن هذا—وأشارت بسوطها الى
رجل عجوز في اسمال كان يعبر الطريق—ولكني مستعدة
لاسعاده—تناول ، خذ—صاحت بالالمانية بصوت عال وقذفت
عند قدميه بكيس مملوء بالنقود حتى آخره (لم تكن جزادين
النقود معروفة في ذلك الحين) فخطب الكيس الارض ، وتوقف
عابر السبيل مذهولا ، فقهقهت ماريا نيقولايفنا ، وانطلقت
تخب فرسها ، فسألها سانين حينما لحق بها :

— هل يبهجك الطراد على هذا النحو ؟

فأوقفت ماريا نيقولايفنا فرسها دفعة واحدة ، ولم
تتبع وسيلة اخرى في وقفها :

— أردت ان أبتعد عن كلمات الشكر ، فمن يشكرني
يعكر متعتي ، فأني لم أفعل ما فعلت من اجله بل من اجل
ننسي ، فمن اين له الحق في ان يشكرني ؟ عمّ سألتني ،
اني لم أسمع .

— سألت . . . أردت ان أعرف فيم انت على مثل هذا
الابتهاج اليوم ؟

فقالت ماريا نيقولايفنا ، وكأنها لم تسمع سؤال سانين ،
او لأنها ظنت ان سؤاله لا يحتاج الى جواب :

— هل تعرف ؟ لقد ضقت بهذا السائس الذي يلازمنا
ولا يفكر الا بالوقت الذي سيعود فيه هؤلاء السادة الى
البيت ، فكيف السبيل الى التخلص منه ؟ — وسحبت في
تعجل مفكرة من جيبها — هل أرسله في رسالة الى المدينة ؟
لا ، فان هذا لا يجدي نفعا ! آ ! اليك كيف . ما هذا المكان
الذي يواجهننا ؟ مشرب ؟

نظرسانين الى حيث أشارت .

— نعم ، يبدو انه مشرب .

— عظيم ، سآمره اذن بآن يتخلف في هذا المشرب
ويحتسى البيرة حتى نعود .

— ولكن ما تراه سيفكر ؟

— وماذا يهمنا من هذا ؟ انه لن يفكر ، بل سيشرب
ببرته ليس غير . هيا بنا يا سانين (كانت المرة الاولى التي
تناديه فيها بكنيته المجردة) خبنا الى الامام !

لما وصلا الى المشرب دعت ماريا نيقولايفنا السائس
اليها ، وأعلنته بما ينبغي عليه ، وكان السائس انكليزيا
بأصله وعاداته ، فرفع يده بالتحية الى طرف قبعته وهو
صامت ، وترجل عن جواده ، وسحبه من مقوده .

وقالت ماريا نيقولايفنا :

— اننا طليقان الآن مثل الطير ، فأين نذهب ؟ اشمالا
ام جنوبا ام شرقا ام غربا ؟ انظر ، ألا ترانى مثل ملك مجرى
في يوم تتويجه (وأشارت بطرف سوطها الى جهات الدنيا
الاربع) انها جميعا لنا ! لا ! أتعرف : هل ترى اي جبل
بديع هناك واي غابة ! هيا نذهب الى هناك ! ونجوس خلال
الجبال !

In die Berge, wo die Freiheit thront!*

انحرفت بفرسها عن الطريق المعبد ، وأخبتّه في درب
ضيق غير مطروق كان يبدو كأنه يقود الى الجبل ، وانطلق
سانين في اثرها .

٤٢

أفضى هذا الدرب بعد قليل الى طريق تسلكه السابلة ،
وانتهى اخيرا الى خندق يقطعه بالعرض ، فأشار سانين
بالعودة ، ولكن ماريا نيقولايفنا قالت : « لا ، بل اريد
التصعيد في الجبل ، ولنمض قدما كما تطير الطير » . — وحشت
فرسها على اجتياز الخندق ، وكذلك اجتازه سانين ، وكان
فيما يلي الخندق مرج ، بدأ جافا ، ثم اصبح رطبا ، وما زال حتى

* الى الجبال حيث الحرية تبسط سلطانها ! (بالالمانية) .

صار الى مستنقعات ، كان الماء يرشح فيؤلف واحات شتى ،
وقد تعمدت ماريا نيقولايفنا ان تغوص بفرسها في هذه
الواح ، وهي لا تفتأ تطلق القهقهات ، وتكرر في الحاح :
« هيا تنزعرن كالتلاميذ ! » ، ثم سألت سانين :

— أتعرف ماذا يعني الصيد في العشب المبلول ؟

فأجاب سانين :

— أعرف .

فتابعت كلامها :

— كان لي عم يصطاد بالكلاب ، وكنت أركب معه في فصل
الربيع ، يا للروعة ! وها نحن اولاء معك الآن — خلال الاعشاب
المبلولة . ولكن يخطر ببالي : انك روسي وتريد الزواج من
إيطالية . تلك هي مشغلتك اذن . ما هذا ؟ أخندق آخر ؟
هوب !

فقفزت الفرس واجتازت ، ولكن القبعة سقطت عن رأس
ماريا نيقولايفنا وتبعثرت خصل شعرها على كتفيها ، فلما
هم سانين بان يترجل عن صهوة جواده ليرفع القبعة ،
صاحت به : « لا تلمسها ، فسألتقطها انا بالذات » ، وانحنت
من سرجها ، وأخذت القبعة بمقبض سوطها من اذيال الفوال ،
ورفعتها ، ثم وضعتها على رأسها ولكنها لم تلملم شعرها
المبعثر ، وانطلقت بفرسها من جديد وهي تطلق صيحاتها ،
وأسرع سانين يخب بجواده الى جنبها ، والى جنبها كذلك
راح يقفز الحفر والحواجز والسواقي ، ويتسلق الجبل ،
ويطير مسرعا في السفوح وفي شعاب الجبل ، ولا يرفع بصره
عن وجهها اثناء ذلك كله . ويالهدا الوجه ! كان يبدو كأنه
مفتوح على رحبه : فعيناها المنهومتان المضيئتان الوحشيتان
مفتوحتان ، وشفثاها مفتوحتان ، وانفها مفتوح تعب به
الهواء في نهم ، وهي تنظر ابدا الى الامام ، فكأنها تريد ان
تمتلك كل ما تراه : الارض والسماء والشمس والهواء نفسه ،
ولم تكن آسفة الا على امر واحد ، وهو ان مخاطر الرحلة
كانت قليلة ، وانها قادرة على ان تذللها جميعا ! وصاحت :

«سانين ، ألا يشبه هذا ما حدث في قصة لينورا * لبرغر !
والفارق الوحيد انك غير ميت - آ ؟ غير ميت ؟ . . . وانا
على قيد الحياة !» كانت قواها العارمة تضطرم فيها ، ولم
تعد فارسة تنطلق بجوادها في طراد ، بل صبية من بنات
الاساطير - نصفها وحش ونصفها آله - وكانت هذه الانحاء
الرزينة المؤدبة مدهوشة من هذه العريضة الجامعة التي
استباححت حرمتها !

ثم كبحت ماريما نيقولايفنا جماح فرسها المزبدة
المعفرة ، فأخذت الفرس تتمايل تحتها ، اما حصان سانين
الضخم الثقيل ، فكان يلهث بشدة ، وسألت ماريما نيقولايفنا
في همسة ذاهلة :

- كيف ؟ أليس هذا رائعا ؟

فأجاب سانين في حفاوة ، ودمه يغلي في عروقه :

- رائع !

- عليك ان تنتظر اذن ، فإن الخافي اعظم !

ومدت يدها ، وكان قفاؤها ممزقا .

- قلت اني سأذهب بك الى الغابة فالجبال

هي ذي الجبال !

والواقع ان الاشجار العالية كانت على مبعدة منتي خطوة

من المكان الذي كانا يطيران في انحائه .

- انظر ، هذا هو الطريق - سنتوقف قليلا ، ثم نمضي

الى الامام . ولكن على رسلنا ، فلا بد ان نترك للجوادين

فرصة للراحة .

ثم استأنفا السير ، ورفعت ماريما نيقولايفنا شعرها الى

الوراء بحركة قوية ، ونظرت في قفازيها ، ثم نزعتهما :

- ستفوح من يدي رائحة الجلد ، ولكن لا بأس عليك

من هذا ، آ ؟

* «لينورا» - قصة غنائية كتبها الشاعر الالمانى اوغوست

برغر (١٧٤٧-١٧٩٤) .

ابتمتت ماريا نيقولايفنا ، وابتسم سانين كذلك . فكأن
هذا الطراد المسعور قد ختم علاقتهما بالقربى والصداقة .
وسألته فجأة :

— كم عمرك ؟

— اثنتان وعشرون سنة .

— أيمكن هذا ؟ انا في الثانية والعشرين ايضا . انها
لسن طيبة ، ولو جمعنا مقدار عمرك وعمري معا لبقيت
الشيخوخة بعيدة . ما أشد هذا القيظ . هل انا محمّرة ؟

— نعم ، مثل لون الاقحوان !

جفت ماريا نيقولايفنا وجهها بمنديل .

— حسبنا ان نبلغ الغابة ، فهناك سيكون الجو لطيفا .
هذه الغابة القديمة كانها صديق قديم . هل لك اصدقاء ؟

فكر سانين قليلا

— نعم ، ولكنهم قلة ، وليس لي اصدقاء حقيقيون .

— اما انا فلي اصدقاء حقيقيون ، ولكنهم ليسوا قدماء ،

وهذا الجواد صديق ايضا ، فانه يحملنا بحرص وترفق .

آخ ، ما أروع هذه البقعة ! هل صحيح اني سأرحل بعد غد

الى باريز ؟

فكر سانين قائلا :

— نعم . . . هل صحيح ؟

— وانت ، أفترحل الى فرانكفورت ؟

— انا ؟ من دون شك ، راحل الى فرانكفورت .

— ليكن ، فالله معك ! ولكن هذا اليوم لنا . . . لنا . . .

لنا !

بلغ الجوادان اطراف الغابة ثم ذهبا فيها وظلالها الوارفة
العريضة تظلهما وتحنو عليهما من كل ناحية . وصاحت ماريا
نيقولايفنا :

— أوه . هنا ارض الجنة ! فلنوغل يا سانين في أكناف

هذه الظلال .

سار الجوادان في هدوء « يتوغلان في الظلال » وهما يخبان وينخران قليلا ، وما لبث الطريق ان التف فجأة بهما ممتدا نحو شعب ضيق لا يكاد يسمح بالمرور ، وانبعثت رائحة كشيعة آسنة يمتزج فيها عبير البابونج والخطمية وشمغ الصنوبر بعفونة الاوراق الرطبة القديمة ، وهبت من شقوق صخرة ضخمة قائمة رطوبة شديدة ، وارتفعت التلال المستديرة على جانب الطريق المكسو بالطحالب الخضراء . وصاحت ماريا نيقولايفنا :

— توقف ! فاني أريد ان استريح بالجلوس قليلا على هذا المخمل . ساعدني في النزول .
فترجل سانين عن جواده وأسرع اليها ، فاعتمدت على كتفه ووثبت الى الارض في لمحة ، ثم جلست على احدى التلال المكسوة بالطحالب ، ووقف هو ازاءها ممسكا بمقودي الجوادين .

رفعت اليه عينيها

— سانين ، أتستطيع ان تنسى ؟

فخطر ببال سانين ما كان في العربة . . . امس . . .

— أهذا سؤال ام عتاب ؟

— انا لم أعاتب احدا في شيء ، ولكن هل تؤمن بقوة

السحر * ؟

— كيف ؟

— بالسحر ؛ ألا تعرف بماذا يتغنون عندنا في الاغاني

الروسية الشعبية ؟

فقال سانين وهو يمد في نطق الحروف :

— آ ، عن هذا تتكلمين اذن .

— نعم ، عن هذا ، فأنتني أؤمن به . . . وستؤمن به انت .

فكرر سانين :

— السحر . . . كل شيء ممكن في العالم . لم أكن أؤمن

* المقصود هنا اجتذاب المحبوب باعمال السحر . (المترجم) .

بذلك من قبل ، ولكني أؤمن به الآن ، فقد أصبحت لا أعرف نفسي .

وسرحت ماريا نيقولايفنا مع افكارها ثم التفتت الى وراء :

— يخيل اليّ انني أعرف هذه البقعة ، انظر يا سانين ألا يرتفع وراء هذه البلوطة العريضة صليب احمر من الخشب ؟

سار سانين بضع خطوات في كل ناحية .

— نعم ، يرتفع .

فابتسمت ماريا نيقولايفنا .

— آ ، طيب فانا أعرف اين نحن ، لما نضل طريقنا بعد .
ما هذا الطّرق ؟ أهناك حطاب ؟

نظر سانين في الدغل الكثيف .

— نعم . . . هناك رجل يقلّم الفروع اليابسة .

فقالت ماريا نيقولايفنا :

— يجب ان أرتب شعري ، فلا يتهمني اذا رأي . . .
وحسرت قبعتها عن رأسها ، أخذت ترتب شعرها الطويل وقد ران عليها صمت وقور . وكان سانين يقف قدامها ، واعضاؤها المتناسقة ترتسم واضحة من خلال ثنيات ثوبها الغامق الذي اعتلقت بعض اجزائه الياف الطحالب .

وانتفض احد الجوادين على حين غرة من خلف سانين . . .
فاذا الرعشة تسرى فيه من رأسه الى قدميه ، واختلط في ذهنه كل شيء ، وتوترت اعصابه مثل الوتر ؛ لم يكن عبثا قوله انه أصبح لا يعرف نفسه . . . فقد كان مسحورا بالفعل . كل وجوده كان ممتلئا بأمر واحد . . . بفكرة واحدة ، برغبة واحدة . وأرسلت اليه ماريا نيقولايفنا نظرة فاحصة ، ثم قالت وهي تلبس قبعتها :

— واذن . كل شيء على ما ينبغي الآن — ألا تريد ان تجلس ؟ ها هنا ! لا ، بل انتظر لا تجلس ! فما هذا ؟

ترددت في اعالي الاشجار وفي رحاب الغابة هزة صماء .
— أليس هذا رعدا ؟
فأجاب سائين :
— يبدو ان هذا رعد .
— آخ ، انه لعيد ! عيد حقيقي ! لم يكن ينقصه الا
هذا !

وعاد الهدير الأصم يدوي مرة ثانية ، وارتفع الى اعلى
ثم انقض منفجرا قاصفا .
— برافو ! Bis! تذكر انني حدثتك عن الأنيادة
امس ! فانها قد رضخا ايضا لعاصفة في غابة . — ولكن لا
بد لنا ان نتزحزح .
وهبت واقفة على قدميها .
— قرب الفرس مني . . . وهي راحة يدك ، نعم كذلك ،
فما انا بالعبء الثقيل .
وقفزت مثل الطائر وحطت على السرج ، وامتطى سائين
ايضا سهوة الجواد ، ثم سألها بصوت غير واثق :
— أعودين الى المنزل ؟
فقالت تمط الكلمات :
— الى المنزل ؟؟
ولملمت بيديها لجام الفرس ، وقالت له بلهجة آمرة
لا تخلو من خشونة :
— اتبعني .

مضت بجوادها في الطريق ، فجازت بالصليب الخشبي
الاحمر ، وانحدرت في السفح حتى بلغت المفترق ، فانعطفت
الى اليمين نحو الجبل مرة ثانية . . . كانت فيما يبدو تعرف
الى اين يفضي هذا الطريق — وغاص هذا الطريق في جوف
الغابة ومضى يتعمق فيها ، وهي لا تنطق بكلمة ، ولا تلقي
بنظرة ، بل كانت مندفعة الى الامام في اعتداد الأمر وهو في
اثرها طائع مذعن ، لا ينقدح من قلبه المتجمد ولو شرارة من
الارادة . وبدأ المطر يرش ، فاستحثت فرسها ، ولم يتلکأ

هو بل كان الحافر على الحافر . واخيرا برز من خلال الخضرة
المظلمة ، من بين أغصان شجرة شوح ، فوق طنّف صخرة
رمادية ، كوخ حقير للحراسة له باب واطى في حائطه
المضفور من القش ؛ فدفعت ماريا نيقولايفنا فرسها يشق
الطريق بين الاغصان المتواشجة ، ثم ترجلت عنه ، فاذا هي
فجأة امام باب الكوخ ، فاستدارت عائدة الى سائين ، وهمست
اليه :

— أنياذ ؟

بعد اربع ساعات عادت ماريا نيقولايفنا وسائين ومعهما
السائس يهوم على سرج الجواد الى الفندق في فيسبادن ،
فاستقبل السيد بولوزوف حرمة وفي يده الرسالة التي كتبها
الى الوكيل . لما أرسل اليها نظرتة الفاحصة عبر وجهه عن
شيء من الزعل ، بل لقد غمغم ايضا :

— هل تراني خسرت الرهان ؟

فهزت ماريا نيقولايفنا كتفيها وليس غير .

في اليوم نفسه ، بعد انقضاء ساعتين ، كان سائين
يقف امامها في غرفته وهو مثل الضائع الهالك . . .
فسألته :

— الى اين سترحل ؟ ألى باريس ام الى فرانكفورت ؟

فاجاب في قنوط :

— انا ذاهب الى حيث تذهبين ، وما لم تنبذيني فسأبقى

معك .

وارتمى على يدي مولاته ، فحررت يديها ووضعتهما على
رأسه ، واستجمعت شعره بأصابعها العشر ، وأخذت تعبت
بهذه الخصل الطيعة في بطء وتخوتها . . . وقد انتصبت
كلها جملة ، وتافعى الابتهاج في شفيتها ، وعشمت عيناها

الواسعتان فليس فيهما سوى معنى اوحده يعبر عن غباء
النسوة وشبه الانتصار . وللباشق مثل هاتين العينين
وهو ينشب مخالفه في طائر .

٤٣

هذا ما تذكره ديميتري سائين في غرفته الهادئة لما وجد
الصليب العتيق الاحمر وهو يقلب في اوراقه القديمة . كل ما
رويناه من الاحداث كان يتتابع واضحا جليا امام بصيرته . . .
ولكنه لما بلغ تلك الدقيقة التي أخذ يتحدث فيها الى السيدة
بولوزوفا في ابتهال مهين وهو راعع عند قدميها حيث بدأت
عبوديته - أشاح عن تلك الذكريات التي ابتعثها لأنه لم يشأ
ان يستزيد منها . ان ذاكرته لم تخنه - لا ! فقد كان يعرف ،
ولم يغب عنه شيء مما حدث في اعقاب تلك الدقيقة ، ولكن
العار يختنقه حتى بعد انقضاء هذه السنوات الطويلة . فكان
يخشى هذا الشعور الطاغي من احتقار النفس ، ولا يشك في
ان هذا الشعور لا بد ان ينصب عليه كالموجة فيغمره
ويغرقه ويمحو كل ما عداه من المشاعر اذا لم يزر ذكرياته
ويأمرها بالصمت . ولكنه كلما حاول التخلص من شعوره هذا
وجد نفسه عاجزا عن كبت هذه الذكريات . فقد تذكر تلك
الرسالة المهينة الدامعة الحقيرة التي أرسلها الى جيما .
وبقيت خطابا من غير جواب . . . اما الذهاب اليها بعد هذا
الكذب ، والعودة اليها بعد هذه الخيانة - فلا ! لا ! فما تزال
فيه بقية باقية من الضمير والشرف . ثم انه لم يجرؤ على
التكفل بشيء بعد ان فقد ثقته بنفسه واحترامه لها . وتذكر
سائين ايضا - ويا للعار! - كيف أرسل خادم بولوزوف بعدئذ
ليعود اليه بشيابه من فرانكفورت ، وكيف جبن فلم يفكر الا بأمر
واحد ، وهو الرحيل بسرعة الى باريز . . . الى باريز ؛ وكيف
أخذ يتودد الى ايبوليت سيدوريتش بناء على امر ماريما
نيقولاييفنا ، ويجامل دونغوف الذي كان في اصبعه خاتم

حديدي لا يختلف عن الخاتم الذي أعطته اياه ماريـا
نيقولاييفنا !!! ! ثم تدفقت عليه الذكريات وهي أحفل
بالسوء وأدعى الى العار . فتذكر بطاقة الزيارة التي حملها
اليه الخادم وعليها اسم بانتاليوني تشيباتولا مغني بلاط
صاحب السمو دوق مودينا ! لقد راغ عن الشيخ وقتئذ ،
ولكنه لم يجد محيصا عنه لما التقاه في الممر . كان يقف ،
أمامه بوجهه الغاضب تحت غرته الشائبة المرفوعة الى اعلى ،
وعيناه اللتان اذبلتهما الشيوخة تتوهجان مثل الجمر ،
وهو يصب في سمعه صرخاته الهادرة باللعنات *Maledizione!
بل لقد أسمعه مثل هذه الكلمات الرهيبة : Codardo!
أغمض سانين عينييه ، ونفض **Infame traditore!
رأسه يذود عن خاطره هذه الذكريات واحدة بعد واحدة ،
ومع هذا فقد تذكر تلك الجلسة التي انحسك بها في موضع
ضيق من المقعد الامامي . . . وفي الصدر ، حيث الموضع
المريح ، جلست ماريـا نيقولاييفنا وايبوليت سيدوريتش –
والجياذ الاربعة تنطلق خبا في سرعة ويسر الى باريز ، الى
باريز ! وايبوليت سيدوريتش يأكل أجاصة قشرها له هو ،
سانين ، اما ماريـا نيقولاييفنا فكانت تنظر اليه ، وتبتسم
ساخرة منه ، من الرجل المستعبد الذي ألف هذه الابتسامة
من مالكته المسيطرة عليه . . .

ولكن يا آلهى ! من كان هناك عند زاوية الطريق في
موضع غير بعيد عن نهاية المدينة – أليس هذا بانتاليوني ؟
ومن هذا الذي معه ؟ أيكون ايميليو ؟ نعم انه هو ، هذا
الفتى الذي يفيض بالحماسة والاخلاص ! وكان قلبه حتى
وقت قريب يفيض بالاجلال تجاه بطله المفضل ومثله الاعلى – اما
الآن فان هذا الوجه الشاحب الجميل الذي استلقت جماله عيني
ماريا نيقولاييفنا وحملها على ان تمد رأسها من نافذة العربة –

* ايها الملعون ! (بالايطالية) .

** جبان ! غدار دني ! (بالايطالية) .

كان هذا الوجه النبيل يشتعل غيظا واحتقارا ، وكانت عيناه الشبيهتان **بتلك العيون** ! - تشزران سانين ، وشفتاه تنطبقان على غيظ . . . ثم انفرجتا فجأة على ما يكره من القول . . !

اما بانتاليوني فقد مدّ يده يشير الى سانين ، فمن راح يلفت بهذه الاشارة ؟ الكلب البوديل تارتاليا الذي كان واقفا الى جانبه ، فانطلق تارتاليا ينبح سانين - وحتى هذا النباح الذي اطلقه الكلب الامين كان يرن مثل اهانة لا تحتمل . . . فظاعة !

ثم - الحياة في باريـز حيث لقي من صنوف الاذلال والتحقير ما يلقاه العبد الذليل الذي لا يسمح له بأن يغار ولا بأن يندم ، على ان يرمى في النهاية كما الثوب الرث .
ثم العودة الى الوطن ، والحياة الموبوءة الفارغة ، والمتاعب الغثة ، والمشاعل التافهة ، والندم المر الذي لا جدوى فيه ، والنسيان المر الذي لا جدوى فيه ايضا ، كان كل هذا عقابا غير بين ، ولكنه قائم دائم في كل لحظة ، فكانه داء ضئيل الوزن والخطر ولكنه داء عضال لا يرجى له شفاء . وكان هذا جميعا سدادا بالكوبيك بعد الكوبيك لمقدار من الدين لا يعد ولا يحصر . . .

لقد امتلأت الكأس بما كفى وزاد !

ولكن كيف سلم هذا الصليب الذي أعطيه سانين من جيما ، وعلام لم يرده اليها ، ولماذا لم يصادفه ولو مرة قبل اليوم ؟ لقد جلس يفكر ، واستغرقه التفكير وقتا طويلا ، فكان يستغلق عليه هو ، الذي علمته الحياة والسنون العديدة ، ان يفسر كيف استطاع ان يهجر جيما التي أحبها في قوة ورقة من اجل امرأة لم يحبها على الاطلاق ؟ . . في اليوم التالي أدهش أصدقاءه ومعارفه جميعا حين أعلنهم انه راحل الى الخارج .

وساد الذهول في المجتمع لما شاع ان سائين غادر بطرسبورغ خلال بياض الشتاء ، وقد حدث هذا بعد ان استأجر منزلا وفرشه بأثاث رائع ، واحتجز مكانا لموسم الاوبرا الايطالية الذي تسهم فيه السيدة باتي بالذات - نعم السيدة باتي نفسها بالذات وليس غيرها ! لقد ذهل الاصدقاء والمعارف ، ولكن الناس اكثرهم ليس من طبعهم ان يشغلوا بالهم وقتا طويلا بما لا يعنيههم من شؤون الغير ، فلما كان سائين بسبيله الى السفر لم يجئه من المودعين الى محطة القطار سوى خياط ملابسه ، وهو فرنسي ، ولم يجيء هذا الا آملا في الحصول على المتبقي من اجرتة - «pour un saute-eu-barque eu velours noir, tout à fait chic»*

٤٤

قال سائين لأصدقائه إنه مسافر الى الخارج ، ولكنه لم ينبئهم بوجهة سفره على التحديد ، وقد حزر القراء في يسر انه سافر قاصدا فرانكفورت ، وبفضل انتشار السكك الحديدية في كل مكان وصل اليها في اليوم الرابع لارتحاله عن بطرسبورغ ، ولم يكن قد زارها منذ سنة ١٨٤٠ . وجد فندق «البجعة البيضاء» ما يزال في موضعه القديم ، عامرا بالحركة ، ولكنه لم يعد من فنادق الدرجة الاولى ، وشارع فرانكفورت الرئيسي «تسييل» تغير قليلا ، اما الموضع الذي كانت فيه دار السيدة روزيللي ، وكل الشارع الذي كان فيه دكان الحلويات فقد زال ولم يبق له اثر . ذهب سائين يتمشى في الشارع وهو ذاهل ، فالاماكن المعروفة في حينها لم يعرف منها شيئا : زالت الابنية القديمة ،

* «عن سترة بحرية من المخمل الاسود على آخر طرز» -
(بالفرنسية) .

واستقامت شوارع جديدة ، وقامت في هذه الشوارع بنايات ضخمة لا نهاية لها ، ودارات بديعة ، بل حتى الحديقة العامة التي شهدت تجاوى المكاشفة بينه وبين جيما ، نمت اشجارها كثيرا ، وتغيرت تغيرا حادا سائين الى مساءلة نفسه - هل هذه الحديقة هي تلك ؟ فماذا كان عليه أن يفعل ؟ كيف يستخبر وأين ؟ ثلاثون سنة مضت حتى الآن . . فليست المهمة يسيرة ! كل الذين استعلمهم لم يكن فيهم حتى من سمع باسم روزيلي . ثم أشار عليه صاحب الفندق بان يراجع المكتبة العامة في الامر : فقد يعثر هناك على كل الجرائد القديمة ، اما الفائدة التي سيجنيها من هذا ، فان صاحب الفندق لم يستطع ان يأتي بأيضاح عنها . واضطر سائين وهو في بحران القنوط ان يسأل عن انباء السيد كلوبير ، فكان صاحب الفندق يعرف هذا الاسم كل المعرفة ، وهنا موضع الخيبة ، فان التاجر الانيق الرشيق تبجح وترحرح حتى صار من اصحاب رؤوس المال - ولكنه خسر وأفلس - ومات في السجن . . . وقد سمع سائين هذه الانباء دون ان تتحرك فيه نامة من الأسى . ثم انتهى الى ان رحلته كانت بعيدة عن الأناة . . . ولكن المصادفة أوقعته وهو يقرب ذات مرة في دليل فرانكفورت على اسم المقدم المتقاعد فون دونغوف (Major v.D.) ، فقام من فوره يقصد اليه في عربة - اما لماذا اقتضى ان يكون دونغوف **هنا** هو دونغوف **ذاك** ، او لماذا وجب ان يفيده **ذاك** الدونغوف بشيء من المعلومات عن أسرة روزيلي ؟ فالامر عنده سواء ، والغريق يتعلق بقشة .

وجد سائين المقدم المتقاعد فون دونغوف بيته حيث استقبله سيد أشيب عرف فيه من فوره خصمه القديم ، وعرفه هذا ايضا ، فكان مغتبطا بهذا اللقاء : فقد ذكره بعهد الشباب ومجون الشباب . وسمع سائين منه ان أسرة روزيلي رحلت الى اميركا منذ زمن بعيد وسكنت نيويورك ، وان جيما تزوجت من تاجر ، ولكن دونغوف له صديق من

رجال الاعمال يعرف عنوان زوجها لأنه على علاقات واسعة
بأميركا - فرجا سانين الى دونغوف ان يذهب الى هذا الرجل
الذي يعرفه ، ثم - ويا للسعادة ! فقد عاد دونغوف يحمل
اليه عنوان زوجها وهو : السيد جيروم سلوكوم
M-r J.Slocum, New-York, Broadway, N°501 ، - ولكن
هذا العنوان يعود تاريخه الى سنة ١٨٦٣ .
وهتف دونغوف :

- سبق على امل في ان حسناءنا الفرانكفورتية السابقة
لا تزال تتمتع بالحياة ، ولم ترحل عن نيويورك ! وبهذه
المناسبة - غمغم قائلا بصوت خافت - ما حال تلك السيدة
الروسية ، هل تذكر ، كانت وقتذاك تزيلة فيسبادن - السيدة
فون بو . . . فون بوزولوف - ألا تزال حية ؟
أجاب سائين :

- لا ، فقد ماتت منذ وقت بعيد .
رفع دونغوف عينيه - ولما لا حظ ان سانين يستدير .
بوجهه عابسا - ابتعد دون ان يزيد كلمة .

أرسل سانين في اليوم نفسه رسالة الى السيدة جيما
سلوكوم * في نيويورك ، وقال في هذه الرسالة انه يكتب اليها
من فرانكفورت حيث جاء ليستقصي آثارها فقط ، وهو
يعلم كل العلم انه محروم من اي حق يستأديها جوابا على
رسالته ، فانه لم يفعل شيئا يستحق من أجله غفرائها -
ولكنه يرجو ان تكون في حال من السعادة أنسيت خلالها
وجوده منذ وقت بعيد . وأضاف انه اعتزم ان يذكرها
بنفسه اثر مناسبة عرضت له فأيقظت فيه صورة من الماضي
فياضة بالحياة ، وحدثها بحديث حياته التي أقفرت من
الانيس والعشير والزوج والسعادة ، وناشدها ان تقدر الدافع

* السيد جيروم سلوكوم ، نيويورك ، بروداى ، رقم ٥٠١
(بالانكليزية) .

الذي دفعه الى هذا الخطاب ، وان لا تدعه مثقلا بذنبه حتى
يحمل الى مشواه الاخير - وهو ذنب على تقادم عهده لم
يغفر ، وان تسر خاطره ولو بقبس من البشرى عن حياتها
في هذه الدنيا الجديدة التي هاجرت اليها . وختم رسالته
قائلا : « لئن كتبت ولو كلمة واحدة ، فان صنيعك الطيب
سيكون جديرا بروحك النبيلة ، وسأذكره لك بالامتنان حتى
النفس الاخير . سأترث هنا في فندق « البجعة البيضاء »
(أكد هذه العبارة بوضع خط تحتها) وسأبقى حتى الربيع
منتظرا جوابك » .

بعث بهذه الرسالة ومكث على انتظار . أقام في الفندق
سنة اسابيع يكاد لا يبرح غرفته ، لم يقابل احدا على
الاطلاق ، وليس في مقدرة احد ان يكتب اليه لا من روسيا
ولا من غيرها ، وقد صادف هذا هوى في نفسه ، فان اي
رسالة ترد اليه ستكون اشعارا له بأنها الرسالة المنتظرة .
كان يقرأ من الصباح حتى المساء ، ولم يقرأ الجرائد ، بل
أكب على المطالعة الرصينة في كتب الابحاث التاريخية ،
وكان هذا الانقطاع الى القراءة ، والاتقطاع عن الناس ،
والانطواء في هذه الحياة المغلقة مما يلائم حالته النفسية ،
والفضل في هذا يعرد كله الى جيما ! ولكن أتراها لا تزال
على قيد الحياة ؟ أتراها ستبعث بجواب ؟

وجاء الجواب في نهاية المطاف الى اسمه من نيويورك
وعليه طابع بريد اميركي ، وكان خط العنوان انكليزيا . . .
فلم يعرفه ، واغتم قلبه ، فتلبث لا يفيض الرسالة دفعة
واحدة ، ثم رأى الى التوقيع : جيما ! فطفرت الدموع من
عينيه : كان توقيعها بالاسم من دون اللقب دليلا على انه
ضمن التسامح والمغفرة ! ونشر ورقة رقيقة زرقاء من
اوراق الرسائل البريدية ، فانزلت منها صورة فوتوغرافية ،
ويالذهوله حينما أسرع يتناولها فاذا : جيما ، جيما بملء
حياتها وشبابها كما عرفها قبل ثلاثين سنة ، بعينيها ،
وشفتيها ، وقسمات وجهها ! وعلى ظهر الصورة هذه الكلمة :

«ابنتي ماريانا» . وكانت الرسالة جميعا في غاية الرقة والبساطة . شكرت جيما لسانين انه لم يتردد في الكتابة اليها ، واته محضها الثقة ، ولم تخف عليه انها عاشت بعد ارتحاله لحظات قاسية ، وأضافت الى هذا انها اعتقدت ولا تزال على هذا الاعتقاد - بأن لقاءها به كان سبيلها الى السعادة - فان هذا اللقاء حال دون زواجها من السيد كلوير ، وعلى ذلك كان سببا ، ولو غير مباشر ، للاقتران بزوجها الحالي الذي لا تزال تعيش معه منذ ثماني وعشرين سنة حياة لا شك انها سعيدة رغيدة موفورة ، وان بيتها معروف في نيويورك كافة .

وأبأت جيما سانين بأن اولادها خمسة ، بينهم اربعة ابناء ، والبنت في الثامنة عشرة من عمرها ، مخطوبة ، وهي صاحبة الصورة ، التي ترسلها اليه - لأنها على ما يقال كثيرة الشبه بأمها . اما الانباء المحزنة فان جيما أمسكت عنها حتى نهاية الرسالة . فقد ماتت فراو لينوري في نيويورك حيث لحقت بابنتها وصهرها - ولكنها عاشت حتى سعدت بالاولاد ودلت الاحفاد ، وكان بانتاليوني يتيها ايضا للانتقال الى اميركا ، ولكنه مات قبل ان يغادر فرانكفورت . « اما ايميليو ، حبيبنا ايميليو الوحيد الفريد ، فقد استشهد في صقلية حيث التحق بفصائل «الألوف» التي قادها غاريبالدي ، وكان موته المجيد في سبيل حرية الوطن . لقد بكينا الشقيق الغالي بالدمع السخين ، ولكننا مع فجيعتنا بفقده ، كنا فخورين به ، وسنبقى به فخورين نقدر ذكراه على مدى الحياة ! فان روحه الابية النزيهة لجديرة بهالة الشهداء ! » . ثم عبرت جيما عن أسفها لما يبدو من التعاسة التي آلت اليها حياة سانين ، وتمنت له الاستقرار وهدوء النفس قبل كل شيء ، وقالت ان لقاءه من دواعي غببتها على الرغم من علمها ان الرجاء في تحقيق مثل هذا اللقاء ضعيف . . .

ولن نقدم على وصف الشعور الذي امتحن به سانين اثناء قراءته هذه الرسالة ، فليس لمثل هذا الشعور ما يلائمه

من التعبير : انه بعمقه وقوته أخفى على كل تعبير ،
والموسيقا وحدها هي التي تستطيع ان تعبر عنه .
أجاب سائبين من فوره - وكانت الهدية التي أرسلها باسم
« صديق مجهول » الى الصبية المخطوبة « ماريانا سلوكوم »
صليبا من العقيق الاحمر مطعما باللايء الشمينة الباهرة ، ولم
تبهظه هذه الهدية على الرغم من ثمنها الباهظ فقد استطاع
في بحر السنوات الثلاثين التي تعاقبت بعد سيرته الاولى
في فرانكفورت ان يجني ثروة لا بأس بها . وفي شهر مايو
عاد الى بطرسبورغ - وقد لا يكون لوقت طويل ، فقد شاع
وذاع انه يبيع ضياعه جميعا ليرحل الى اميركا .

بادن - بادن سنة ١٨٧١ .

تصويب

١- يبدأ الفصل ٤١ بعد الجملة الفرنسية في اول الصفحة رقم ٣١٢ . ونرجو قراءة هذه الجملة كما يلي :
Et puis... cela ne tire pas à conséquence !

٢- يرتب النصف الاعلى من الصفحة رقم ٣١٣ على النحو التالى :

كان اقرب الى العبوس . وتسلق سانين جواده ،
فحيث ماريا نيقولايفنا السيد بولوزوف بسوطها ،
وساطت به الفرس فى عنقها السوى ، فثبتت على رجليها
ووثبت الى الامام ، وانطلقت بخطوات مرتاضة ، وهي
ترتعش باعصابها جميعا وتعلك الشكائم ، وتعض
الهواء وتنتفض متوفزة ، وتنخر ؛ وتبعها سانين
وهو لا يرفع بصره عن ماريا نيقولايفنا : كان ايقاع
جسمها وهي على صهوة الفرس واثقة رشيقة يبرز الدقة
واللين فى قوامها الذى احتبسه المشد فى ضيق ولكن
فى حرية . والتفتت برأسها الى الوراء تدعوه بعينيها
فلحق بها وحازاها . وقالت :

- أرايت ما اطيب هذا . أقول لك قبل ان نفترق :
انت فاتن - ولن تندم .

كانت تهز رأسها من اعلى الى اسفل وهي تنطق بهذه
الكلمات الاخيرة كأنها ترغب فى توكيدها وفى إشعاره
بمغزاها .

محتويات

آسية	٣
الحب الاول	٦٧
فيوض الربيع	١٥١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا
تفضلتم وابدیتم لها ملاحظاتكم حول
موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ،
وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
والعنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١
موسكو - الاتحاد السوفييتى

مؤلف هذا الكتاب نسيح وحده في الحديث عن الحب . وفي هذه الصفحات ، صور أسرة لهذه العاطفة ، في صفاتها وكدرها ، ورقتها وجموحها ، واطمئنانها وقلقها ، صاغها تورغينيف بأسلوبه الفذ الذي يمتاز بالعدوبة والطلاقة ويفيض بالشاعرية .

والحب الذي تروي اخباره واطواره هذه القصص الثلاث: «آسية» و «الجب الاول» و «فيوض الربيع» ليس حكاية لطيفة ظريفة تزجى للتسلية والامتع ، وانما هو عاطفة تستأثر بابطال تورغينيف وتملك عليهم الباهم ، ان لم تعصف بهصائرهم في كل الاحوال ، فانها ملكت القدرة على التأثير فيهم زمنا طويلا قد يمتد طوال الحياة . فالحب عند تورغينيف ليس منحة مباركة يحملها القدر الى المحبين في باقة من الازهار ، وانما هو امتحان عسير ، تمتحن فيه قدرة الانسان على ان يكون انسانا . . .

**** معرفتي ****

www.books4all.net

منتديات سور الأزبكية